هذا الكتاب

يُمثّل جرجي زيدان مَدرسَةً مُستقلة مُتميّزَة في أبحاثه التاريخيّة وَالأدبيّة وَفي ترجماتِهِ لأعلام المجتمعات .

وَهُوَ أبى في كُل مَا كَتب ، إلاَّ أنْ يَكُون : مَوسُوعي النّزعَة ، عَالميّ الاتجَاه ، إنسانيّ المشَاعِر .

وَفي كُتبه جَميعاً نَجدُهُ دَائماً يَميّلُ إلىٰ التوسّع والشُّمول ، وَبتوسّعِهِ وَشُمول مَبَاحِثِهِ يَبقى مُحَافِظاً على نُبْل العِلم وَنَزَاهَة الحقيقة ، فَلا يَميلُ لِمبْدأ دُونَ آخَر ، أَو يتعصّبُ لإنْسَانٍ دُونَ غَيره . وَمِثْلُ هَذِهِ الصِّفَات الضَّروريَّة لِلبَحث نَدَرَ أن تَمتّع بِهَا كَامِلةً مُؤرّخُ أو دَارِسُ للمجْتَمَعات ، أو لحيَاة أَعْلام النّاس .

أمّا مَشَاعِرُ الإنسانيّة المُرْهَفَة فَهِيَ تَغمر جَميعَ مَبَاحِثِهِ ، حَتّىٰ أنّنَا لَنجده كَمَن يَبْحَث عَن مَعَالم الخَير فيْ المُجْتَمَعَات وَلَدىٰ الأعلاَم ، ليُبْرزهَا وَيعِظَ بِهَا ؛ أَو كَمَنْ يَتقصّىٰ مَسَاقِطَ الشرّ وَمَهَاوِيَ الظُّلم وَالجُور ، ليشيرَ لَنَا إلى النِّهايَة التي يَصِلُهَا كُل شرٍّ وَظُلمٍ وَجُور .

وَهَذَا الكِتاب هو فَلذةٌ مِن زيدان الكَبير الذي كتب « تاريخ التمدن الإسْلامي » و « تاريخ آداب اللغة العربية » وفيه تتجلى شخصيته الفذة على أكمل مَا يمكن أن تتجلى شخصيّة بَاحِثٍ إنَسان في اللغة العربيّة . . .

تراجم

مشاهير الشرق

في القرن التاسع عشر

تراجم
مشاهير الشرق
في القرن التاسع عشر

تأليف
جرجي زيدان

منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان

الجزء الثاني

أركان النهضة العلمية

الدكتور كلوت بك

مؤسس الاصلاحات الطبية في الديار المصرية

الطب القديم :

كانت مصر إلى آخر القرن الثامن عشر في حوزة الامراء المماليك،ولا يخفى عليك ما كان من أمرهم في دولتهم واماتة العلم والصناعة واستنزاف أموال الناس حتى اقد كان القطر يئن من شدة عتوّهم . فلم يكن للعلم باب يدخل فيه أو تربة ينمو فيها وخصوصاً علم الطب فإنه كان من جملة العلوم الداثرة . وكان الأطباء في الغالب من جالية بلاد المغرب يطببون بالحجامة والكي والفصد وغير ذلك مما لا يزال جارياً في أماكن كثيرة من هذه الديار وغيرها من بلاد المشرق .

أما المدارس الطبية فلم يكن لها صورة في أذهان أولئك الحكام أو رعاياهم على أن بعض هؤلاء الاطباء المغاربة كانوا يلقون دروساً من تلقاء أنفسهم على من يرغب في تلك الصناعة من أهل البلاد أو غيرهم . وكان الغالب في إلقائها في البيمارستان المنصوري بالنحاسين أو في أروقة الجامع الأزهر أو في بيوت

أولئك الاطباء . وأما كتب التعليم فكانت مما كتب في الأعصر الاسلامية القديمة كعصر العباسيين أو الفاطميين أو غيرهما . ولذلك كان طبُّ القرن الثامن عشر طب القرون الأولى في صدر الإسلام أو هو طب قدماء اليونان والرومان كابقراط وجالينوس لان المسلمين اخذوا الطب عنهم .

وما زالت حال الطب في هذه الديار على ما تقدم الى زمن الحملة الفرنساوية التي أغار بها نابوليون بونابرت على هذا القطر السعيد سنة ١٧٩٨ م فدخلت الجنود الفرنساوية مصر وأوغلوا في مدنها . وكان في جملة تلك الحملة جماعة من العلماء الذين اشتهروا في العلم ولا تزال أسماؤهم مشهورة في سائر انحاء العالم جاء بهم بونابرت اتماماً لمعدات الاستعمار ظناً منه بطول مكثه واستعماره الديار المصرية . وقد بحثت هذه الجمعية في الآثار المصرية وتربة البلاد وحللوها ودرسوا طبائع الحيوان والنبات فيها وكان في عزمهم أن ينشروا لواء العلم بين أهلها لو لم تفاجئهم طوارىء الحدثان بالانسحاب إلى ديارهم بعد ثلاث سنوات من احتلالهم (سنة ١٨٠١ م) ولم يتموا شيئاً مما كانوا شرعوا فيه في الادارة أو العلم أو الصناعة ولكنهم تركوا آثاراً من التمدن الحديث كانت بمنزلة جراثيم ضعيفة لو طال الامد عليها كامنة لعفت آثارها وبادت . ولكن الله قيض لها رجل الاصلاح والحزم المغفور له محمد علي باشا فبعد أن قبض على أزمة الادارة والسياسة ودانت له الرقاب أخذ في تنظيم الأحوال واحياء المعالم المصرية — أراد بذلك أن ينشىء دولة عربية وقد علم أن الوسيلة الوحيدة لنجاح الأمة إنما هي العلم والصناعة وحسن الادارة . أما حسن الادارة فكان هو الكافل لها مع من كان حوله من ذوي شوراه من المصريين وغيرهم . وأما العلم فعلم أنه لا مندوحة له عن استخراجه من معدنه فبعث الوفود إلى أوربا يستقدمون رجال العلم والصناعة وأرسل جماعة من اذكياء

شبان هذا القطر الى أوربا يتلقون العلوم عن أهلها حتى يعودوا ويبثوها بين أبناء جلدتهم وكان ذلك أول الارساليات العلمية .

كلوت بك :

وكان في جملة من استخدمهم للاصلاح العلمي النطاسي الشهير الدكتور كلوت بك، صاحب الترجمة ، استقدمه من أوربا بقصد تطبيب الجيش منعاً لتفشي الأمراض فيه . وهو فرنساوي الجنس والنزعة واسمه الأصلي انطون برطلمي كلوت ولد في غرينوبل بفرنسا سنة ١٧٩٣ م من ابوين فقيرين وربي في شظف من العيش وضيق ذات اليد على أن ملامح النجابة كانت تلوح على وجهه ومواهبه الطبية تتجلى في اعماله منذ كان صبياً لأنه كان على صغره ولعاً بتشريح الحشرات ودرس طبائعها . وتوفي والده سنة ١٨٠١م بعد أن نزح الى برينول وكان له صديق اسمه الدكتور سابيه فلما عاين ما في الغلام من المواهب على حاله من الفقر جعله مساعداً له يرافقه في أعماله الطبية ويتمرن في الجراحة وكان كلوت يطالع ذلك العلم بنفسه ساعات الفراغ حتى قرأ كتاب الجراحة تأليف (لافه) ثم رأى أن برينول لصغرها لا تفي بما تجنح إليه نفسه ولا تروي مطامعه فنزح إلى مرسيليا رغم ارادة والدته التي كانت كثيرة التعلق بولدها هذا لانه كان وحيداً لها ولكنه أصر على عزمه وضغط على عواطفه طلباً للعلى وسعياً وراء العلم وهو لا يملك إلا بعض الدريهمات وشيئاً من الثياب على أنه لم يلاق في مرسيليا إلا الخيبة فحدثته نفسه أن يسافر في سفينة جرّاحاً لبحارتها ويتحمل مشاق الأسفار وأخطارها سدّاً لعوزه وهو في التاسعة عشرة من سنه فلم يقبله ربانها وكان ذلك لحسن حظ المترجم لان السفينة غرقت في ذلك السفر .

فاضطره العوز لتعاطي مهنة الحلاقة فصار يختلف الى حلاق يعالج بالفصد



الدكتور كلوت بك ١٧٩٣ - ١٨٦٨ م

والجراحة الصغرى . ثم عاد إلى بلده مرغماً ودخل في المستشفى بعد عناء وتكرار الالتماس واكب على الدرس والمطالعة حتى نبغ بين اقرانه ولكن الفقر كان لا يزال ضارباً اطنابه بين يديه . وفي سنة ١٨١٧م اتمّ دروسه وعيّن طبيباً صحياً وكان قد درس العلوم بنفسه واتقن اللغة اللاتينية على أحد القسوس ونال رتبة بكلوريوس في العلوم (بكلوريا) وفي سنة ١٨٢٠م نال

شهادة الدكتورية بعد شق الأنفس ومعاناة البلاء ولكنه أصبح قابضاً على ما يؤهله للعمل والتعيش . فعاد إلى مرسيليا وعيّن طبيباً ثانياً بمستشفى الصدقة ومستشاراً جراحياً بمستشفى الأيتام فنمّ بــه بعض ذوي الحسد فأقيل من منصبه ولكنه لم يسعَ في الانتقام بل تضاعفت همته في العمل — أراد بذلك أن يبرهن على عدم اكتراثه بالسعاية والوشاية وانه إنما ينال الشهرة والسعادة بالسعي والاجتهاد فكتب كتاباً في استعمال آلات الولادة في الأحوال الخطيرة حتى صار دكتوراً في فن الجراحة وذاع صيته في مرسيليا وكان ذلك كافياً لرغم أنف حسوده .

وفي سنة ١٨٢٥م اجتمع اليه المسيو تورنو وكان تاجراً فرنساوياً من نزالة مصر بعث به المغفور له محمد علي باشا لاختيار من يليق بمنصب طبيب لجيشه فحبب إليه المسير إلى مصر في ذلك المنصب فقدم على طيب خــاطر فرأى أمامه باباً واسعاً للعمل لما قد عـلم من حاجة البلاد إلى الاصلاح الطبي فأخذ يعمل ليله ونهاره مفكراً في الوسائل المؤدية الى المراد . وكان محمد علي باشا يركن إليه ويثق برأيه ويجيب مطالبه فأسس أولاً مجلساً صحيــاً ليستعين بأعضائه على الاجراء والتنفيذ وبث الوصايا الصحية فرتبه على مثال المجالس الصحية الفرنساوية ولاتمام النظـام العسكري أنشأ المستشفيات العسكريـة ومصلحة الصحة البحرية . ولا يخفى ان المستشفيات تحتــاج الى عملة من الأطباء والتومرجية وغيرهم ولم يكن في مصر شيء من ذلك فاضطر ان يعـلم كلاً من هؤلاء واجباته من التطبيب وملاحظة المرضى وغير ذلــك . واشهر المستشفيات التي بنيت بناء على اشارته مستشفى ابي زعبــل وهي قرية على مسافة أربعة فراسخ من القاهرة وكانت مقر الجند وانشأ في المستشفى بستاناً للبنات .

وفي نحو سنة ١٨٢٨ م أسس المدرسة الطبية في تلك القرية أيضاً واراد بذلك ان لا يقتصر الطب على الجيش بل يتعلمه أبناء البلاد حتى يفيدوا ابناء جلدتهم بتطبيبهم وتعليمهم وكان في السنين الأولى من تأسيس هذه المدرسة هو وحده الذي يلقي الدروس بواسطة المترجمين تسهيلاً لفهمها فترجمت كتب عديدة اذذاك وفي جملتها قاموس نستين الطبي وغيره من كتب الطب والجراحة والعلوم الطبيعية . ومما كان عقبة في طريق التشريح العملي ان تشريح جثث الموتى كان أمراً منكراً في عيون المشارقة فبذل كلوت جهده حتى أبيح له التشريح سراً على ان ذلك لم ينجه من غضب الاهالي عليه حتى ان أحدهم جاءه يريد قتله خلسة بخنجر ولكنه لم يفز .

وفي سنة ١٨٣٢م سار الدكتور كلوت بك في ١٢ تلميذاً من تلامذة مدرسته هذه لامتحانهم في باريس فامتحنتهم الجمعية العلمية الطبية فحازوا استحسانها واظهروا كل نجابة وذكاء وبراعة . وهاك أسماء هؤلاء التلامذة :

احمد الرشيدي	مصطفى السبكي
حسن الرشيدي	محمد الشباسي
محمد منصور	محمد السكري
ابراهيم النبراوي	محمد الشافعي
حسين الهيهاوي	احمد بخيت
عيسوي النحراوي	محمد علي البقلي

وقد كان نجاح هؤلاء المصريين في امتحانهم موجباً لسرور أستاذهم كلوت بك سروراً زائداً لانهم سيكونون له عوناً في نشر الفوائد الطبية والوصايا الصحية في هذه الديار .

وفي سنة ١٨٣٨م نقلت المدرسة الطبية من أبي زعبل الى القاهرة وهي المعروفة بمدرسة قصر العيني. ثم أنشأ فيها فرعاً لدرس فن القبالة يتعلمها النساء لعلمه ان عوائد المشارقة لا تسمح بولادة النساء على يد أطباء من الرجال وأنشأ لهن مستشفى خاصاً بهن وكان لهذه الخدمة فائدة عظمى خصوصاً لان النساء لمبالغتهن في التحجب لا يؤذن للطبيب بمساعدتهن في الولادة ولا الكشف عليهن في تشخيص بعض الأمراض فكم كان يموت منهن لنقص المعالجة . أما بعد مدرسة القوابل فصارت القابلة (الداية) تقوم بأعمال الطبيب في معالجة النساء فكم شفت أنفساً وكم أنقذت أناساً من الموت بإذن الله .

ثم رأى تعميماً للفوائد الصحية ان ينشىء أماكن للاستشارة الطبية بالقاهرة والاسكندرية ففعل وجعل في كل استشارة اجزاخانة وانشأ أماكن كثيرة لمعالجة المرضى كالمستشفيات وغيرها في المدن الكبيرة في القطر . وأدخل تطعيم الجدري للأطفال والغلمان ولم يكن متداولاً قبل ذلك بمصر فأوقف انتشار ذلك الوباء وكان يموت بسببه قبل ذلك ألوف كل سنة وقد ظهرت نتائج اجراءات الدكتور كلوت بك الصحية في ازدياد عدد سكان القطر الى أضعاف ما كانوا عليه .

وأظهر الدكتور كلوت سنة ١٨٣٠م من الهمة في دفع داء الكوليرا ومعالجة المصابين ما يشهد له به التاريخ وقد عرف له ذلك محمد علي باشا فانعم عليه على أثر ذلك برتبة « بك » وهي رتبة لم يكن ينالها إلا نفر قليل وكلوت أول من نالها من الأوربيين على ما نعلم . وأنعمت عليه الحكومة الفرنساوية أيضاً برتبة ليجيون دونور . وفي سنة ١٨٣٥م ظهر الطاعون بالقاهرة فخاف الاطباء واعتزلوا في بيوتهم خوفاً من العدوى إلا الدكتور كلوت بك وثلاثة من زملائه فانهم ثابروا على خدمة المرضى ومعالجتهم . وقد رأى صاحب

الترجمة ان هذا الداء غير معد بمجرد الدنو من المرضى ومعالجتهم وقد طعم نفسه بالصديد الجدري المعروف بالمادة الفحمية .

وكان لخدمته هذه وقع حسن في عيون محمد علي باشا وسائر من عرفه . فبعد انقضاء تلك الازمة أنعم عليه محمد علي باشا برتبة (جنرال) وكتب إليه بذلك يقول « لقد تقلدت بصنيعك هذا قلادة الفخر فقد جعلتك لذلك جنرالاً » وأنعمت عليه الدولة الفرنساوية برتبة أوفيسيه دي لاليجيون دونور وأهدته سائر الدول الأخرى نياشين بطبقات مختلفة إقراراً بخدمته لها في معالجة رعاياها أثناء ذلك الوباء .

وفي سنة ١٨٤٠ سار الى فرنسا وعرض كتابين من تأليفه احدهما يشتمل على اعماله في مصر والثاني في الحوادث الوبائية . ولما سار المرحوم ابراهيم باشا في حملته الى الشام رافقه صاحب الترجمة فزار اكثر مدن الشام . والتقى في بيت الدين بالامير بشير الشهابي فالتمس منه هذا أن يتوسط له لدى عزيز مطر في إدخال نفر من اللبنانيين مدرسة قصر العيني لدراسة صناعة الطب على نفقة الحكومة المصرية فأجاب ملتمسه ثم عاد الى مصر . وما زال عاملاً بنشاط وغيرة حتى توفي محمد علي باشا ثم ابراهيم باشا وتولى عباس باشا الاول سنة ١٨٤٩م فاستأذنه الدكتور كلوت بك بالذهاب الى مرسيليا وبقي هناك حتى تولى سعيد باشا سنة ١٨٥٦ فعاد كلوت بك الى مصر وسنه ٦٣ سنة والظاهر أنه رحل الى مرسيليا في عهد عباس باشا الأول لوحشة بينهما . فاستشار سعيد باشا في من يليق لتولي إدارة المدرسة الطبية فاختار له خمسة من نوابغ الاطباء وهم كلوتشي بك وفيجري بك وبرجير بك وشافعي بك ومحمد علي بك فتبادلوا رئاسة المدرسة الطبية والمستشفيات زمناً .

أما كلوت بك فانه عـاد الى باريس في سنة ١٨٥١م ونشر نبذة تتعلق بالحجور الصحية فأنعمت عليه الحكومة الفرنساوية برتبـة كومندور دي لاليجيون دونور . ومما ناله من علامات الشرف أيضاً لقب (كونت روماني) لقبه به بابا رومية لخدمة قام بها نحو المسيحيين وهو لقب يعطى لمن لا يقبل الرشوة . وفي سنة ١٨٦٠م سافر الى مرسيليا وتوفي فيهـا في ٢٨ أغسطس سنة ١٨٦٨م .

وكان الدكتور كلوت بك لين العريكة حسن الطوية محباً لابناء وطنه محافظاً على كرامة ديانته راغباً في العمل نشيطاً غيوراً متقناً لمهنته مخلصاً في خدمة الانسانية نزيهاً عن الاغراض الشخصية . ولذلك فقد تسابقت الدول الى إهدائه النياشين والرتب . وقد أهدى ولده تمثاله الى مدرسة الطب سنة ١٨٩٤م فنصبوه بمشهد حافل من الوجهاء والعلمـــاء والاطباء يتقدمهم ناظر المعارف بالنيابة عن الحكومة الخديوية .

وألف صاحب الترجمة فضلاً عن المواضيع الطبية كتاباً عن مصر في مجلدين طبع سنة ١٨٤٠م بالفرنساوية صدره برسم محمد علي باشا ووصف فيه مصر إدارياً وزراعياً واجتماعياً على اختلاف الأزمان وأفاض في تاريخها الطبيعي وتقويمها بما فيها من السكان وعددهم واختلاف اجناسهم وآدابهم وعوائدهم ونظر في مصر نظراً دقيقاً من حيث تجارتها وصناعتها وعلومها وجندها واعمالها في الري وحفر الترع وما يشاهد من آثارها الى غير ذلك مما يعجز عن مثله سواه .

وخلاصة القول أن الدكتور كلوت بك ممن يخلد ذكرهم في التاريخ المصري مدى الدهور .

الشيخ ناصيف اليازجي



١٨٠٠ — ١٨٧١ م

(ترجمته) : هو الشاعر المطبوع واللغوي المدقق والنحوي المحقق احـــد اركان النهضة اللغوية في بلاد الشام ابن عبدالله بن ناصيف بن جنبلاط بن سعد اليازجي اللبناني المولد الحمصي الأصل. هاجر جدُّه سعد المذكور من حمص مع جماعة من ذويه نحو سنة ١٦٩٠م لحيف لحقهم في تلك الديار فتوطن اناس منهم في ساحل لبنان في الجهة المعروفـة بالغرب وآخرون في وادي التيم وتفرق بعضهم في مواطن اخرى ولا تزال بقية اسرتهم في حمص ونواحيها وهم عشيرة كبيرة من ذوي الوجاهة واليسار .

وكان مولد صاحب الترجمة في قرية كفرشيما من قرى الساحل المذكور في ٢٥ مارس سنة ١٨٠٠م وكانت وسائل التعليم اذ ذاك محصورة في جماعة الاكليروس فتلقى القراءة البسيطة على يدي القس متى من قرية بيت شباب . وكان والده من الاطباء المشهورين في وقته على مذهب ابن سيناء وكان مع ذلك اديباً شاعراً الا انه كان قلما يتعاطى النظم لقلة الدواعي اليه اذ ذاك ومن شعره أبيات قرظ بها ديوان الخوري حنانيا المنير أحد شعراء ذلك العصر لم يحفظ منها الا بيتان رواهما لنا حضرة حفيده اللغوي الشهير الشيخ ابراهيم اليازجي صاحب مجلة الضياء وقد اعتمدنا عليه في تحقيق أكثر ما أثبتناه في هذه الترجمة - أما البيتان فهما قوله في مطلع ذلك التقريظ :

عش بالهنا والخير والرضوانِ ... يامن عُنيت بنظم ذا الديوان
اني لقد طالعته فوجدتهُ ... نظماً فريداً ما له من ثان

فنشأ ولده على الميل الى الأدب والشعر واقبل على الدرس والمطالعة بنفسه وتصفح ما تصل اليه يده من كتب النحو واللغة ودواوين الشعراء ونظم الشعر وهو في العاشرة من عمره ومن نظمه في الصبا قوله :

ولما تثنى وهو ريان معطفٍ ... يميل على سفح العقيق ويخطرُ
تذكرت اغصان الرياض يهزها ... نسيم الصبا والشبه بالشبه يذكر

ومن ذلك قوله ايضاً :

كفَّ عني لا ابالك ... قد تبينا محالك
وعرفناك والا ... فمتى نعرف حالك
قد مضى لي بك عصرٌ ... حاملاً فيه ملالك
حسب قلبي منك جورٌ ... كاد منه يتهالك

وكفانا ما احتملنـــا　　　منك فاستدع احتمالك
سترى النادم منـــا　　　ويسيء الله فالك

ولما لم تكن الكتب لذلك العهد ميسورة لقلة المطبوع منها اذ لم يكن في البلاد السورية ولا المصرية الا مطابع نادرة قلما كانت تشتغل بطبع الكتب العلمية كان جلّ معتمده على كتب يستعيرها من بعض الاديار والمكاتب القديمة. فمنها ما يقرأها مرة فيحفظ زبدتها ومنها ما ينسخها بخطه ولا يزال كثير من تلك الكتب باقياً الى اليوم محفوظاً عند اسرته وهي جميلة الخط على القاعدة الفارسية وبعضها يبلغ عدة مئات من الصفحات . وقد بلغ من كل علم من علوم العربية لبابه ودرس أشهر مصنفاته وله في جميعها تآليف مشهورة هي اليوم عمدة التدريس في أكثر المدارس المسيحية . وله ثلاثة دواوين شعرية تعد من عيون الشعر كثير منها محفوظ على الألسنة ولا سيما الأبيات الحكمية منها وهي في شعره اكثر من ان تحصى وله المقامات المشهورة باسم مجمع البحرين وهي ستون مقامة اودعها من فنون الانشاء وصناعات البديع ومن غريب اللغة وألفاظها المنتقاة وامثال العرب والآيات الشريفة مـا دل على طول باعه وغزارة محفوظه وذلك فضلاً عما اودعها من المسائل العلمية في كل فن ومـا ضمن شرحها من تواريخ العرب وأنسابهم ووقائعهم.

ثم انه لما بلغ اشده اتصل بالأمير بشير الشهابي الشهير (راجع ترجمته في الجزء الأول من هذا الكتاب) فقربه اليه وجعله كاتباً ليده. فلبث في خدمته اثنتي عشرة سنة . ولما كانت سنة ١٨٤٠م وهي السنة التي خرج فيها الامير بشير من البلاد الشامية انتقل صاحب الترجمة بأهل بيته الى بيروت فاقام بها وتفرغ للمطالعة والتأليف والتدريس ونظم الشعر ومراسلة الأدباء حتى لهج بذكره القطران الشامي والمصري .



الشيخ ناصيف اليازجي وامرأته واولاده سنة ١٨٦٤ م

الصف الأول :

وردة   سارة   ابراهيم   فارس   عبدالله

توفي سنة ١٩٠٦م   سنة ١٨٦٥م   سنة ١٨٩٤م

الصف الثاني :

مريم   حنة   صابات امرأة الشيخ   الشيخ ناصيف   حبيب   نصار

سنة ١٩٠٠م   سنة ١٨٨١م   سنة ١٨٧١م   سنة ١٨٧٠م   سنة ١٨٧٦م

الصف الثالث :

اسين   راحيل   خليل

سنة ١٨٧٩   سنة ١٨٨٩

وكانت تتوارد اليه ركائب الزائرين من كل صقع وفيهم العلماءُ والوزراء وفي جملة من زاره منهم محمد عزت باشا أحد قواد الجنود السلطانية فمدحه بأبيات ارتجالية يقول في مطلعها :

أعطى محمد عزةٍ من فضلهِ   شرفاً لساحتنا بوطأة نعله

ومنها يقول :

يا زائراً بيتي أراك فتنتهُ   فعليك بيت غيره من مثله
اجللته عني فصرت اهابه   حتى كأني لم أكن من اهلهِ

واقبل أكابر الشعراء من جميع الانحاء العربية على مراسلته ومدحوه بما دل على وفور فضله وعلو كعبه في الشعر والادب ومما قال فيه الشيخ عبد الباقي العمري البغدادي حين وقف على النبذة الأولى من ديوانه :

على نبذة من شعر ناصيف ذي الفضل   وقفت ومني العين في موضع الرجل
وطأطأت إجلالاً لها رأس شامخٍ   لا خمصهِ هـام العلى موطىء النعل

وهي قصيدة طويلة يقول منها :

إذا أنكرت دعواهفي الشعرفتية ً   أقام عليها شاهد العقل والنقـل
وان رام شعري ان يباري شعره   يقول شعوري انني عنك في شغل

وقرّظ هذه النبذة أيضاً الشيخ عبد الهادي نجا الابياري بقصيدة مطلعها:

هكذا تنسق اللالي وتنضد   هكذا تجمع المعاني وتحشد
هكذا هكذا الكلام كلامٌ   صيغ درّاً بفكرة تتوقـد

ومن هذه القصيدة يقول :

مـــا سمعنا بمثله عيسوياً يتحدى بمثل معجز احمد
المعي لكنـــه عيسوي كان أولى بفضل دين محمد

ومما قال فيه الشيخ ابراهيم الاحدب الطرابلسي :

ورا معانيه يصلي الورى إذا جرى الفرسان يوم الرهان
صرح بأن الفضل أمسى له ودع أحاديث فلٍ أو فلان

وكفى بهذا القدر شاهداً على منزلته في عيون جلة العلماء من أهل عصره وهي أول مرة مدح فيها مسيحي بمثل هذا الكلام وأجمع مثل هـذه الطبقة على اطرائه وتفضيله ومن رام الوقوف على سائر أقوالهم فيه فليطالع ذلك في مجموعة هذه المراسلات المسماة بفاكهة الندماء .

ثم انه ما زال عاكفـاً على التعليم والتصنيف والنظم والنثر حتى أصيب بمرض عضال سنة ١٨٦٩ م فانفلج فالجاً نصفياً عطل شطره الايسر فلزم داره ولكنه ما برح ينظم الشعر ويتلقى السائلين والمستفيدين الى أن فاجأه القدر بوفاة بكره المرحوم الشيخ حبيب فوقع ذلك الحادث عليه وقوع الصاعقة ولم يعش بعد ذلك إلا أربعين يوماً . وكان قد بدأ بنظم قصيدة يرثيه بها ثم غلب عليه الحزن حتى لم يعد يملك عنان قريحته . ومما نظم في هذه القصيدة قوله:

ذهب الحبيب فيا حشاشة ذوبي أسفاً عليـــه ويا دموع أجيبي
ربيته للبين حتى جـــاءه في جنح ليل خاطفـاً كالذيب
يا أيهـــا الام الحزينة أجملي صبراً فانـ الصبر خير طبيب
اني وقفت على جوانب قبره أسقي ثراهُ بمدمعي المصبـــوب

ولقد كتبت له على صفحاتـه يا لوعتي من ذلـــك المكتوب
لك يا ضريح محبة وكرامة عندي لانك قد حويت حبيبي

وهي آخر ما نظمه وبعد أيام عاودته السكتة الدماغية فمات فجأة وكانت وفاته في ٨ شباط (فبراير) سنة ١٨٧١م بعدما لزمه الداء ما يقرب من سنتين فعظم خطبه عند كل من عرف فضله أو سمع بذكره وكان له مأتم حافل شهده الكبراء والعظماء من بيروت ولبنان ومشى في جنازته مـــا ينيف عن عشرة آلاف نفس . وولد له ١٢ ولداً ورثوا ذكاءه وسرعة خاطره ولم يخلفه منهم في خدمة اللغة وآدابها إلا الشيخ ابراهيم صاحب الضياء .

صفاته :

وكان رحمه الله معتدل القامة فوق الربعة اسمر اللون حنطيه أسود الشعر أجش الصوت مهيباً وقوراً شهماً كاملاً متواضعاً متأنياً في حديثه قليل الضحك عفيف اللسان لم تسمع له كلمة بذيئة قط لا في حديثه ولا في كتابته ولم يهج أحداً ولاهجاه أحد في زمانه غير بيتين قالهما على سبيل الفكاهة في بخيل وهما:

قد قال قوم ان خبزك حامض والبعض اثبت بالحلاوة حكمه
كذب الجميع بزعمهم في طعمه من ذاقه يوماً ليعرف طعمهُ

وكان إذا ذكر أحد أمامه بسوء أطرق وأغضى كأنه لا يسمع . وكان ودوداً مخلصاً سريع الفهم قوي الذاكرة متسع المدارك إذا حدث أخذ بمجامع القلوب لكثرة رواياته ونكاته وكان يروي القصة بتواريخها وأسماء أصحابهـا وأسماء بلدانهم ولم يكن على شيء من التأنق في اللفظ ولكن حديثه كان كأبسط أهل وقته . ومن غريب ذاكرته انه كان اذا نظم الشعر لا يكتبه

بيتاً بيتاً ولكنه كان ينظم الابيات ثم يكتبها حتى انه في مدة اعتلاله نظم مرة ثمانية عشر بيتا ثم أملاها دفعة واحدة . وقد ألف إحدى مقاماته وهي المقامة اليامية على ظهر الفرس وكان مسافراً بأهل بيته من بيروت الى بحمدون سنة ١٨٥٣ بقصد الاصطياف فلما أنتهى إليها أخذ قرطاساً فعلقها . وكان يحفظ القرآن بتمامه ويعي من الشعر شيئاً كثيراً ولا سيما شعر المتنبي لشدة اعجابه به وكان يقول كأن المتنبي يمشي في الجـــو وسائر الشعراء يمشون على الارض .

شعره :

اما شعره فهو النهاية في السلاسة والانسجام وحسن اختيار **الالفاظ** والتراكيب فضلاً عما له من المعاني المبتكرة والاكثار من الحكمة وضرب الأمثال ومع قلة رغبته في الغزل فان الغزل القليل الذي له في منتهى الرقـة مثل قوله :

يا ناحل الاعطاف معشوقاً ترى اتلوم مثلي عاشقاً ان ينحلا
حاولت سفك دمي بعينك ثانياً هيهات قـد سفكته عيني اولاً

وقوله :

حواك وقد حللت بكل قلب فؤاد لم يحل بـــه سواك
نزلت بــه على طلل تفـانى ولست بمن على طلل تباكى
اطعت العاذلين بقتل صبّ يريد القتل لكن عن رضاكا
تعز كرامة ويهون ذلا فتأنف أن يقول دمي فداكا

وقوله :

اخـاف إذا أشار براحتيه لعلمي أن روحي في يديه
ويخفق عند نظرتـه فؤادي لأن سواده من مقلتيه

وقوله :

ان كان يلبس ما أفاد تجملاً فبياض هذا الجيد تلبسه الحلى
واذا تزينت العيون بكحلها فلقـد نراه بمقلتيك تكحلا
يا ناحل الاعطاف معشوقاً ترى اتلوم مثلي عاشقاً أن ينحلا

وقوله وهو مما نظمه في صباه :

الوى علي فضمني وضممتـه وصدورنا بصدورنا لم تعلم
اهوى عليه وفيَّ عفة يوسف حتى يميل وفيه عفـة مريم

ومن نظمه في المديح قصيدة مدح بها أسعد باشا قائد جيش البلاد العربية

قال فيها :

اذا قام من تحت السرادق راكباً اقام عجاجاً فوقـه كالسرادق
ولما رأينا كيف تنقضُ خيله علمنا بها كيف انقضاض الصواعق
تفـارق اطراف البلاد خيوله واصواتها في قلبهـا لم تفارق

وله في الحكم شيء كثير منه قصيدة جرت أبياتها مجرى الأمثال مطلعها :

لعمرك ليس فوق الأرض باق ولا ممـا قضاه الله واق

ومنها :

اضل الناس في الدنيا سبيلاً محب بات منها في وثاق
واخسر ما يضيع العمر فيه فضول المـال تجمع للرفاق

ومنها :

ألا يا جامع الاموال هلا جمعت لها زماناً لافتراق
رأيتك تطلب الابحار جهلاً وانت تكاد تغرق في السواقي
إذا احرزت مال الأرض طراً فمالك فوق عيشك من تراق
اتأكل كل يوم الف كبش وتلبس الف طاق فوق طاق
فضول المال ذاهبة جزافاً كماء صب في كأس دهاق

وله من قصيدة :

متى ترى الكلب في ايام دولته فاجعل لرجليك اطواقاً من الزرد
واعلم بان عليك العار تلبسه من عضة الكلب لا من عضة الاسد

وله في صناعة التاريخ الشعري اليـد الطولى والتفنن الغريب ولم يحدث حادث هام في أواسط القرن الماضي يستحق حفظ تاريخ حدوثه إلا نظم الشيخ اليازجي أبياتاً في تاريخه . ومن اشهر ما نظمه في هذا الباب بيتان قالهما في فتح عكاء يتضمنان ٢٨ تاريخـاً وبيتان آخران نظمهما في السلطان عبد العزيز . وله من هذا القبيل قصيدة هنأ بها ابراهيم باشا المصري بفتح عكا ضمن كل بيت منها تاريخين لسنة ١٢٤٨ هـ يقول في مطلعها :

الزهر تبسم نوراً عن اقاحيهـا اذا بكى من سحاب الفجر باكيها

ومع التزامه التاريخ فيها لا ترى تكلفاً في تركيبها مطلقاً

ومن مديحها قوله :

كل البلايا من الدنيا متى نزلت بنا فنيران ابراهيم تطفيهـــا
نار ونور متى قال النزال له والجود هات يدا لم يلق ثانيها

وله قصيدة من هذا النوع في مدح السلطان عبد العزيز وقد امر له بالانفاق على طبع بعض كتبه من الخزينة الخاصة مطلعها :

قف بالمطـايا على اتحاد ذي سلم وقل سلام على من دام في الخيم

ومن مخترعاته في فن النظم عاطل العاطل وهو أن تكون أحرف الكلمة خالية من النقط واذا تهجأت اسم الحروف كان هجاؤه أيضاً خالياً من النقط وهذه الاحرف ثمانية فقط وهي الحاء والدال والراء والصاد والطـاء واللام والهاء والواو وقد نظم من هذا الجناس اربعة أبيات في مقاماته مجمع البحرين وهي هذه :

حول درٍ حلَّ ورد هل له للحر وردُ
لحصور حلو وصل ورده للصحو طردُ
وله حولٌ وطولٌ وله صد ورد
دهره حرٌّ صـدور هـل له لله حدٌّ

وقد نظم من جناس ما لا يستحيل بالانعكاس اربعة عشر بيتاً وهي ايضاً في مقاماته ولم يسمع بهذا المقدار لشاعر قبله . ونظم بيتين طردهما مديـح وعسكهما هجاء وهذا من مبتكراته وهما في المقامات أيضاً وله فيها غير ذلك من الفنون مما نستغني عن سرده بشهرتها .

مؤلفاته :

وأما مؤلفاته سوى ما تقدم ذكره من دواوينه ومقاماته فمعظمها من الكتب المدرسية لتلقي العلوم الأدبية . وقد سلك فيها ولا سيما في الصرف والنحو مسلكاً تدريجياً يناسب حالة الطالب في كل سن فمنها المختصر الذي لا اختصار بعده كالرسالة المسماة بالجوهر الفرد وقد جمع فيها الصرف والنحو في ست صفحات ومنها المطول الذي أتى فيه على اشهر اقوال المصنفين في هذين العلمين مع الاحاطة بجميع قواعدهما وتعليل احكامها كالأرجوزتين اللتين سمى احداهما الجمانة في علم الصرف والاخرى جوف الفرا في علم النحو تشتملان على ما يزيد عن الف وخمسمائة بيت وكل واحدة منهما مشروحة بقلمه شرحاً مستوفياً وله بين ذلك تآليف آخر منها بالنثر وهي فصل الخطاب في الصرف والنحو ايضاً وهو جامع لأصول هذين العلمين وقد وقع اجماع المدرسين على انه افضل متن وضع فيهما وقد جمع فيه بين الاحاطة والاختصار حتى لا يمكن ان يحذف منه كلمة ولا يزاد عليه كلمة . وفي طبقته وعلى أسلوبه عقد الجمان في علم البيان ونقطة الدائرة في العروض والقوافي وقطب الصناعة في المنطق وهذه الكتب الأربعة مشروحة بقلمه . ومن ذلك ارجوزتان مختصرتان في الصرف والنحو مشروحتان بقلمه ايضاً سمى الأولى لمحة الطرف في اصول الصرف والثانية الباب في اصول الاعراب . ومختصر آخر في النحو سماه طوق الحمامة وهو نثر. وله في البيان ارجوزة مختصرة سماها الطراز المعلم وارجوزة أخرى في النطق سماها التذكرة وشرح كلا منهما شرحاً موجزاً . وله ارجوزة مطولة في فن العروض والقافية وهذه شرحها ولده المرحوم الشيخ حبيب وهذه التآليف كلها مطبوعة .

ومن مؤلفاته التي لم تطبع رسالة في التوجيهات النحوية سماها عمود الصبح

انتهى فيها الى المفعول فيه ولم يفسح له في الاجل لاتمامها . وارجوزة مختصرة في الطب القديم سماها الحجر الكريم وشرحها بقلمه . ومعجم في اعضاء الانسان والصفات التي على افعل سماه يجمع الشتات في الأسماء والصفات . وشرح لبديعيته سماه القطوف الدانية استوفى فيه جميع الجناسات والأنواع البديعية

وكان قد شرع في وضع شرح لديوان المتنبي . وكان يعلق عليه الحين بعد ما يعن له من التفاسير ولا سيما للابيات الغامضة فأتمه من بعده ولده الشيخ ابراهيم وسماه العرف الطيب في ديوان ابي الطيب وقد طبع هذا الشرح سنة ١٨٨٢ م .

رفاعة بك رافع الطهطاوي

هو السيد رفاعة بك بن بدوي بن علي بن محمد بن علي بن رافع ويلحقون نسبهم بمحمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن فاطمة الزهراء .

ولد في طهطا بمديرية جرجا من صعيد مصر ويؤخذ مما كتبه عن نفسه في رحلته التي سيأتي ذكرها ان اجداده كانوا من ذوي اليسار واخنى الدهر عليهم وقعد بهم كما هو شأنه في بني الزمان . فلما ولد المترجم كانت عائلته في عسر فسار به والده الى منشاة النيدة بالقرب من مدينة جرجا وأقام بين قوم كرام يقال لهم بيت أبي قطنة من أهل اليسار والمجد . فاقاما هناك مدة ثم نزحا إلى قنا ولبثا بها حتى ترعرع الغلام فأخذ يقرأ القرآن ثم نقل إلى فرشوط وأخيراً عاد إلى طهطا وكان قد حفظ القرآن وقرأ كثيراً من المتون المتداولة على اخواله وفيهم جماعة كبيرة من العلماء الافاضل كالشيخ عبد الصمد

الانصاري والشيخ ابي الحسن الانصاري والشيخ فراج الانصاري وغيرهم .

ثم توفي والده فجاء رفاعة إلى القاهرة وانتظم في سلك الطلبة بالجامع الأزهر سنة ١٢٢٣ ﻫ وجاهد في المطالعة والدرس جهاداً حسناً حتى نال من العلم شيئاً كثيراً ولم تمض عليه بضع سنين حتى صار من طبقة العلماء الاعلام في الفقه واللغة والحديث وسائر علوم المعقول . وكان في جملة من تلقى العلم عليهم من العلماء الشيخ حسن العطار المتوفي سنة ١٢٥٠ ﻫ شيخ الجامع الأزهر



رفاعة بك رافع الطهطاوي ١٢١٦ – ١٢٩٠ ﻫ

فأحب صاحب الترجمة وميزه عن سائر اقرانه التلامذة وخصه بالتقرب منه لما آنس فيه من الذكاء والاجتهاد فكان يتردد إلى منزل الشيخ يأخذ عنه بعض العلوم او يستشيره في أمر او ما شاكل ذلك .

وقضى صاحب الترجمة بمجاورة الأزهر زهاء ثماني سنوات وكان كما قدمنا في عسر وكانت والدته تنفق عليه مما تبيعه من بقايا حليها ومصاغها . فلما أتم

دروسه تعين سنة ١٢٤٠ هـ إماماً في بعض آلايات الجند براتب يساعده على القيام بأود حياته .

وكان ذلك العصر زاهياً بالمغفور له محمد علي باشا مؤسس العائلة الخديوية الكريمة وكان رحمه الله آخذاً في مشروعاته تعزيزاً لشأن هذا القطر السعيد وفي جملتها نشر العلوم . فأحب إرسال جماعة من شبان هذا القطر إلى اوربا لتلقي العلوم الحديثة ليكونوا له أعواناً في فتح المدارس وبث تلك العلوم في أبناء البلاد فأمر بتعيين صاحب الترجمة إماماً لهم للوعظ والصلاة . فسارت الارسالية المشار اليها من مصر سنة ١٢٤١ هـ وهي أول إرسالية مصرية إلى فرنسا . فتاقت نفس المترجم إلى علوم المغرب فعكف على درس اللغة الفرنساوية من تلقاء نفسه رغبة منه في تحصيل العلوم بها أو نقله منها إلى العربية لعله يتخلص من مهنة الإمامة . وكان معظم درسه اللغة بنفسه فلم يتقن التلفظ بها ولكنه تمكن من فهم معانيها فهماً جيداً وأخذ يطالع العلوم الحديثة فاتقن التاريخ والجغرافيا وعلوماً أخرى وكان ميّالاً إلى التأليف والترجمة فترجم وهو في باريس كتاباً سماه « قلائد المفاخر في غرائب عوائد الأوائل والأواخر » وغيره . فبلغ المغفور له محمد علي باشا ما أظهره السيد رفاعة من النباهة والرغبة في العلم من تلقاء نفسه فسرّ به سروراً عظيماً واستبشر بطالعه .

وفي سنة ١٢٤٧ هـ عاد رحمه الله الى الديار المصرية بعد ان نال الشهادات الناطقة بدرجته من العلم والفضل فولاه محمد علي منصب الترجمة في المدرسة الطبية التي كان أنشأها سنة ١٢٤٢هـ في قرية أبي زعبل قرب القاهرة برئاسة كلوت بك الشهير . وكان متوالياً رئاسة الترجمة بها قبله المرحوم يوحنا

عنحوري من أبناء سوريا وله فيها خدمـــات جليلة وشهد لصاحب الترجمة بقصب السبق فوله الترجمة وعمل على خدمة البلاد ولا سيما وان عارفي اللغات الأجنبية إذ ذاك كانوا يعدون على الاصابع . ومما يعدّ له فضلاً جزيلاً انه أول من باشر إنشاء جريدة عربية في سائر المشرق وهي الوقائع المصرية فانها انشئت بمساعيه ومساعدته سنـــة ١٢٤٨ هـ ولا تزال إلى الآن وهي الجريدة الرسمية المصرية .

وفي سنة ١٢٤٩ هـ انتقل من مدرسة أبي زعبل إلى مدرسة الطوبجية في طرا لترجمة الكتب الهندسية والفنون العسكرية. وفي سنة ١٢٥١ هـ افتتح المغفور له عزيز مصر مدرسة للالسن الاجنبيـــة وعهد بادارتها الى صاحب الترجمة وسميت عند فتحها مدرسة الترجمة فقام الشيخ رفاعة إذ ذاك حق القيـــام بادارة هذه المدرسة واختـــار لها التلامــذة من مدارس الأرياف بسائر جهات القطر فبلغ عدد تلامذتها في أول الأمر خمسين تلميـذاً ثم زاد حتى صار ٢٥٠ وكان في أبي زعبل مدرسة تجهيزية للطب فنقلت إلى جهات الأزبكية فعهدت ادارتها اليه فضلاً عن مدرسة الالسن ومدارس اخرى فرعيـــة منها مدرسة للفقه والشريعة وأخرى للمحاسبة وأخرى للادارة والاحكام الافرنجية .

وفي سنة ١٢٥٨ هـ تشكل قلم الترجمة من أول فرقة خرجت من مدرسة الألسن وبعد سنة ونصف من تشكيله نال رتبة قائمقام وكان قد نال ما يتقدمها من الرتب تدريجياً في أوقات متتابعة وفي سنة ١٢٦٢ هـ نال رتبـــة اميرالاي فصار يدعى رفاعة بك بدلاً من الشيخ رفاعة .

وما زال رفاعه بك ناظراً لمدرسة الألسن حتى أقفلت على عهد المغفور له عباس باشا الأول فأمر بارساله إلى السودان لنظارة مدرسة الخرطوم ومـــا

زال هناك حتى توفي عباس باشا المشار اليه سنة ١٢٧٠ ﻫ وتولى المرحوم سعيد باشا فعاد يشكر الله على نجاته من تلك الاقطار . فمثل بين يدي سعيد باشا فعهد اليه سنة ١٢٨١ ﻫ وكالة مدرسة الحربية بجهات الصليبة تحت رئاسة المرحوم سليمان باشا الفرنساوي وبعد قليل أنشئت مدرسة الحربية بالقلعة فأحيلت اليه نظارتها مع نظارة قلم الترجمة ومدرسة المحاسبة والهندسة الملكية والتفتيش والمعمارجية وعند ذلك نال الرتبة الممايزة .

وفي سنة ١٢٧٧ﻫ ألغيت كل هذه المدارس فبقي رفاعة بك بغير منصب إلى سنة ١٢٨٠ﻫ فأعيد إلى نظارة قلم الترجمة وتعين عضواً من قومسيون المدارس وتولى ادارة جريدة « روضة المدارس » مع مثابرته على التأليف . وما زال قائماً بهذه المهام حتى توفاه الله سنة ١٢٩٠ ﻫ بداء النزلة المثانية وله من العمر ٧٥ سنة . وقد ملأ الديار المصرية من المترجمين والاساتذة والمهندسين وغيرهم ممن استفادوا من مؤلفاته وتعاليمه . وقد اطلعنا على كتاب خطي اسمه « حلية الزمن بمناقب خادم الوطن » تأليف صالح بك مجدي عدد فيه مناقب صاحب الترجمة وعنه أخذنا معظم ما ذكرناه هنا . وقد ذكر فيه أيضاً عدداً كبيراً من الذين اخذوا العلم عنه ونبغوا واشتهروا وذكر مناصبهم ووظائفهم واعمالهم مما لا محل لذكره هنا .

وكان رحمه الله قصير القامة واسع الجبين متناسب الأعضاء اسمر اللون حازماً مقداماً على ذكاء وحدة . وهذا ما نهض به من حضيض العسر الى مراتب المجد والفخر حتى اصبح ممن يشار اليهم بالبنان ويقتدي بأعمالهم بنو الانسان .

وكان في أوائل حياته الى ان عاد من الديار الافرنجية يلبس اللباس العربي

الخاص من الجبة والعمامة والقفطان كما ترى رسمه في صدر هذه المقــالة ثم بدله باللباس الافرنجي المشهور .

نختم ترجمة حاله بذكر مؤلفاته الواحد بعد الآخرمع وصفها بقدر الامكان:

(١) خلاصة الابريز والديوان النفيس ، وهو رحلته الى فرنسا ذكر فيه ما شاهده من العادات والأخلاق والأزياء وآثار التمدن الحديث وكل ما يتعلق بذلك وقد حازت من القبول لدى المغفور له محمد علي باشا حتى أمر أن تتلى في قصوره ثم أمر بطبعها وتفريقها في الدواوين وبين الوجهاء والأعيان .

(٢) التعريبات الشافية لمريد الجغرافية . وهو مجلد ضخم ترجمــه من الفرنساوية الى العربية لتدريس الجغرافية في المدارس المصرية وقد طبع غير مرة في مجلد كبير .

(٣) جغرافية ملطبرون . وهو كتاب مؤلف من عــدة مجلدات كبيرة يبحث في الجغرافية بحثاً تاريخياً مطولا ترجم منه المؤلف أربعة مجلدات كبيرة طبعت في مطبعة بولاق . ويظهر من مطالعتها أنه ترجمها على عجل والواقع يؤيد ذلك لاننا علمنا انه ترجم مجلداً منها في ستين يوماً سنة ١٢٦٥ م .

(٤) كتاب قلائد المفاخر في غريب عوائد الاوائل والاواخر . ترجمه في باريس وقد تقدم ذكره .

(٥) كتاب المرشد الأمين في تربية البنات والبنين . وهو مجلد واحد ألفه للتعليم في مدرسة البنات .

(٦) كتاب التحفة المكتبية في النحو الفه لتعليم قواعد النحو في المدارس الابتدائية مطبوع طبع حجر .

(٧) مواقع الافلاك في اخبار تلياك . وهو تعريب وقائع تلياك الفرنساوية ترجمه يوم كان في الخرطوم مع بعض التصرف وهو مطبوع في بيروت .

(٨) مباهج الألباب المصرية في مناهج الالباب العصرية . وهو بحث عن آداب العصر وسياسته وصنائعه وعلومه وفنونه ومطبوع بمطبعة بولاق الاميرية .

(٩) مختصر معاهد التنصيص . وهو اختصار المعاهد مع بعض الزيادات الى الاصل ولم يطبع .

(١٠) المذاهب الأربعة . وهو بحث في المذاهب الأربعة الفه أثناء رئاسته لمدرسة الألسن .

(١١) شرح لامية العرب .

(١٢) القانون المدني الافرنجي . مطبوع .

(١٣) كتاب توفيق الجليل وتوثيق بني اسماعيل . وهو تاريخ لمصر طبع ونشر .

(١٤) كتاب هندسة ساسير . ترجمه من الفرنساوية الى العربية وقد طبع ببولاق .

(١٥) رسالة في الطب لم تطبع .

(١٦) جمال الأجرومية وهو منظومة سهلة في الأجرومية (مطبوعة) .

(١٧) نهاية الايجاز في سيرة ساكن الحجاز . وهو آخر مؤلفاته طبع في روضة المدارس بمطبعة المدارس الملكية .

وله رحمه الله غير ما تقدم ذكره من المآثر العلمية بين منظومات ورسائل ومقالات شيء كثير لم يطبع . وقد وقفنا على بعضه وأما خدماته في التعليم والتهذيب ففنية عن البيان ويقال بالاجمال أن رفاعة بك رافع خدم خدمة كبرى في نشر العلوم الحديثة بنقلها الى اللغة العربية وتسهيل تناول اللغات الاجنبية بمدرسة الالسن وقلم الترجمة وغيرهما .

بطرس البستاني

في اقليم الخروب من قضاء الشوف في جبل لبنان قرية صغيرة على مسافة ثلاث ساعات من دير القمر وثلاث ساعات ونصف من صيدا وسبع ساعات من بيروت يقال لها الدبية عدد سكانها خمسمائة نفس من طائفة الموارنة وقليل من البروستانت. نشأ فيها غير واحد من مشاهير اللبنانيين جميعهم من آل البستاني أشهرهم المرحوم المطران عبد الله البستاني والمطران بطرس البستاني والمعلم بطرس البستاني صاحب الترجمة وقد اقتطفنا ترجمة حياته مما كتبته جرائد الشام على اثر وفاته وأثبتته دائرة المعارف في جزئها السابع ومما عرفناه بنفسنا من آثار اجتهاده وفضله .

تاريخ حياته :

هو بطرس بن بولس بن عبد الله بن كرم بن شديد بن أبي شديد بن محفوظ ابن أبي محفوظ البستاني من أعيان الطائفة المارونية. ولد في الدبية عام ١٨١٩م في عهد إمارة الأمير بشير الشهابي الكبير في جبل لبنان وظهرت عليه مخائل النجابة والذكاء منذ نعومة أظفاره فأخذ في تلقي مبادىء العربية والسريانية على المرحوم الخوري مخائيل البستاني. وكان المرحوم المطران عبد الله البستاني إذ ذاك مطراناً على صور وصيدا وكان يقيم في بيت الدين فنمي اليه أن هذا الغلام وغلاماً آخر يدعى شبلي ابن الخوري يوسف البستاني (المطران بطرس البستاني بعدئذٍ) قد تفردا بالذكاء والفطنة والاجتهاد بين أقرانهما فاستقدمهما اليه ثم بعث بهما الى مدرسة عين ورقة بلبنان فقضيا فيها عشر سنوات حتى أتقنا آداب اللغة العربية مما تيسر الحصول عليه إذ ذاك كقواعد اللغة والمنطق

والتاريخ والحساب والجغرافيا وتناولا اللغات السريانية واللاتينية والايطالية وتلقيا الفلسفة واللاهوت الأدبي والنظري ومبادىء الحق القانوني .

وكان صاحب الترجمة قد بلغ العشرين من سنه فأراد غبطة بطريرك الطائفة المارونية إذ ذاك ارساله مع رفيقه الى رومية للتبحر في العلوم الدينية وكان



بطرس البستاني - ١٨١٩ - ١٨٨٣ م

والده قد توفي فعارضت والدته في إبعاده فتعين مدرساً في مدرسة عين ورقة مشمولاً بأنظار البطريرك وكان البطريرك يعهد اليـه قضاء بعض المصالح الى سنة ١٨٤٠م وكانت حال الجبل في اضطراب لما كان في نفس الدولة العلية على الأمير بشير وابراهيم باشا . وكانت الدول الافرنجية قد بعثت مراكبها الى

سواحل سوريا تعين الباب العالي على اخراج ابراهيم باشا منهـا وكان صاحب الترجمة قد درس اللغـة الانـكليزية في بيروت أثناء إقامته بمدرسة عين ورقة وبعدها فاستخدمه الانـكليز للترجمة. وكان دعاة المذهب الانجيلي من الاميركان قد أخذوافي الاقامة ببيروت للتعليم ونشر مذهبهم فتعرف الى بعضهم وجعل يختلف اليهم يعلمهم اللغة العربية ويعرّب لهم بعض الكتب حتى تمكنت علائق المودة بينه وبينهم ووافقهم على مذهبهم .

وفي سنة ١٨٤٦م عزم استاذنا الخطير المرحوم الدكتور فان ديك على إنشاء مدرسة عبيه فاستعان بصاحب الترجمة في إنشائها فتولى التعليم فيهـــا عامين الف في أثنائها كتاباً مطولاً في علم الحساب سماه كشف الحجاب طبع مراراً عديدة وذاع استعماله في سائر مدارس سوريا .

ثم قدم بيروت وتولى منصب الترجمة في قنصلية أميركا مع مباشرة التأليف والترجمة والوعظ والخطابة ودرس في أثناء ذلك أو قبيله اللغتين العبرانيـــة واليونانية وكان المرحوم الدكتور عالي سميث الاميركاني قد باشر ترجمة التوراة الى العربية فاستعان بصاحب الترجمة على ترجمتها . ولكن الأجل عاجـــل الدكتور سميث فأتم الترجمة المرحوم فان ديك وهي الترجمة الاميركانية المشهورة. أما المعلم بطرس فانه شرع في تأليف قاموسه محيط المحيط .

وفي سنة ١٨٦٠ م نشر نشرة سماها نفير سوريا وهي أول نشرة عربية ظهرت في سوريا وإذا جاز لنا ان نسميها جريدة فالبستاني أول من أنشأ جريدة عربية غير رسمية بين قراء اللغة العربية .

وفي عام ١٨٦٣ م أنشأ في بيروت مدرسة عالية سماها «المدرسة الوطنية »

أسسها على الحرية الدينية ومبدأ الجامعة الوطنية العثمانية فتقاطر اليها الطلبة من سائر أنحاء الشام ومصر والآستانة وبلاد اليونان والعراق وغيرهـا فذاع صيتها في الآفاق وظهر فضلها على رؤوس الاشهاد فانعمت عليه الحضرة السلطانية بنيشان عال تنشيطاً له ومكافأة لخدمته وقد تولى ولده المرحوم سليم البستاني نيابة رئاسة المدرسة وكان متضلعـاً في العلوم الحديثة فكان يدرس التاريخ والطبيعيات والصف الأول في اللغة الانكليزية وكان والده رحمه الله يلقي على التلامذة الخطب والمواعظ مرتين في الاسبوع .

وفي سنة ١٨٦٩م فرغ من تأليف قاموسه محيط المحيط وقد أخذه عن أشهر متون اللغة ولا سيما الفيروزابادي وصحاح الجوهري ولكنه يمتاز عنها كلها بما يأتي: (١) انه رتبه على حروف المعجم باعتبار الحرف الاول من الثلاثي المجرد (٢) جمع فيه كثيراً من الالفاظ العامية وفسرها بالالفاظ الفصحى (٣) انـه أوضح كثيراً من أصول الالفاظ الاعجمية كان أصلها مجهولاً أو مهملاً (٤) أنه أدخل فيه كثيراً من المصطلحات التي حدثت في اللغة بحدوث العلوم الحديثة المنقولة عن اللغات الأعجمية فضلاً عن بسط عبارته وسهولتها . فجاء كتاباً وافياً بغرض طلاب اللغة العربية تفهمه العامة وترضى به الخاصـة طبعه في مجلدين كبيرين واستخرج منـه مختصراً سمـاه قطر المحيط أصغر منه حجماً خصصه لتلامذة المدارس . فشاع استعمال الكتابين في سائر انحـاء سوريا وغيرها . فلما تم طبعهما رفع نسخة من محيط المحيط الى الحضرة الشاهانيـة ونسخة الى الصدارة العظمى وأخرى الى نظارة المعارف بالآستانة فوقع عمله هذا موقع الاستحسان فأجازته الحضرة السلطانية بالجائزة الاولى التي ينالهـا المؤلفون وهي مائتان وخمسون ليرة عثمانية وانعمت عليه بالنيشان المجيدي من

الدرجة الثالثة وترى في صدر هذه الترجمة رسم البستاني والنيشان المشار اليه معلق في أعلى صدره .

وفي أول عام سنة ١٨٧٠م أنشأ مجلة علمية أدبية سياسية سماها الجنان وعهد بإدارتها وانشائها في بادىء الأمر الى نجله المرحوم سليم البستاني. وفي أواسط ذلك العام استمان ابنه سليماً في إنشاء صحيفة سياسية سماها الجنة. فهي من أقدم الجرائد السياسية العربية ببلاد الشام . ثم أصدر جريدة الجنينة وتولى تحريرها ابن عمه سليمان أفندي البستاني ناظم الألياذة والجرائد الثلاث المشار اليها لا تصدر الآن .

ووعد في آخر قاموسه بتأليف قاموس للاعلام اي مشاهير الناس ولكنه رأى بعدئذٍ ان يتوسع في مشروعه هـــذا فعوّل على تأليف قاموس شامل لسائر العلوم على اختلاف مواضيعها وأزمانها فشرع فيه عام ١٨٧٥م يعاونه به ولده سليم وبعض الكتاب وسماه « دائرة المعارف » وهو كتاب فريـــد لم ينسج على منواله في اللغة العربية . فأصدر منه رحمه الله ستـة مجلدات وتوفي وهو في بدء السابع فأتمّ السابع والثامن ابنه المرحوم سليم ولكنـه توفي قبل الشروع في التاسع فأصدر ابناؤه الباقون الجزء التاسع بمعاضدة ابن عمهم سليمان أفندي البستاني . ثم حالت موانع أدت الى ايقاف العمل في بيروت ومضت على ذلك بضع سنوات الى ان قدم القاهرة سليمان افندي المشار اليه وأخذ في اتمام الدائرة مع ابني عمه نجيب افندي ونسيب افندي البستاني . فصدر الجزء العاشر ثم الحادي عشر .

وكانت وفاته في أول ايار (مايو) سنة ١٨٨٣م فجأة بعلة في القلب فطـار خبر منعاه في البلاد فاهتزت له انحاء سوريا لان بفقده فقد الوطن السوري

ركناً من اقوى أركانه في نهضته الأخيرة . فبكاه الاهـــل والاصدقاء وأبّنه الخطباء والعلماء ورثاه الكتاب والشعراء .

مآثره واعماله :

نبغ البستاني في سوريا والعلم لا يزال طفـــلاً في مهده فأخذ في التعليم والتهذيب علماً وعملاً فألف الكتب وانشأ المدارس والجرائـــد فهو اول من انشأ مجلة علمية وجريدة سياسية ومدرسة وطنية واول من اقدم على المشروعات الأدبية بعزم ثابت فألف الكتب وسهل طبعها ونشرها . وأشهر مؤلفاتـــه دائرة المعارف ومحيط المحيط وقطر المحيط وكشف الحجاب ومسك الدفاتر ومفتـــاح المصباح في الصرف والنحو وكتب أخرى ورسائل عديدة للتثقيف والتهذيب فضلاً عن ترجمة الكتب الدينية والأدبية . وأنشأ ثلاث جرائـــد الجنان والجنة والجنينة ومن مشروعاته المدرسة الوطنية وقد رأس مدرسة الاحد في بيروت خمس عشر سنة وترجم لها عدة رسائل دينية دعا فيهـــا الى تربية الاولاد والامساك عن المسكرات . وسن قانوناً للمدرسة الداوودية التي انشأها المرحوم داود باشا . وكان كثير الحث على تعليم النساء وهو أول من خطب في هذا الموضوع بالشرق وله خطب كثيرة تلاها على منابر بيروت وفي جمعياتها ومقالات جمة نشرها في جرائده كلها فوائد . وقد وصفنا كتبه في اثناء ترجمة حياته .

صفاته واخلاقه :

كان ربعة ممتلىء الجسم سميناً قوي البنية ولولا ذلك مـــا استطاع القيام بما عني به من المشروعات العقلية والادارية . وكان حازمـــاً نشيطاً لا يفتر عن

التفكر في مشروع يشرع فيه او عمل يعمله لخدمة وطنه . فاذا بدأ بعمل اكب عليه بكليته مواصلاً العمل للقيام به وكانوا اذا افتقدوه ليلاً أو نهاراً عثروا عليه في مكتبه بين كتبه واوراقه . وكان ثابت الجنان قادراً على الاعمال لا يأخذه ملل ولا ضجر مع ما يعترض المشروعات العلمية والادبية في بلادنا من العقبات مما يثبط العزيمة ويضعف العزم وخصوصاً في ايامه . فقد نبغ في عصر لم تتوفر فيه معدات الطبع والنشر ولا اعتاد فيه الناس مطالعة الجرائد والاقبال على المؤلفات . ومع ذلك فانه عمل اعمالاً يقصر عن القيام بها عدة من الرجال الاقوياء فكان يؤلف ويعلم ويترجم ويدير اعماله ويكاتب عماله واصدقاءه ويضبط حساباته ويدير مدرسته علماً وعملاً ناهيك بما كان يقوم به من المساعدات الأدبية لمن يقصده من المستشيرين والمستعينين فيقضي حاجاتهم ويحضر اجتماعات الجمعيات ويقدم الخطب والمواعظ .وهو مع ذلك يستقبل الزائرين بوجه باش فلا يرجع احدهم من بين يديه الا شاكراً حامداً معجباً بلطفه وغيرته .

وكان مخلص الطوية دمث الاخلاق لين العريكة صادق النية محباً لوطنه ودولته كريم الخلق بعيداً عن التعصب كارهاً للتملق والرياء . وكان سخياً على المشروعات الأدبية بسيط المعشر حسن المحاضرة يسترضي جليسه شاباً كان أو شيخاً ويخاطب كلا بما يناسب ذوقه وأخلاقه وكان يعتقد ان المصالح العامة اساس كل تقدم فيبذل جهده في تأييدها متخذاً الصدق شعاراً والنشاط عماداً.

وكان مع ذلك رفيع الجناب وقوراً محترماً لم يجالسه احد الا خرج وفي نفسه انعطاف اليه ، وفي قلبه احترام له فكان حيثما ذكر اسمه قرن بالمدح والثناء والتجلة والوقار فنال مقاماً رفيعاً في نفوس ذوي الوجاهة والمقامات الرفيعة واهل الفضل على اختلاف مذاهبهم ونزعاتهم . وكان من اشدهم صداقة

له استاذنا الخطير المرحوم الدكتور كرنيليوس فان ديك فقد ساكنه وآكله وشاربه زمناً طويلا كانا معاً اخوين متصافيين ونعم الاخوان. فلما توفي صاحب الترجمة رثاه الاستاذ بلسان الصديق وبكاه بدموع الأخ الشقيق ومما قاله وقد وقف لتأبينه في الكنيسة :

« ان لم يكن لك في نقد الرجال يد   انظر الى الموت كيف الموت ينتقد
يدور في الارض حول الناس ملتمساً   كريم قوم ولا يرضى الذي يجد »

« اني لمظلوم بوقوفي هنا اليوم خطيباً لأن المقام الذي يليق بي وأرغب فيه إنما هو أن أقوم في وسطكم باكياً نائحاً على أخي وحبيبي الذي خطف من بيننا خطفاً بل هو معلمي واستاذي ورفيقي فكم أحيينا من الليالي معاً في الدرس والمطالعة والتأليف وحلاوة المعاشر الصادرة عن اتحاد المقاصد والاغراض فكيف أقف فوق جثته خطيباً ولا أركع بجانبه حزيناً كئيباً ».

ومما يدل على منزلته الرفيعة بين أهل الأدب والفضل انه لما وقع القضاء ومات البستاني تسابق الخطباء والعلماء الى تأبينه ورثائه فملأت الجرائد أعمدتها رثاء وسودت صفحاتها حزناً ووقف الخطباء على ضريحه يرددون ذكراه ويذكرون مآثره وآثاره ، وهاك ما قاله في تأبينه المرحوم أديب اسحاق إذ وقف على قبره والناس وقوف خشوع وكنا في جملة السامعين فانتصب الأديب رحمه الله وقد امتقع لونه وابتلت عيناه وأخذ يقول :

« كذا فليجلّ الخطب وليفدح الأمر   وليس لعَين لم يفض ماؤها عذر »

« إن هذا المصاب مصاب جسيم . ان هذا الخطب خطب عميم . انها لمصيبة وطنية يقل في مثلها بذل الدموع ، انها لنائبة عمومية لا يكثر في

نظيرها تمزيق الضلوع . أجل ان المصيبة فيك مصيبة الوطن يا من أنفقت العمر في خدمته مقدماً مجتهداً صابراً متجلداً متعففاً مستقيما . فلا بدع ان تبكيك العيون . ولا غرو أن تنفطر لفقدك القلوب . أو لم تكن فينا مثال الفضل والاجتهاد . ونموذج البراعة والأدب . وعنوان التجلد والثبات في خدمة العلم . بذلت في هذه الخدمة شبابك ووقفت على هذا السبيل اتعابك . وجعلت العلم غايتك القصوى من دنياك . فكان لروحك روحاً وكنت لذاته قواماً .

« فأي أثر أدبي رأيناه ولم تكن أنت البادىء به والداعي اليه . وأي مشروع مفيد شهدناه ولم تكن أنت الشارع فيه أو المعين عليه. أو لست أول من خط على صفحات القلوب ورسم على صحف الجنان « حب الوطن من الايمان » وأول من أقدم على المشروعات الجسيمة العلمية بهمة لا تخاف المصاعب والعقاب ولا تألف إلا صدق العزيمة والثبات .

« بأي آثارك لا تذكر . وبأيها إذا ذكرت لا تشكر . وأي عين ترى أعمال يديك . ولا تفيض دمعاً بل دماً حزناً عليك . وما الذي نذكره من آثار اجتهادك في استمرار ارتيادك ولا نجده عظيما . أمواظبتك على خدمة العلم والأدب أربعين عاماً أوتزيد . أم تآليفك وتصانيفك الفنية بشهرتها عن الوصف . أمحيط محيطك أم قطر محيطك . أم مدرستك الوطنية التي ملأت بها الوطن أنواراً . ورفعت فيها للأدب الصحيح مناراً . أم جنانك التي غرست فيها أغصاناً من العرفان من كل فاكهة زوجان . أم جنتك الزاهرة الدانية القطوف . أم دائرة المعارف التي ... كدنا نخاف أن تدور الدائرة عليها لولا الأمل فيمن أبقيت لها خلفاً كريماً . يحقق رجاء المحبين ويتم الأمنية

ويحقق الرجاء فيكون به للوطن عزاء . في الأثر المأثور يا سادتي « من علمني حرفاً كنت له عبداً » فمن منا لم يعلمه هذا الفقيد حروفاً . من منا لم يستفد منه فوائد صنوفاً . من تصانيفه في كل فن. من مدرسته الوطنية. من جرائده الزاهرة . من آثار معارفه في كل موضوع . ومن منا لم يدفع الملل في أوقات الفراغ . ويغلب الضجر في ساعات الراحة . وينزه الفكر بعد تعب الأشغال، بتلاوة ما كان فقيدنا يحيي لانشائه الليالي الطوال . فكيف لا نرثيه وكيف لا نبكيه . وكيف لا نستعظم المصيبة فيه .

« أي هذا الراقد تحت ظلال الرحمة والرضوان. لقد عشت سعيداً مفيداً. وقضيت حميداً فقيداً . وإن كان عموم الأسف وشمول الحزن مما يبرد ثرى ويجلب غفراناً فقد جادتك سحب الرضوان والغفران مسوقة الى ثراك من كل مكان مستمطرة على ضريحك بكل لسان :

نم سعيداً يا من قضيت فقيداً — بجميل قدّمت بين يديكا
أنت أحسنت في الحياة الينا — أحسن الله في الممات اليك ».

علي باشا مبارك

ولد في قرية برنبال الجديدة من مديرية الدقهلية سنة ١٢٣٩ هـ واسم والده الشيخ مبارك بن مبارك بن سليمان بن ابراهيم الروجي . وابتدأ في تعلم القراءَة والكتابة على رجل من اهل القرية اعمى ثم نزحت العائلة الى ناحية الحماديين فلم يطب لهم المقام فيها فارتحلوا الى عرب السماعنة بالشرقية ولم يكن عندهم فقهاء فانزلوا والد صاحب الترجمة منزل الاكرام وصار مرجعهم اليه في الأمور الدينية لانه كان صالحاً تقياً متفقهاً . فاعتنى بتربية ولده بنفسه ثم

عهد تعليمه الى معلم اسمه الشيخ أبو خضر في مكان قرب برنبال لا يذهب الى والده إلا كل يوم جمعة فختم القرآن بسنتين ولكنه ترك معلمه لكثرة ضربه له وجعل يقرأ على والده . على أن كثرة اشغال الشيخ مبارك حملت صاحب الترجمة على اللهو واللعب حتى نسي ما كان قد تعلمه . فاشفق والده عليه لئلا يعيش بغير تعلم فأراد إجباره على العود الى معلمه فأبى خوف ضربه فتوسط له اشقاؤه لدى والده فسأله عما يريد تعلمه ففضل العدول عن الفقه ورغب في الكتابة لما كان يرى من حسن زي الكتاب وهيبتهم . وكان لوالده صديق يتعاطى الكتابة في القسم بناحية الأخيوة فعهد اليه تعليمه فأنس عليٌّ به وألفه حتى اختلط بعائلته فرأى حالته الداخلية غير ما كان يراه منه في الظاهر واتفق أنه سأله مرة كم يجمع الواحد والواحد فاجابه « اثنين » فضربه بمقلاة البن فشج رأسه وكان ذلك في محضر من الناس فشق ذلك على علي فغادره وسار الى والده يشكوه اليه فنقم عليه والده ففرّ من البيت الى المطرية جهة المنزلة ملتجئاً الى خالة له هناك .

واتفق انتشار الوباء (الكوليرا) إذ ذاك فأصيب به في الطريق فحمله بعضهم الى بيته في قرية صان الحجر وعالجه حتى شفي وادعى انه يتيم الأب والأم ولكن والده وأخاه كانا ساعيين في التفتيش عنه . فلما رآهما في تلك القريـة طلب الفرار ولكنهما امسكاه بعد ذلك وحملاه على العود الى التعليم فسلمه والده الى كاتب آخر فلم يلبث معـه إلا قليلاً ثم عاد الى القراءة على والده فجعله مساعداً لأحد الكتاب في القسم ولم يكن يدفع اليه الراتب المعين له وقدره خمسون غرشاً . فاتفق انه أرسل يوماً لقبض حاصل بعض القرى فقبضه وابقى معـه من المقبوض استحقاقه من الراتب وارسل الباقي فغضب عليه الكاتب حتى إذا اتفق جمع انفار العسكرية وشى به الى المنوط به جمعهم



علي باشا مبارك (١) ١٢٣٩ هـ - ١٣١١ هـ

فامسكوه والقوه في السجن فتوسط له والده امام عزيز مصر إذ ذاك محمد علي باشا فاطلقوا سراحه .

ثم سعى له بعضهم في أن يكون كاتباً لدى مأمور زراعة القطن في أبي كبير فحضر بين يدي المأمور واسمه عنبر افندي فاذا هو حبشي اللون لكنه سمح الوجه ورأى المشايخ والحكام وقوفاً بين يديه فتأخر حتى انصرفوا . ثم دخل عليه وقبل يده فخاطبه بكلام رقيق عربي فصيح والتمس خدمته عنده

---

(١) هذه الترجمة ملخصة عما كتبه عن نفسه في الخطط التوفيقية الجزء التاسع صفحة ٢٧ وما بعدها .

على ان يدفع اليه ٧٥ قرشاً شهريـــاً مع كفاءته من العيش فسرّ عليٌ بذلك ولكنه عجب لحال هذا المأمور المخالفة لسواد وجهه لاعتقاده ان الحكام لا يكونون إلا من الأتراك . وما زال يتحرى الاسباب التي جعلت ذلـك العبد حاكماً حتى علم أخيراً أنه معلماً في مدرسة قصر العيني وان تلك المدرسة تعلم الخط والحساب واللغة التركية . فسأل إذا كان يجوز للفلاحين الانتظام فيهـا فقيل له انما يدخلها من ساعدته الوسائط . فاتقدت في قلبه نار الغيرة ومـال بكليته الى الدخول فيتلك المدرسة على بعدها عن مقره وقلة وسائطه فاستأذن رئيسه يوماً مدّعياً الذهاب الى بيت ابيه فأذن له فغادر البلدة والتقى في قرية بني عياض بطريقه بتلامذة مدرسة الخانقاه فأراد ان يدخلها لعلمه ان تلامذة قصر العيني إنما ينتخبونهم من هذه المدرسة فأجبره والده ان لا يفعـل واختطفه قهراً وحمله الى بيته وعهد اليه رعاية الماشية ولكن ذلـك لم يحوله عن عزمه ففرّ ذات ليلة حتى جاء المدرسة ودخلها ولم يخرج منهـا ليلاً ولا نهاراً خوفاً من ان يلقاه والده فيختطفه ويرجع به الى البيت . ولم يكنوالده يكره تعليمه ولكنه يود بقاءه قريباً منه . ثم جـاء بعد ذلك ناظر تلك المدرسة لانتخـاب انجب التلامذة وادخالهم في مدرسة قصر العيني ولم تكن فيها دراسة الطب بعد . فكان عليٌ من المنتخبين لذكائه وفطنته فدخل تلك المدرسة سنة ١٢٥١ هـ وسنه ١٢ سنة فقط .

وكانت معاملة التلامذة هناك سيئة ومهينةجداً والطعام تافهاً قبيحاً فأوقع صاحب الترجمة في مرض الجرب واشتد عليهفعلم والده بذلك فأراد استخراجه من المدرسة بالحيلة لانهم لم يؤذنوا له باخراجه فلم يرض علي بل فضل البقاء في المدرسة رغبة في اتمام علمه فقبله والده وودعه وهما باكيان .

وفي السنة التالية سنة ١٢٥٢هـ نقه من مرضه وعاد الى دروسه ولكن محمد

علي باشا أمر بان تجعل مدرسة قصر العيني لتعليم صناعة الطب فنقل تلامذة العلم منها الى مدرسة أبي زعبل . وكانت العلوم الرياضية لديه الى ذلك الحين كالطلاسم لا يفهم لها معنى لتعقدها وسوء طرق تدريسها فاعتنى ناظر تلك المدرسة المرحوم ابراهيم بك رأفت بالقاء تلك الدروس بنفسه يشرحها للتلامذة بأبسط عبارة – قال صاحب الترجمة « وكانت طريقته هذه باب الفتوح عليّ » .

وأخذ عليّ من ذلك الحين يذوق لذة العلم على انواعه ثم انتخب فيمن انتخب لمدرسة المهندسخانة فدرس فيها خمس سنوات .

وفي سنة ١٢٦٠ هـ عزم المغفور له محمد علي باشا على ارسال أنجاله الى فرنسا للتعلم فانتخب علي في جملة تلك الارسالية فأقاموا في باريس سنتين ثم أرسل بعضهم وفي جملتهم هوالي متس وقد تقلد كل منهم رتبة الملازم فأقاموا في هذه أيضاً سنتين درسوا فيها فن الحرب وما يتعلق به .

ثم لما توفي المغفور له محمد علي باشا وتولى عباس باشا استقدم الارسالية الى مصر وأنعم على صاحب الترجمة ورفاقه برتبة يوزباشي والحق هو بالجيش المصري وقائده إذ ذاك سليمان باشا الفرنساوي الشهير . ثم انتدبه المغفور له عباس باشا الأول ليكون في لجنة الامتحانات التي عينها لامتحان مهندسي الأرياف فقام بتلك المهمة حق القيام .

وفي سنة ١٢٦٦ هـ أوعز اليه عباس باشا ان ينظم أسلوباً للمدارس مع الاقتصاد بالنفقة فنظمه وقدمه اليه فاعجبه وأنعم عليه بمقابل ذلك برتبة اميرالاي . ولكنه طلب اليه ان يتولى نظارة تلك المدارس بنفسه فاهتم بذلك أشد الاهتمام ولم يكتف بالادارة ولكنه كان يؤلف بعض الكتب اللازمة

للتدريس وأتى الى المدرسة بمطبعة حجر لطبع الكتب وكان يراقب سير المدارس جيداً من النظافة والترتيب وطرق التعليم والف في العمارة كتاباً للتعليم (لم يطبع) .

وما زالت الحال كذلك حتى تولى المغفور له سعيد باشا فوشي اليه به ففصله من نظارة المدارس وبعث به في الحملة التي سارت لمحاربة روسيا مع الدولة العلية سنة ١٢٧٠هـ فسافر وقاسى أهوالاً كثيرة وعاد سالماً وعند عودته كان في جملة من أخلي سبيلهم من العسكرية فعاد الى مسكن حقير أوى اليه لا يملك شيئاً ولم يلتفت اليه أحد ممن كانوا له أصدقاء وقت الرخاء . مكث سنين في هذه الحال حتى أنف المناصب والرتب وألف العزلة والسكنى بعيداً عن الناس وعزم على العود الى بلدته . وفيما هو في ذلك صدر الأمر بفرز ضباط الجهادية لانتقاء الصالحين منهم للخدمة فكان هو من المختارين ، فتقلد منصب معاون في نظارة الجهادية ، ثم تعين وكيلاً لمجلس التجار ثم مفتشاً لنصف الوجه القبلي . ثم أُقيل من هذه المناصب وتبرع بتعليم الضباط والصف ضباط القراءة والكتابة والهندسة . وفي أثناء ذلك ألف كتاباً في الهندسة سماه « تقريب الهندسة » وكتاباً آخر في الاستحكامات وآخر سماه تذكرة المهندسين . ثم رفت فضاقت ذات يده حتى عزم على معاطاة التجارة فاشترى جانباً من الكتب كانت الحكومة عرضتها للمبيع بأثمان بخسة فاشتراها وباعها فربح منها ربحاً حسناً ولكنه ما زال قانطاً مما كانت تطمح إليه أنظاره من المناصب بسبب تغير سعيد باشا عليه بما وشي به إليه كما قدمنا . فلما توفي سعيد باشا سنة ١٢٧٩هـ وخلفه الخديوي الأسبق اسمعيل باشا تجددت آماله وألحقه اسمعيل باشا بمعيته ثم عينه في نظارة القناطر الخيرية وكانت لا تزال في حاجة الى المهندسين فأجرى فيها عدة اجراءات . وفي سنة ١٢٨٢ هـ بعث به

للنيابة عن الحكومة الخديوية في المجلس الذي تشكل لتقدير الاراضي التي هي حق شركة خليج السويس على مقتضى القرار المحكوم به من امبراطور فرنسا فقام بتلك المأمورية حق القيام فأحسن اليه برتبة المتايز وأنعمت عليه الدولة الفرنساوية أثناء ذلك برتبة (أوفيسيه ليجيون دونور) .

وفي سنة ١٢٨٤ هـ عهدت إليه وكالة ديوان المدارس . ثم انتدبه الخديوي للسفر الى باريس في مهمة مالية فاستفاد من سفره هذا فوائد جمة واجتلى أهم المتاحف والآثار والمدارس . وبعد عودته بقليل أنعم عليه برتبة ميرميران وأحيلت الى عهدتـه ادارة السكك الحديدية المصرية وادارة ديوان المدارس وديوان الاشغال العمومية ونظارة الاوقاف مع بقائـه على نظارة القناطر الخيرية . ولا يخفى مـا يقتضي للقيام بكل هذه الاعمال من الهمة والنشاط والقدرة فكان يعمل ليله ونهاره حتى لا تفوته فائتة . وفي أثنـاء ذلك سعى في نقـل المدارس من العباسية الى درب الجماميز في القاهرة حيث لا تزال الى اليوم وأسس الكتبخانة الخديوية .

وهي أيضاً هناك الى هذه الغاية وأنشأ كثيراً من المدارس الاميرية المنظمة في البنادر الكبيرة بالوجهين القبلي والبحري. وأنشأ مدرسة دار العلوم يتخرج فيها المعلمون ويتعلمون طرق التعليم والعلوم العالية . ومعرضاً للآلات الطبيعية وغيرها من أدوات العلوم الرياضية لكي يتمرن عليها التلامذة فتكون معارفهم مبنية على المشاهدة والاختبار . ووجه التفاته الى الأوقاف فأصلح كثيراً فيها ودبر أملاكها ورتب حساباتها .

وأما أعماله مما يتعلق بديوان الاشغال فكثيرة منها تنظيم شوارع القاهرة وتوسيعها كما هي عليه الآن . ومن الشوارع التي فتحت على يده شارع محمد علي

وميدانه وشوارع الأزبكية وميدانها وما يحيط بعابدين من الشوارع ونحوها وباب اللوق وكانت جهات الفجالة والاسماعيلية تلالاً وآكاماً قذرة فأنعم بها الخديوي الأسبق على الناس فمهدوها وبنوا فيها القصور والحدائق حتى صارت كما نراها الآن . وفي عهده بني كبري قصر النيل الباذخ المتين وتنظمت الجزيرة وأنشئت فيها الشوارع المحفوفة بالأشجار . وجلبت المياه الى القاهرة بواسطة الشركة وأنشىء كثير من الجسور والترع في جهات القطر كترعة الابراهيمية والاسماعيلية . وفي عهد توليه الأشغال أيضاً تم فتح قنال السويس رسمياً ودعي الملوك لحضور الاحتفال بذلك فكانت الاعمال اللازمة للقيام بمعدات ذلك الاحتفال منوطة به فأهدى إليه بعد الاحتفال نيشان غران كوردون من النمسا ونيشان كوماندور من فرنسا والغران كوردون من بروسيا .

وبقيت عهدة تلك الادارة بيده الى سنة ١٢٨٨ هـ ثم فصل عنها لخلاف حدث بينه وبين ناظر المالية اذ ذاك وتعين ناظراً للمكاتب الأهلية. ثم استقل ديوان الاشغال فتعين وكيلاً له ثم تعين في مناصب أخرى حتى سنة ١٨٧٧ م . عندما ترتب مجلس النظار وصارت ادارة أعمال الحكومة منوطة به فتألف المجلس تحت رئاسة نوبار باشا وتعين صاحب الترجمة ناظراً على المعارف والاوقاف فبذل جهده في توسيع نطاق المعارف فأنشأ مدارس كثيرة في الوجه البحري . حتى كانت حادثة تذمر الجهادية ثم سقوط الوزارة النوبارية وتألفت وزارة أخرى لم تدم طويلاً لانفصال الخديوي الاسبق وتولي المرحوم الخديوي السابق وفي مدته هذه ايضاً أجرى اصلاحات كثيرة وخصوصاً في الرّي .

وعقب تولي المغفور له الخديوي السابق الحادثة العرابية وكان فيها صاحب الترجمة من المحافظين على ولاء الجناب الخديوي وطالما حث الناس على الرضوخ

والاذعان ولم تنجح مساعيه . فلما انقضت تلك الازمة بالاحتلال الانكليزي وتشكلت الوزارة تقلد هو نظارة الاشغال ونال رتبة روملي بيكلر بيكي سنة ١٨٨٢م وعاد الى اهتمامه في الري وما يتعلق به من بناء الجسور والحيضان وحفر الترع وتوزيع المـــاء . وفي اواخر تلك السنة سقطت تلك الوزارة وتنصبت الوزارة النوبارية وبقيت الى سنة ١٨٨٨ م. ثم استعفت وقـامت الوزارة الرياضية فعهدت فيها نظارة المعارف الى صاحب الترجمة فاجرى في المعـــارف هذه المرة ايضاً اصلاحات جمة ثم اعتزل الاعمال وما زال حتى توفاه الله .

مؤلفاته :

لصاحب الترجمة مؤلفـــات مفيدة تقدم ذكر بعضها واشهر ما بقي منها كتاب « الخطط التوفيقية » طبع بمصر في عشرين جزءاً وهو تكملة لخطط المقريزي ومؤلف على مثالها . ومنها كتاب علم الدين وهو عبارة عن روايـة أدبية عمرانية في عدة اجزاء .

الدكتور كرنيليوس فان ديك

ترجمة حياته :

ولد الدكتور فان ديك في قرية كندرهوك من اعمـــال ولاية نيويورك باميركا في ١٣ اوغسطس (آب) سنة ١٨١٨م ووالداه هولانديـا الاصل من

عائلة هاجرت الى امـيركا منذ مئتي سنة . وولد لهما سبعة بنين هو اصغرهم وسمياه كرنيليوس فتلقى مبادىء العلم في مولده فظهرت عليه مخائل النجابة والذكاء واتقن اللغتين اليونانيـــة واللاتينية فضلا عن اللغتين الانـكليزية والهولاندية اللتين رضعهما مع اللبن . وحاز قصب السبق على رفاقــه وكلهم اكبر منه سناً وكان والده يتعاطى مهنة الطب في تلك القرية وله فيها صيدلية



الدكتور كرنيليوس فان ديك

١٨١٨ م — ١٨٩٥ م.

(اجزاخانة) فكان كرنيليوس يعمل ساعات الفراغ في صيدلية والده وهو مع ذلك مغرم بالعلم عامل على اكتسابه بكليته حتى جمع من تلقاء نفسه منبتة فيها كل النباتات البرية التي تنمو في تلك النواحي وتعلم تجفيفهـــا وتقسيمها

وترتيبها بنفسه على نظام لينيوس وسماها بأسمائها وهو صبي صغير فكان ذلك دليل على ميله الفطري الى العلم .

ثم اخنى الدهر على والده فنكب بحادثـة أذهبت كل ماله ـ ذلك انه كفل صديقاً له على مال فحان زمن الدفع فغدر الصديق فاضطر هو الى دفع المال فاستغرق كل ما كان يملكه من متاع وعقار فاصبح صفر اليدين ولم يعد في وسعه تعليم اولاده في المدارس العالية . أما صاحب الترجمة فكان لشدة ميله الى العلم لا يفتر لحظة عن تدبير الوسائل للحصول على الكتب وهو في البيت اما بالاستعارة أو بالاستئجار بدريهمات يجمعها بشق الأنفس أو أن يحفظ مضمونها بالسماع . وكثيراً مـا كان يتزلف الى بعض اصحاب الكتب التماساً لمطالعة كتبهم . وكان في تلك القرية طبيب كريم الأخلاق في داره مكتبة فلما آنس في الغلام ذلك الاجتهاد أخذته الحمية ودعاه اليه وأباح له مطالعة كل مـا يريده من الكتب فأكب على المطالعة يغترف العلم اغتراف الظمآن للماء الزلال وكان في تلك المكتبة كتاب في علم الحيوان للعالم كيفيه الشهير فدرسه حتى تفهمه جيداً ثم درس بنفسه كل ما تيسر له الوصول اليه من حيوان بلاده .

ولم يبلغ الثامنة عشرة من عمره حتى بلغ من العلم مبلغاً حسناً وصار يلقي خطباً في فن الكيمياء على صف البنات . ولا يستغرب بلوغ مثله هذا المقدار من العلم ولكن الغريب انه ناله بالرغم عن ضيق ذات يده وقلة وسائل التعليم ثم عكف على دراسة الطب على والده وكان قد أتقن فن الصيدلة علماً وعملاً فرأى بعض ذوي قرباه ما خصه الله به من المواهب الثمينة فخافوا أن يحول الفقر بينه وبين خدماته لبني الانسان فادخلوه مدرسة سبرنكفيلد ثم مدرسة فيلادلفيا وهناك نال الدبلوما الطبية مع لقب دكتور وكانت مساعدة هؤلاء

له اساساً لأفضال هذا الرجل العظيم على بلادنا جزاهم الله خيراً .

ثم اختاره مجمع المرسلين الأمريكانيين مرسلاً وطبيباً للديار السورية ففارق الأهل والوطن وهو في الحادية والعشرين من عمره وجاء مدينة بيروت فوصلها في ٢ افريل (نيسان) سنة ١٨٤٠م وكان في بيروت عند وصوله حجر صحي على واردات أوربا فاقام في الحجر (الكرنتينا) اربعين يوماً حفظ في اثنائها مئتي كلمة من اللغة العربية . ولم تطل مدة إقامته في بيروت فأوعز اليه أن يسير الى القدس لتطبيب عائلات بعض المرسلين . ثم عاد الى بيروت وشرع في تعلم اللغة العربية فتعرف بالمرحوم المعلم بطرس البستاني وكانا عزبين فأقاما معاً في غرفة واحدة وائتلف قلباهما وتمكنت بينهما ربط المودة وما برحت الصداقة بينهما متينة يتحدث بها اهل الشام حتى الآن . ونذكر اننا شهدنا الصلاة على المرحوم البستاني يوم وفاته وقد طلب من الدكتور فان ديك تأبينه فوقف وقد تلعثم لسانه وارتعشت شفتاه وخنقته العبرات ولم يقو على الكلام ما خلا قوله « يا صديقي ورفيق صباي » كررها مراراً بصوت ممتزج بالبكاء فابكى كل من حضر .

فتناول مبادىء القراءة العربية اولاً من الياس فوار البيروتي ثم قرأ على أبي بشاره طنوس الحداد الكفرشيمي وأخذ شيئاً عن صديقه البستاني ثم أتقن الفنون العربية على الشيخ ناصيف اليازجي والشيخ يوسف الاسير فبرع فيها حتى صار من المعدودين في معرفتها وحفظ اشعارها وامثالها وشواهدها ومفرداتها وكل علومها وأتقن التلفظ بها اتقاناً لم يسبقه اليه احد قبله من جالية الافرنج على اختلاف اصولهم ولغاتهم فاذا نطق لا تميز نطقه عن نطق اهل الشام مطلقاً فضلاً عما وعاه في حافظته من الأمثال الفصيحة والعامية

حتى صار يضرب المثل بضربه الأمثـــال وأتقن أيضاً اللغـــة العبرانية والسريانية .

وفي خريف سنة ١٨٤٢م أنتقل الى عيتات بلبنان واقترن هناك بالسيدة جوليا بنت المستر بطرس آبت قنصل انكلترا في بيروت المشهورة بلطفها وحسن اخلاقها وفي الصفحة رسماهما بعيد الزفاف سنة ١٨٥٢ م

وكان اقترانه هذا عوناً كبيراً له على اتقان اللغة العامية وحفظ امثالها فقد كان لقرينته خادمة تدعى اسماء كانت نابغة في حفظ الأمثال العامية اشبه بقاموس حيّ لها فكان الدكتور يأخذ عنها الأمثال والألفاظ العامية ويحفظها حتى تمكن منها كما تقدم .



قرينته

ومما حكاه لنا أعرف الناس بأحواله انه لم يكن في منزله عند زفافه إلا ستة كراسي قش وثلاث حلل ومائدتان من خشب غير مدهون وكانون من طين غير ان ذلك كله لم يحط من منزلته ولا قلل شيئاً من قدر خدماته .

ثم انتقل من عيتات الى قرية عبيه وهنـــاك أنشأ مدرسة عبيه الشهيرة بمعاضدة صديقه البستاني وكانت اللغة العربية قليلة الكتب التعليمية في الفنون الحديثة فأخذ في تأليف الكتب اللازمة للتدريس فألف كتاباً في الجغرافية وآخر في الجـــبر والمقابلة وآخر في الهندسة وآخر في اللوغرثمات والمثلثات البسيطة والكروية وسلك البحار والطبيعيات ومعظم هذه الكتب مطبوع .

وبعد أن قضى في عبيه أربع سنوات بالتدريس والتأليف دعـاه مجمع المرسلين الى صيدا وعهد بمدرسة عبيه الى المرحوم سمعان كلهون المشهور بالفضل والاستقامة والتقوى وبقي الدكتور فان ديك مع صديقه الدكتور طمسن في صيدا وتوابعها معلماً واعظاً ومبشراً جائلاً من مكان الى مكان حتى توفي المرحوم عالي سميث سنة ١٨٥٧م فانتدب الدكتور فان ديك لترجمة التوراة والانجيل مكانه.

وعالي سميث المذكور من أفاضل المرسلين الاميركانيين . وكان قد باشر ترجمة الكتاب من اللغتين الاصليتين بمعاونة المعلم بطرس البستاني وأتم ترجمة سفر التكوين وسفر الخروج إلا الاصحـــاح الأخير منه وراجعها وصححها وترجم أسفاراً اخرى لم يراجعها . فلما انتدب الدكتور فان ديك مكانه ابقى السفرين الأولين على حالهما وترجم وراجع ما بقي وعانى في غضون الترجمة اتعاباً جزيلة في التفتيش عن أصل كل لفظة باللغات الاصلية وتطبيقهـــا على العربية ما جعل الترجمة الاميركانية كما وصفناها في كلامنا على ترجمات التوراة في السنة الثانية من الهلال . وتولى مع الترجمة ادارة المطبعة الاميركانية المشهورة وحسن فيها وزاد الحركات على الحروف حتى صارت من احسن مطابع المشرق وأشهرهـا وأتم الترجمة سنة ١٨٦٤م وبعثه مجمع المرسلين الى الولايات المتحدة سنة ١٨٦٥م ليتولى أمر طبعها وتصفيح صحائفها بالكهربائية هنـاك فأقام في الولايات المتحدة سنتين حتى أتم هذا العمل وعاد الى سورية سنة ١٨٦٧م.

وكان أثناء اقامته في اميركا هذه المرة يدرس العبرانية في مدرسة يونيون اللاهوتية وكثيراً ما كان الطلبة يعافون درس هذه اللغة ويأبون الحضور في ساعة تدريسها لصعوبتها وعدم مناسبة اسلوب القائها.. اما هو ففيّر اسلوب التدريس وجعل يعلمهم اياها كلغة حية فصار الطالب يجد في درسها معنى ولذة ويرغب في تحصيلها فتقاطر الطلبة الى صفه وتكاثر عددهم فلما رأت عمدة المدرسة ذلك عرضت عليه ان يبقى استاذاً للعبرانية فيها وعينت له راتباً كبيراً فاعتذر عن قبوله قائلاً « قد تركت قلبي في سورية فلا لذة لي إلا بالعودة اليها » وتم في ذلك الاثناء انشاء المدرسة الكلية السورية في بيروت على نفقة جماعة من اهل البر في الولايات المتحدة باميركا فعرضت عليه عمدة تلك المدرسة الكبرى في اميركا ان يكون استاذاً فيها فأجابها الى ذلك ثم طلبت اليه ان يعين راتبه السنوي بنفسه فكتب ٨٠٠ ريال مع ان راتب اصغر اساتذتها لا يقل عن ١٥٠٠ ريال وانما فعل ذلك حباً بخير البلاد ونفع اهلها .

ولما وصل بيروت باشر تأسيس المدرسة الكلية الطبية مع صديقه الدكتور يوحنا ورتبات . ووضعا وحدهما نظاماً لدروسها وشرعا في التعليم لا يحاسبان على اتعاب ولا ينظران الى مكافأة أو مدح . ولما رأى الدكتور فان ديك ان المدرسة تفتقر الى استاذ يدرس الكيمياء فيها أقبل من فوره على تدريسها وهو انما عين أستاذاً لعلم الباثولوجيا لا لغيره . ولم يكن في المدرسة حينئذ من أدوات الكيمياء الا قضيب من زجاج وقنينة عتيقة فانفق مئتي ليرة انكليزية من ماله لاستحضار ما يلزم من الأدوات . والف كتابه المشهور في مبادىء الكيمياء لتدريس التلامذة وطبعه على نفقته وهو يعلم انه لا يسترجع نفقات طبعه قبل مماته . وما زال يدرس هذا الفن ست سنوات متوالية ينفق على

لوازم التدريس من جيبه . وعينت عمدة المدرسة أستاذاً للكيمياء فجاء وبقي سنتين يتعلم العربية ويقبض أجرته والدكتور فان ديك يدرس مكانه مجاناً حباً بمصلحة المدرسة وخير ابناء البلاد . ولما تولج أستاذ الكيمياء أشغاله ترك الدكتور فانديك للمدرسة كل ما أنفقه عليها ولم يأخذ مقابله إلا مئة ليرة انكليزية .

ولم يقتصر الأستاذ على ذلك ولكنه تولج منصباً ثالثاً لتعليم علم الفلك لأن المدرسة لم يكن في وسعها القيام بنفقة تدريسه فتبرع هو بتدريس هذا الفن مجاناً والف له كتاباً وطبعه على نفقته ايضاً كما طبع كتاب الانساب والمثلثات والمساحة والقطوع المخروطية وسلك البحار . ولم يكن في المدرسة آلات فلكية يعتد بها فما لبثت ان شرعت في بناء مرصدها حتى ابتاع له آلات بقيمة سبعمائة ليرة انكليزية من ماله الخاص . وأثثه وفرش فيه على نفقته واشتهر ذلك المرصد باسمه في المشارق والمغارب. ولما خلفه معاونه في تدريس علم الفلك الوصفي الف كتاباً في الفلك العملي وجعل يعلم به الطلبة على الآلات . وكان مع تدريسه الباثولوجيا والكيمياء والفلك يتولى إدارة المطبعة الأميركانية فينتقد ما يطبع فيها من الكتب ويهتم بتأليف النشرة الاسبوعية ويطبب في المستشفى البروسياني وكان المرضى يتقاطرون عليه أفواجاً أفواجاً حتى بلغ عددهم الألوف في السنة فضلاً عن تأليف الكتب العلمية والطبية والدرس والمطالعة والامتحانات العلمية وحضور الجمعيات النافعة ومراسلة العلماء في سائر أقطار الأرض مما يعجز جماعة من الرجال عن القيام به .

وفيما هو لاه بأشغال التأليف والتدريس والرصد والمراسلات العلمية عما سواها من مطامع البشر نكبت المدرسة الكلية بحادث شوه تاريخها ولا نريد ذكره لأن فيه إثارة الاحقاد وتكدير العواطف . ولكننا نقول بالاجمال ان

الدكتور فان ديك أظهر في ذلك الحادث شهامـــة وغيرة وشرفاً ومروءة تذكر له مدى الدهر لأنه ضحى مصلحته الخصوصية انتصاراً للحق والعدل فاعتزل عن المدرسة محتملاً آلام فراقهـــا وملام ذوي الاغراض محافظة على مبادئه . فعوضته المدرسة عما ترك في مرصدها خمسمائة ليرة انكليزية دفعتها له أقساطاً . وما زال يطبب في المستشفى البروسياني على جاري عادته حتى سعى البعض في صد فؤاده عن بني الوطن فترك المستشفى على غير رضى منه. لكنه انما تركه ليحيي في الوجود مستشفى مـــار جرجس لطائفة الروم الارثوذكسيين فكان له في تأسيسه وانشائه أياد تذكر . وما زال يطبب المرضى فيه ويبذل ما في وسعه في تنشيطه أدبياً ومادياً الى أواخر أيامـه والطائفة الأرثوذكسية لا تنسى فضله في ذلك .

وفي ٢ أفريل سنة ١٨٩٠م احتفل اهل سوريا بمرور خمسين عاماً على إقامته بينهم فأقاموا له يوبيلا شاركهم فيه أفاضل المشارقة في مصر والعراق وغيرهما بالاكتتاب وتقاطرت عليه الرسائل والقصائد وكتب التهنئة من وجهاء سوريا وأمرائها وجمعياتها وبطاركتها وأساقفتها ومجامعهـــا على اختلاف المذاهب والنحل وملأت جرائد القطرين السوري والمصري أعمدتهـا بذكر مآثره وأفضاله واعماله ولولا ضيق المقام لجئنا ببعض ما قيل فيه ولكن ذلك مجموع في كتاب مطبوع على حدة بمطبعة الأميركان ببيروت فمن أراد التفصيل فليطالعه.

اليوبيل الخمسيني :

لما دنى اليوم الثاني من افريل سنة ١٨٩٠م وهو اليوم الذي وطئت به قدم الدكتور أرض الشام منذ خمسين عاماً اجتمعت فئـــة من وجوه بيروت على اختلاف مذاهبهم والفوا لجنة تجمع ما تيسر من المال لتبذله في تقديم هديـة



الدكتور فان ديك بلباسه الشرقي

لحضرته دليلاً على إقرارهم بفضله واعترافهم بمقدار خدماته .

وقبل مباشرة العمل سارت اللجنة الى دولة الوالي اذ ذاك (عزيز باشا) واستأذنته فنشطها كثيراً ومما قاله لها « يسرني ان ارى السوريين يعترفون بالجميل ويقدرون خدم الرجال حق قدرهاوهو دليل على تمدنهم ورقةعواطفهم ولا ريب ان سيدنا ومولانا الخليفة الاعظم يشترك مع رعيته الامينة فيمكافأة الرجل الذي خدم الانسانية في بلاد جلالته خمسين عاماً » .

فعادت اللجنة وقد اشتد عزمها وباشرت العمل بالاكتتاب فآنست من السوريين وغيرهم رغبة شديدة في تنشيط مشروعها وانعم جلالة السلطان الأعظم في أثناء ذلك على الدكتور بالنيشان المجيدي من الرتبة الثالثة مشاركة لرعيته في اكرامه . وما زالت اللجنة تكاتب الجهات وتنشر اعمالها في الجرائد والمجلات حتى جاء يوم اليوبيل فاذا في صندرقها خمسماية ليرة فتفاوضت في ماذا تعمل بها واستشارت دولة الوالي فاجمع الرأي على ان تقدم اليه نقداً على

شريطة ان لا يبذلها في سبيل الخير كمادته بل يبقيها في يده بالوجـــه الذي يختاره علامة دائمة لما عند أهل الوطن من الشكر والمحبة له .

ولما كان صبح الاربعاء ٢ افريل (نيسان) سنة ١٨٩٠م سار اعضاء اللجنة الى دار الاستاذ للقيام بفروض التهنئة وتقديم الهدية فـــاذا بتلك الدار قد غصت بالوفود من المهنئين على اختلاف الأديان والنحـل والدكتور وقرينته جالسان في صدر القاعة يقابلان المهنئين بما جبلا عليه من اللطف والانس فدخل اعضاء اللجنة وقدموا له عريضة مكتوبــة على رق غزال تتضمن أحساسات السوريين نحوه واقرارهم بفضله وتلاها الرئيس وهاك نصها :

« ايها السيد الجليل الفاضل :

« روت عنك اخبار المعالي محاسناً كفت بلسان الحال عن السن الحمد »

« لما علم السوريون بلوغكم نهاية السنة الخمسين منذ حضوركم الى سورية وعرفوا انكم شغلتموها بخدمة الوطن رأوا مما توجبه خدمة الانسانية اشعاركم بمـا في افئدتهم من عواطف الشكر على مـــا لكم من الأيدي البيضاء عندهم في كل هاتيك السنين ولم يفتهم انكم منذ وطئتم ارضهم نهجتم المنهـــج السوري حتى صرتم كاحد ابناء سورية وشربتم حبها ورغبتم في نفعها وجعلتم غاية حياتـكم افادة سكانها . فالفتم كثيراً من مفيدات الكتب على اختلاف صنوفهـــا من ادبية وعلمية وطبية وسعيتم في تشييد صروح العلم ونوادي الخير وعلمتم الفقراء والمرضى فنشأ من مساعيكم واتعابكم عظيم الفوائد لشبان هـــذا القطر وقد صار كثيرون من تلامذتـكم فيه كهولا وشاركـكم بعضهم في الشيخوخة . وهم جميعاً موقنون انه ما حملكم على ذلك سوى حب الانسانيـــة بخلوص اثبتته شواهد السنين . وعلى ما ذكر اختاروا لجنة تنوب عنهم في التهنئة لـــكم

بادراككم هذا اليوم الموافق ليوم دخولكم سورية في سنة ١٨٤٠م . وفي التصريح باطيب الثناء عليكم لما سبق بيانه من مناقبكم ومآثركم وفي سؤال المثيب الكريم ان يطيل بقاكم ويجعل سائر ايامكم زمن راحة وسلام . وتقديم هدية منهم على اختلاف الملل والمذاهب وهي وان تكن أمراً يسيراً لا تقصر عن ان تكون آية ما في قلوبهم من خالص الشكر لجنابكم . وفي الختام نسأله تعالى أن لا يضيع لكم اجراً وأن يجزيكم خير الجزاء . آمين » .

فأجابهم الدكتور والدموع تتلألأ في عينيه من الفرح قائلاً :

« ليس لدي ألفاظ تعرب عما في قلبي فالأجدر بي قبول اكرامكم بالسكوت الأبكم وهو شاهد لا تحتاج شهادته الى تزكية ، ومن أقوى حاسياتي اليوم اني لم أفعل شيئاً يستحق من حضراتكم كل هذا الالتفات واذا كان الله سبحانه وتعالى قد فسح في أجلي حتى أقضي في هذه الديار ٥٠ سنة فلست أرى أن ادعي لنفسي جميلاً. على اني اصرح قدام الله والناس اني أقمت بين أهل الشرق بكل نية صافية ولم أقصد غير نفع جيلي وترقيته وتخفيف الأثقال على قدر الاستطاعة وهذا من فضل الله يؤتيه من يشاء » الى أن قال « فأقدم لحضراتكم الشكر الجزيل من صميم القلب وأرجو أن تنوبوا عني في ابلاغ شكري وامتناني لكل من شارككم في هذا الاكرام ، ولا سيما أصحاب الجرائد الذين سعوا في المعونة على ما أجريتموه أي من الجرائد المصرية الاهرام والمقتطف والشفاء واللطائف والمقطم . أما الجرائد السورية أعني لسان الحال وبيروت والثمرات والصفاء والمصباح والتقدم فلا اتجاسر ان أتفوه من جهتها لأن (القاق في الجوزة) جزاكم وإياهم الله عني كل خير في الدنيا والآخرة وأدام لنا مليكاً رتعنا تحت ظله بالأمن والسلام ».

ثم نهض جماعة من العلماء والشعراء وأرباب المناصب العالية وغيرهم من

وجهاء البلاد وتلوا القصائد والخطب في تهنئة حضرته وتقديم الهدايا . ومن جملة ما قدم اليه منها صورته بالفوتوغرافية مرسومة كبيرة على صفيحة من البلور يحيط بها برواز شرقي جميل . ومكتبة ثمينة مصنوعة من خشب الجوز وفيها تآليفه مجلدة تجليداً متقناً قدمها اليه المرسلون الاميركان في سورية . وطاقم قهوة فضي قدمته عمدة مستشفى ماري جرجس للروم الارثوذكس . وكتاب فوتوغرافي (البوم) من عمدة المستشفى البروسياني وغير ذلك .

أعماله ومؤلفاته :

قضى الاستاذ العلامة رحمه الله نيفاً وخمساً وخمسين عاماً في سورية وهو (كما وصفته جمعية الروم الارثوذكس) لا تنفتح في الصبح عيناه إلا عن لائذ بجنابه ولا تسير في النهار قدماه إلا الى معونة أعدائه وأصحابه . ولا يغلق في المساء بابه إلا على منصرف مرتض واقف في بابه . ولا يأوي في ليلته غرفته إلا لينكب على مكتوباته وكتابه — حياة امتلأت بطاعة الحداثة ونشاط الصبا ومروءة الفتوة واقدام الشباب ومقدرة الكهولة وحكمة الشيخوخة . وهي في كل أدوارها ذكاءٌ وفطنة ودرس ومعرفة وعلم وعمل واستفادة وافادة وعبادة الله وحب للقريب وخدمة للانسانية .

وزد على ذلك قيامه بتنشيط المشروعات العلمية والادبية فلم تقم جمعية علمية أو أدبية إلا كان هو المنشط في انشائها ولا أنشأت مدرسة إلا كانت له يد بيضاء فيها وهكذا قل عن المستشفيات والكنائس . ولا يقتصر في مساعدته على التنشيط الأدبي ولكنه يجود بالبذل والعطاء والخدمة الشخصية علماً وعملاً لا ينظر في كل ذلك الى مذهب دون آخر أو طائفة دون أخرى فهذا مستشفى القديس جاورجيوس للطائفة الكاثوليكية ببيروت فإن الدكتور

أول من فتح جيبه لتنشيطه وقضى بضعة عشر عاماً يطبب مرضاه ويخفف أسقامهم ويلطف أحزانهم برقته وإيناسه وهذه الجمعية السورية لا يذكر اسمها إلا مقروناً باسمه فانها اول جمعية تأسست في بلاد الشام وهو الواضع لأساسها. اسأل جمعية شمس البر والمجمع العلمي الشرقي اسأل المجامع الدينية الانجيلية. ناهيك بما أفاده بعظاته وخطبه ومراسلاته. بل ما قولك بما آثره بقدرته فإن من يجاوره أو يعاشره لا تلبث أن تراه قد اكتسب شيئاً من أخلاقه وهو لا يدري فيعكف على اكتساب العلم وخدمة الوطن. ومما نذكره له ونعدّه خدمة كبرى ايعازه الى أحد منشئي المقتطف ان ينقل كتاب سر النجاح الى اللسان العربي فإن نشر هذا الكتاب النفيس بين قرائها أثر تأثيراً كبيراً في بعثة العلم والعمل بينهم لأنه كتابٌ لم يكتب علماء الاخلاق والاعمال على مثاله. ولا ريب عندنا أنه كان سبباً كبيراً في إنهاض الذين قرأوه وخصوصاً الشبان فإن مطالعة ما فيه من سير رجال العلم والعمل تثير في أنفس الأحرار رغبة في الاقتداء بهم والنسج على منوالهم. على ان في سيرة استاذنا رحمه الله ما يغني عن مطالعة ذلك الكتاب.

ومن اعماله انه كان اكبر مساعد في تأسيس المدرسة الكلية السورية والمرصد الفلكي والمتريولوجي. وكان دعامة اعمال المرسلين الاميركانيين في سوريا. ومن اقوى اركانهم في نشر تعاليمهم وبث روح العلم والعمل بغير أن يمس كرامة طائفة من الطوائف إلا ما قد سيق اليه سوقاً مما يعد من قبيل المناظرة أو المسابقة — وهذا هو سبب اجماع الناس على اختلاف طوائفهم على احترامه وحبه.

اما مؤلفاته فتشمل أهم العلوم الحديثة وهو اول من نشر تلك العلوم بالعربية في سوريا فألف فيها واجاد فضلاً عما كان ينشره من قلمه في

النشرة الأسبوعية ومما صححه أو ترجمه من الكتب الدينية وخصوصاً التوراة وأما مؤلفاته المطبوعة فهي :

(١) الباثولوجية الداخلية الخاصة وتبحث في مبادىء الطب البشري النظري والعملي في مجلد ضخم .

(٢) محيط الدائرة في العروض والقوافي .

(٣) المرآة الوضية في الكرة الارضية طبعت غير مرة .

(٤) الروضة الزهرية في الأصول الجبرية .

(٥) الأصول الهندسية .

(٦) التشخيص الطبيعي .

(٧) الأنساب والمثلثات المستوية والكروية ومساحة السطوح والأجسام والأراضي وسلك الأبحر .

(٨) أصول الكيمياء .

(٩) رسالة الجدري للرازي مع ملحق بقلم الدكتور .

(١٠) اصول الهيئة في علم الفلك .

(١١) محاسن القبة الزرقاء .

(١٢) النقش في الحجر في تسعة مجلدات صغيرة كل منها يبحث في علم من العلوم الحديثة كالفلسفة الطبيعية والكيمياء والجغرافية الطبيعية والنبات والفلك والجيولوجيا وغيرها – يراد بها تعليم هذه العلوم في المدارس العالية أو نشرها بين الذين شبوا وتعاطوا التجارة أو الصناعة ولم يدرسوا شيئاً منها .

(١٣) النفائس لتلامذة المدارس .

(١٤) قصة شونبرج وبركا . وهما دينيان .

صفاته وأخلاقه :

كان ربع القامة مع ميل الى القصر خفيف العضل سريع الحركة وقد أمسى في اواخر أيامه شيخاً هرماً طويل اللحية والشاربين أشيبهما خفيف الشعر ولكنه ما أنفك على شيخوخته طلق المحيا باشه وديعاً لطيف الحديث رقيق الجانب لطيف المعشر أو كما قيل فيه قد جمع الى حكمة الشيخوخة مقدرة الكهولة واقدام الشباب ومروؤة الفتوة ونشاط الصبا وطاعة الحداثة .

ومن اخلاقه حسن الطوية والاخلاص في عمله وهو السبب الرئيسي في ما ناله من الشهرة وملكه من قلوب السوريين . وفي اعتقادنا أن المرء لا يفوز في عمله ولا يجمع الناس على مدحه إلا اذا أخلص النية في خدمتهم ولا يفلح المراؤون .

ومنها اقتداره على العمل وقد علمت مما تقدم انه عمل اعمالاً لا يستطيعها جماعة من الرجال وكان ذلك من اكبر أسباب نجاح الأرسالية الاميركانية في بلاد الشام فانها قامت باربعة من افاضلهم امتاز كل منهم بصفات لا بد منها في قيام مشروعهم وهم عالي سمث ووليم طمسن وسمعان كلهون والدكتور فان ديك فامتاز الأول بالتأني والتدقيق والثاني بالسياسة والتدبير والثالث بالتقوى والورع وامتاز استاذنا رحمه الله بالعلم والعمل وكان يحب كل العلوم وخصوصاً علم الفلك .

ومنها حرية الضمير قولاً وعملاً فهو ابعد الناس عن المدالسة والمواربة لا يحتمل الحق ولا يطيق الاجحاف . ومن اقرب الأدلة على ذلك انه ترك

المدرسة الكلية واحتمل ضيم فراقها وانكر ذاتــه وتنازل عن مصلحته الخصوصية اذعاناً لحرية ضميره فانه لم يستطع المشاركة في الحكم على شبان لم يطلبوا إلا العدل والحق ومن هذا القبيل حـدة طبعه في شبوبيته - وحرُّ الضمير يغلب أن يكون حاد الطبع لعدم صبره على المدالسة والمماطلة . ومن قبيل ذلك أيضاً استنكافه من المدح وتحاشيه كل ما تشم منه رائحة الفخر .

ومنها الاقدام والانجاز فانك لا تكاد تلتمس منه أمراً حتى تراه قد باشره حالاً وهي خلة لا بد منها في قيام الاعمال ونجـاح المشروعات . فالاستاذ رحمه الله كان مقصداً للطلاب وملجأ للسائلين والمستفيدين لا يخلو منزله من مستشير أو مستفيد أو ملتمس فضلاً عن مراسلات الأدباء ومكاتبات تلامذته المتفرقين في أربعة اقطار المسكونة . ومن اكره الأمور لديه التأجيل فهو لا يؤجل الى الغد مـا يستطيع عمله اليوم . ويبكر في عمله فيستيقظ باكراً ويقضي طول نهاره عاملاً وقد قال انه اعتاد ذلك منذ صباه لأن والدته غرست في ذهنه «ان من استيقظ باكراً ساق عمله أمامه ومن استيقظ متأخراً ساقه عمله » .

ومنها رباطة الجأش فهو لا يهاب الأهوال وقد ربى أنجاله على ذلك فكان يرسل أولاده للصيد أو ركوب الخيـل منفرداً وهو حوالي العاشرة من عمره وقد يبعث به الى بلد آخر ليلاً ولا يخاف عليه شراً فاذا لامتـه والدتهم على ذلك أجابها «أتريدين ان يشب أولادك على الجبن والضعف » وكان في شبوبته يحب الخيل ويقتني الجياد منها .

ومنها أنه كان مغرماً بأمرين الاول أشغاله وتآليفه والثاني أهله وأولاده ولم يكن يحب الدعوات الى الافراح ولا يأنس باللهو والطرب .

ومنها النفور من الدَّين فهو يكره الدين كرهاً شديداً وقد بالغ في ذلك حتى كان لا يلبس لباساً قبل ان يدفع ثمنه . وقد سمعناه مرة يلوم خياطه لأنه أرسل الثوب اليه ولم يرسل من يقبض ثمنه قائلاً « الملك تريد أن لا البس هذه البدلة » ومن أمثاله « الحلاقة بالفاس ولا جميل الناس ».

ومنها حبه للأمثال العامية والفصحى فلا يرد في حديثه معنى إلا أيده بمثل عامي ولا تسأله عن لفظ فصيح إلا أورد عليه شعراً فسئل كيف حفظ ذلك فقال انه اقتبسه من المرحوم الشيخ ناصيف اليازجي .

ومن أهم أوصافه تخلقه بأخلاق المشارقة والتزيي بزيهم واكتساب عوائدهم في الطعام والشراب واللباس . وكان أثنـاء إقامته في عبيه يلبس اللباس السوري الخاص بالامراء في ذلك العهد وهو السراويل من البفتا البيضا (المنبركيس) والمنطقة الحريرية الطرابلسية وكبران من الجوخ الأزرق عليه تطريز بالقبطان الاسود وعلى رأسه طربوش مغربي ذو زر طويل (شرابة). فكان إذا مشى أو ركب تحسبه من الامراء ولكنه اضطر الى العدول عنه الى اللباس الافرنجي كرهاً . وسبب ذلك انه دعي مرة لتطبيب أحد وجهاء عبيه فركب وسار بركابه خادم ذلك الوجيه فاتفق في أثناء عودته الشروع في الثورة التي حصلت قبل حادثـة سنة ١٨٦٠م بين النصارى والدروز فرآه بعض الدروز بذلك اللباس فظنوه من امراء بني شهاب فهموا بقتله ولم ينج من بين أيديهم الا بعد الجهد وعوَّل من ذلك الحين على اللباس الافرنجي . على انه ما انفك ميالاً الى لباس المشارقة فيلبس في منزله طربوشاً من المخمـل الأسود أو الازرق مطرزاً بالقصب تتدلى منه شرابة من القصب ويلتف بعباءة واسعة كما تراه في الرسم وهـو يدخن النارجيلاء في منزله أمـام غرفة المطالعة . وقد تخلق بأخلاق المشارقة وأحب اهـل المشرق فالسوريون على اختلاف

طوائفهم ومشاربهم يعتبرونه أباً لهم . أما هو فقد برهن على حبه لهم ببذل عمره وصحته في خدمتهم وما كسبه من أغنيائهم انفقــه على فقرائهم فخدم الفئتين جسداً ونفساً وعقلاً .

وكان تقياً حسن العقيدة عن روية وحسن نظر لا عن تسليم وسذاجـة . ومن أثمن ما نطق به وصيته لنجله المستر أدوار أثنـــاء زيارته له في أواخر أيامه وهي « احذر ان يخدعك أحد فيسلبك اعتقادك في مبادىء الديانـــة المسيحية فانها الركن الوحيد الذي يمكننا الاعتماد عليه في مصائبنا وأمراضنا وشيخوختنا أما ما وراء تلك المبادىء ممـــا هو موضوع اختلاف اللاهوتيين فـكله ابهام وظلمة » .

السيد جمال الدين الحسيني الافغاني

قد تمر القرون وتتوالى الاجيال والناس على مـــا ساقتهم اليه الحاجة من شؤون معائشهم لا يفقهون غثها من ثمينها ولا يدركون مبدأها ولا مصيرهـا حتى تتمخض الطبيعة فتلد من ابنائها افراداً يميطون عن اسرارها اللثام فيرى الناس من ورائه شرائع ونواميس كانوا عنها غافلين — اولئك هم اقطاب العلم وانوار العالم ومنهم الفلاسفة الطبيعيون الذين مزقوا استار الجهل وكشفوا غوامض الطبيعة فمهدوا سبل الاختراع والاكتشاف . ومنهم الفلاسفة العقليون الذين استطلعوا أسرار الحكمة المستترة وراء تلك النواميس وبينوا ما اودعه الخالق في خليقته من القواعد العقلية والروابط الأدبية .

ولكن الطبيعة لا تجود بواحد من اولئك الافراد الا كل بضعة قرون فيسير الناس على خطواته اجيالاً حتى اذا كادوا يرجعون الى غيهم جادت عليهم باخر

ينفث فيهم روحاً حيـــة فيهبون من رقادهم ويعودون الى رشدهم ريثما يأتيهـم ثالث .

هكذا كان شأن العالم من بـــدء عمرانه . ومن اولئك الفلاسفة سقراط وافلاطون ومن تقدمهم وجـــاء بعدهم من فلاسفة اليونان والرومان والفرس والعرب وغيرهم من علماء المعقول والمنقول ممن لا نزال نستضيء بنبراسهم .

ولكن لله في خلقه حكمة لا تدركها العقول فقد ينبغ في بعض الاجيال افراد توفرت فيهم قوى الفلاسفة ومواهب رجال الاعمال فتحيط بهم بيئات لا تصلح لنماء ما يغرسون فيذهب سعيهم هباءً منثوراً .

ولما كان الانسان لا يقدّر العمل الا بنسبة ما يترتب عليه من الفائدة كان نصيب كثيرين من عظماء الأرض جهل الناس حق قدرهم واغفل التاريخ ذكرهم كما هو شأننا بفقيد الشرق الفيلسوف الخطيب السيد جمال الدين الافغاني رحمه الله فقد نشأ قطباً من اقطاب الفلسفة وعاش ركناً من اركان السياسة ولكنه مات ولم يتم عملاً ولا الف كتاباً . على أن ذلك لا يحط من مقامه وقد رأينا اعظم فلاسفة اليونان (سقراط) مات ولم يدون شيئاً من كلامـــه ولكن تلامذته حفظوا فلسفته ودونوها فتوارثتها الاجيال خلفاً عن سلف . فعسى ان لا نحرم من مريدي الاستاذ وتلامذته من يفعل مثل ذلك .

ترجمة حاله :

هو السيد محمد جمال الدين بن السيد صفتر ولد في بيت شرف وعلم بقرية اسعد اباد من قرى كنر من اعمال كابل ببلاد الافغان سنة ١٢٥٤ — ﻫ . (١٨٣٩ م) ويتصـل نسبه بالسيد علي الترمذي المحدث المشهور ويرتقي الى الامام الحسين بن علي بن ابي طالب . وآل هذا البيت عشيرة كبيرة تقيم في



السيد جمال الدين الحسيني الأفغاني ١٢٥٤ هـ. — ١٣١٤ هـ.

خطة كنر ولها منزلة عليا في قلوب الافغانيين لحرمة نسبها . وكانت تملك جزءاً من أرض الافغان حتى سلب الملك منها دوست محمد خان جد الامير عبد الرحمن وأمر بنقل والد السيد جمال الدين وبعض أعمامه الى مدينة كابل وجمال الدين لا يزال في الثامنة من عمره . فعني والده في تربيته وتثقيفه فتلقى إمبادىء العلوم العربية والتاريخ وعلوم الشريعة من تفسير وحديث وفقه واصول وكلام وتصوف والعلوم العقلية من منطق وحكمة عملية سياسية ومنزلية وتهذيبية وحكمة نظرية طبيعية والهية والعلوم الرياضية من حساب وهندسة وجبر وهيئة افلاك ونظريات الطب والتشريح . وكانت ملامح النجابة

والذكاء ظاهرة فيه منذ نعومة اظفاره . فأتم هذا كله وهو في الثامنة عشرة من عمره .

ثم عرض له سفر الى بلاد الهند فأقام بها سنة وبضعة أشهر ينظر في بعض العلوم الرياضية على الطريقة الافرنجية الحديثة . وقدم بعد ذلك الى الاقطار الحجازية لاداء فريضة الحج فقضى سنة ينتقل من بلد الى آخر حتى وافى مكة المكرمة في سنة ١٢٧٣ هـ (١٨٥٧ م) فوقف على كثير من عادات الامم التي مرَّ بها في سياحته ثم رجع الى بلاده وانتظم في سلك رجال الحكومة على عهد الامير دوست محمد خان المتقدم ذكره ولما زحف هذا الأمير الى هراة ليفتحها ويملكها علي سلطان احمد شاه صهره وابن عمه سار السيد جمال الدين معه في جيشه ولازمه مدة الحصار الى ان توفي الامير وفتحت المدينة بعد معاناة الحصر زمناً طويلاً . وتقلد الامارة ولي عهدها شير علي خان سنة ١٢٨٠ هـ. (١٨٦٤ م.) وأشار عليه وزيره محمد رفيق خان ان يقبض على اخوته ويعتقلهم فان لم يفعل سعوا بالناس الى الفتنة وألبوهم للفساد طلباً للاستبداد بالامارة . وكان في جيش هراة من اخوة الامير ثلاثة محمد اعظم ومحمد اسلم ومحمد امين فانتصر السيد جمال الدين لمحمد اعظم فلما احسوا بتدبير الامير ومشورة الوزير اسرعوا الى الفرار وتفرقوا في الولايات فذهب كل منهم الى ولايته التى كان يليها من ابيه وطاشت بهم الفتن واشتعلت نيران الحروب الداخلية . وبعد مجادلات عنيفة عظم أمر محمد اعظم وابن اخيه عبد الرحمن وتغلبا على عاصمة المملكة وأنقذا محمد أفضل والد عبدالرحمن من سجن قرنة وسمياه أميراً على افغانستان ثم ادركه الموت بعد سنة وقام على الامارة بعده شقيقه محمد اعظم خان فارتفعت منزلة جمال الدين عنده فأحله محل الوزير الأول وعظمت ثقته به فكان يلجأ لرأيه في العظائم وما دونها

وكادت تخلص حكومة الافغان لمحمد اعظم بتدبير السيد جمال الدين لولا سوء ظن الامير بالاغلب من ذوي قرابته مما حمله على تفويض مهمات الأعمال الى ابنائه الأحداث وهم خلو من التجربة عراة من الحنكة فساق الطيش احدهم وكان حاكماً في قندهار على منازلة عمه شير علي في هراة ولم يكن له من الملك سواها وظن الفتى انه يظفر فينال عند ابيه حظوه فيرفعه على سائر اخوته . فلما تلاقى مع جيش عمه دفعته الجرأة على الانفراد عن جيشه في مائتي جندي اخترق بها صفوف اعدائه فاوقع الرعب فى قلوبهم وكادوا ينهزمون لولا ما التفت يعقوب خان قائد شير علي فوجد ذلك الغلام منقطعاً عن جيشه فكرَّ عليه واخذه اسيراً فتشتت جند قندهار وقوي الامل عند شير علي فحمل على قندهار واستولى عليها وعادت الحرب الى شبابها وعضد الانكليز شير علي وبذلوا له قناطير من الذهب ففرّقها في الرؤساء والعاملين لمحمد اعظم فبيعت امانات ونقضت عهود وجددت خيانات . وبعد حروب هائلة تغلب شير علي وانهزم محمد اعظم وابن اخيه عبد الرحمن فذهب عبد الرحمن الى بخارى وذهب محمد اعظم الى بلاد ايران ومات بعد أشهر في مدينه نيسابور .

أما السيد جمال الدين فبقي في كابل لم يمسسه الامير بسوء احتراماً لعشيرته وخوف انتقاض العامة عليه حمية لآل البيت النبوي. الا انه لم ينصرف عن الاحتيال للغدر به والانتقام منه بوجه يلتبس على الناس حقه بباطله ولهذا رأى السيد جمال الدين خيراً له ان يفارق بلاد الافغان فاستأذن للحج فاذن له على شرط ان لا يمر ببلاد ايران كيلا يلتقي فيها بمحمد اعظم وكان لم يمت بعد فارتحل على طريق الهند سنة ١٢٨٥ هـ. (١٨٦٩م) بعد هزيمة محمد اعظم بثلاثة أشهر . فلما وصل الى التخوم الهندية تلقته حكومة الهند بحفاوة واجلال الا انها

لم تسمح له بطول الاقامة في بلادهـــا ولا أذنت للعلماء في الاجتماع عليه الا تحت مراقبة رجالها فلم يقم هناك الا شهراً ثم سيرتـــه من سواحل الهند في أحد مراكبها الى السويس فجاء مصر واقام بها نحو اربعين يوماً تردد فيها على الجامع الأزهر وخالطه كثير من طلبة العلم السوريين ومالوا اليه كل الميـــل وسألوه ان يقرأ لهم شرح الاظهار فقرأ لهم بعضاً منه في بيته ثم تحول عن الحجاز عزمـــه وتعجل بالسفر الى الاستانة .

وبعد ايام من وصوله الاستانة قابل الصدر الاعظم عالي باشا فنزل منه منزلة الكرامة وعرف له الصدر فضله واقبل عليه بمـا لم يسبق لمثله وهو مع ذلك بزيه الافغاني من القباء والكساء والعمامـة العجراء وحوّمت عليه لفضله قلوب الامراء والوزراء وعلا ذكره بينهم وتناقلوا الثناء على علمه وأدبه وهو غريب عن ازيائهم ولغتهم وعـاداتهم ولم تمض ستة اشهر حتى سمي عضواً في مجلس المعارف فأدى حق الاستقامـة في آرائه ولكنه أشار الى طرق لتعميم المعارف لم يوافقه عليه رفقاؤه وبينها ما ساء شيخ الاسلام اذ ذاك لانها كانت تمس شيئاً من رزقه فارصد له العنت حتى كان رمضان سنة ١٢٨٧هـ. (١٨٧١م.) فرغب اليه مدير دار الفنون ان يلقي فيها خطاباً للحث على الصناعات فاعتذر اليه بضعفه في اللغة التركية فالح عليه فانشأ خطاباً طويلاً كتبه قبل القائـه وعرضه على نخبة من اصحاب المناصب العالية فاستحسنوه .

فلما كان اليوم المعين لاستماع الخطاب تسارع الناس الى دار الفنون واحتفل له جم غفير من رجال الحكومة وأعيان اهل العلم وأرباب الجرائد وحضر في المجمع معظم الوزراء فصعد السيد جمال الدين على منبر الخطابة والقى ما كان أعده ببلاغة سحرت عقول السامعين . فانكر مشائخ العلم شيئاً من آرائـه واتصل

الامر بشيخ الاسلام وكان متغيراً عليه كما علمت فالتمس من الدولة ابعاده عن الاستانة فصدر له الامر بالجلاء عنها بضعة اشهر حتى تسكن الخواطر ويهدأ الاضطراب ثم يعود ان شاء ففارقها وحمله بعض من كان معه على التحول الى مصر فجاء اليها في اول المحرم سنة ١٢٨٨ هـ. (٢٢ مارس ١٨٧١ م.)

قدم السيد جمال الدين الى مصر على قصد التفرج بما يراه من مناظرها ومظاهرها ولم تكن له عزيمة على الاقامة بها حتى لاقى صاحب الدولة رياض باشا فاستمالته مساعيه الى المقام وأجرت عليه الحكومة راتباً مقداره الف قرش مصري كل شهر نزلاً اكرمته به لا في مقابلة عمل . واهتدى اليه بعد الاقامة كثير من طلبة العلم واستوروا زنده فأورى واستفاضوا بحره ففاض درّاً وحملوه على التدريس فقرأ من الكتب العالية في فنون الكلام الأعلى والحكمة النظرية من طبيعية وعقلية وفي علم الهيئة الفلكية وعلم التصوف وعلم أصول الفقه الاسلامي . وكانت مدرسته بيته فعظم امره في نفوس طلاب العلوم واستجزلوا فوائد الاخذ عنه واعجبوا بعلمه وأدبه وانطلقت الالسن بالثناء عليه وانتشر صيته في الدار المصرية . ثم وجه عنايته لتمزيق حجب الاوهام عن انوار العقول فنشطت لذلك ألباب واستضاءت بصائر وحمل تلامذته على العمل في الكتابة وانشاء الفصول الادبية والحكمية والدينية فاشتغلوا على نظره وبرعوا وتقدم فن الكتابة في مصر بسعيه وكان القادرون على الاجادة في المواضيع المختلفة قليلين .

فنبغ من تلامذته في القطر المصري كتبة لا يشق غبارهم ولا يوطأ مضمارهم واغلبهم احداث في السن شيوخ في الصناعة وما منهم الا من أخذ عنه أو عن أحد تلامذته أو قلد المتصلين به . هذا ما حسده عليه اقوام واتخذوا سبيلاً

للطعن عليه من قراءته بعض الكتب الفلسفية أخذاً بقول جماعة من المتأخرين في تحريم النظر فيها فتمكنوا من نسبة ما اودعته كتب الفلاسفة الى رأي هذا الرجل وأذاعوا ذلك بين العامــة ثم ايدهم اخلاط من الناس من مذاهب مختلفة . غير ان هذا كله لم يؤثر في مقامه من نفوس العارفين بحاله .

وكان رحمه الله على علمه وفضله ميالاً الى السياسة فنظر في حال مصر وما آلت اليه من التداخل الاجنبي فعلم ان لا بد من تغير احوالها وكان قد انتظم في سلك الجمعية الماسونية وتقدم فيها حتى صار من الرؤساء فانشأ محفلا وطنياً تابعاً للشرق الفرنساوي دعا اليه مريديه من العلماء والوجهاء فصار اعضاؤه نحواً من ثلاثمائة عدّاً وكان شديد الكره للدولة الانكليزية كما تقدم من حاله معها في الهند وما كان من اعتدائهم على ابناء أبيه فجهر بذلك غير مرة ونشر فصولاً ناطقة به ترجموها الى جرائد انكلترا واهتموا بها كثيراً حتى تولى المستر غلادستون نفسه أمر الجدال في موضوعها . فلما عظم امر محفله داخل الخوف قنصل انكلترا فوشى به الى الحكومة وبث الرقباء في المحفل فسعوا فيه فساداً . وفي خلال ذلك بلغت أحوال مصر نهاية الارتباك فصرح بأمور قوت حجة الساعين وكان تولى مصر المرحوم الخديوي السابق توفيق باشا فأصدر أمره باخراجه من القطر المصري هو وتابعه ابو تراب ففارق مصر الى البلاد الهندية سنة ١٢٩٦ هـ (١٨٧٩) وأقام بحيدر آباد الدكن وفيها كتب رسالته في « نفي مذهب الدهريين » .

ولما كانت الحوادث العرابية بمصر دعي من حيدر آباد الى كلكتة والزمته حكومة الهند بالاقامة فيها حتى انقضى أمر مصر وفثات الحرب الانكليزية ثم أبيح له الذهاب الى أي بلد فاختار الشخوص الى اوربا . وأول مدينة

نزلها مدينة لوندرا أقام بها اياماً قلائل ثم انتقل الى باريس فوافاه اليها صديقه الشيخ محمد عبده المصري . وكانت في مصر جمعية وطنية اسمها جمعية العروة الوثقى فكلفته على بعد الدار أن ينشىء جريدة تدعو المسلمين الى الوحدة الاسلامية فأنشأ « العروة الوثقى » وكلف صديقه المشار اليه بتحريرها وكان لها وقع حسن في العالم الاسلامي فنشر منها ١٨ عدداً ثم قامت الموانع دون استمرارها حيث أقفلت ابواب الهند عنها وشددت الحكومة الانكليزية في اساءة من يقرأها .

وقضى جمال الدين في باريس ثلاث سنوات نشر في اثنائها مقالات في جرائدها تبحث في سياسة روسيا وانكلترا والدولة العلية ومصر ترجمت جرائد انكلترا كثيراً منها وجرت له ابحاث فلسفية مع الفيلسوف الفرنساوي رينان في « العلم والاسلام » فشهد له هذا بسعة العلم وقوة الحجة ثم شخص الى لندرا بايعاز اللورد شرشل واللورد سالسبري ليسألاه عن رأيه في المهدي وظهوره إذ ذاك ثم عاد الى فرنسا وتعرف بكثيرين من علمائها وفلاسفتها فأحلوه مكاناً علياً .

ثم عزم على نجد فاستقدمه شاه الفرس إذ ذاك المرحوم ناصر الدين شاه على لسان البرق ليراه فسار قاصداً طهران فالتقى في اصفهان بالامير ظل السلطان فلاقى منه اكراماً حتى إذا وصل طهران استقبله الشاه احسن استقبال واكثر من الثناء عليه حيثما ذكره حتى في بلاطه وبين اهله واولاده وولاه نظارة الحربية على أن يرقيه بعد قليل الى منصب الصدارة .

وكان جمال الدين قد درس اخلاق الأمم وعرف تواريخ الدول وتدبر احوال السياسة على اختلاف الامكنة والأزمنة مع بلاغته وقوة برهانه .

فنال لدى أمراء الفرس وعلمائها منزلة قل أن ينالها غيره في مثل حاله فاصبح منزله حلقة علم يؤمها سراة البلاد ووجهاؤها يتسابقون الى سماع حديثه فخامر الشاه ريب من أمره مخافة أن يكون وراء ذلك ما يخشى منه على سلطانه فأبدى تغيره عليه فادرك جمال الدين ما في نفسه فاستأذنه في السفر لتبديل الهواء فأذن له فسار الى موسكو في روسيا فلاقاه اهلها بالتجلة والاكرام لما سبق الى مسامعهم من شهرته . ثم شخص الى بطرسبورج وتعرف بأعظم رجالها من العلماء والسياسيين ونشر في جرائدها مقالات ضافية في سياسة الأفغان والفرس والدولة العلية والروسية والانكليزية كان لها دوي شديد في جو السياسة .

واتفق إذ ذاك فتح معرض باريس لسنة ١٨٨٩م فشخص جمال الدين اليها فالتقى بالشاه في مونيخ عاصمة بافاريا عائداً من باريس فدعاه الشاه الى مرافقته فأجاب الدعوة وسار في معيته الى فارس فلم يكد يصل طهران حتى عاد الناس الى الاجتماع به والانتفاع بعلمه والشاه لا يرتاب من أمره كأن سياحته في اوربا محت كثيراً من شكوكه . فكان يقربه منه ويوسطه في قضاء كثير من مهام حكومته ويستشيره في سن القوانين ونحوها فشق ذلك على اصحاب النفوذ وخصوصاً الصدر الاعظم فاسر الى الشاه ان هذه القوانين وان تكن لا تخلو من النفع فهي لا توافق حال البلاد فضلاً عما ستأول اليه من تحويل نفوذ الشاه الى سواه . فأثر ذلك في الشاه حتى ظهر على وجهه فاحس جمال الدين بالامر فاستأذنه في المسير الى بلدة شاه عبد العظيم على ٢٠ كيلومتراً من طهران فأذن له فتبعه جم غفير من العلماء والوجهاء وكان يخطب فيهم ويستحثهم على اصلاح حكومتهم فلم تمض ثمانية أشهر حتى ذاعت شهرته في أقاصي بلاد الفرس وشاع عزمه على اصلاح ايران فخاف ناصر الدين عاقبة ذلك فأنفذ الى شاه

عبد العظيم خمسمئة فارس قبضوا على جمال الدين وكان مريضاً فحملوه من فراشه وساقوه يخفره خمسون فارساً الى حدود المملكة العثمانية فعظم ذلك على مريديه في ايران فثاروا حتى خاف الشاه على حياته .



السيد جمال الدين الافغاني في حال مرضه

أما جمال الدين فمكث في البصرة ريثما عادت إليه صحته فشخص الى لندرا وقد عرفه الانكليز من قبل فتلقوه بالاكرام ودعوه الى مجتمعاتهم السياسية وأنديتهم العلمية ليروه ويسمعوا حديثه وكان أكثر كلامه معهم في بيان حال الشاه وتصرفه في المملكة وما آلت اليه حالها في عهده مع حث الحكومة الانكليزية على السعي في خلعه . وفيما هو في ذلك ورد عليه كتاب

من المابين الهمايوني بواسطة المرحوم رستم باشا سفير الدولة العليـــة في لندرا اذ ذاك أن يقدم الى الاستانة فاعتذر لأنه في شاغل وقتي لاصلاح بلاده. فورد عليه كتاب آخر وفيه ثناء وتحريض فأجاب الدعوة تلغرافياً على أن يتشرف بمقابلة جلالة السلطان ثم يعود. فقدم الاستانة سنة ١٨٩٢م فطابت له فيهـــا الاقامة لما لاقاه من التفات الحضرة السلطانية وإكرام العلماء ورجال السياسة وما زال فيها معززاً مكرمـاً وجيهاً محترماً حتى داهمه السرطان في فكه أواخر سنة١٨٩٦م وامتد الى عنقه فتوفاه الله في ٩مارس سنة١٨٩٧م واحتفل بجنازه ودفنه في مدفن « شيخلر مزارلغي » قرب نشان طاش .

صفاته الشخصية :

كان اسمر اللون بما يشبه أهل الحجاز ربعة ممتلىء البنية أسود العينين نافذ اللحظ جذاب النظ. مع قصر فيه فإذا قرأ أدنى الكتاب من عينيــه ولكنه لم يستخدم النظارات. وكان خفيف العارضين مسترسل الشعر بجبة وسراويلات سوداء تنطبق على الكاحلين وعمامة صغيرة بيضاء على زي علماء الاستانة .

طعامـــه :

كان قانتاً قليل الطعام لا يتناوله إلا مرة في النهار ويعتاض عما يفوته من ذلك بما يشربه من منقوع الشاي مراراً في اليوم . والعفة في الطعام لازمة لمن يعمل أعمالاً عقلية لأن البطنة تذهب الفطنة . وكان يدخن نوعاً من السيكار الافرنجي الجيد ولشدة ولعه بالتدخين وعنايته في انتقاء السيكار لم يكن يركن الى أحد من خدمه في ابتياعه فيبتاعه هو بنفسه .

مسكنه :

كان يقيم في أواخر أيامه بقصر في نشان طاش بالاستانة أنعم عليــه به

جلالة مولانا السلطان وفيه الأثاث والرياش وعربة من الاسطبل العامر يجرها جوادان وأجرى عليه رزقاً مقداره خمس وسبعون ليرة عثمانية في الشهر . فكان قبل مرضه الاخير يقيم معظم النهار في منزله فإذا كان الأصيل ركب العربة لترويح النفس في منتزه كاغدخانه بضواحي الاستانة وكان كثير القيام لا ينام إلا الفلس الى الضحى .

مجلسه وخطابه :

كان أديب المجلس كثير الاحتفاء بزائريه على اختلاف طبقاتهم ينهض لاستقبالهم ويخرج لوداعهم ولا يستنكف من زيارة أصغرهم على امتناعه من زيارة أكبرهم إذا ظن في زيارته تزلفاً . وكان ذا عارضة وبلاغة لا يتكلم إلا اللغة الفصحى بعبارات واضحة جلية . وإذا آنس من سامعه التباساً بسط مراده بعبارة أوضح فإذا كان السامع عامياً تنازل الى مخاطبته بلغة العامة . وكان خطيباً مصقعاً لم يقم في الشرق أخطب منه . وكان قليل المزاح رزيناً كتوماً قد يخاطب عشرات من الناس في اليوم فيبحث مع كل منهم في موضوع يهمه فإذا خرج جليسه كان خروجه آخر عهده بذلك الموضوع حتى يعود هو إليه بشأنه .

اخلاقه :

كان حرّ الضمير صادق اللهجة عفيف النفس رقيق الجاذب وديعاً مع انفة وعظمة ثابت الجأش قد يساق الى القتل فيسير اليه سير الشجاع الى الظفر . وكان راغباً عن حطام الدنيا لا يدخر مالاً ولا يخاف عوزاً . ومما رواه المرحوم اديب اسحق ان جمال الدين لما ابعد من مصر انزل في السويس خالي

الجيب فأتاه السيد النقادي قنصل ايران في ذلك الثغر ومعـــه نفر من تجار العجم قدموا له مقداراً من المال على سبيل الهديـــة أو القرض الحسن فرده وقال لهم « احفظوا المال فانتم اليه أحوج ان الليث لا يعـــدم فريسة حيثما ذهب » وكان مقداماً حاثاً على الاقدام فلا يخرج جليسه من بين يديه إلا وقد قام في نفسه محرض على العلى منشط على السعي في سبيلها . ولكنـــه كان على فضله لا يخلو من حدة المزاج ولعلها كانت من أكبر الاسباب لما لاقـــاه من عواقب الوشاية .

عقـــله :

كان ذكياً فطناً حاد الذهن سريـــع الملاحظة يكاد يكشف حجب الضمائر ويهتك اسرار السرائر دقيق النظر في المسائل العقلية قوي الحجـــة ذا نفوذ عجيب على جلسائه فلا يباحثه أحد في موضوع الاشعر بانقياد الى برهانه وربما لا يكون البرهان بحد ذاته مقنعاً . وكان مع ذلك قوي الذاكرة حتى قيـــل انه تعلم اللغة الفرنساوية أو بعضها وصار يقـــدر على الترجمة منها ويحفظ من مفرداتها شيئاً كثيراً في أقل من ثلاثة أشهر بـــلا استاذ إلا من علمه حروف هجائها يومين .

علومـــه :

كان واسع الاطلاع في العلوم العقلية والنقلية وخصوصاً الفلسفة القـــديمة وفلسفة تاريخ الاسلام والتمدن الاسلامي وسائر أحوال الاسلام. وكان يعرف اللغات الافغانية والفارسية والعربية والتركية والفرنساوية جيـــداً مع المام باللغتين الانكليزية والروسية . وكان كثير المطالعة لم يفته كتـــاب كتب في

آداب الامم وفلسفة اخلاقهم الا طالعه . واكثر مطالعته في اللغتين العربية والفارسية .

آماله وأعماله :

يؤخذ من مجمل أحواله ان الغرض الذي كان يصوب نحوه اعماله والمحور الذي كانت تدور عليه آماله توحيد كلمة الإسلام وجمع شتات المسلمين في سائر اقطار العالم في حوزة دولة واحدة اسلامية تحت ظل الخلافة العظمى . وقد بذل في هذا المسعى جهده وانقطع عن العالم من اجله فلم يتخذ زوجة ولا التمس كسباً ولكنه مع ذلك لم يتوفق الى ما أراده فقضى ولم يدون من بنات أفكاره إلا رسالة في نفي مذهب الدهريين ورسائل متفرقة في مواضيع مختلفة قد تقدم ذكرها ولكنه بث في نفوس أصدقائه ومريديه روحاً حية حركت هممهم وحددت اقلامهم فانتفع الشرق وسوف ينتفع بأعمالهم .

احمد خان

ركن النهضة العلمية الاخيرة في بلاد الهند

النهضة العلمية الاخيرة في الشرق :

من يطالع تاريخ الشرق في القرن التاسع عشر وهو عصر النهضة العلمية الحديثة يرى تشابهاً بين سائر أصقاعه . فقد دخل هذا القرن والشرق من أقصاه الى أقصاه في ظلمات من الجهل تفشاه جنود التعصب وقد لعبت به عوامل الشقاق . كذلك كانت الهند والعراق والشام ومصر . وكان الغرب قد بزغت فيه شمس العلم فاستنار أهله بالاختراع والاكتشاف ثم اقتضت مصالحهم ارتياد بلاد المشرق اما فاتحين أو معلمين أو مبشرين أو مكتشفين

أو تجاراً أو صناعاً أو نحو ذلك فانبهر المشارقة في بادىء الرأي لما رأوه من مستحدثات التمدن ثم ما لبثوا أن اخذوا يقلدونهم على قدر ما بلغ اليه امكانهم فأنشأوا المدارس والجرائد والمطابع وغيرها . على أن كل أمة منهم سارت في خطة اقتضتها أحوالها . فالمصريون نهضوا نهضتهم الاخيرة بمساعدة حكومتهم فهي التي أنشأت لهم المدارس لتعليم اللغات والعلوم وهي أول من أنشأ جريدة عربية وهي التي باشرت ترجمة الكتب وتأليفها وغير ذلك . وأما أهل الشام والعراق فالفضل في ما أدركوه من العلم انما هو عائد الى أهل الفضل من النزالة الاميركانية والفرنساوية والانكليزية وغيرهم من المبشرين أو الرهبان كالآباء اليسوعيين والفرير والعازريين والفرنسيسكانيين .

وأما أهل الهند فإن الفضل في نهضتهم راجع معظمه الى رجل منهم خصه الله بهمة واقدام وغيرة يندر اجتماعها في رجل واحد مع اخلاص وحسن نظر، نعني به السيد احمد خان صاحب الترجمة فقد نشأ في عصر نقم فيه الهنود على الانكليز وهم في أول عهد الفتح .. ولا تلام أمة كرهت قوماً فتحوا بلادها وغلبوها على ما في أيديها . فما زال الهنود الى أواسط القرن الماضي يكرهون الانكليز كرهاً شديداً لا يؤاكلونهم ولا يشاربونهم ولا يعاشرونهم ولا يقرأون كتبهم ولا يتعلمون لغتهم ولا يمسُّون شيئاً من أشيائهم بل كانوا لا تفوتهم فرصة في شق عصا الطاعة جهاداً في سبيل الاستقلال. فأدرك السيد أحمد خان انهم انما يحاولون عبثاً طالما كان عامتهم جهالاً . فأخذ على عاتقه ترقية شؤونهم وتهذيب أبنائهم بالعلم فأنشأ المدارس واستحث الناس على اقتباس العلم فقضى في ذلك خمسين عاماً لا يألو جهداً في هذا السبيل حتى ذاع صيته في أقطار الهند ولم يبق قارىء من قرائهم لا يعرف اسم السيد أحمد خان فهو من هذا القبيل شبيه باستاذنا الدكتور فان ديك في سوريا . وإليك ترجمة حاله:



السيد أحمد خان

١٨١٧م – ١٨٩٨م

ترجمة حياتـــه :

يتصل نسب السيد أحمد خان بأرومة عريقة في الشرف . فكان أجداده الاولون من أهل المناصب الرفيعة في بلاط امبراطوري المغول. أولهم السيد هادي اصله من هرات ثم نزح الى هندستان وأقام فيها وحفيده جد صاحب الترجمة نال من دولة الهند على عهد الامبراطور الامجير لقب جواد علي خان وجواد الدولة . واما جده لامه فهو خوجه فريد الدين احمد وكان رجـــلا فاضلاً تقلد منصباً سياسياً كبيراً وانفذ سفيراً الى شاه الفرس انفـــذه اللورد ولسلي (غير ولسلي مصر) . واما والد السيد احمد خان فهو السيد محمد تقي وكان تقياً ورعاً اعتزل الدنيا وانقطع الى الصلاة والعبادة. ولما غلب الانـكليز على الهنود وآلت حال امبراطور المغول (اكبر الثاني) الى الضعف انحصر في

دهلي وبعث الى السيد محمد تقي ان يتولى الوزارة فأجابه معتذراً شاكراً واوعز اليه ان يوليها حماه خوجه فريد الدين لأنه اهل لها وكان مقيماً في كلكته فاطاعه واستقدم خوجه فريد الدين وقلده منصب الوزارة ولقبه بمدير الدولة وامين الملك خان بهادر . وبالجملة فان صاحب الترجمة شريف الاصلين ورث الهمة والذكاء من الجدين .

نشأته الأولى :

ولد السيد احمد خان في دهلي من اعمال الهند سنة ١٨١٧م وربي في كنف والده معززاً مكرماً لما علمت من منصب جده خوجه فريد الدين ومقام والده السيد محمد تقي ولكنه كان في حداثته خجولاً جباناً – ويغلب في من يكونون كذلك في طفوليتهم ان يشبوا على التعقل والدراية كأن قواهم العقلية تنمو بنمواجسادهم وتبلغ ببلوغها فيعملان معاً بقوة متعادلة. وكان الذين تظهر فيهم حدة الذهن في صغرهم تنمو القوى العاقلة فيهم قبل سائر الجسد فلا يبلغ الجسد أشده حتى تكون القوى العقلية قد مالت الى التقهقر فلا تستطيع العمل معه. وأما الاخلاق فيغلب ان تظهرفي المرء واضحة منذ نعومة اظفاره– فالصادق يتبين صدقه من ابسط المسائل وأحقرها وكذلك سائر الأخلاق كالاخلاص والرياء والبخل والكرم والحقد والحلم وغيرها . وعلى هذا المبدأ يقال في السيد احمد خان لانه كان حر الضمير منذ حداثته . ومما يروى عنه ان قيم البلاط الامبراطوري نادى السيد احمد وكان في جملة احداث آخرين اجتمعوا هناك لغرض فلم يجب وكان والده واقفاً بجانب الامبراطور فذكر له الامبراطور ذلك فاجاب والده ان الغلام حاضر هناك فاستقدمه فوقف بين يدي الامبراطور فسأله لماذا لم يجب عند ذكر اسمه فقال « اني كنت غارقاً في النوم » فعجب ارباب المجلس لجسارته واوعزوا اليه ان يتجمل في الجواب

ويعتذر عن نفسه فأجاب انه انما يقول الصدق وليس عنده عذر آخر يقوله . فضحك الامبراطور وأنعم عليه بعقد من اللؤلؤ يضمونه اكليلاً على الرأس.

تلقى مبادىء العلم منذ الثانية عشرة وكانت والدته تستعيده كل ليلة ما تعلمه في النهار حتى نبغ بين اقرانه (ما اجمل هذه العناية من الوالدات).

وفي سنة ١٨٣٦م توفي والده فانعم عليه الامبراطور بهادر شاه آخر ملوك دهلي برتب والده ونعوته مع لقب « عريف يونغ » أي « استاذ حرب » وفي سنة١٨٣٧م انتظم في خدمة الحكومة بادارة الانكليز بالرغم عن اقاربه . وفي السنة التالية تولى منصباً قضائياً في دهـــلي وفي السنة الخامسة والعشرين من عمره تقلد منصب « منصف » في قضاء فتح بور وبعد سنوات أخر انتقل الى دهلي وبعد عودته أكب على المطالعة وذاق لذة العلم فألف كتاباً في « آثار دهلي » فانتخبته الجمعية الآسيوية الملوكية عضواً فيها .

وفي سنة ١٨٥٧م كانت ثورة أهل الهند في دهلي وغيرها ففتكوا بالانكليز فتكاً ذريعاً وكان السيد احمد خـان يومئذ في منصب نائب قاضي في بجنور فرأى تلك الثورة في غير أوانها وتحقق انها آيلة الى الضرر بوطنه فنصح لبعض زعمائها فلم يصغوا اليه بل تهددوه بالاذى اذا ساعد الانكليز فلم يطق ان يرى النساء والاولاد تقتل بلا ذنب فجمع رجاله حول مـكان ضم فيه كل انكليز تلك المقاطعة واحاطهم برجاله وبالغ في المدافعة عنهم حتى عرض نفسه للخطر وكاد العصاة يقتلونه مرة لو لم يلجأ الى غابة شائكة هناك. فلما انقضت الثورة وفاز الانكليز اكرموه براتب مستديم مقداره ٢٠٠ روبية في الشهر يرثه بكره من بعده فضلاً عن هدايا كثيرة قدموها له .

وفي أثنـــاء ذلك كتب كتاباً في اللغة الاوردية (الهندستانية) في « اسباب الثورة الهندية » ترجم الى الانـكليزية سنة ۱۸۷۳م انتقد فيه كثيراً من اعمال الانـكليز وكشف الغطاء عن بعض مقاصدهم وبين الأسباب التي حملت الهنود على الثورة على كيفية أثبتت فيها وطنيته ولم تبهره هدايا الانـكليز ولا رواتبهم ، على انه لم يغفل ذكر الخطأ الذي ارتكبه الهنود في تلك الثورة فبنى اقواله كلها على جهل الشعب الهندي واحتياجه الى العلم قبل كل شيء وبناء على ذلك عاهد نفسه على الانقطاع الى هذه الخدمة. وجعل دأبه السعي في تعليم الشعب الهندي من المسلمين بأي وسيلة كانت. وهو مع ذلك مستخدم في مصالح الحكومة فكان فضلاً عن قيامه بواجبات مصلحته لا تفوته فرصة للسعي في هذا السبيل وكتب في اثناء ذلك شرحاً للتوراة في ثلاثة مجلدات وهو أول مسلم ألف مثل هذا الكتاب فكان له وقــع حسن لدى الهنود والانـكليز معاً .

خدمته في العلم :

نظر هذا الرجل العاقل بنير بصيرته في ما يرجو منه النفع لترقية شؤون ابناء وطنه فلم يرَ خيراً من نزع التعصب الأعمى من بين ظهرانيهم واقتناعهم أن الانـكليز وغيرهم من الأمم الافرنجية بشرٌ مثلهم وأن العلوم الحديثة كالطبيعيات ونحوها لا تخالف الحقائق الدينية في شيء فضلاً عن نفعها الجزيل فانشأ في بادىء الرأي « جمعية الترجمة » (وصارت الآن الجمعية العلمية في علي كده) وجعل موضوعهـا تقريب علوم الغربيين وآدابهم من اذهان الشرقيين . فآنست تلك الجمعية تنشيطاً من الحكومة فجعلها دوق اركيل تحت حمايته فتمكنت من نقل كثير من المؤلفات الانـكليزية الى اللسان الهندي ونشرها بين العامة فنال السيد احمد خان من الحكومة الانـكليزية سنة ١٨٦٦م

وساماً ذهبياً ونسخة من مؤلفات ما كولي المؤرخ الانكليزي المشهور مكافأة له على تلك الخدمة .

وفي سنة ١٨٦٧م انتقل الى بنارس من اعمال الهند وكان ابنه السيد محمود قد بلغ أشده فعوّل على ارساله الى بلاد الانكليز لتلقي العلم في مدرسة كمبريدج الشهيرة وسار هو معه لعله يرى هناك أسباباً يستطيع الاستعانة بها في خدمة بلاده فلاقى ترحاباً عظيماً وتعرف بجماعة كبيرة من اهل العلم والسياسة فأجلوه واكرموه وكان دوق اركيل حينئذ وزيراً للهند فمنحه عضوية كوكب الهند وانتخبه عضو شرف في نادي الأثينيوم .

وكانت سفرته هذه بما شاهده في بلاد الانكليز من اسباب التمدن ووسائل التعليم كأنه نور انبثق لديه بغتة فكشف له عن حقيقة حال الشعب الهندي وما يحتاج اليه واتضح لديه جيداً ان التمسك بالقديم من عادات الآباء وتقاليد الاجداد والنفور من العلوم الحديثة وتجنب الأمم الأخرى انما هو السبب الاكبر في استيلاء الجهل على ابناء جلدته . فعاد في اواخر سنة ١٨٧٠م الى بنارس وتولى مهام وظيفته وفي نفسه انشاء مدرسة في بلاد الهند على مثال مدرسة كمبريدج ولكنه أدرك خشونة ذلك المركب فلبث متربصاً ينتظر الفرص.

فبدأ في تمهيد السبيل لذلك المشروع فانشأ جريدة سماها « مصلح الهيئة الاجتماعية الاسلامية » نشر فيها مقالات ضافية بين فيها خطأ الذين يطعنون في العلوم الحديثة أو يحرمون من يقتبسها وأورد لهم الأدلة الدينية والشواهد الشرعية المؤيدة لاقواله وقضى في هذا الجهاد تسع سنوات متوالية . قال الكولونيل غراهم وقد كتب ترجمة الرجل « أن كتابته هذه أثرت في الهيأة الاجتماعية الاسلامية الهندية تأثيراً غريباً وكانت خير وسيلة لتقريب الهنود

من حكامهم » ولكنه بلي بغضب كثيرين من المسلمين فجاءه التهديد والوعيد من البيت الحرام واتهمه بعضهم بالضلال . ولكنه ما انفك يجادلهم بالحسنى حتى اقنعهم بصدق اسلامه وفي جملة ما مكن اقتناعهم رد شديد اللهجة دافع فيه عن المسلمين ضد كتاب ألفه السير وليم هنتر وموضوعه « مسلمونا بالهند وهل هم يعتقدون وجوب نبذ طاعة المملكة ».

على أن ما لاقاه من امثال هذه العقبات لم يثن عزمه عن الغرض الذي أوقف بقية حياته لاتمامه وهو انشاء مدرسة كلية اسلامية فألف اولاً لجنة سماها « لجنة رأس مال المدرسة الهندية الانكليزية الاسلامية » على ان تكون تلك المدرسة في بنارس ثم اقروا على أن تكون في مدينة علي كده لانها في وسط العالم الإسلامي هناك فيسهل قدوم الطلاب اليها من البنجـــاب والاود والبهار وراجبوتانا وغيرها .

ولكن تأسيس تلك المدرسة لم يكن بالأمر الهين لان في سبيلها فضلاً عن النفقات الطائلة عقبة وعرة هي عقبة التعصب فقام لمصادرة المشروع جماعـة يرون بقاء القديم على قدمه ويعدون الخروج عنه بدعـــة . ولكن صاحب الترجمة تصرف بالحكمة والدراية وعدّل في بروغرام المدرسة وقوانينها تعديلاً اقنع الجميع ان الغرض منها تعليم المسلمين وتثقيفهم على ما توجبـــه ديانتهم وان التعليم فيها يكون باللغات الشرقية والعلوم الشرقية . وساعده في هـــذا الجهاد جماعة من رجال الانـكليز المشهورين فاخذوا في جمع الاكتتـــاب من مسلمي الهند فلاقوا مشقة كبرى فمضت مدة ولم يجتمع من المال ما يقوم بالنفقة اللازمة . اما السيد احمد ولجنته فلم ينتظروا اجتماع المال كله مخافة ان تطول المدة فتفتر الهمم مع ما يتخلل ذلك من ضعف الثقة فتناولوا ما اجتمع لديهم من النقود وانشأوا به مدرسة صغيرة في علي كده سنة ١٨٧٥م وكان انشاؤها

داعياً الى وثوق الناس في تلك اللجنة ومشروعها فاقدموا عليه ولم تمض سنتان أخريان حتى انهالت عليهم الهبات والمساعدات فأنشأوا المدرسة الكبرى وهي المدرسة الكلية في علي كدة . وظلت المدرسة برئاسة بعض رجال الانكليز حتى انتقل هو الى علي كدة فصارت اليه فاستقال من منصبه في القضاء وانقطع اليها منذ عام ١٨٨٠م وعكف على التعليم والتأليف والخطابة حتى توفاه الله في مارس سنة١٨٩٨م وله من العمر ٨١ عاماً وقد جلله الشيب فزاده وقاراً ونال كثيراً من علامات الشرف مع لقب سير وألقاب أخرى .

صفاته الشخصية :

كان رحمه الله عظيماً في كل شيء جسماً وعقلاً وخلقاً كان عظيم الرأس واضح الملامح كبير العينين كبير اللحية غليظ الشعر كما يتضح ذلك من النظر الى رسمه في صدر هذه الترجمة وكان عظيم الهيبة مع رقة ووداعة عالي الهمة حازماً مقداماً كثير الصبر على المشروعات الوطنية وما برح الى آخر نسمة من حياته مستهلكاً في خدمة وطنه ساعياً في تأييد جامعة الاسلام ورفع شأن المسلمين . ومما ذكره لنا بعض معارفه انه لما عزم على انشاء كلية علي كدة المتقدم ذكرها واحتاج الى جمع المال طاف البلاد بنفسه متنقلاً من مدينة الى اخرى ومن بلد إلى آخر وكانت شهرته قد طارت في الآفاق فكان إذا نزل مدينة همّ أهلها باعداد الاحتفالات وايلام الولائم احتفاءً به فكان يقول لهم « لم آت لآكل ولا لاشرب وانما جئت استحثكم على مشروع وطني فما تنوون انفاقه على الاحتفال ادفعوه إليّ نقداً لان المدرسة أحوج اليه » فبلغ مقدار ما جمعه في هذا السبيل ٤٠٠،٠٠٠ روبية (نحو ٧٠٠،٠٠٠ فرنك) انفقها كلها على المدرسة وقضى نحو عشرين سنة في خدمتها ليلاً ونهاراً لا يلتمس

اجراً ولا شكوراً . وانما كان ينفق على نفسه من راتب استحقه من خدمته في القضاء ومقداره ٤٠٠ روبية في الشهر وابنه السيد محمود الآن قاضي قضاة المسلمين في مدينة الله أباد .

كلية علي كدة :

هي اعظم مدرسة كلية اسلامية في الهند تعلم فيها اللغات الهندية والفارسية والعربية والانكليزية . عدد اساتذتها نحو خمسة عشر استاذاً كان في جملتهم صديقنا شمس العلماء الشيخ شبلي النعماني استاذ العربيـــة فيها وهو من كبار العلماء المحققين . وعدد تلامذتها نحو ٥٠٠ تلميذ يفدون اليها من انحـــاء الهند بعيدها وقريبها وهي المدرسة الوحيدة الكبرى التي أنشأت على نفقة الوطنيين واقتدى بها أهل لاهور منذ بضعة عشر عاماً فأنشأوا مدرسة سموها «مدرسة لجنة حماية الاسلام» وفي كلية علي كدة مكتبة نفيسه وجامع ومطبعة تصدر منها جريدة أسبوعية في اللغتين الاوردية والانكليزية اسمها (اليكار انستيتوت غازت) أي جريدة كليــة علي كدة . ويقدرون نفقــات تلك المدرسة بستة آلاف روبية في الشهر .

فالسيد احمد خان قد مات ولكن فضله لم يمت وهيهات ان يغيب ذكره عن اذهان أهل الهند . وبالحقيقة انهم قدروه حق قدره فألفوا بعد وفاتـــه جمعية سموها «جمعية احياء ذكر السيد احمد خان» فقررت ان افضل عمل يحيا به ذكره انشاء مدرسة جامعة مثل مدرسته الأولى تسمى باسمه وتجمع لها الأموال من المسلمين في اقطار الهند وقدروا ما يقتضي لها من ذلـك فبلغ نحو نصف مليون جنيه ولا تزال الجمعية آخذة في هـــذا المشروع وفق الله مسعاها .

اديب اسحق

ترجمتـــه :

ولد في دمشق في ٢١ يناير سنة١٨٥٦م وتلقى مبادىء العـلم في مدرسة الآباء العازريين فتناول شيئاً من العربية والافرنسية وكان على حداثته ظاهر النباهة ممتـــازاً على أقرانه وكان استاذه في العربية يقول لأبيه « ان ابنك سيكون قوّالاً » أي شاعراً . ونظم الشعر قبل أن يتجاوز العاشرة وهو لم يتعلم العروض . واتفق أن أسرته أصيبت بنكبة اضطر هو معها الى إعالتها فزايل المدرسة في الحادية عشرة وتولى الكتابة في الكمرك بمئتي قرش في الشهر ودرس في أثناء ذلك مبادىء التركية فحصل على الكفاية منها في بضعة أشهر وأصبح قادراً على التعبير بها عما يجول بخاطره تكلماً وكتابة . ثم تمكن منها حتى ترجم قصيدة كمال باشا في مقتل السلطان عبد العزيز ملتزماً فيها الروي والقافية والبحر واللفظ التركي بعينه ، وهاك مثالاً من الأصل التركي :

دين ودولت خائني برقاج ملاعين يزيد
ايلمشر حضرة عبد العزيز خاني شهيد

وتعريبه :

خانة للدين وللدولة مْن قوم يزيد ... قتلوا عبدالعزيز المرتضي فهو شهيد

ودعت نجابته في التركية ومهارته في الكتابة الى سرعة ترقيـه ولم يكن ذلك ليشغله عن الأدب والشعر فكان يغتنم ساعـات الفراغ فينظم القصائد

والموشحات ويطالع كتب الانشاء في العربيـة والفرنساوية والتركية ويراسل المجلات الأدبية وله في السنين الاولى من الجنان عدة مقالات وألغاز . ولم يتم الثانية عشرة من عمره حتى اجتمع من نظمه نحو ألف بيت أكثرها في الغزل والنسيب وبعضها في المدح والعتاب والرثاء وغيره وقد تشتت معظمها .



أديب . اسحق

١٨٥٦م – ١٨٨٥م

وفي الخامسة عشرة من عمره استقدمه والده الى بيروت ليعينه في خدمه البريد فتقدم إليها وعرف فيها جماعة من الادباء والشعراء من شبان تلك المدينة الزاهرة وله معهم مطارحات ومراسلات في الأدب والشعر تدل على توقد ذهنه وبديهته الشعرية وكان من فطرته ميالاً الى التكلم باللغة الفصحى .

واضطر بعد برهة أن يعود الى مهنة الكتابة في كمرك بيروت وما لبث أن

زايلها الى مـــا تعلو به الهمم وقد نزعت به نازعة العلى الى الاشتغال بفن الكتابة فتولى تحرير جريدة التقدم بعيد نشأتها الاولى . ولم يمض عليه زمن وهو يكتب المقالات الرنانة حتى تحدث الناس بطلاوة عبارته ورشاقتها وهو لم يتجاوز السابعة عشرة وترجم في اثنـــاء ذلك قسماً من كتاب المعاصرين الفرنساوي لم يطبع . وألف كتاباً سماه نزهة الأحداق طبعه وقدمه الى احد وجهـــاء الثغر . وترجم لصاحب التقدم أيضاً كتاباً في الأخلاق والعادات وكتاباً صحياً طبعا يومئذ وليس عليهما اسمه .

ثم دخل جمعية زهرة الآداب وقام فيها عضواً مهماً ثم تولى رئاستها وكان يلقي فيها الخطب البليغة والمباحثات وينظم القصائد .

وفي سنة ١٨٧٥م انتدبه سليم افندي شحاده لمشاركته مع المرحوم سليم الخوري في انشاء آثار الادهار فاشتغل بذلك عاماً وبعض العـــام وعرب في خـــلال ذلك رواية اندروماك عن راسين الشاعر الفرنساوي اجابة لطلب قنصل فرنسا يومئذ فترجمها ونظم أشعارها ورتب الحانها وعـــلم ادوارها في مدى ثلاثين ليـــلة . فمثلهـــا البنات اليتامى فجمعوا من ريعها ٣٥٠٠٠ قرش.

ثم شاركه صديقه المرحوم سليم نقاش في تأليف بعض الروايات وتعريب البعض الآخر ولم يلبث ان شخص باشارته الى الاسكندرية وهناك نقح رواية اندروماك وعرب رواية شارلمان وألف رواية ثالثة سماها غرائب الاتفـــاق سرقت في جملة ما سرق من آثاره من بيته في الحدث.وقد مثلت هذه الروايات في الاسكندرية مراراً وكان لها وقع عظيم . فنزعت به نفسه الى ما هو اسمى من ذلك وهو ما أعدته له يد الاقدار فجاء القاهرة وفيها يومئذ المرحوم السيد جمال الدين الافغاني فلازم حلقته وأخذ عنه دروساً في الفلسفة الأدبية والعقلية

والمنطق فتاقت نفسه الى انشاء جريدة عربية فأنشأها في مصر وسماها «مصر» وأصدرها حالاً ولم يكن عنده من معداتها الا عشرون فرنكاً . ولكنها لم تكد تظهر حتى أعجب الناس بها وتسابقوا الى اقتنائها وكلهم معجبون بطلاوة انشائها وبلاغتها . فنقلها الى الاسكندرية واشترك في تحريرها مع المرحوم سليم نقاش فلقيت نجاحاً عظيما وطارت شهرتها في الآفاق وكثر مريدوها وأصبح الناس يتحدثون بعبارة أديب ومزاياها ويحفظون اقواله كما يحفظون الحكم والامثال لما حوته من بلاغة التركيب والتطبيق بين الاسلوب الافرنجي والعربي . فتنشطا وأنشأ جريدة أخرى يومية سمياها « التجارة» وظلت «مصر» أسبوعية وكانتا من أعظم اركان النهضة الانشائية في الجرائد وتحداهما الكتاب ونسجوا على منوالهما من أساليب التحرير البسيط الخالي من التعقيد او التقييد . فأحدث ذلك حركة في الافكار وحرية في الأقوال لم تكن معروفة من قبل فأصدرت الحكومة امرها بالغائهما جميعاً .

فغادر صاحب الترجمة الاسكندرية الى باريس وأعاد فيها جريدة مصر لا يبالي بما يتهدد في سبيل ذلك من الخطر على حياته وسماها « القاهرة » وكتب فيها فصولاً متناهية في البلاغة . وألف هناك أيضاً كتاباً في تراجم رجال مصر في هذا العصر سرق أيضاً في جملة ما سرق . وعرف في باريس عدة من رجال الاقلام من الفرنساويين والاتراك ولقي جماعة من رجال السياسة وحضر في مجلس النواب جلسات كثيرة فزادته خطب البلغاء اقداماً على الخطابة وطالع كثيراً من المخطوطات العربية في مكتبة باريس وكانت صحته قد تعرضت للمؤثرات لنحافة بدنه بالنظر الى سرعة نمائه بدناً وعقلاً مع اجهاد عقله في ما تتطلبه نفسه من المطالب العالية رغم ما كان في سبيله من العقبات . فلما نزل باريس كان بردها قارساً جداً في ذلك العام ولم يكن مهتماً بصحته

فأصيب هناك بعلة الصدر وتألم منها مدة الشتاء وعـــاد الى بيروت مصدورا فعهد اليه صاحب التقدم بتحرير جريدته فتولى تحريرها للمرة الثانية وأقام على ذلك نحو سنة .

فلما انقلبت الوزارة المصرية أواخر عام ١٨٨١م عـــاد الى مصر فودعه أصدقاؤه آسفين على فراقه ثم جـاء القاهرة فعين ناظراً لقلم الانشاء والترجمة بنظارة المعارف وأذنت له الحكومة في اصدار جريدة مصر فاصدرهـا في شكل كراس ثم اعادها الى مظهرها الأول. وعين في الوقت نفسه سكرتيراً لمجلس النواب ونال في خلال ذلك الرتبة الثالثة ثم أحال امتياز الجريدة الى شقيقه ليتفرغ لمهام منصبه وظل مع ذلك يحرر القسم الأكبر منها .

ولما طرأت الحوادث العسكرية بمصر عاد أديب الى بيروت في من هاجر الى القطر السوري . وبعد احتلال الانكليز اسكندرية عاد اليها مرة أخرى في التماس شأنه الأول فلم يحصل عليه وأبعد الى بيروت بعـد ان أوقف في السجن بضع ساعات نظم في خلالها أبياتـــاً ذيل بها قصيدة في مدح سلطان باشا .

وتولى في بيروت تحرير التقدم للمرة الثالثة وطبع في خلال ذلك رواية الباريسية الحسناء وكان قد عربهـا في ايام الصبا وهي مشهورة . ثم اشتدت عليه علة الصدر فأشار عليـــه الأطباء بالذهاب الى مصر للاستشفاء بهوائها فاستأذن من المغفور له الخديوي السابق فأذن له فأتاها وأقام فيها أياماً ثم عاد الى الاسكندرية قضى بضعة أيام في الرمل فلم يرَ فائدة فعـاد الى بيروت وانصرف تواً الى مصيفه في الحدث بلبنان ولم تمض على عودته ثلاثين يوماً حتى توفاه الله سنة ١٨٨٥م وله من العمر تسعة وعشرون عاماً .

صفاته وأعماله :

كان رحمه الله طويل القامة والعنق مع انحناء قليل أبيض اللون برّاق العينين عريض الجبهة بارزها جهوري الصوت طلق اللسان ثبت الجنان لطيف الحديث ذكياً نبيهاً جريئاً مقداماً حادّ الذهن أبي النفس سليم القلب وقدأبّنه الخطباء فعددوا مناقبه ووصفوا قلمه ورثاه الشعراء والكتاب وقد جمعت أقوالهم في مقدمة كتاب الدرر الذي جمعوا فيه منتخبات اقواله .

واشتهر رحمه الله خصوصاً في الخطابة والانشاء فإذا خطب تدفق السيل يهتز له المنبر وتنقاد إليه الكلمات آخذة بعضها برقاب بعض وإذا كتب سحر الالباب بحسن البيان مع السلامة والبلاغة . وكان قدوة المنشئين وعمدة الكتاب ولو أمد الله بعمره لخدم الاوطان خدمات قل أن يستطيع الناس مثلها .

وكان مع ذلك شاعراً بليغاً نظم القصائد الرنانة في جملتها قصيدة طويلة نظمها بعد حوادث مصر سنة١٨٨٢م وصف فيها تلك الحوادث أحسن وصف وهي طويلة إليك مقتطفات منها :

عج بي على تلك الطلول وناد ... أنى تحمل اهل هذا النادي
يا وارد الاسكندرية طامعاً ... بمنافع الاصدار والايراد
أقصورها خفيت عن الانظار أم ... آثار لقصر في القفار بواد
أم تدمر قد دمرت وعمورة ... ما عمرت أم دار ذي الاوتاد
فأبادها جهل خفيّ ما بدا ... مثل له من حاضر او باد
جهل الذي رام الاماني وهي في ... قمم الجبال وكان دون الوادي
شقيت بزلته الجموع وطالما ... أشقت جموعا زلة الافراد

وتلاه في سبل الغواية معشرٌ زلوا وضلوا حيث ضل الهادي
فأتاهم رعد المدافع مبرقـاً فنبوا عن الابراق والارعاد
يا هولهـا من ساعة مرت بما زهقت به الارواح في الاجساد
كم حامل خرجت بـه محمولة فوق الكواهل أو على الاعواد
ومصونة نفساً تقول لصحبها يا ليتني قدمت قبل ولادي
ومبأباً يدميـه لمس حريره طفـل قريب العهد بالميلاد
ومعمر لم يبق في الدنيا له غير السكينة من منى ومراد
والنار موقدة سرت من خلفهم فكأنهـا حيات بطن الوادي
والجند شردهم فنـال عدوهم فرقـاً فـلم يتجلدوا لجلاد
ونضوا على اهل السبيل بواتراً في الحرب ما نضيت من الاغماد
وبلادهم قد نالهـا من عارهم ما لم يحق في عهدنا ببلاد

ومنها في التخلص :

عيبت فلولا السابقون ومجدهم وبقاء من ولدوا من الامجـاد
ومؤيدٌ ملك أمير ٌعـادل أربى بمفرده على الاعداد
وعصابة كانت قلائد فصلهم أبهى من الاطواق في الاجياد
لم تلق في مصر ومصر عزيزة من قائل هذه البلاد بلادي

وله رسائل كثيرة تدل على حسن بيانه في مخاطبة الاصدقاء قـد نشر بعضها في جملة منتخباته في الدرر وبلغنا ان شقيقه عوني بك اسحق سيطبع الدرر ثانية ويضيف اليها كثيراً مما فاتهم في الطبعة الاولى جزاه الله خيراً .

احمد فارس الشدياق

ترجمة حياته :

هـو فارس بن يوسف بن منصور بن جعفر شقيق بطرس الملقب بالشدياق من سلالة المقدم رعد بن المقدم خاطر الحصروني الماروني الذي تولى جبـل كسروان في سوريا سبعاً وثلاثين سنة في اوائل القرن السابع عشر للميلاد .

ولد في عشقوت من اعمال لبنان سنة ١٨٠٤ م ثم انتقل والداه الى الحدث بلبنان سنة ١٨٠٩ م فربي فيها وقد ظهرت عليه مخائل النجابة منذ نعومة اظفاره فتعلم القراءة في مدرسة عين ورقة بلبنان وتناول شيئاً من اللغة والنحو على يد اخيه اسعد . وبدأ بنظم الشعر وهو في حدود العاشرة وكان فيـه ميل غريزي لقراءة الكلام الفصيح والتبحر في معاني الالفـاظ الغريبة التي يعثر عليها في ما يقرأه من الكتب التي في مكتبة والده لان والده كان قد احرز كتباً عديدة في فنون مختلفة ثم توفي والده وهو صبيٌّ فاصبح يتيماً فعلم انه يجب عليه ان يعتمد على نفسه في التعيش فاتقن صناعة الخط وجعل ينسخ الكتب لنفسه أو لغيره بالاجرة ولكنه لم يرَ فيها فائدة تذكر وكانت نفسه تحدثه من ذلك الحين بالاسفار والجد في طلب العلى ولم يكن يرى في ما حوله ينشطه على ذلك وينهض بـه من حضيض الفقر لقلة الوسائل واستبداد القوي بالضعيف .

قلنا انه تلقى بعض العلم عن أخيه أسعد وكان أخوه هذا نابغـة عصره ذكاءً وفطنة فاتفق انه خلع مذهب والديه وتمذهب بالمذهب الانجيلي فغضب



احمد فارس الشدياق ١٨٠١ م — ١٨٨٧ م

عليه البطريرك وما زال يتهدده ويسومه العذاب ألواناً حتى يرجع عن رأيه فلم يزدد إلا تمسكاً واصراراً الى ان آل ذلك إلى موته بدير قنو بين في عنفوان شبابه شر موتة . ولا يزال أهل سوريا ولبنان يتحدثون بقصته الى هذه الغاية . وكان صاحب الترجمة شديد التعلق بأخيه هذا فعظم عليه أمره حتى كره الاقامة في بلاد الشام جملة فغادرها ناقماً عليها وعلى الذين كانوا سبباً في موت أخيه أسعد وطلب الاغتراب فجاء الديار المصرية في عهد المغفور له محمد علي باشا . وكان مجيئه إليها بصفة أستاذ للمرسلين الامركان لتعليم اللغة العربية وقواعدها وأشياء أخرى . وقد أرسله لذلك المرسلون

الامركان ببيروت لأنهم شعروا بأن موت أخيه أسعد إنما كان دفاعـــاً عن مذهبهم وكان أسعد مضطهداً من اكثر أعضاء عائلته إلا جماعـــة منهم لم يكونوا يستطيعون المجاهرة في الدفاع عنه خوفاً من سطوة الحكام لانهم كانوا موافقين للاكليروس بما أتوه بشأن المرحوم أسعد . امــا فارس فانه لم يكن يكتم ما في نفسه من استصواب عمل أخيه فأصبح في خطر على حياتـــه فحماه الامركان ثم أرسلوه إلى مصر كما قدمنا .

ولبث في مصر بين تعليم وتعلم حتى أتمّ دروسه في العلوم العربية وغيرها وقــد قرأ بعضها على الفاضلين نصرالله افندي الطرابلسي الحلبي والشيخ محمد شهاب الدين وطالع كتاب صحاح الجوهري وديوان المتنبي وغيرهما من كتب اللغة والأدب . وكان كثير الرغبة في قراءة الشروح التي تبين مآخذ الكلام من اللغة شديد الولع بالشعر ونظمــه فخاض عبابه حتى بلغ منه مبلغاً عظيما ونظم شيئاً كثيراً بين غزل وحماسه ومدح وهجاء وتمكن من سائر علوم اللغة كالنحو والصرف والاشتقاق والمنطق. وتقرب من خيرة علماء المصريين ومعية عزيز مصر حتى تولى كتابة الوقائع المصرية وكانت اول نشأتها تكتب باللغة التركية فقط فكتب فيها زمناً بالعربية .

وتعرف في مصر بعائلة الصولي من وجهاء السوريين فصاهرهم وولدت له امرأته هذه ولدين هما فائز وسليم أما الأول فتوفي بعد ذلــك في ضواحي لندرا أثناء اقامته فيها كما سيجيء وبقي سليم وحيـــداً وهو سليم افندي فارس نزيل بلاد الانكليز .

وفي سنة ١٨٣٤م سافر الى جزيرة مالطة وأقام فيها زهاء اربع عشرة سنة يدرس في مدارس المرسلين الامركان وقد تولى تصحيح ما يطبع في مطبعتهم

هناك وأخذ في التأليف والتصنيف ولا يكاد يوجد كتاب مطبوع في مطبعة مالطة الا كان هو مؤلفه أو مترجمه او مصححه . ومن جملة ما ألفه كتاب للتدريس وآخر سماه « الواسطة في معرفة احوال مالطة » لم يغادر شيئاً عن تلك الجزيرة وسكانها الا ابانه وانتقده فيه .

وفي سنة ١٨٤٨م بعثت جمعية ترجمة التوراة في لندرا تطلبه من حاكم مالطة على يد وزير خارجيتها للمساعدة في ترجمة التوراة الى العربية. وكانت هذه الجمعية قد عهدت بترجمتها الى الدكتور لي فبعثت الى صاحب الترجمة لتنقيحها وضبطها فسار الى لندرا ومر في طريقه بمدن كثيرة من اوربا ثم عاد بعد انتهاء الترجمة الى باريس أقام فيها زمناً وقد كتب سياحته هذه في كتاب سماه « كشف المخبا في احوال اوربا » وصف به تلك البلاد وصفاً دقيقاً بعبارة رقيقة تأخذ بمجامع القلوب لا يمل القارىء من قراءتها فضلاً عما يستفيده منها عن احوال أمم اوربا وخصوصاً لندرا وأخلاق اهلها وعلومهم وآثارهم وكل ما يتعلق بهم . أما باريس فاوجز في وصفها اعتماداً على ما كان قد كتبه عنها العلامة المرحوم رفاعة بك الشهير . وقد طبع كشف المخبا الطبعة الاولى في تونس والثانية في الأستانة سنة ١٢٩٩ هـ. وهي مشهورة ومتداولة . وألف اثناء سياحته هذه ايضاً كتاباً سماه « الساق على الساق فيما هو الفارياق » والفارياق لفظ مقتطع من اسمه (فارس الشدياق) وسيأتي وصف هذا الكتاب عند الكلام من مؤلفاته .

قضى في سياحته هذه بضع عشرة سنة متجولاً في انحاء اوربا يتردد الى مالطة وهو لم يغير شيئاً من لباسه التركي ولا بدل طربوشه على انه اتقن أثناء ذلك أيضاً اللغة الانكليزية وتعلم الفرنساوية وتزوج سيدة انكليزية لم تلد له

اولاداً ونال الحماية الانكليزية بعد سعي لانهم لم يكونوا يمنحونها الا لمن استحقها ولا تتوقف على مدة سني الاقامة فنالهـا وحلف اليمين المتعلقة بها وهاك نص بعضها .

« انا فلان أعد وأقسم صادقاً باني اكون اميناً ومخلصاً في الطاعة لجلالة الملكة فكتوريا واحامي عنها بغاية جهدي وطاقتي ضد جميع من يتحالف عليها أو يهم بسوء عليها سواء كان على شخصها أو تاجها أو شرفها وابذل غاية جهدي في ان اكشف لجلالتها ولورثتها ولمن يخلفها جميع الخيانات والخائنين والمتفاوين عليها أو عليهم واعد بأمانة اني ابذل غاية استطاعتي في ان احفظ واسند واجير خلافة التاج المعبر عنه في الأحكام بحكم كذا » الخ .

واتفق في غضون ذلك ان احمد باشا باي ولاية تونس اذ ذاك زار مدينة باريس وفرق على فقراء مرسيليا وباريس وغيرهما اموالاً طائلة ثم رجع الى مقامه فنظم صاحب الترجمة قصيدة يمتدحه بها وبعثها على يد من بلغها اليه فحازت حسن قبوله وفتن الباي بها حتى بعث اليه يستقدمه على سفينة حربية وقد عجب صاحب الترجمة لتلك الدعوة وذلك الاكرام وقال «لعمري ما كنت احسب ان الدهر ترك للشعر سوقاً ينفق فيها ولكن اذا أراد الله بعبد خيراً لم يعقه عنه الشعر ولا غيره » فجاء تونس وأقام فيها مدة على الرحب والسعة وحرر في جريدة الرائد التونسي وهي جريدتهم الرسمية الى الآن .

وكان في أثناء اقامته بباريس قد نظم قصيدة امتدح بها المغفور له السلطان عبد المجيد على أثر الحرب بين الدولة العلية والروسية وبعث بها على يد سفير الدولة العلية بباريس والقصيدة تزيد ابياتها على المئة والثلاثين نكتفي منها بما يأتي مثالاً لما جادت به قريحة المترجم من النظم .

قال في مطلعها :

الحقُّ يعلو والصلاح يعمرُ   والزور يمحق والفساد يدمرُ
ومنها: يا مؤمنون هو الجهاد فبادروا   متطوعين اليه حتى تؤجروا
ومنها: في لن تنالوا البر حتى تنفقوا   مما تحبون الدليل الاظهرُ
وتمسكوا بالعروة الوثقى من الص   بر الجميل على القتال وذمروا
يغنيكم التكبير والتهليل عن   أن تعملوا فيهم سلاحاً يبتر
ومنها: لو لم يكن منكم سوى نفر لما   غلبوا فكيف بكم وانتم اكثر
ومنها: أنتم عباد الله حقاً فاعبدوا   للدين فهو بكم يعز ويجبر
ومنها: ما ان يقاويكم بهم من عسكر   لو أن ملء الارض طرا عسكر
قد قال في الذكر المفصل ربكم   حقا علينا نصرهم فتذكروا
ومنها: غاروا على حرم مخدرة لكم   قد طالما أحصنّ عمن يعهر
الصبر محمودٌ ولكن حين تن   تهك المحارم لا أرى ان تصبروا
ومنها: والله قد وعد المجاهد منكم   فتحاً مبيناً في الكتاب فابشروا
ويبوّىءُ الشهداء خير مبوَّءٍ   جنات عدن ملكها لا يغبر
الحرب بينكم سجال فاثبتوا   والنصر عقبى أمركم فاستبشروا
ومنها: ولعل نسرهم المدوم واقع   فمن الهلال علاه ضوء يبهر
ومنها: من كان من بين الورى سلط   انه عبد المجيد فانه لمظفر
ومنها: كفر المبايع غيره والمعتدي   بغياً وطغياناً عليه اكفر
ومنها: من جوهر الاخلاص صور ذاته   رب قدير كيف شاء يصور
ولاه أمر الدين والدنيا معاً   فهو الامام الحاكم المتأمرُ
ومنها: وهو الذي بين العباد محبب   ومعظم ومبجل ومعزر
يستدفعون الضر فيهم باسمه   وعلى المنابر حمده المتكرّر

ومنها: ايهٍ امير المؤمنين ومن دعا | ايه امير المؤمنين فقد سروا
سد بالمعالي فائقاً كل الورى | مجداً وشانئك البغيض الابتر
ومنها: ليست فروق لغير عرشك وهي ما | بقيت عن الفرقان ليست تقفر
أنت الذي بمديح وصفك تنجلي | عنـا الهموم وأفقنا يتعطر

وقال في ختامها:

حرس الاله جنابك الاعلى ولا | زالت عبادك في حماه تخفر
وادام دولتك العلية ما سرى | نجم وما زخرت كجودك ابحر
انشدت تاريخين هجريين في | ختمي مديحك وهو حظي الاوفر
عبد المجيد الله از كى ضده | سلطاننا خير بجـد ينصر
(١٢٧٠) | (١٢٧٠)

وكان لهذه القصيدة وقع حسن لدى الجلالة الشاهانية فورد عليه بسببها ايعاز بالقدوم الى الاستانة لمكافأته وكان قـــد همّ بالمسير فحبب اليه بعض الصدور العظام الاقامة في تونس فسار اليها كما تقدم. ووجـــه اليه حضرة الباي احسن منصب لديه وهناك اعتنق الديانة الاسلامية على يد شيخ الاسلام وسمي احمد فصار اسمه احمد فارس الشدياق. وأخذ صيته ينتشر في سائر الانحاء الاسلامية وخصوصاً الاستانة العلية فطلبته الصدارة العظمى من الباي فقدم الى الاستانة وتولى تصحيح الطباعة العامرة بضع سنوات.

وفي سنة ١٢٧٧ هـ انشأ جريدة الجوائب الشهيرة في الاستانة وأجاد في انشائها وسبكها فولع الناس بمطالعتها وذاع صيتها في الآفاق الشرقية فبلغت الهند وفارس والعراق وسائر بلاد العرب ومصر والشام والمغرب وأجاد في اتقانها حتى لم يغادر أسلوباً من اساليب الكتابة لم يطرقه بين لغـة وسياسة

ومدح ورثاء وجد وهزل ولوم وعتاب وحزن وطرب وسائر فنون الأدب فضلاً عن القصائد الرنانة والمقالات العديدة في العلم والاخلاق كما تراه محفوظاً في « منتخبات الجوائب » .

ولم تنحصر منزلة الجوائب في المشرق ولكنها دخلت المغرب حتى كانت جرائد باريس ولندرا تأتي بذكرها وذكر محررها في الكلام عن سياسة الشرق مستشهدة بأقواله وكانت تلقبه بالسياسي الشهير والاخباري الطائر الصيت . وقد خاطبه الملوك والامراء والعظماء في سائر اقطار العالم ووجدوا بين اوراقه بعد وفاته مئات من الكتب واردة عليه من عظماء العالم وملوكهم .

وقد نال الالتفات الشاهاني بنوع خاص فأنعم عليه بالرتب والنياشين ونال مثل ذلك ايضاً من الدول الاخرى .

وما زال عاملاً على التأليف والتحرير الى أواخر أيامه فعهد بتحرير الجوائب الى ولده سليم أفندي فارس فقام بذلك خير قيام الى أن قضت الحوادث بعطلتها سنة ١٨٨٤م على اثر الحوادث السودانية في الديار المصرية .

وفي سنة ١٨٨٦م قدم صاحب الترجمة الى هذه الديار وقد شاخ وهرم وأتيح لنا مشاهدته وقد علاه الكبر وأحدق بحدقتيه قوس الاشياخ واحدودب ظهره ولكنه لم يفقد شيئاً من الانتباه أو الذكاء وكان الى آخر ايامه حلو الحديث طلي العبارة رقيق الجانب مع ميل الى المجون .

وقد لاقى أثناء اقامته بمصر هذه المرة حسن الوفادة فزاره الوزراء والعظماء وتشرف بالمثول بين يدي المغفور له الخديوي السابق فأكرمه ولاطفه وذكر خدمته للشرق .

ثم عاد الى الاستانة العلية وأقام هناك حتى وافته المنيةوقد شبع من الايام فتوفي في مصيفه بقادي كوي وكان لوفاته في الاستانة رنـــة ودوي فرثاه الكبراء والعظماء وبعثت الحضرة السلطانية سماحتلو رشادتلو الشيخ محمد ظافر أفندي لحضور الاحتفـال . ونقلت جثته الى سوريا عملاً بوصايته قبل وفاته ودفنت في سفح لبنان في محلة الحازمية قرب مدينة بيروت .

وكان لتشييع جنازته في بيروت احتفال شائق مشى فيه كبار المأمورين وأعيان البلاد وعلماؤما وأفاضلها الى ان واروه التراب واستمطروا عليهصيب الرحمة والرضوان .

وترى في صدر هذه المقالة رسمه منقولاً عن أصل فوتوغرافي دقيق الصنعة وهو آخر رسم نقل عنه على مـا نعلم وترى فيه ظواهر الشيخوخة واضحة ولكنها كانت اوضح كثيراً عند قدومه القاهرة المرة الاخيرة . وكان رحمهالله ربع القامة كبير الانف واسع العينين مـع بروز وحدة . وكان طلي الحديث مع ميل الى المجون وترى هذه الصفة واضحة كل الوضوح في ما كتبه فإن من يطالع كتبه يتحقق ذلك فيها .

وقد رثته الجرائد على اختلاف لغاتها ونزعاتها وأبنه العلماء والامراء ورثاه الشعراء في أنحاء المملكة العثمانية وخصوصاً في مصر وسوريا . وقـــد عني بجمع تلك المراثي من نظم ونثر حضرة يوسف أفندي آصاف صاحب جريدة المحاكم وطبعها في مطبعة المحروسة في كتاب سماه « هو الباقي » وقد علمنا انه وردت كتابات اخرى في رثائه بعد أن تم طبع المجموعة وبالحقيقة ان الرثاء وإن كثر قليل في جانب ما يليق بمقام هذا الفقيد .

مؤلفاته :

ويجمل بنا قبل الشروع في وصف مؤلفاته ان نصف قلمه أي أن ننظر في مؤلفاته نظراً عاماً ونذكر ما اختص به من اوصاف الكتاب فنقول :

امتاز المترجم باتقان فني النظم والنثر والاجادة في كليهما فتراه اذا نظم أو نثر إنما يفعل ذلك عن سعة وارتياح كأنه وعى ألفاظ اللغة في صدره وأخذ عليها عهداً أن تأتيه صاغرة حالما يحتاج إليها فإذا خطر له معنى سبكه في قالب من اللفظ لائق به بغير ان يتكلف في ذلك مشقة او تردداً . فترى كتاباته طلية طبيعية ليس فيها شيء من التكلف او التقعر على كونها بليغة فصيحة والسبب في ذلك حدة ذهنه وقوة ذاكرته وسعة اطلاعه وكثرة محفوظه مع حرية قلمه . وكان يطلق لقلمه العنان غير محاذر وأظنه السبب فيما نراه ببعض مؤلفاته من المجون الذي تنفر منه طباعنا وتمجه أذواقنا . على ان المجون إذا لم يتجاوز حده كان احماضاً أو هو بمثابة الملح للطعام وذلك كثير في كتابات المترجم مما يرغب المطالع في المطالعة فلا يمل منها وان طالت .

ومن خصائص كتابة الشيخ احمد فارس السلاسة وارتباط المعاني بعضها ببعض وانتساقها مع التوسع في التعبير وتتبع الموضوع الى جزئياته مع مراعاة الموضوع الاصلي والعود اليه وترى ذلك واضحاً في كتابه كشف المخبا فإذا أراد وصف عادة من عادات أهل باريس مثلاً فانه يتطرق منها الى ما يماثلها من عادات العرب أو الاتراك فيذكر وجه الخطأ هنا أو هناك وما هو سبب هذه العادة وربما جاء بتاريخها ومن جاء بها حتى يخال لك انه خرج عن الموضوع ثم لا تشعر إلا وقد عاد بك اليه بغير تكلف . وكل ذلك بغاية السلاسة والطلاوة مع البلاغة . وترى في مؤلفاته كثيراً من الالفاظ العربية

جاء بها للتعبير عن معان حديثة افرنجية لم تكن عند العرب وهي في الغالب تدل على حسن اختياره .

ومن الأدلة على اقتداره في التعبير انه مغال فإذا مدح بلغ ممدوحه عنان السماء وإذا هجا انزل مهجوه دركات الجحيم . وترى كتاباتـه على بلاغتها وحسن سبكها تتجلى فيها البساطة والسهولة كأن كاتبها كان يكتب كل ما يمرّ بذهنه على غير تكلف أو مراعاة لخطة الكتاب قبله وهو استقلال في الرأي واعتماد على النفس . فمن ذلك في بداية فصل يصف به مصر في كتاب الفارياق قوله « قد قمت حامداً لله شاكراً فأين القلم والدواة حتى أصف هذه المدينة السعيدة الجديرة بالمدح الـخ .. » وفي هذا الاسلوب من الطلاوة ما لا يخفى ولكل مقام مقال .

فلنشرع إذاً في وصف مؤلفاته .

(١) سر الليال في القلب والابدال :

وهو كتاب لغوي تحليلي كتبه في الاستانة العلية لثلاثة مقاصد . أولاً لسرد الافعال والأسماء التي هي اكثر تداولاً واشهر استعمالاً وتنسيقها بالنظر الى التلفظ بها لايضاح تناسبها وابـداء تجانسها وكشف اسرار معانيها واصل مدلولاتها. ثانياً استدراك ما فات صاحب القاموس من لفظ أو مثل أو ايضاح عبارة أو نسق مادة . والكتاب يشتمل على نحو ستمئة صفحة بقطع كبير طبع بالاستانة سنة ١٢٨٤ هـ .

(٢) الساق على الساق في ما هو الفارياق : وقد تقدم ذكر هذا الكتاب في ترجمة حياته وهو كبير الحجم يشتمل على نحو ثمانمئة صفحة كبيرة كتبه اثناء سياحته في اوربا . ويظهر لمن طالعه ان مؤلفه اراد به ثلاثة أمور :

الأول وصف اسفاره واحواله الخصوصية وما قاساه في أوائل حياته . والثاني التنديد بجماعة من الا كليروس لم يذكر اسماءهم إلا رمزاً وتقبيح ما ارتكبوه في مقتل أخيه أسعد واما الأمر الثالث وهو الاهم فهو ايراد الالفاظ المترادفة في اللغة في مجموعات كل موضوع على حدة كأسماء الآلات والادوات واصناف المأكول والمشروب والمشموم والمفروش والمركوب والحلى والجواهر واوصاف الرجال والنساء وغير ذلك مما لا يتيسر وجوده في كتاب واحد وعلى اسلوب لم نشاهد مثله في العربية .

على اننا لا نستطيع الانتقال من وصف كتاب الفارياق قبل الاشارة الى أمر وددنا لو كفانا رحمه الله مؤونة النظر فيه – وذلك انه أورد في ذلك الكتاب الفاظاً وعبارات أراد بها المجون ولكنها تجاوزت حدوده حتى لا يتلوها أديب إلا ودّ لو انها لم تمر في ذهن شيخنا ولا دوّنها في كتابه تنزيهاً لاقلام الكتاب عما يخجل من قراءته الشاب فضلاً عن العذراء . وقد طبع الفارياق في باريس سنة ١٢٧٠ هـ .

(٣) **الجاسوس على القاموس** : ألفه في الاستانة ينتقد فيه معجم القاموس المحيط للفيروز ابادي وهو يشتمل على مقدمة واربعة وعشرين نقداً . أما المقدمة فهي ملاحظات كثيرة لغوية من جملتها ترتيب الأفعال بحسب ما نسقه الكوفيون ثم ترجمة صاحب القاموس وصاحب العباب وصاحب الصحاح وصاحب المحكم وصاحب لسان العرب وهم من فطاحل علماء اللغة . أما الأربعة والعشرون نقداً فهي انتقاده ما ورد في القاموس من عبارته وخطته ومعاني ألفاظه واشتقاقها وما شاكل ذلك . وعدد صفحات الكتاب زهاء سبعمئة صفحة .

(٤) **كشف المخبا عن فنون اوربا** : وهو سياحته في أوربا وصف فيه

عوائد أهل أوربا وخصوصاً الانكليز والفرنساويين ومتاحف لندرا وباريس وآثارهما وقد قال انه اختصر في وصف باريس لان المرحوم رفاعة بك قدسبقه الى وصفها مطولاً وقد طبع هذا الكتاب غير مرة .

(٥) **الواسطة في أحوال مالطة** : وفيه وصف جزيرة مالطة جغرافياً وتاريخياً ومدنيا وعوائد اهلها وأخلاقهم ولغاتهم وكل ما يتعلق بهم .

(٦) **اللفيف في كل معنى ظريف** : جمع فيه كلمات مفيدة وحكماً مأثورة وأمثالاً أدبية وحكايات تهذيبية ونكاتاً لغوية .

(٧) **غنية الطالب ومنية الراغب** : وهو كتاب مدرسي في علم الصرف والنحو .

(٨) **الباكورة الشهية في نحو اللغة الانكليزية وتليها المحاورة الانسية في اللغتين العربية والانكليزية** : وهو كتاب مدرسي لتعليم اللغة الانكليزية .

(٩) **السند الراوي في الصرف الفرنساوي** : وهو كتاب لتعليم اللغة الفرنساوية .

هذا عدا جريدة الجوائب التي حررها زهاء ثلاثين سنة وقد تقدم ذكرها في ترجمة حاله وجمع نجله سليم افندي فارس نخباً منها في كتب سماها منتخبات الجوائب .

وهناك كتب ألفها ولم تطبع منها كتاب النفائس في انشاء احمد فارس والتقنيع في علم البديع والروض الناضر في أبيات ونوادر وتليه رسائل ومحررات ادبية . وديوان شعري من نظمه يشتمل على اثنين وعشرين الف بيت .

وقد ألف كتاباً مطوّلاً في اللغة سماه « منتهى العجب في خصائص لغة العرب » قضى في تأليفه سنين عديدة نحا فيه نحواً حديثاً لم يسبقه اليه غيره على أسلوبه وقد أسهب فيه حتى بلغ مجلدات كثيرة وموضوعه البحث في خصائص الحروف الهجائية العربية مثال ذلك قوله ان من خصائص حرف الحاء السعة والانبساط اي ان الالفاظ التي تنتهي بحرف الحاء يكون في معناها شيء من خصائص هذا الحرف نحو الابتحاح والبندح والبراح والابطح والابلنداح والحج والرحرح والمسفوح والمفرطح والمسطح وما شاكل . ومن خصائص حرف الدال اللين والنعومة والغضاضة نحو البرخداة والتيد والثأد والخود والرادة والرهادة والفرهد والاملود والقشدة والملد وغيرها . ومن خصائص حرف الميم القطع والاستئصال والكسر نحو ارم وترم وجزم وجلم وخسم وحطم وما جرى مجراها وقس عليها . ولو نظرنا في ما اورده من الأمثال لرأينا منه تساهلاً في تطبيقها على ما أراده على أننا لا ننكر ما كان يرجى منه من الفوائد الجزيلة لو طبع الكتاب ونشر ولكنه فقد حرقاً على أثر حريق أصاب منزله في الاستانة فأسف هو لذلك أسفاً شديداً . وأخبرنا صديق انه رأى بين اوراق الشيخ احمد فارس تاليفاً في تراجم مشاهير العصر لم يطبع . وربما كان له مؤلفات أخرى لم نقف على خبرها .

ومما لا يليق بنا الاغضاء عنه ان مطبعة الجوائب طبعت كتباً عربية كثيرة كانت نادرة الوجود فأحيتها ونشرتها بين المتكلمين بالعربية وسهلت تناولها وهي مأثرة حسنة تضاف الى مآثره الاخرى .

محمد نامق كمال بك

اكتبْ كتّاب الاتراك واشعر شعرائهم في القرن الماضي

هذه الترجمة ملخصة من رسالة كتبها رفيق صباه صاحب السعادة ابوالضيا توفيق بك الكاتب التركي :

« ولد كمال بك المشار إليــه في قصبة (تكفور طاغي) سنة ١٢٥٦ ﻫ وكان جده (أبو أمه) محصلاً هناك والمحصل لقب لمنصب قديم في الدولة يقابله في الفرنساوية (Percepteur) فأرّخ عارف أفندي أحـد شعراء تلك الايام مولده بهذا المصراع « ايردي شرف بودهره محمد كمال ايله » ومعناه بالعربيـة « فقد تشرف هـذا الدهر بمولد محمد كمال » . وقد تسلسل كمال بك من بيت عريق في الحسب والنسب فوالده مصطفى عاصم بك وجده شمس الدين بك القرين الاول لجلالة السلطان سليم الثالث ووالد جده القبطان احمد راتب باشا من نوابغ الشعراء ووالد هذا طوبال عثمان باشا الصدر الاعظم المشهور . ومن أقوال صاحب الترجمة في فضل النسب « ان مزايا الحسب والنسب من الأمور التي لا يستطاع القول انها مما لا يرغب فيه أو يسعى إليــه فإن من خالط الناس واختبر اخلاقهم تحقق ان المولود من نسب رفيع افضل من المولود من اصل دنيء » .

« على أن طيب أرومة هذا الرجـل لا تزيد شيئاً في تعريف فضله ولو فرضنا انه من اصل دنيء لكان كفواً لاكتساب الفخر والمجد لجده واجتهاده وايرائهما لأعقاب أعقابه .

« فلما ترعرع دخل في مدرسة بيازيد فقضى فيها بضع سنين ثم انتظم في

سلك تلامذة مدرسة « الوالدة » لكنه لم يمكث فيها إلا بضعة اشهر فخرج منها سنة ١٢٦٨ هـ وهو في الثانية عشرة من عمره فقضت الأحوال ان يسير والده بمهمة الى « قارصه » فلم يعد يستطيع مزاولة الدرس وذلك دليل على ان ما اشتهر به بعد ذلك من العلم والفضل انما بلغ إليه بالجد والاجتهاد من تلقاء نفسه لا بواسطة المدارس .

وأول ما جال بخاطره وأخذ بمجامع قلبه في إبان شبابه الشعر فنظم القصائد الحسان وكان اهل الاستانة يتناقلون اقواله ويتمثلون بها ويتحدثون به وبذكائه وظفره حتى لقبوه « نامق » وأول شعر اشتهر به قصيدة نظمها وهو في السابعة عشرة من عمره قال في مطلعها :

ظهور انك كثرت برتونور خداوندر   تلون هيأت اشياده تأثيرضيا دندر

معناه « ان للكثرة (ربما يريد الجماعة او الاتحاد) لوناً او شكلاً حاصلاً من انعكاس نور الله كما ان ألوان الاشياء في الطبيعة ناتجة عن انعكاس نور الشمس » .

وسار كمال بك في نسق شعره على خطوات الشاعرين التركيين المفلقين « نفعي وفهيم » فبلغ من ذلك شأواً عظيماً ونبغ بالاشعار الحماسية والفخرية ومن قوله في الفخر :

بزا أول عالي همم ارباب جد واجتهاد زكيم
جهانكير انه بردولت جيقاردق برعشيرتدن

معناه « نحن الاولى نشأنا من امة حقيرة وبجدنا واجتهادنا انشأنا دولة عظمى فتحت العالم » .



محمد نامق كمال بك

١٢٥٦ هـ — ١٣٠٦ هـ

« وفي سنة ١٢٧٧ هـ. تولى تحرير جريدة « تصوير افكار » وكان مع ذلك يزاول الترجمة في الباب العالي، ومن هذا التاريخ اخذت افكاره وآراؤه في الظهور فلم يغادر موضوعاً أدبياً او فلسفياً الا طرقه وأجاد فيه فلقبوه «كمال» بدلاً من « نامق » وكانت جريدة « تصوير افكار » هذه فاتحة النهضة التركية الحديثة من حيث الانشاء والادب فهي اول جريدة تركية خاضت في المناظرات الادبية التي استلفتت انتباه اهل اللسان التركي وأهم تلك المناظرات

ما قام بينها وبين جريدة « روزنامه جريدة حوادث » وكانت حدّاً فاصلاً بين الانشاء التركي القديم والانشاء الحديث ومن ذلك الحين أخذت الاداب الحديثة في الانتشار هناك وكثر أشياعها ومدعوهـــا . واتفق اذ ذاك سفر العلامة شناسي مؤسس جريدة « تصوير افكار » الى باريس لدواع اقتضت ذلك فعهد بادارة جريدته الى كمال بك (سنة ١٢٨١ هـ.) وكان في ريعان الشباب فاعتزل العلم والشعر وانقطع الى السياسة بالرغم عنه ولا يخفى ما في ذلك من التكلف والمشقة ممـــا لا يفلح فيه الا نوابغ الرجال القادرون على تكييف مواهبهم حتى تطابق وظائفهم . ولو اقتصر صاحب الترجمة على نظم الشعر لبلغ منه مبلغاً فاق به (نفعي) الشاعر الشهير ولكنه لو فعل ذلك ما استطاع ما استطاعه من خدمة ملته ووطنه خدمة كان يسعى في سبيلهـا ليله ونهاره – لا نقول ذلك امتهاناً للشعر فاننا نقدره حق قـــدره ولكننا لا نرى له ما نرى للنثر من التأثير في ترقية شأن الآداب . ومن الشواهد على ذلك (هيكو وتيرس) العـالمان الفرنساويان الشهيران فهيكو أشعر شعراء الفرنسيس في القرن التاسع عشر ولكنه لم ينفع امته بنظمه كما افادها تيرس بأدبه وسياسته .

« وجملة القول ان كمال بك اندفع بكليته الى السياسة وعلم الاخلاق وهما ركنا الادبيات فبث بين ابناء لغته روحـاً عصرية نشطتهم وفتحت عيونهم وقلوبهم وبعد ان كنت لا ترى بين الاتراك عشرين كاتباً أصبح كتابهم يعدون بالمئات والالوف والفضل في ذلك لصاحب الترجمة فانه هو الذي احيـا فيهم حب العلم وحبب اليهم الادب بما كان ينشره بين ظهرانيهم او يشنف بـــه آذانهم من المقالات الرنانة في « تصوير افكار » وغيرها مما قد البس اللغـــة التركية حلة عصرية جديدة .

« وأول ما نشر من نفثات اقـلامه رسالة « دور استيلاء » طبعت سنة ١٢٨٣ هـ. – قال ابو الضياء « وقد املى عليّ هذه الرسالة في الساعة الثالثة من الليل في اليوم الحادي عشر من رمضان المبارك سنة ١٢٨٢ هـ. فخبرت بها مقدرته على الانشاء فانه اوعز اليّ ان اتناول القلم والورق ثم اخذ يملي عليّ فقال (وقتاكه مقدما) فلم اتمالك عن التوقف محتاراً فقال ما بالك لا تكتب فقلت لا اعرف حتى الان عبارة تبتدىء بلفظ (وقتاكه) وكنت أظن انك تخاطبني في شأن من الشؤون فتبسم وقال (اكتب ما اقوله وستعلم) . وما زال يملي عـلـيّ وهو يخطر ذهاباً واياباً تارة يقف وطوراً يطوف غرف المنزل حتى انتهت الرسالة في الساعة العـاشرة فجاءت كما قيل « كالفاتحة مكتوبة على ارز » وما زال ذكرها متغلباً على كل ما كتبه بعد ذلك .

« ومن مواهبه الخصوصية حدة اللسان وقوة الحجة فانه لم يناظر كاتبـاً او خطيباً الا ظهر عليه وافخمه . ومن آثار فضله انه أدخل الآداب التركية في دور جديد فقد كان كتـاب الاتراك منذ ستمائة سنة سائرين على خطة واحدة في آرائهم وانشائهم فجاء كمال بك فنوّع الانشاء تنويعـاً هو اساس النسق التركي الحديث .

« ومما يذكر له انه لم يستخدم قلمه للهجو ولا ادخل في انشائه الفاظاً بذيئة او معاني مخجلة . وكان اذا كتب في المواضيع الدينية مثل الحقيقة تمثيلاً واضحاً يفتن المطالع ولو كان من المعطلين . وكان يستخدم الفاظاً لغوية لم يألفها العامة لكنه كان يسبكها في قالب يسهل عليهم فهمها .

« وكان كثير المطالعة دقيق التنقيب والبحث حتى قيل انه لم يغادر كتاباً تركياً او فارسياً مطبوعاً او غير مطبوع من مؤلفات الاتراك او ما ترجموه

عن الالمانية والفرنساوية والانكليزية إلا طالعه وتبحر فيه وكان قوي الذاكرة الى حد يفوق التصديق حتى يكاد لا ينسى شيئاً نظره او سمعه فقد يتلو عليك الوفاً من الاشعار الفارسية والتركية والعربية والافرنسية . وكان متمكناً من الفقه وعلم الكلام مدركاً لاكثر المسائل الغامضة المتعلقة بها وقد طالع علم الحقوق على العلامة الفرنساوي الشهير (اميل افولا) ودرس فني الاقتصاد والسياسة . اما التاريخ فقد كان من اكبر علمائه . وهاك اشهر مؤلفاته وترجماته .

تراجم الاحوال :

ترجمة صلاح الدين الايوبي – والسلطان سليم – والفاتح – وامير نوروز .

حكايات وروايات :

وطن (وهي رواية ترجمت الى اللغات الالمانية والروسية والفرنساوية) وكل نهال – وعاكف بك – وزوالى جوجق – وانتباه -- وجزمى .

رسائل : دور استيلاء – وبارقــه ظفر – وقانيزه – وحكمة الحقوق ومكتوب الى عرفان باشا – وبه بربزون مؤاخذه سي – وتخريب – وتعقيب – ومقدمة جلال – وبهاردانش – ومنتخبات تصوير افكار .

مقالات متنوعة :

تصوير افكار – ومخبر – وحريت – وعبرت وبصيرة – وحديقـة – واتحاد – وصداقة – وغير ذلك من المقالات التي كان يكتبها الى اصدقائه وفيها الحكم الفلسفية والادبية .

ترجماته عن اللغات الافرنجية :

شرائط الاجتماع (تأليف روسو) وروح الشرائع (تأليف مونتسكيو)

وبعض كتابات باكون وفولني وغيرهما - وقسم كبير من كتابات كوندرسه تحت عنوان (تاريخ ترقيات افكار بشر) .

« وكان في اثناء اعماله هذه مشتغلاً بتأليف التاريخ العثماني وهو تاريخ مطول بحث فيه عن عظمة هذه الدولة وما مرت بـه من الادوار من اول عهدها الى الآن له مقدمة يصح ان تسمى وحدها تاريخ الاسلام لانها حوت كل ما وقع من المسلمين من البعثة الى ظهور السلطة العثمانية وكل ما رافق ذلك من الحوادث في آسيا وافريقيا واوربا والمقدمة المشار اليها مكتوبة على نحو الف وخمسمئة طلحية من الورق ولكن من موجبات الأسف أن مطالعتها منعت ثاني يوم ظهورها لوشاية بعض ذوي الاغراض فحفظاً لآثار هذا الفاضل نرجو أن يعاد نشرها مع ما تمّ تأليفه من هذا التاريخ وهو أربعة اجزاء تنتهي بوقائع السلطان سليمان القانوني .

« وكانت وفاته بعلة الخناق الصدري فلم تمهله إلا عشرة ايام فقضى بعد ظهر الثامن من ربيع الاول سنة ١٣٠٦ هـ » .

سليم بك تقلا

مؤسس جريدة الأهرام

في سفح لبنان مما يلي ساحل مدينة بيروت قرية حسنة الموقع جيدة الهواء والماء كثيرة البساتين والغياض اسمها كفرشيما نبغ فيها جماعة كبيرة من العلماء ملأت شهرتهم الاسماع منهم اللغوي المرحوم الشيخ ناصيف اليازجي وسائر آل

اليازجي والعلماء الافاضل آل شميل الكرام ومنهم المرحوم امين شميل وشقيقه الدكتور شبلي شميل وغيرهم من الاطباء والشعراء والادباء . ومن هذه القرية نبغ صاحب الترجمة المرحوم سليم بك تقلا مؤسس جريدة الاهرام .

ولد رحمه الله في أواسط سنة ١٨٤٩م وربي في حجر والديه على الصلاح والتقوى وحسن السيرة وظهرت عليه مخائل النجابة منذ نعومة اظفاره فتلقى مبادىء العلوم في مدرسة تلك القرية ففاق اقرانه فلما رأى والده فيه ذلك سعى في ادخاله مدرسة عبيه بلبنان ولكن المدرسة لم تكن تقبل في صفوفها من كان دون الخامسة عشرة من عمره فاستنجد الدكتور فان ديك فانجده وتوسط في ادخاله فقبلته المدرسة واغتفرت صغر سنه بما توسمته من توقد ذهنه واستعداده فاقام في المدرسة يتلقى علومها ومعارفها حتى اعجب اساتذتها بذكائه وتعقله على صغر سنه مع سهولة في خلقه ولين في طبعه وهمة في الدرس واجتهاد في مسابقة اقرانه .

وما زال مكباً على كتابه وكتابته حتى كانت سنة ١٨٦٠م فانتشبت في ربوع الشام الثورة المعلومة فاتصل لهيبها بعبيه وما جاورها فبرح المدرسة ونزل مدينة بيروت ودخل المدرسة الوطنية التي انشأها الطيب الذكر المرحوم المعلم بطرس البستاني وعكف على الدرس والمطالعة مجداً ساهراً حتى أصبح مثالاً بين اقرانه التلامذة بالثبات والاجتهاد لانه كان يعمل ساعات الفراغ اعمالاً يستعين بها على نفقات التعليم شأن من يلتمس العلى بجده واجتهاده .

فلما أتم دروسه تعين استاذاً في المدرسة البطريركية في بيروت يعلم بها ما ما اتقنه ويتقن ما فاته وخصوصاً الفنون العربيه فانه كان يتلقاها على الشيخ ناصيف اليازجي وكان الشيخ رحمه الله معجباً بذكائه وحدة ذهنه وكان يعتمد



سليم بـــك تقلا

١٨٤٩ م – ١٨٩٢ م

عليه احياناً في شرح بعض الدروس على طلبته دلالة على ثقته به وركونه الى صحة مباديه وسمو مداركه . ولم يمض عليه في المدرسة البطريركية مدة حتى صار رأس اساتذتها ووكيل أعمالها ومدير شؤونها وألف في أثناء ذلك كتاباً في النحو والصرف على أسلوب مبتكر طبع ونشر . وكان الأعتماد عليــه في تلقي هذين العلمين في المدرسة البطريركية .

وكان رحمه الله مفطوراً على حب الرفعة والسعي في طلب العلى فلما رأى أنه بلغ من مهنة التدريس اعلى درجاتها مال الى التماس مهنة تروي مطامعـه فلاح له ان يقدم الى الديار المصرية وهي إذ ذاك في عصر المغفور له الخديوي الأسبق اسماعيل باشا الذي كان يحبب الى السوريين وغيرهم من جالية الافرنج

الاقامة في مصر لما يبذله في صلاتهم وتنشيط مشروعاتهم وخصوصاً المشروعات الأدبية . فنظم قصيدة تاريخية رنانة في مدح الخديوي اسماعيل وغادر ربوع الشام قاصداً للقطر المصري حتى جاء القاهرة فرفع قصيدته المشار اليها الى الخديوي الاسبق وتعرف بجماعة من اهل الفضل وذوي المناصب فقربوه منهم فلاح له ان ينشىء جريدة عربية والجرائد العربية لا تزال الى ذلك العهد جرثومة لا تكاد تنفقف عن جنينها والناس لا يعرفون من الجرائد الا اسمها مع تردد الحكومة في الاذن بنشرها فقضى سنة يتردد بين مصر والاسكندرية يجاهد في الحصول على امتياز الجريدة فمنحته الحكومة امتياز جريدة الاهرام سنة ١٨٧٥م فأصدرها بالاسكندرية وليس لديه من معدات التحرير والتحبير والنشر والطبع الا ما فطر عليه من الثبات وحسن التصرف والاستقامة وما اكتسبه من العلم والاختبار مع شيء يسير من المعدات المادية فقاسى في سبيل نشر الأهرام مشقات جسيمة مع علمك باستهجان الناس اذ ذاك للجرائد لحداثة عهدها مع قلة وسائل النشر لديه . ولكنه ذلل كل تلك الصعاب بثباته وحسن سياسته ومما قاله لنا مرة في سياق حديث دار بيننا عن الجرائد العربية وتاريخ نشأتها قوله « انشأت الاهرام وأنا عالم بما يحول دون نشرها من المصاعب فكنت اقضي النهار والليل عاملاً بدناً وعقلاً فكنت احررها وادبرها والاحظ عملتها واكتب أسماء مشتركيها واتولى اعمالها مما يقوم به الآن عشرة من العمال » .

وصدرت الأهرام اولا مرة في الاسبوع ولم يستطع نشرها يومية الا بعد زمن طويل – وذلك انه بعد اصدار الأهرام ببضع سنوات اصدر جريدة يومية سماها صدى الأهرام والأهرام تصدر أسبوعية كالعادة فلاقى في اصدار الصدى فوق ما لاقاه في اصدار الأهرام . ومما يحكى من هذا القبيل وفيه

دليل على ثباته انه طبع من صدى الأهرام لعدده الأول أربعة آلاف نسخة وزعها على نخبة أهل القطر واعيانه كجاري العادة في الجرائد عند اول صدورها فرجعت اليه الا بضع عشرات منها . على ان ذلك لم يثن عزمه بل ما انفك مواظباً على اصداره حتى صدر أمر الحكومة بالغائه واقفال المطبعة لأنه درج أمراً ساء الخديوي الأسبق فاستتر صاحب الترجمة من وجه الحكومة مدة وسجن أخوه المرحوم بشاره باشا ثم توسط بعض أهل النفوذ فافرج عن المطبعة وأصحابها فأصدر رحمه الله جريدة الوقت يومية ولكنها لم تعش طويلا فصدر الأمر باقفالها ثم عادت فظهرت حالاً واخيراً استبدلها بجريدة الأهرام فصارت من ذلك الحين يومية .

وما زالت الأهرام آخذة في العمل لا تزداد الا انتشاراً ورفعة حتى كانت الحوادث العرابية سنة ١٨٨٢م فاضطر رحمه الله للمهاجرة الى سوريا كما فعل سائر نزالة هذا القطر غير المصريين . فلما احترقت الاسكندرية اصابت النيران مطبعة الاهرام فأحرقت شيئاً كثيراً من أعماله وكتاباته ومؤلفاته فلما انقشعت غياهب تلك الثورة عاد الى الاسكندرية وأعاد اصدار الاهرام وعوض عما فات . وما زالت تصدر الى الآن وخطتها وطنية عثمانية منتصرة لفرنسا ومجاهرة بالمقاومة للاحتلال الانكليزي .

وفي سنة ١٨٨٦م سافر الى دمشق واقترن بسيدة من كرام الدمشقيين اشتهرت بالجمال واللطف ثم عاد الى الاسكندرية يمارس اعمال الجريدة ويعاني تحريرها وفي سنة ١٨٩١م سافر الى فرنسا فزار عاصمتها وكثيراً من مدنها وقراها وكان يكاتب الاهرام منها وفي السنة التالية (١٨٩٢م) أصيب بألم في القلب فأشار عليه الاطباء بالذهاب الى سوريا لتبديل الهواء فسار ولكن القضاء المبرم كان

في انتظاره هناك فقضى وطار نعيه في الآفاق ودفن بما لاقى بمقامه من التجلة والاكرام ولم يخلف ذرية .

وكان رحمه الله هماماً حازماً مخلصاً مسالماً سهل الاخلاق وديعـــاً رقيق الجانب ما عاشره أحد او عامله إلا وأثنى على رقـة جانبه ودماثة اخلاقه وحبه للمسالمة ورغبته في ارضاء الناس ولو تحمل منهم ضيماً او تكبد خسارة. وقد كان ذلك من أهم الوسائل التي ساعدت على نشر الاهرام واقبـال الناس على مطالعتها حتى بلغت ما بلغت من سعة الانتشار على اننا لو دققنا البحث في العوامل الأساسية التي أيدت الاهرام ونشرتها لرأيناها ثلاثة :

(١) حسن سياسة صاحب الترجمـة وميله الى المسالمة (٢) نشاط شقيقه المرحوم بشاره باشا وكان مدير الاهرام اذ ذاك ثم قام بعده بكل شؤونها حتى توفاه الله سنة ١٩٠١م فصارت الاهرام الى نجله جبرائيل (٣) مساعدة بعض أرباب المناصب العالية فانهم كانوا ينشطونها الى درجة لا تـكاد تقـل عن حمل الناس على الاشتراك فيهـا فضلاً عن اشتراكات الحكومة نفسها فانها كانت تعد بالمئات .

وكان حائزاً لرضاء الدولة العلية متمتعاً بانعاماتها وإنعامات الدول الأخرى وبعض المجامع العلمية وحاز من الرتب العليا الرتبة الاولى من الصنف الاول ونال من النياشين النيشان المجيدي الثاني ونيشـان اللجيون دونور من رتبـة شفاليه ونيشان الافتخار التونسي من رتبة كومندور ونيشان الشمس والأسد من تلك الرتبة ونيشان المجتمع العلمي الفرنساوي من رتبة اوفيسيه وغير ذلك.

وكان سليم الذمة صادق الوعد . ومما يذكره العارفون من هذا القبيل ان والده توفي عن دين عليه ولم يكن اصحاب الدين ينتظرون الوفـاء من اولاده.



بشاره باشا تقلا

فلما أنعم الله عليهم وسهل لهم أبواب الرزق اتفق الاخوة وصاحب الترجمة في مقدمتهم على وفاء ما في ذمة والدهم من اموال الناس فسافر هو بنفسه الى بلاد الشام ولاقى الدائنين ودفع اليهم أموالهم .

وكان محباً للأخذ بناصر الشبان الذين يلتمسون الاشغال ولا سيما أبناء وطنه فيبذل كل مرتخص وغال في سبيل مساعدتهم أدبياً ومادياً .

وكان كاتباً فاضلاً وشاعراً مجيداً تشهد بذلك مقالاته وقصائده في صفحات الاهرام . وقد جمعت منتخبات أشعاره ومقالاته بعد وفاته وطبعت على حدة في ديوان ضخم وجمعت أقوال الجرائد وقصائد الأصدقاء ومقالاتهم في تأبينه ورثائه في كتاب آخر .

السيد عبدالله نديم

قد لخصنا ترجمة المرحوم السيد عبدالله نديم من سيرة مطولة بقلم حضرة صديقه الوفي احمد افندي سمير :

نشأته الأولى :

هو عبدالله بن مصباح بن ابراهيم وينتهي نسبه الى ادريس الأكبر من اسباط الحسن بن علي . ولد بالاسكندرية سنة ١٢٦١ هـ.(١٨٣٤ م) فحفظ القرآن الكريم قبل ان يبلغ التاسعة وكان ابوه وسطاً في اليسار فلما رأى ذكاءه ونجابته ادخله مدرسة جامع الشيخ ابراهيم باشا فقرأ على اكابر الاشياخ فاتقن فقه الشافعي والأصول والمنطق وعلوم الأدب اللسانية وهو في سن المراهقة فأخذ من ذلك الحين يقول الشعر الرقيق والنثر المسجوع المحكم . فما لبث ان سارت الامثال ببدائع آدابه وتسابق بلغاء الكتاب والشعراء الى مطارحته وكانت الكتابة الى ذلك العهد قاصرة على السجع فتوخى المترجم فيها أساليب جديدة في الانشاء فاق فيها المتقدمين واعجز المتأخرين تشهد بذلك رسائله الأدبية ومؤلفاته التي تبلغ نحو مئة مؤلف في فنون مختلفة فقد أكثرها سرقة أو اغتصاباً أو حرقاً أو اغراقاً في مياه النيل كما سيأتي تفصيله .

وكان رحمه الله منذ ترعرع جريئاً مقداماً يميل الى ركوب الاخطار ومعاناة الشدائد سعياً وراء المعالي وقد رأى ان ذلك لا ينال عفواً . فكان أول ما بدأ به من تلك المطالب المعجزة انه نظر في الوجود نظرة باحث مدقق فتبين له أن الاشتغال بالعلم ربما عاقه عن بلوغ مقصده فتعلم صناعة التلغراف واتقنها في أقل مما يتصور من الزمن كأن الكهرباء لم توجد الا لتزاحم خاطره في



السيد عبدالله نديم

١٢٦١ هـ. – ١٣١٤ هـ.

السرعة فلم يمض عليه بضعة أسابيع حتى استخدم تلغرافياً (أو تلغرافجياً) في مكاتب مختلفة أهمها مكتب تلغراف القصر العالي الخاص على عهـــد عزيز مصر المغفور له اسمعيل باشا الخديوي الأسبق .

ولم تكن وفرة الأعمال عائقة له عن التحصيل فقد كان يغتنم نوبة فراغه من العمل فيتردد الى الجامع الأزهر يطالع مع بعض رفاق شبيبته الدروس التي كانوا يشتغلون بها . واخص هؤلاء الرفاق العلامة الشيخ حمزة فتح الله المفتش الأول للغة العربية بنظارة المعارف المصرية .

ثم طرأ ما أوجب انفصاله عن الخدمة فاتصل بكثير من المقربين والعظماء فكانت له معهم مجالس مشهودة حضرهـا أفاضل الشعراء والمنشئين وناظروه وطارحوه نظماً ونثراً فظهر عليهم جميعاً .

ثم قصد المنصورة ترويحاً للنفس ورأى أن التجـارة خير رياضة له فأنشأ هنالك متجراً فراجت سوق بضاعته رواج آدابه ولكن كرمـه تغلب على رأس المال والربح ففقدهما جميعاً وكان بيته ومتجره كعبة يحج اليهـا رجال الأدب وكانوا يتحدثون بمعجز رسائله ومحرراته نظماً ونثراً .

نشأته السياسية :

ثم عاد الى الاسكندرية أوائل سنة ١٨٧٩ م وهنالك أخذت شمس حياته السياسية تبدو فكان أول سعيه في هذا السبيل ان اجتمع بصديقيـه المخلصين محمد أفندي امين باشكاتب محكمة اسيوط الأهلية ومحمود واصف افندي أحد جامعي كتاب سلافة النديم ومحرر جريدة العدل وكانا وقتئـذ من مؤسسي جمعية مصر الفتاة . فكان الأول نائب رئيسها والثاني كاتم أسرارهـا فتعرف ليلة اجتماعه بهما بالمأسوف عليهما اديب افندي اسحق وسليم افندي النقـاش صاحبي جريدتي مصر والتجارة وتعرف بكثير من أعضاء هذه الجمعية وشرع في بث أفكاره بما كان ينشره في تينـك الجريدتين ثم رأى ان جمعية مصر الفتاة سرية يخشى عليها من الحكومة فاقنع صديقيـه المشار اليهما بالانفصال عنها فانفصلا وتبعهما كثير من أعضائها ثم ذاكرهما في انشاء جمعية علنية تسعى في ما يعود على الوطن واهله بالمنفعة الحقيقية فاستصوبا رأيه . وشرع منـذ ذلك الحين في تأليف قلوب أهل الثغر علماً بان المرء قليل بنفسه كثير باخوانه فتألفت الجمعية الخيرية الاسلامية في آخر ولاية المغفور له اسمعيل باشا والقلوب

واجفة والافكار مضطربة وقد خرست الألسنة وغلت الايدي إلى الأعناق حتى دنت ساعة الفرج بولاية المرحوم محمد توفيق باشا فقرت العيون وهدأت الأفكار فقام المترجم يثبت دعائم دعوته ويبث في الأذهان فوائد الاجتماع بلسان طلق فبرزت الجمعية الخيرية بمساعيه في ثوب الائتلاف وتسارع اعيان الثغر ووجهاؤه للانتظام في سلكها وكانت هي أول جمعية اسلامية اسست في القطر المصري وكانت ترمي الى غرض واحد هو تربية الناشئة وبث روح المعارف فيهم لترقية الافكار وتطهير الأخلاق من دنس الجهالة .

فأنشأت هذه الجمعية مدرسة لتعليم الايتام وابناء الفقراء مجاناً فسّعى المترجم جهده حتى اكسبها عناية أمير البلاد فجعلها تحت رئاسة ولي عهده ووريث تاجه إذ ذاك وهو خديونا الحالي أطال الله عمره . فكان ذلك ادعى لنشاط رجالها وزيادة اهتمامهم فسعوا في توسيع دائرة المدرسة واستحضروا لها فضلاء المعلمين من العرب والافرنج واقاموا المترجم مديراً لها فوضع لها أساساً محكماً وعلم فيها الانشاء وعلوم الادب فنمت وزهت حتى زاد عدد الطلاب فيها على الثلثمائة في زمن وجيز ورتبت لها نظارة المعارف ٢٥٠ جنيهاً كل عام .

فلما رأى المترجم ان غرسه قد كاد يثمر استرحم المغفور له الخديوي السابق ان ينعم على الجمعية بالمدرسة البحرية لاتساعها وجودة موقعها فأجابه الى ما طلب .

ولقد بلغت هذه المدرسة من الشهرة وبعد الصيت على قصر المدة ما لم يبلغه غيرها في ازمان متطاولة ونالت من التفات المرحوم توفيق باشا ونجليه الكريمين سمو الخديوي الحالي ودولة شقيقه ما رفع قدرها ونشطها وزادها

زهواً ونماءً مع ما كان يبذله صاحب الترجمة من العناية في عقد الحفلات العامة في بهرة المدرسة يحضرها كبار القوم وسراتهم فيسمعون المطرب والمغرب منه ومن تلامذته ثم ينصرفون ولا حديث لهم إلا ترداد ما سمعوه من العبارات الآخذة بمجامع القلوب .

وفي تلك الاثناء مثّل المترجم بالاسكندرية حالة البلاد وكيف يكون الوصول إلى الشهامة والمروءة بروايتيه المشهورتين باسم « الوطن » و« العرب » مثّلهاهو وتلامذته في ملهى زيزينيا بحضرة ساكن الجنان الخديوي السابق فكان لهما في نفسه من حسن الوقع ما بعثه على ان يدفع من ماله الخاص مئة جنيه مساعدة للجمعية . ولكن الحسد جرّ بعض ذوي النفوذ الى الايقاع بالنديم ففصل عن الجمعية وأقيل من ادارتها .

وكان قبل ذلك قد ترك الكتابة الادبية واشتغل بالتحرير السياسي على الاسلوب الحديث بلا سجع ولا تقفية فكان يحرر في جريدتي « المحروسة » و «العصر الجديد» اللتين صرّح للمرحوم سليم افندي النقاش باصدارهما عقيب الغاء « التجارة ومصر » وابعاد المرحوم اديب افندي اسحاق الى خارج مصر فجاء فيهما بالمعجب والمطرب .

وما زال كذلك حتى استدعى صاحبهما من بيروت الكاتبين الفاضلين سليم افندي عباس والمرحوم فضل الله افندي الخوري فترك لهما امر هاتين الجريدتين وانشأ « التنكيب والتبكيت » وهي جريدة اسبوعية ظاهرها هزل وباطنها جد فاودعها ما لم يسبقه احد من كتاب العرب اليه .

ثم استبدلها بالطائف على ما قضت به المناسبات الزمانية قبيل الثورة العرابية وكانت «الطائف» سياسية محضة بلغت من الشهرة ما لم تبلغه جريدة

قبلها من التأثير على الاذهان . ثم اغتصبها منه امراء الجند اثناء الثورة ولم يدعوا له منها غير الاسم فكانوا ينشؤون فيها ما يشاؤون دون ان يقدر على رد واحد منهم حتى انطفأت جمرة تلك الثورة فاختفى .

اما قيامه بنصرة الحزب الوطني فسببه انه لاقى من معاملة الحكومة له ولغيره ما يدل على تفضيلها الاجنبي لخدمتها على الوطني واتفق ظهور نيران الثورة فاصابت منه هوى في الفؤاد فتمكنت لانه سمع رجالاً تنادي بطلب الاصلاح وتعقد الاجتماعات العلنية مجاهرة بمقاصدها في اهم الصحف حتى اتفقت الآراء على ان في مصر حزباً وطنياً لا هم له الا انتشال البلاد من وهدة الخراب فكانت رسل الحزب العسكري تتردد على المترجم ورؤساؤه يكرمونه ويعظمونه فما زالوا به حتى انضم اليهم فوسموه بخطيب الحزب الوطني واتخذوا جريدته مجالاً لاقلام كثيرين منهم ومظهراً لافكارهم ولكنه كان يتأفف سراً من وقوعه في تلك الورطة فاذا خلا باحد من اخصائه اظهر له حقيقة ما يضمر وانبأه بمصير تلك الحال .

ولم يمض بضعة اسابيع حتى هاجت القاهرة وماجت اذ انبأها البرق بضرب الانكليز للاسكندرية في ١١ يوليو سنة ١٨٨٢م وانتشاب الحرب بينهم وبين عرابي فقام المترجم مع محمود باشا سامي البارودي وغيره من رؤساء الجند المتخلفين الى الاسكندرية فوجدوا الجيش المصري يتأهب لمغادرتها الى كفر الدوار بعد ان صارت معالمها دوارس فباتا (هو وسامي) في منزل المترجم . فلما كانت ما يسمونه بواقعة التل الكبير في ١٥ من شهر سبتمبر سنة ١٨٨٢م وقت السحر فرّ عرابي واخوه وعلي الروبي وتبعهم المترجم فجاؤوا القاهرة في الساعة الرابعة بعد الظهر وساروا تواً الى قصر النيل مركز نظارة الحربية اذ ذاك فتألف وفد ليسيروا الى الاسكندرية يلتمسون

العفو من الخديوي والنديم في جملتهم ولكنه لم يصل الاسكندرية بل عاد من كفر الدوار واختفى من ذلك الحين . فقضى عشر سنوات مختفياً في مديرية الغربية بين ميت الفرقا والعتوه والجيزة وغيرها فيتنكر تارة بزي الدراويش وطوراً بزي المغاربة او غيرهم والحكومة تبث العيون والارصاد للقبض عليه وهو اقرب اليها من حبل الوريد . فلما أعيتها الحيلة جعلت لمن ينبئها بمكانه مكافأة مقدارها الف جنيه . وكان العارفون بمكانه كثيرين ولكنهم حافظوا على ولائه فاخفوه مكرماً معززاً حتى قبض عليه في شهر نوفمبر سنة ١٨٩١م اواخر ولاية المرحوم توفيق باشا فجيء به الى طنطا حيث حبس اياماً وسئل عن موجب اختفائه فاوضحه بما لا يخرج عما تقدم فعفا الجناب الخديوي عنه ولكنه أمر بابعاده الى حيث يشاء من البلاد غير المصرية فاختار يافا من ثغور فلسطين فسافر اليها باكرام واقام هناك مدة ثم ازمع السياحة في تلك البلاد المقدسة فخرج من يافا في مارس سنة ١٨٩٢م مع صديق له الى جبل الطور المسمى جبل جارزيم وزار مقام العزيز هناك وقبور كثيرين من الانبياء ومرّ باماكن كثيرة من جملتها نابلس ومدينة الخليل وبيت لحم والمسجد الاقصى ثم عادا الى يافا .

وفي تلك السنة (١٨٩٢م) تولى الاريكة الخديوية سمو العزيز عباس باشا الثاني فعفا عن المترجم فعاد من يافا الى القاهرة وظل متردداً بينها وبين الاسكندرية اكثر من شهر ثم اتخذ الاولى موطناً وانشأ بها مجلته العلمية الادبية التهذيبية « الاستاذ » فنالت من الشهرة والانتشار في شهور ما لم تنله سواها باعوام وكان لها تأثير شديد في افكار الامة على اختلاف نحلها .

ثم الغيت لاسباب يعلمها كل متدبر لان العهد بها غير بعيد . وكلف المترجم بالخروج من مصر فغادرها ثانية الى يافا ودفعت له الحكومة المصرية

اربعمائة جنيه يعتد بها لسفره ورتبت له ٢٥ جنيهاً كل شهر على شرط ان لا يكتب شيئاً في الجرائد يختص بسياسة مصر فلبث اربعة اشهر في يافا . ثم أعيد منها بارادة سلطانية فرجع الى الاسكندرية وأقام فيها اياماً قابل في خلالها صاحب الدولة الغازي مختار باشا المندوب السلطاني العالي فساعده هذا على المسير الى الاستانة فسافر اليها . وصدرت الارادة السلطانية بتعيينه مفتشاً للمطبوعات بالباب العالي وترتيب ٤٥ جنيهاً مجيدياً له كل شهر فوق ما كان يتقاضاه من الحكومة المصرية وكان ينفقها كلها في سبل الخيرات والبر بالاهل والأقارب والاصدقاء .

وقد نال لدى المقام السلطاني الحظوة الكبرى وتعرف بكثير من الوزراء وأرباب المظاهر العلمية ولكنه اختص بالملازمة والمودة الامام العلامة الفيلسوف السيد جمال الدين الافغاني فاتصلت بينهما اسباب الألفة وتمكنت منهما روابط الاتحاد حساً ومعنى وقد بلغ تعلق السيد جمال الدين به وجميل اعتقاده فيه انه اصبح وامسى يعجب بقوة حجته في المناظرة والجدل وسرعة بديهيته في التحضير حتى صرح في عدة مجالس بانه ما رأى مثل النديم طول حياته في توقد الذهن وصفاء القريحة وشدة العارضة ووضوح الدليل ووضع الالفاظ وضعاً محكماً بازاء معانيها أن خطب أو كتب .

وقد كان يود الرجوع الى مصر ليقضي بها بقية أيامه فلم تتح المنية ذلك فداهمته بمخالبها فقضى بداء السل الرئوي في ١١ اكتوبر سنة ١٨٩٦م فامر جلالة السلطان أن يحتفل بمشهده على نفقة الجيب الشاهاني الخاص فسار أمام نعشه فرقتان من الجيش وفرقة من الشرطة وتلامذة المكتب السلطاني وعدة من الوجوه والكبراء والعلماء يتقدمهم السيد جمال الدين الافغاني والشيخ محمد ظافر شيخ السلطان والسيد عبد الرحمن الجزولي حتى دفنوه في باشكطاش

ولقد مات المترجم ولم يورث اهله إلا الحزن والعناء لانه كان يقبض مرتبه من مصر والاستانة فلا يمضي عليه بضعة ايام حتى يفرغ من توزيعه على الاقارب والاباعد دون نفسه .

أما اخلاقه فانه كان برّاً بوالديه وذوي قرابته وقصاده ولو لم يكن يعرفهم فما اقرض احداً شيئاً وطالبه به ولا رد يوماً سائلاً ولا خضع لعظيم قط وانما كان يلين ويتواضع لصغار الناس واوساطهم وكان ذكياً فطناً قوي الحافظة فصيحاً جريئاً شاعراً مطبوعاً وكاتباً ناثراً .

مؤلفاته وكتاباته :

ومن مؤلفاته الكثيرة ديوان شعر يشتمل على نحو أربعة آلاف بيت نظمها وشبابه باسم الثغر طلق المحيا . وديوان آخر في نحو ثلاثة آلاف بيت . وروايتا « الوطن والعرب » ورسائل أدبية مسجوعة لم تصل ايدي جامعي السلافة منها إلا الى اربع عشرة رسالة بعد السعي الكثير ومكابدة العناء الجزيل . وكان ويكون (وهو الذي طبع بعضه في الاستاذ) وواحد وعشرون كتاباً في فنون مختلفة قطع لأجلها أيام حرب الاختفاء رقاب الفراغ بسيوف الاقلام . منها ديوان شعر يحتوي على ما يقارب عشرة آلاف بيت وهو الآن محجور عليه في الاستانة . ومنها النخلة في الرحلة . والاحتفاء في الاختفاء . والشرك في المشترك . وكتاب في المترادفات . وآخر في اللغة سماه موحد الفصول وجامع الأصول والفرائد في العقائد . واللآلىء والدرر في فواتح السور . والبديع في مدح الشفيع وامثال العرب وغير ذلك .

وقد فقد كثير من مؤلفاته ومنظوماته حرقاً أو ضياعاً أو اغتيالاً على ان

شقيقه عبد الفتاح افندي نديم وصديقه محمود افندي واصف قد عنيا في جمع ما تيسر من ذلك في كتاب سمياه « سلافة النديم في منتخبات السيد عبدالله نديم » وطبعاه فمن اراد الاطلاع على ما كتبه النديم او نظمه او خطبه فعليه بالسلافة .

ابراهيم بك المويلحي

الكاتب السياسي والمنشىء الصحافي

يتصل نسبه ببيت من البيوت الكريمة التي ظهرت بمصر بعد الانقلاب في اول القرن الماضي وكان جده السيد ابراهيم المويلحي في أول أمره كاتباً للمرحوم حبيب افندي كخيا المغفور له محمد علي باشا الكبير ثم ارتقى كما ارتقى سواه من ذوي المواهب في مثل حال مصر في دورها الانتقالي من عصر الامراء المماليك الى عصر التمدن الحديث إذ هددتها مطامع الدول وحام حولها طلاب السيادة من الوزراء والقواد فتسابقت العقول واختلفت الاغراض ففاز كل بما بلغ اليه امكانه وساقته اليه فطرته . فارتقى بعضهم الى منصات الحكم وأثرى آخرون بالتجارة او الزراعة أو الصناعة أو غيرها . فكان للسيد ابراهيم المويلحي جد المترجم حظ كبير من ذلك الارتقاء . ومع انغماس اهل ذلك الانقلاب بالمطامع السياسية والمكاسب المالية واشتغالهم بالملاذ والملاهي لتسلط الجهل على مُعظمهم فالسيد ابراهيم كان محباً للأدب لا يخلو مجلسه من الادباء والشعراء يطارحهم ويذاكرهم . وقد أدّى لمحمد علي في أوائل ولايته خدماً جليلة حفظها له البيت الخديوي فانتفع بها المترجم في حال ضيقه كما سترى .



ابراهيم بك المويلحي

١٢٦٢ هـ - ١٣٢٣ هـ

ولد صاحب الترجمة في اوائل سنة ١٢٦٢ هـ في بيت وجاهة وعز وكان والده مشهوراً بصناعة الحرير نسيج مصر وله فيها بيت تجاري كبير فجمع ثروة طائلة . ونشأ ابراهيم في سعة ورغد وهو يتهيأ للعمل في تجارة والده ، ولكنه كان مولعاً بالأدب والشعر من حداثته ، ورث ذلك من جده . ولم يخطر له ولا لوالده أنه سيجعل الأدب مهنته وهي يومئذ مهنة الفقراء ... ولكن الأقدار ساقته الى الاشتغال بها في كهولته فكان من اعظم نوابغها.

ظلّ ابراهيم في حجر والده آمناً سعيداً حتى توفي الوالد سنة ١٢٨٢ هـ والمترجم في العشرين من عمره فتولى تجارة أبيه وقبض على ثروته وجرى على خطته في العمل حيناً فازداد تقدماً . وكانت مضاربات البورصة حديثة العهد

في هذا القطر وقد تحدث الناس بمعجزاتها وبهروا من سرعة الاثراء بهـا وكان ابراهيم طلاباً للعلى فـلم يكتف بما بين يديه من الرزق الواسع وحدثته نفسه أن يطلب الزيادة بالمضاربة فضارب وهو يكسب تارة فيطمع بالمزيد ويخسر أخرى فيطلب التعويض على نحو ما نشاهده الآن مع ما يعلمه الاكثرون من عواقبهـا الوخيمة . فما زال المترجم يتدرج في المضاربة حتى استنزفت ثروته وأثقلته بالديون .

على أن فروغ يده من المال لم ينشأ بما نشأ عليه من العز والانفة ولاضاعت مآثر جده لدى البيت الخديوي . فنظر اسماعيل باشا الخديوي يومئذ في هذا البيت نظر الانعطاف . وكان اسماعيل اذا أعطى أغنى . فوهبـه هبات الملوك فوفى الديون ووسع التجارة . ثم أنعم عليه بالرتبة الثانية وعينه عضواً في مجلس الاستئناف وهو في الثامنة والعشرين من عمره وانعم على اخيـه عبد السلام باشا بتلك الرتبة ايضاً . وابقاه في مزاولة التجارة محافظة على ذلك المعهد التجاري . وتأييداً لذلك اصدر اوامره لجميع من في قصوره من النساء ان يعدلن عن لبس الانسجة المصرية من صنع هذا البيت وان لا يدخل في تشريفـات السيدات سيدة لابسة غير هذه الأنسجة . وامر باصطناع كمية عظيمة منها لارسالها الى معرض فينا في تلك الأيام .

وما زال المترجم في وظيفته بمجلس الاستئناف حتى افضت رئاستـه الى المرحوم حيدر باشا يكن فوقع بينهما شقـاق انتهى باستقالة المترجم ولكن عناية الخديوي اسماعيل ما زالت شاملة له فأمر باعطائه مصلحة تمغة المشغولات والمنسوجات على سبيل الالتزام . واتفق في أثناء ذلك سقـوط وزارة نوبار باشا المختلطة التي كان فيها عضوان اجنبيان وخلفتهـا وزارة شريف باشا المعروفة بالوزارة الوطنيـة وهموا بانشاء اللائحة الوطنية لتأسيس مبادىء

الحكومة الدستورية . فانتدب المترجم للاشتغال في ذلك مع المرحوم السيد علي البكري . ثم صدر الأمر بتعيينه سكرتيراً للمرحوم راغب باشا ناظر المالية . ولم يتولّ هذه الوظائف الا لما ظهر من نجابته وسداد رأيه .

على ان ميله الى الأدب والشعر كان ينمو بين مشاغل السياسة والادارة فاتفق مع المرحوم عارف باشاأحد اعضاء مجلس الأحكام بمصر وصاحب المآثر الكبرى في نشر الكتب على تأسيس جمعية عرفت بجمعية المعارف غرضها نشر الكتب النافعة وتسهيل اقتنائها وانشأ هو مطبعة باسمه سنة ١٢٨٥هـ لطبع تلك الكتب وهي من اقدم المطابع المصرية . على ان الجمعية كانت تطبع كتبها ايضاً في مطابع أخرى وخصوصاً المطبعة الوهبية . ولهذه الجمعية شأن كبير في تاريخ هذه النهضة لانها نشرت كثيراً من الكتب المهمة كتاج العروس واسد الغابة ورسائل بديع الزمان وسلوك الممالك والف باء وغيرها من كتب التاريخ والأدب والفقه .

أما صاحب الترجمة ففي السنة التالية لانشاء مطبعته اتحد مع محمد عثمان بك جلال لانشاء جريدة عربية ولم يكن من الجرائد العربية بمصر يومئذ الا الجريدة الرسمية وجريدة وادي النيل فنال رخصة بجريدة سماها « نزهة الأفكار » ولكنه لم يصدر منها الا عددين ثم حالت العوائق دون اصدارها ويقال عن السبب في ذلك ان المرحوم شاهين باشا اظهر لاسماعيل باشا تخوفه من انها تثير الأفكار وتبعث على الفتن فصدر الأمر بالغائها وظلت المطبعة تشتغل بطبع الكتب لجمعية المعارف وغيرها وقد طبع فيها كتباً على نفقته .

فنرى المترجم رحمه الله قد تقلب في اعمال مختلفة بين تجارة وخدمة في الحكومة وانشاء المطابع والجرائد ونشر الكتب وغيرها وهو دون الثلاثين من

العمر ولم ينل كل مرامه من واحد منها مع اقتداره وذكائه ولعل السبب في ذلك لحاجته في استثمار عمله قبل أن ينضج وعدم ثباته في خطة واحدة لأنه لو ثبت في التجارة مثلاً ولم يرغب عنها في خدمة الحكومة لكانت تجارته من أوسع التجارت أو لو ثبت في الخدمة ولم يعدل عنها الى الصحافة والطباعة لكان من أكبر أصحاب المناصب ولو ثبت في الصحافة الى الآن لكانت صحيفته من أكبر الصحف وأهمها . ولكنه لم يكن يستقر على حال — والاذكياء الذين لا يثبتون في عمل أنما يكون سبب تقلبهم الرغبة في النجاح السريع يريدون الطلوع الى الأوج دفعة واحدة . فاذا استبطأوا الوصول الى قمة النجاح في عمل تركوه وانتقلوا الى سواه فيأول ذلك في الاكثرين الى ضياع العمر في بناء القصور بالهواء . ولو ثبتوا في عمل واحد مهما يكن نوعه لكفاهم مؤونة الشكوى من معاكسات الزمان .

على ان المترجم لم يشكُ ضيماً لأنه كان مرعيّ الجانب . وما زال الخديوي اسماعيل يذكر صدق خدمته له فلما حدث التغيير في منصب الخديوية سنة ١٢٩٦ﻫ وأبعد الخديوي الى اوربا واستقرّ في ايطاليا استقدم المترجم اليه فجاءه وأقام في معيته بضع سنوات كان في أثنائها كاتب يده (سكرتيره العربي) يكتب عنه الرسائل الى الملوك والأمراء. ولم يكن ذلك ليمنعه من العمل لنفسه فانشأ في أثناء اقامته باوربا عدة جرائد كجريدة الاتحاد وجريدة الانباء ولم يثبت في واحدة منها أو لعله كان ينشئها لغرض موقت فاذا ناله عطلها . وقال المؤيد انه اشترك مع المرحوم السيد جمال الدين الأفغاني في تحرير « العروة الوثقى ».

في سنة ١٣٣٠ﻫ. ذهب الى الاستانة على اثر انشائه تلك الجرائد فاكرم السلطان وفادته وعينه عضواً في مجلس المعارف وناظرها يومئذ منيف باشا العالم الشهير فقدر الرجل حق قدره وقربه منه وعول عليه في كثير من شؤون

النظارة . وبعد ان أقام في هذا المنصب نحو عشر سنوات عاد الى مصر وعاد الى الاشتغال بالكتابة وقد نضجت مواهبه الانشائية واكتسب ملكة الصحافة لطول ممارسته اياها مع ما اختبره في أثناء اسفاره ومخالطته كبار رجـال السياسة واطلاعه على مخبآت الأمور . فعمد أولاً الى مراسلة الجرائد بمقالات جامعـة بين السياسة والأدب وقواعد العمران أشهرها ما جمع على حدة في كتاب « ما هنالك » ثم أنشأ جريدة مصباح الشرق الاسبوعية وهو يتردد في خلال ذلك الى الآستانة ويعود منها مشمولاً بالنعم السلطانيـة من المطايا والرتب حتى بلغ الرتبة الأولى من الصنف الأول وما زال عاملاً في خدمـة الصحافة العربية مخلصاً للبيت الخديوي شديد التعلق بمرضاة الجناب العالي وسموه يخصه بالمنح والمنن حتى توفاه الله في ٢٩ يناير سنة ١٩٠٦م وهو في الثانية والستين من عمره .

صفاته :

كان ربع القامة ممتلىء الجسم حسن الملامح كما ترى رسمه في صدر هـذه الترجمة . وكان حلو الحديث لطيف النادرة سريع الخاطر حسن الأسلوب نابغة في الإنشاء الصحافي وفي الطبقة الأولى بين كتاب السياسة رشاقة ومتانة وأسلوباً مع ميل الى النقد والمداعبة ولا يخلو نقده من لذع أو قرص لا يراعي في ذلك صديقاً ولا قريباً حتى قيل « لم ينج من قوارص قلمـه إلا الذي لم يعرفه » وقد انتقدوا عليه تقلبه في خطته وذلك تابع لتقلبه في سائر أحوال معائشه لما قدمناه من تردده في أعماله حتى قضى العمر في التنقل من عمل الى آخر . وضاعت الفائدة التي كان يرجى استثمارها من مواهبه لأنه كان نادرة في الذكاء وحدة الذهن والاقتدار على تفهم الأمور والاحاطة بخفاياهـا

وكشف غوامضها — فلو رافقه الثبات في المبادىء والأعمال لكان من هذا الرجل غير ما كان .

وهاك مثالاً من إنشائه رحمه الله يصف موكب صلاة الجمعة في الآستانة قال :

« ما قيصر في موكب انتصاره ولا الاسكندر في يوم افتخاره استغفر الله بل ما سعد قادماً من القادسية ولا المعتصم من عمورية املأ للقلوب مهابة ولا للعيون بهاءً من رؤية جلالة السلطان يوم الجمعة في موكبه .

في يوم الجمعة قبل الظهر بساعتين ترد العساكر رجالاً وفرساناً من اطراف الآستانة الى بشكطاش عشرة آلاف أو يزيدون فينتظرون في طريق السراي السلطانية صدور الارادة السنية بتعيين المسجد . وهي عادة جارية الى اليوم وان كان المسجد الحميدي قد اختص بصلاة جلالته دون سواه . فاذا صدرت الارادة اجتمعت العساكر في ساحة المسجد أمـــام باب السراي واصطفت صفوفاً مضاعفة بعضها وراء بعض. وفي هذه الأثناء تتسابق مركبات المشيرين والوزراء والمشائخ والأجانب من السفراء وغيرهم فيجلس السفراء ومن كان معهم من علية قومهم الوافدين على الآستانة في قاعة الجيب الهمايوني المطلة على تلك الساحة التي لا يسمع السامع فيها قيلاً ولا صهيلاً إلا صليـــل الأسياف وترديد الانفـاس هيبة واجلالاً وانتظـاراً واستقبـالاً لاشراق نور الحضرة السلطانية . فاذا حان وقت الصلاة اشرقت المركبة السلطانية المذهبة كالشمس ضياء من مطلع السراي تحمل الامام نائب الرسول ﷺ ويجلس أمامه الغازي عثمان باشا . والمشيرون وكبار رجال المابين حافون من حول المركبـة مشاة خشع الأبصار ترهقهم ذلة من جلال تلك العظمة الأماميـــة وهم في غير هذه الساعة أكاسرة الزمان وقياصرة الرومان كبراً وجبروتاً وكلهم في أمواج

الملابس الذهبية يسبحون وعلى صدورهم نياشين الجوهر تخطف الأبصار وتأخذ الالباب . حتى ان الناظر ليكاد يوالي الحمد لله تباعاً على ما منحه للدولة من عديد الرجال الصادقين في خدمة الأمة والملة بشهادة الكلمات الناطقة فوق النياشين – لولا ما يعتريه من الاشتباه فيهم والنيشان عنوان كتبته الدولة ووضعته على صدر حامله شهادة منها للناس ببيان ما هو مكنون وراءه من فضائل الغيرة والحمية. فإذا اختلف المكتوب على الصدر عن المكنون في القلب كانت كبائع يغش الناس بوضعه على زجاجة الخل عنوان ماء الورد .. » الخ

الشيخ ابراهيم اليازجي

ولد رحمه الله في ٢ مارس سنة ١٨٤٧ م في بيروت ونشأ فيها وتلقى مبادىء العلم على ابيه اليازجي الكبير ولا سيما أصول اللغة وقواعدها . على ان اكثر ما اكتسبه من العلوم واللغات انما قرأه على نفسه واكتسبه بجده وذكائه . وقد ورث الخيال الشعري عن أبيه فنظم الشعر وهو صبيٌّ وزاول النظم في شبابه . فلما قارب الكهولة عدل عنه الى الاشتغال بسواه إلا ما قد ينظمه لحادث أو باعث . وكانت قد اشتهرت منزلته في جودة النظم فتقاضى اليه الادباء يستفتونه أو يستشيرونه أو يحكمونه في قصيدة أو مسألة . ولم يكن مجلسه يخلو من بحث أدبي أو شعري فتحدق به حلقة من ادباء بيروت ولبنان وكلهم آذان تسمع ما يتلوه عليهم أو يصدر حكمه فيه من شعر أو نثر . غير ما كان يرد عليه في هذا الشأن من رسائل الشعراء وغيرهم مما كاد يستغرق وقته ويشغله عن سواه فصمم على ترك الشعر وتفرغ لدرس اللغة



الشيخ ابراهيم اليازجي
١٨٤٧م - ١٩٠٦م

وآدابها وعلومها . فعكف على المطالعة فدرس الفقـه الحنفي على الشيخ محيي الدين اليافي أحد مشاهير أئمة بيروت .

وكانت الصحافة البيروتية في أوائل نهضتها ومن جرائدها يومئذ «النجاح» فعهد اليه بتحريرها سنة ١٨٧٢ م فظهر اقتـــداره على الانشاء العصري مما لم يعهد الناس مثله في المرحوم ابيه . فضلاً عن تمكنه من قواعد اللغة ومعـاني ألفاظها . وكان المرسلون الاميركان لما أرادوا نقـل التوراة الى اللسان العربي

في أواسط القرن الماضي استعانوا في تنقيح مسوداتها وضبط عبارتها من حيث اللغة والاعراب بالمرحومين الشيخ ناصيف والمعلم بطرس البستاني ثم بالشيخ يوسف الأسير . ولكنهم التزموا الترجمة الحرفية ولم يبيحوا للمصححين التصرف بالاسلوب فجاءت عبارة ترجمتهم ضعيفة . ثم عمد الآباء اليسوعيون الى ترجمة الكتاب المقدس ترجمة كاثوليكية فاستعانوا بالشيخ ابراهيم وفوضوا اليه تنقيح العبارة من حيث الانشاء فضلاً عن الضبط النحوي واللغوي . فقضى في ذلك وفي تصحيح كتب أخرى تسع سنين وقد درس اللغة العبرانية على نفسه لتطبيق عبارة التعريب على الاصل فجاءت ترجمة اليسوعيين اصح ترجمات التوراة العربية لغة وأفصحها عبارة وأجزلها اسلوباً . ويصدق ذلك على الخصوص في العهد القديم اما العهد الجديد فقد اخبرنا رحمه الله انهم لم يطلقوا يده في تنقيحه كما يشاء . وكان في اثناء ذلك وبعده يعلم المعاني والبيان وآداب اللغة في المدرسة البطريركية فتخرج عليه جماعة من اذكياء الشبان اشتهر بعضهم بالصحافة وبعضهم بالتجارة أو الادارة . وتمم بعض ما تركه والده غير كامل من المؤلفات أو الشروح وأشهرها ديوان المتنبي . وكان والده قد علق على بعض أبيات المتنبي شرحاً موجزاً فعكف هو على اتمامه سنة ١٨٨٢ م فأتمه في أربع سنوات شرحاً وطبعاً وهو مشهور بضبطه وما ألحقه به من النقد الشعري .

وكانت الصحافة السورية قد نمت وظهرت مجلة الجنان ثم مجلة المقتطف وتحدث بهما وبما استفادوه منهما فاحب الشيخ الرجوع الى الصحافة العلمية وكان الدكتور بوسط الجراح الشهير قد أنشأ في بيروت مجلة طبية سماها « الطبيب » فاتحد الشيخ مع صديقيه المرحوم الدكتور بشاره زلزل والدكتور خليل سعاده نزيل القاهرة واصدروا الطبيب معاً سنة ١٨٨٤م نشر فيه الشيخ

فضلاً عما كان يكتبه زميله من المقالات الطبية والعلمية مقالات لغوية وأدبية أنشأوها من الطبقة الأولى. وحجب الطبيب عن قرائه في السنة التالية. ثم استأنف اصداره الدكتور اسكندر بك البارودي ولا يزال يصدر في بيروت حتى الآن .

ترك الشيخ تحرير الطبيب ونفسه تتطلب الشهرة الصحافية. ورأى الآداب العربية والصحافة قد تحولتا إلى مصر بما اطلق فيها من حرية الاقلام والاقوال فعزم على المجيء اليها لانشاء مطبعة ومجلة علمية . واتفق على ذلك مع الدكتور زلزل شريكه في الطبيب فبرح الشيخ مدينة بيروت سنة ١٨٩٤م وعرج ببلاد الافرنج اعدَّ بها بعض ما يقتضيه مشروعهم من الآلات ونحوها . ثم جاء القاهرة وأنشأ مع زميله المشار اليه مطبعة البيان. واصدرا مجلة البيان سنة ١٨٩٧م ثم حجباها بعد سنة وافترقا. واستقل الشيخ بانشاء « الضياء » سنة ١٨٩٨م وهي مجلة علمية ادبية صحية صناعية اشتهرت بمتانة انشائها وفصاحة عبارتها وبلاغة اسلوبها كا سنبينه . وما زالت تصدر حتى حال الأجل دون اصدارها بعد انقضاء عامها الثامن . وكان رحمه الله قد أصيب بداء الروماتزم في أواخر الصيف الماضي بعد تحرير آخر اعدادها فلما استبطأ الشفاء اعلن توقيفها ريثما يبل من الداء وما علم انه الداء الأخير ففاضت روحه في المطرية بعد ظهر ٢٨ دسمبر سنة ١٩٠٦م وهو في الستين من عمره ولم يتزوج . ولم يبق من بيت اليازجي إلا الشيخ حبيب ابن اخيه الشيخ خليل . فاحتفل اصدقاؤه ومريدوه بدفنه في اليوم التالي احتفالاً يليق بمنزلته . فحملوا جثته بقطر خاص من المطرية إلى القاهرة . ومشى في جنازته من المحطة جمهور كبير من خاصة الادباء والوجهاء وأوصوا ان يرجئوا التأبين إلى يوم آخر يعين في وقت آخر ثم احتفل في تأبينه بعض المحافل الماسونية بمصر والاسكندرية فضلاً

عن حفلات التأبين وغيرها . وأمر سمو الخديوي سر تشريفـــاتي سموه ان يكتب إلى الشيخ حبيب كتاب تعزية هذا نصه :

جناب الفاضل الشيخ حبيب اليازجي :

/ لما علم جناب الخديوي العالي بتعظيم رزء اللغة العربية وآدابها لانتقـــال العلامة الشيخ ابراهيم اليازجي من هذه الديار الفانية الى الدار الباقيـــة اظهر مزيد أسفه على انقضاء تلك الحياة الطيبة الحافلة بجلائل الخدم للعلوم العربيـة في القطرين مصر والشام وامرني سموه الفخيم ان ابلغ جنابكم وسائر أعضاء الاسرة اليازجية تعزيته السامية واني اشترك مع قراء العربية في تقديم واجب التعزية الى حضراتكم .

سر تشريفاتي الخديوي
احمد زكي

والفقيد رحمه الله حائز على الوسام العثماني من جلالة السلطان وعلى نوط العلوم والفنون من جلالة ملك اسوج ونروج وانتدبته كل من الجمعية الفلكية في باريس وفي انفرس والجمعية الفلكية الجوية في السلفادور ان ينتظم في عضويتها.

اخلاقه وصفاته :

كان ربع القامة نحيف البنيـــة عصبي المزاج حاد البصر ذكي الفؤاد سريع الخاطر حـــاضر الذهن لطيف المحاضرة حلو المفاكهة لا يملُّ مجلسه يطرب للنكتة الادبية ويضحك لها . وكان مع ذلـــك شديد الحرص على كرامته لا يحتمل مسها في جدٍّ أو هزل تلميحاً ولا تصريحاً . وكان سريـــع الانتباه لما يتخلل أحاديث المجالس من الاشارات الادبية . وكان متعففـــاً

بطعامه وشرابه ولولا ذلك ما صبر على معاناة صناعـــة القلم بضعة واربعين عاماً مع نحافة بنيته . وقضى اعوامـه الاخيرة يقتصر في عشائه على كأس من اللبن خوف التثقيل على معدته . وانما العمدة في الغذاء على أكلة الغـــداء ولم يكن نهماً . واما في الصباح فيتناول طعاماً خفيفـــاً ويعكف على العمل فاذا تغدى الظهر شرب قهوته ودخن شيشته ونام . ثم ينهض ويقضي بقيـــة النهار في الراحة أو في عمل لا يتعبه ويخرج لترويح النفس في بعض الأندية يلاعب بعض معارفه بالنرد على سبيل التسلية أو يقضي ذلك الوقت بالمباسطة والمفاكهة . فاذا آن العشاء عاد الى منزله فيتناول اللبن ويستأنف العمل . وكان مولعاً بتدخين الشيشة في اثنـــاء الكتابة كما كان والده مولعاً بالقهوة وتدخين التبـغ في ذلك الحين .

وكان عفيف النفس كثير الاباء ظاهر الأنفة الى حد الترفع ولا سيما في ما يتعلق بالارتزاق يعدُّ مجاملة الناس في سبيل الكسب تملقاً وكلما قل ماله زادت أنفته وعظم اباؤه وكثيراً ما اراد اصدقاؤه اقناعه أن سنة الارتزاق تقضي بمجاملة الناس والتقرب من كبارهم بالحسنى. فربما اطاع ناصحه برهة ثم يعرض له خاطر فيعود الى الاباء . ولولا ذلك لعاش في سعة وراحة ولكن القناعة كانت من اكبر اسباب سعادته .

على انه كان يشتغل بالقلم التماساً لتلك اللذة التي كثيراً ما اغوت اصحاب القرائح واستنزفت قواهم فعاشوا فقراء وماتوا اعلاء . ولو اراد الشيخ مجرد الارتزاق لكان له مما فطر عليه من دقة الصناعة اليدوية خير سبيل . بل لم يكن يعدم منصباً في بعض مصالح الحكومة وقـد ندب أن يكون قائمقام على مدينة زحلة من لبنان سنة ١٨٨٢ م فلم يقبل .

ومن إبائه وكرم اخلاقه انه كان صادقاً في معاملته على اختلاف وجوهها

لا يخلف ولا يخلف. اميناً في ما ينقله أو يقتبسه من الآراء أو الأقوال ينسب الفضل الى صاحبه . وكان عكس ذلك في ما يفعله هو مع الآخرين من تصحيح مقالة أو تنقيح عبارة فانه كان شديد الانكار لذلك ولكن ديباجته كانت تنمُّ عليه لظهور اسلوبه من خلال السطور .

وكان برّاً بابيه وقد خدم اسمه وزاد في شهرته بما اتمه من آثاره أو شرحه من كتبه فانفق في سبيل ذلك جانباً كبيراً من وقته واتم شرح المتنبي أو هو شرحه كله فنسب الشرح الى والده واستبقى لنفسه فضل التتميم .

قرائحه ومواهبه :

اظهر قرائحه الاتقان الفني فانه كان متأنقاً في اتقان ما يتعاطاه من صناعة أو ادب أو شعر سواء اصطنعه بيده أو انشأه بقلمه أو نظمه بقريحته بما يعبر عنه الافرنج بقولهم Artist فكنت ترى التأنق والاتقان ظاهرين في كل عمل يعمله حتى في لباسه وجلوسه ومشيه وكلامه وطعامه . وكل ذلك فرع من تأنقه في الصناعة اليدوية فكان حفاراً ماهراً ومصوراً متقناً . ظهر ميله الى ذلك منذ حداثته – حدثنا صديقنا المستر ادوار فانديك نجل استاذنا الدكتور فانديك انه عرف الشيخ الفقيد منذ نيف واربعين سنة اذ كان يتردد على مطبعة الامريكان في بيروت وادارتها يومئذ بيد الدكتور فانديك وكانت للشيخ ناصيف علاقة حسنة بالامريكان من التعليم بمدارسهم والتصحيح في مطبعتهم . قال صديقنا المشار اليه انه كان يلاحظ في الشيخ ابراهيم من ذلك الحين ميلاً خصوصياً لصناعة الحفر وكثيراً ما كان يحفر الاختام على سبيل الفية ثم حفر الصور والنقوش . وخطر له يوماً أن يصطنع روزنامة عربية تعلق على الحائط من قبيل الروزنامات الشائعة ولم تكن معروفة يومئذ بالعربية

فاستأذن الدكتور فانديك في استخدام بعض ادوات المطبعة لحفر الاحرف والاشكال اللازمة لهذا العمل فامر رئيس العمال في ذلك العهد موسى عطا أن لا يمنعه شيئاً يحتاج اليه في هذا السبيل . فتأنق الشيخ في رسم حروف الروزنامة وارقامها حتى اتمها على اجمل ما يكون وهي اول رزنامة عربية من هذا النوع .

على أن تأنقه ظهر اولاً في خط يده فكان جميل الخط من حداثته وظل خطه جميلاً الى آخر ايامه وقاعدته فارسية . والذين يقرأون رسالة بخطه لا يكون اعجابهم بجمال ذلك الخط اقل من اعجابهم ببلاغة اسلوبه . ومن هذا القبيل تأنقه في التصوير باليد حتى صور نفسه عن المرآة صورة ناطقة رأيناها معلقة في منزله واهم ما نجم من ثمار هذه القريحة اصطناع الحروف الحديثة التي سنذكرها في جملة اثاره .

انشاؤه :

ومن قرائحه اقتداره الغريب على الانشاء المرسل مع سلامة ذوقه في انتقاء الالفاظ . وأسلوب عبارته جمع بين المتانة والبلاغة والسهولة يشبه أسلوب ابن المقفع شبهاً إجمالياً ولكنه من اكثر وجوهه خاص بالشيخ . على ان انشاء ابن المقفع لم يصل الينا كما كتبه صاحبه ولكنه جاءنا بعد ان هذبته أقلام المنشئين ونقحته قرائح اللغويين زهاء اثني عشر قرناً . أما الشيخ فلم يمس عبارته سواه ناهيك بما يعترض الكاتب اليوم من المعاني الجديدة التي لم يعرفها القدماء وليس في المعجمات لفظ يدل عليها مما يقف عثرة في طريق المنشئين .

أما فقيدنا اليازجي فكان يتخطى هذه العقبات على أهون سبيل فجاءت عبارته خالية من غريب اللفظ ووحشي التركيب . وقد يأتي باللفظ الغريب

فيضعه موضعاً يجعله مألوفاً فلا يمجه السمع ولا ينكره الفهم . فكان أسلوبه بليغاً بلا تقعر أو تعقيد سهلاً بلا ضعف أو ركاكة متسلسلاً متناسباً متناسقاً يطابق ما قدمناه من توخيه التأنق والاتقان في كل شيء . ورغبته في الاتقان حملته على التأني في نشر ما يكتبه فكان لا يرسل المقالة الى المطبعة إلا بعد تنقيحها وتهذيبها ثم يكتبها بحرف واضح جلي كأنه سلاسل الذهب حذراً من الوقوع في الخطأ فآل ذلك الى ابطائه في إخراج بنات أفكاره وقلل مقدار ما كان يرجى الحصول عليه من ثمار علمه ودرسه .

ومما حمله على المبالغة في التأني انه كان شديد الوطأة في انتقاد ما يعرض له من الغلط اللغوي في ما يقرأه من الصحف أو الكتب — وذلك طبيعي في من يخصص بحثه في فرع من فروع العلم يستقصيه ويدرس دقائقه فيكثر ما يقع عليه نظره من الغلط في ما يكتبه سواه في ذلك الفرع فلا يصبر على السكوت عنه ولا سيما إذا كان عصبي المزاج مطبوعاً على التأنق والاتقان مثل فقيدنا . فالانحراف عن الصواب كان يؤلمه ولا يشفي المه غير النقد . ويمتاز نقده بشدة اللهجة وبما يتخلله من قوارص الكلم لا يراعي في ذلك صداقة ولا عهداً . وسبب تلك الشدة على الغالب غيرته على اللغة واخلاصه في خدمتها . فلما كتب « أغلاط المولدين » لم يستثن والده ولا نفسه . لأنه كان يرى الغلط اللغوي أو النحوي من أكبر السيئات ويرى السلامة منهما من اكبر الحسنات ولذلك كان يثني على شعر ابن الفارض ويعجب بشعر المتنبي على الخصوص لقلة ذلك الغلط فيهما . وربما احتقر شعر شاعر مطبوع أو مقالة عالم كبير إذا رأى فيها غلطاً لغوياً أو نحوياً . فكان يبالغ في تنقيح ما يكتبه ويتأنق في اتقانه خوفاً من الانتقاد . ولعله تنبه لذلك على الخصوص منذ أخذ في الدفاع عن والده لما انتقده الشيخ أحمد فارس وشدد النكير

عليه . وكان الشيخ ابراهيم في ابان شبابه فأجاد في الدفاع وتعود الحذر من الخطأ بالمراجعة والتنقيح من ذلك الحين . فاعتبر مع سعة علمه بمفردات اللغة وجزالة أسلوبه كم تكون لغته صحيحة وعبارته بليغة فصيحة . حتى أصبح استعماله حجة وإنشاؤه قاعدة فلاعجب إذا دعوناه حجة اللغة وامام الإنشاء. وأكثر ما يكتبه مرسل سهل وإذا سجع فلا تجد في تسجيعه تكلفاً واليك أمثلة من ذلك وهو من قبيل الشعر المنثور .

قال من مقالة في مصير الأرض :

واعتبر ذلك في الأرض وما يؤلف أديمها من الجواهر . ويشتمل عليه جوها من العناصر . وما يعيش عليها من النبات القائم في الصحراء. والحيوان السارح على وجه العراء . والسابح في لجتي الماء والهواء . تجد هناك سلسلة يتصل أعلاها بأسفلها ويتحول بعضها الى بعض حتى يرتد آخرها الى أولها . بل ترى الأرض نفسها عرضة للطبيعة تغزوها بالسيول الجوارف . والرياح النواسف . والأمواج التي تهاجم ثغورها والزلازل التي تصدع صخورها . متعاقبة عليها ما تعاقب الليل والنهار . الى ان يأتي يوم تنحل فيه الجبال وترسب في درك البحار . ثم لا تزال المياه تسحل وجه الأرض حتى لا يبقى فيه امت ولا انحناء.وحتى يغمرها الماءُ من كل ناحية وقد عاد سطحها مستوياً تحت الماء كاستواء سطح الماء . فعادت كما كانت في أول خلقها ماءٌ غامر . وكون بائر . قد خلا من عالمي البر والهواء . ولم يبق فيه من ذوات الحياة إلا عالم الماء .

« هذا اذا لم تصب الأرض قبل ذلك بالهرم . وينضب ماؤها بعد خمود ما في باطنها من الضرم . ولم تتشرب هواؤها فلا يتنفسه بعد ذلك نبات ولا

حيوان ولا يجد ذو جناح ما يعتمد عليه جناحه في الطيران . على حد ما تم من مثل ذلك في القمر حتى لم يبق فيه وشل لمرتاد. وحتى تجرد من ثوب هوائه أو كاد ، وحتى أصبح قفراً هامداً لا ينبت عليه شجر ، ولا يتنفس فيه دابة ولا بشر ، بل لو بقي هواء الأرض وهو خال من بخار الماء لجمّد البرد سطحها تجميداً ، وانقبض الأحياءُ من وجهه حيث يقع شعاع الشمس عموداً . ثم لا يزال بساطهم يزداد ضيقاً على توالي الحقب ، الى أن تموت آخر عشيرة منهم بالبرد والسغب . فتدفنها الثلوج حيث لا تنكشف رممها إلا يوم التلاقي. وتخط يد القضاء على أديم الأرض سبحان الحي الباقي .

« وهذه اذا لم تهرب فتنقلب نارها برداً ولكنه برد بغير سلام . فتهيم السيارات والاقمار من حولها في فضاء من الزمهرير والظلام . ويومئذ لا يبزغ الصباح ، فيذهب آفاق المشرق ولا يقبل المساء فيخيم على أرجائه بجيشه المطبق . ولا يكون إذ ذاك كسوف ولا خسوف ، ولا تبدو القبة الزرقاء بلونها المألوف ، ولكنها تلتحف السواد حداداً على عالمها بالأمس . وقد التف بكفن من الثلج فآوته منها الى مثل ظلمة الرمس . ويومئذ تتجمد البحار فلا يكون ثمة موج يتنفس . ولا سحاب يتبجس . ولا سيل يتدفق ولا جدول يترقرق . وتركد حركة الهواء . فلا تهب شمال ولا صبا ، ولا تجري نسمة على الوهاد والربى . وأنـّى والشمس مصدر الحركة في العوالم . وقوام الحياة لكل قائم . فإذا هب الريح فالشمس هي التي تهب. وإذا دبت النعم فالشمس هي التي تدب . فاذا انتشر الغمام فهي التي تنتشر ، واذا انهمرت الغيوث فهي التي تنهمر . ألا وهي الشمس التي تجري في الانهار . وهي التي تغرد في الأطيار . وهي التي تزهر في الرياض . وهي التي يسمع حفيفها في الغياض . وعلى الجملة فالشمس هي روح الكائنات وفؤادها واذا ماتت الافئدة فمحال

أن تعيش أجسادها » .

وقال من مقالة في وصف القمر :

« بل هو مثال الرونق والجمال . وآية الأبهة والاجلال . اذا برز من الأفق فانهزمت من وجهه جيوش الظلماء. وانفرجت الكواكب لمرّه في عرض السماء . فأقبل يتنقل بينها وهو يميز عزة وخيلاء . فسمت إليه الأبصار اعجاباً وإكباراً . وانصرفت اليه ابتهاجاً واستبشاراً ، وانطلقت اليه النفوس نشاطاً وارتياحاً . واتسعت به الصدور انبساطاً وانشراحاً ، وخلا اليه العاشق يتذكر وجه حبيبه . ولها به المحزون فسلا عن حبيبه ونسيبه. وآوى إليه المسهد فكان سميره في سهده . واتخذه المسافر رفيقاً فذهل به عن مخاوف سفره ومشقة جهده . وجلس إليه الشرب يتعاطون مثل الشمس في مثله . وتساير بإزائه المتعاشقان يستبصران بنوره ويستتران بظله . وقد تخلل شعاعه نسج النسيم ، حتى اتحد اتحاد الماء بسلافة النديم . فكان ألطف ما مر ببصر في ألين ما التحف بشر . فأسجل الشاهد أن لياله أصفى الأوقات . وانه الجالي لأكدار النهار كما تجلى به كدورة الظلمات .

« لا بل هو مبعث الوحشة ومحرك الأشجان ، ومثير هواجس الصدر وبلابل الجنان. اذا طلع في ليله وقد سكتت الأصوات . وسكنت الحركات ولم يبق إلا تموج الهواء باختلاف الأصوات الصوامت . وخفيف النسائم بين ورق الشجر المتخافت ، فأرسل نوره الضعيف سابحاً في أنحاء الفضاء . مترقرقاً على وجه الغبراء . تظهر من تحته الوهاد المنبسطة في العراء . والقمم الشاخصة في الهواء لا يمشي فيها حيوان ولا تسمع نأمة إنسان. فوقف المتأمل أمام مشهد ذلك الجمود وقد ملكت عليه مشاعره حتى توهم نفسه انه بمعزل

عن الوجود . فتخيل مـــا حوله من الارض مجاهل خالية أو أطلالاً بالية . بل تخيل الارض كأنها يوم خلقت فهي أدغال وتنائف وتصور نفسه آدمهـا وقد وقف فيهـــا بين الدهش والمخاوف . فخيمت فوقه وحشة العزلة . وأحاطت بنفسه هيبة الوحدة وانبعثت الأشجان في صدره فتفرع لمناجاتها . وهاجت الذكر في نفسه فغاص بين تياراتها وتوارد عليه من الخواطر ما حبب اليه اللحاق بعالم الفناء ثم استهواه ما يرى من جمال الطبيعة فثابت اليه الرغبة في البقاء . فتمنى لو اتخذ سبباً الى هذا العالم الماثل فوق رأسه . أو تعلق بما تدلى اليه من اشعة نبراسه فربما تخيل ان هناك حدائق غلباء . ومدائن غناء . وقصوراً شاهقة . وانهاراً دافقة . واقواماً يمرحون في نعيم . ويرتعون في خصب مقيم . وما تمت لو يعلم الا كونٌ جامد . وقفر هامـد . وسكوت سائد . وحطام خلق بائد . لا يخطر هنالك غاد ولا رائح . ولا يسمع صوت باغم ولاصادح ولا يسبح طـائر في السماء . ولا يدب حيوان على العراء . ولا يخضر واد ولا اكمة ولا تحسب اذيالها نسمة . ولا ينتشر سحاب ولا ضباب . ولا يترقرق ماء ولا سراب . ولكن جملة ما هنالك طلل داثر . وعـــالم من عوالم الدهر الغابر بل جنازة يطاف بها حول الأرض وان لم تحملها المناكب وقد صلت عليها السيارات فترحمت عليها الكواكب » .

وقال من مقالة في وداع القرن التاسع :

« من تأمل كرور الادهار . وتعاقب الليل والنهار . ورأى الثواني تجرُّ الايام . والايام تجرُّ الاعوام . والناس يذهبون بين ذلك أفواجاً . ويمرون فرادى وازواجاً . ورأى ان هذه الحركة التي ترى بها الشمس تطلع من المشرق . ثم نراها تغيب في المغرب . يتخللها من حركات دقائق الكون ما يمثل دبيب عوامل الفناء . حتى يرد كل منظور الى عالم الهباء وقف حائراً دهشاً يتأمل

في الكائنات وفي نفسه . وقد اختلط عليه الوجود بالعـــدم حتى كاد يتهم شواهد حسه . ثم نظر فتمثل وراءه ماضياً تغيب أوائله في ظلمات الأزل . وأمامه آتياً تتصل أواخره بحواشي الابد . وهو بينهما كنفاخة قذفها التيار فوق اديم البحر . فما كاد يقع عليها ضوء الشمس حتى عادت اليـه ففاصت فيه آخر الدهر . فملكه من الرهب ما ارتعشت له اعضاؤه . ومن الاشفاق ما جمدت له دماؤه . ثم تمنى لو تخلص من هـــذا الوجود المشوّه وايقن ان الكون ضرب من الزور المموه . انما هي صور تتبـدل . واشكال تتحول . وهي المادة الى ان تنحل الارض وينتثر نظام السيارات والاقمار . وتتبـدد ذرات الشمس في الفضاء فيمحى رسمها من صحيفة الادهار .

« ودعنا القرن التاسع عشر كما يودع المرء يومه عند انقضائه. وقد تذكر ما لقي بين صباحه ومسائه . وما تقلب عليه من حالي كدره وصفائـــه ثم استشف من خلال ليله المقبل وميض صباح الغد باسماً عن ثغور الآمال مبشراً بما فاته في يومه من الغبطة ونعمة البال . فبات يعد نفسه المواعيد ويرى كل بعيد من الاوطار اقرب اليه من حبل الوريد . وقد ذهل اكثرنا عن انه يودع شطراً من دهره . وقد يكون من بعضنا اطيب شطري عمره . فإذا التفت الى خلفه رأى خيال نشأته وشبابه وتمثلت له أوقات لذته ومجالس اترابـه . والصفحة التي ارتسم عليها تاريخ ميلاده ودون فيه تذكار أبهج أعياده . فحن الى ايامه السوابق . حنين المحب المفارق وقد حيل بينه وبينها وطويت عليها صحيفة الفناء . وختم عليها بطابع الأبد فهي هناك إلى يوم اللقاء » .

شعره :

وقد رأيت انه نظم الشعر في شبابه وقعد عنه في كهولته على ان شاعريته

ظاهرة في ما ظهر من شعره وبين منظوماته ما جرى على ألسنة القوم مجرى الأمثال مع رغبته في كتمانه إذ جمعه في كتاب بخط يده وضن على النـــاس بنشره وهو لا يزال باقياً كما تركه . ومن أشهر شعره قصيدتـــه السينية التي مطلعها :

دع مجلس الغيـد الاوانس   وهوى لواحظها النواعس

واختها التي مطلعها :

تنبهوا واستفيقـــوا ايها العرب   فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب

والقصيدتان مهيجتان اقتضتها بعض الأحـــوال السياسية في سوريا من التحريض على النهوض . ولعل الفقيد حمل على نظمها بأشارة جماعـــة أوامر رجل كبير فجاء نظمها بليغاً .

ومن قوله في النسيب والغزل :

ما مرّ ذكرك خاطراً في خاطري   الا استباح الشوق هتك سرائري
وتصببت وجـــداً عليك نواظر   باتت بليل من جفائـــك ساهر
بلغ الهوى مني فان أحببت صل   أو لا فدتك حشاشتي ونواظري
قسما بحسنك لم أصادف زاجراً   الا وحسنك كان عنه زاجري
أو ما كفاك من الذي لاقيتـــه   وله كساني الذل بين معاشري
وضنى يكاد يشف عن طي الحشى   حتى خشيت به افتضاح ضمائري
أخذت عيونك من فؤادي موثقاً   وعلي عهد هواك لست بغادر
كن كيف شئت تجد محبك مثلما   تهوى على الحالين غير مغايري

صبري عليك بما أردت مطاوع	أبداً ولكن عنك لست بصابر
عذبت قلبي بالصدود وان يكن	لك فيه بعض رضى فدونك سائري
واضعت عمري بالدلال وحبذا	ان صح عندك مطمع في الآخر
كثر التقول بيننـا وتحدثوا	يا هاجري حاشاك انك هاجري
وأطال فيك معنفي فعذرتـه	وعساك في كلفي فديتك عاذري
حسبي رضاك إذا مننت بزورة	يمسي المزور بها رقيق الزائر

ومن قوله في الحكم :

حياة أسر العيش فيهـا مذمم	وناس بهـا قلب الخليّ متيم
سقت كل قلب كل يوم مشاربا	توهم فيهـا لذة وهي علقم
وما الارض الا قفرة زأرت بها	أسود المنايا حولنا وهي حوم
لها كل يوم بيننا كل منـذر	ينادي علينا مسمعاً وهو أبكم
تنبهنا بعضـاً ببعض فتنثني	وأجفاننـا في غفلة اللهو نوم
خلت دونها شمُّ الحصون فلم تكن	لساكنها من غارة البين تعصم
واصبح من قد كان يرهب باسه	يناح عليه بعد حين ويرحم
تراب من الأرض استوى تحت صورة	تلوح عليها مـدة ثم تهـدم
اذا مـا دفعنـا للبليـة مرة	ولم ننتفع بالحزن فالصبر احزم
جرى قدر المولى بما شاء واستوى	لديه جزوع في الاسى ومسلم
وليس لنا من مطمع فـات نيله	اذا كان ما نبغيه ما ليس يغنم
وما كان ما لا بد منه مؤخراً	يهون لديه الرزء وهو مقدم
وما الفرق في الحالين إلا هنيهة	تمر سريعاً والقضـا متحتم

ومن قوله في الحكم ايضاً :

وانما نحن في دار إذا اعتبرت ليست سوى مأتم ناحت به البشر
في كل يوم اناس فوقها فجعوا على اناس طوتهم تحتها الحفر
بئس الحياة التي ما زال واردها يمازج الورد في كاساته الصدر
حالان احداهما مملوءة حذراً مما يليها وأخرى فاتها الحذر

ومن قوله في الرثاء :

ايها النائح المبكر مهلاً جاوز الأمر دمعك المستهلاء
شق من قبلنا الورى كل قلب ولقد كان لو شفى النفس سهلا
انما نحن ثاكل وصريع ذاك يشقى وذاك في الترب يبلى
ليس أرض لم يسقها صوب دمع او سماء لم يشجها نوح ثكلى

ومما جرى مجرى الامثال ويصح ان يكتب بماء الذهب بيتان قالهما في معرض رد على احمد فارس الشدياق لما انتقد كتب والده وشدد الطعن عليه فقال الشيخ ابراهيم :

ليس الوقيعة من شأني فان عرضت اعرضت عنها بوجه بالحياء ندي
اني أضن بعرضي ان يلمَّ به غيري فهل أتولى خرقه بيدي

ومن نظمه ليكتب على عود :

وعود صفا الندمان قدماً بظله وما برحت تصفو اليه المجالس
تعشقه طير الأراكة اخضراً وحن اليه ريشه وهو يابس

ومن نكاته الشعرية :

تعجب قوم من تأخر حالنا ولا عجب في حالنا ان تأخرا

فمذ اصبحت اذنابنا وهي أرؤوس   غدونا بحكم الطبع نمشي الى الورا

وكانت له قريحـــة في الرياضات واطلاع واسع في علم الفلك اتصلت بسببه مخابرات بينه وبين بعض كبار الفلكيين الفرنساويين . واشتغل في حل المشكلة الرياضية المشهورة وهي قسمة الدائرة الى سبعة أقسام وتوصـل قبل وفاته ببضع سنين الى حل يقرب من الصواب كثيراً بعث به الى أكاديمية العلم في باريس ولا نعلم ما صار اليه أمره . وكان عارفاً اللغة الفرنساوية وله إلمام بالعبرية والسريانية ومشاركة حسنة في العلوم الطبيعية .

أعماله وآثاره :

نظراً لما قدمناه من طبعه في التأنق والاتقان وتوخيه التأني والتدقيق فقد جاءت ثمار قرائحه اقل مقداراً مما كان يرجى من مثله كما قدمنـــا فضلاً عن انصراف ذهنـه في شبابه الى الاشتغال بالحفر والرسم . على أنه خدم اللغة العربية من هذا الطريق خدمة ذات بال باصطناع حروف العربية في بيروت . وذلك ان الطباعة بالحروف الافرنجية لم تكد تظهر بأوربا بأواسط القرن الخامس عشر حتى اهتم أصحابهـا هناك باصطناع الحروف العربية فاصطنعوا حروفاً طبعوا بها كتباً بالبندقية وروما وباريس ولندرا واكسفورد وغيرها ولكل منها تقريباً شكل خاص وإن تشابهت على الاجمال. ثم ظهرت الطباعة العربية في الاستانة وحرفهـــا يعرف بالحرف الاسلامبولي ويشبه القاعدة التي تقرأها في هذه الصفحة . وفي أوائل القرن الثامن عشر ظهرت الطباعـــة في سوريا نقلاً عن حروف رومية. ثم جاء المرسلون الاميركان الى سوريا فيأوائل القرن الماضي ولهم مطبعة عربية في مالطة أسسوها سنة ١٨٢٢م وحروفها من حروف مطابع لندن وطبعوا بها كتاباً بعناية المرحوم الشيخ أحمد فارس .

ثم نقلوها الى بيروت سنة ١٨٣٤م وبعد انتقالها بأربع سنين اهتم مديرها يومئذ المرحوم عالي سميث باصطناع حروف جديدة ، فاستخدم أحد كتبة الاستانة فكتب له حروفاً جميلة سبكها في لايبسك وهي الحروف الاميركانية المشهورة .

ولكن القاعدة الاميركانية على جمالها ورونقها كانت كثيرة النفقة في اصطناعها لكثرة أشكالها . والقاعدة الاسلامبولية تفضلها من هذا القبيل ، لكنها تقل عنها من جهات اخرى . فعني الشيخ صاحب الترجمة سنة ١٨٨٦م بصنع قاعدة جديدة يجمع بها حسنات الحرفين وهي القاعدة المعروفة بحرف سركيس لأنها تسبك في مسبك خليل افندي سركيس صاحب لسان الحال في بيروت . وهي القاعدة الشائعة الآن في أكثر المطابع العربية في سوريا ومصر واميركا. واصطناع هذه الحروف يحتاج الى دقة ومهارة لا يعرف مقدارهما إلا من يعاني هذه الصناعة . لأن الحرف لا يتمثل للطبع إلا بعد أن يحفر على قضيب من الفولاذ حفراً دقيقاً ويقال له باصطلاح الطباعة « الأب » ثم يضرب على النحاس ضرباً حتى يطبع غائراً في النحاس ويسمونه حينئذ « الأم » وعلى هذه الأم يصبون الرصاص فيخرج الحرف المعروف في المطابع .. فالشيخ كان يصطنع الأب من الفولاذ ويضربه على الأم النحاسية واصطنع هذا الحرف عدة أقيسة. ولما جاء القاهرة صنع حرفاً على قياس متوسط بين الحروف الكبرى والصغرى يعرف بحرف (بنط ٢٠) وقد اتخذته مسابك القاهرة واصطنعوا له قوالب وشاع استعماله في مطابعها وبه طبعنا هذه الترجمة .

وأدخل في الطباعة العربية بعد قدومه مصر صوراً للحركات الافرنجية يحتاج اليها المعربون في التعبير عن الحركات الخاصة بها التي لا مقابل لها في

العربية . ولما أرادت الحكومة المصرية صنع حروف مطبعة بولاق سنة ١٩٠٣م على قاعدة مختصرة مفيدة كانت الأبصار متجهة الى الشيخ لأنه أقدر من يستطيع ذلك بالدقة والرونق ولو فوضت اليه هذا العمل لأحسنت صنعاً واستثمرت قريحته ثمراً نافعاً للغة العربية على الاجمال .

أما آداب اللغة العربية فقد خدمها الشيخ خدماً ذات بال بما ألفه أو نقحه أو انتقده أو وضعه من المصطلحات الجديدة وإليك البيان :

فمؤلفاته أكبرها « الضياء » وقد ظهر منه ثمانية مجلدات وفيها مقالات في مواضيع شتى من جملتها مقالات ضافية في انتقادات لغوية يحسن أن يعاد طبعها على حدة خدمة لهذا اللسان وهي : (١) اللغة والعصر (٢) لغة الجرائد فقد انتقد بها ما هو شائع في الصحف السيارة من الغلط اللغوي (٣) مقالة في التعريب بين بها شروط التعريب وتاريخ ذلك من صدر الاسلام (٤) أغلاط العرب القدماء (٥) اللغة العامية واللغة الفصحى (٦) أصل اللغات السامية (٧) نقد لسان العرب وهو بحث طويل انتقد به الطبعة المتداولة من معجم لسان العرب (٨) اغلاط المولدين بين فيها ما وقع للمولدين من الغلط اللغوي في صدر الاسلام الى الان وفي جملة ذلك ما وقع للمرحوم والده ثم ذكر ما وقع هو نفسه فيه من الخطأ في بعض المواضع. فهذه المقالات وغيرها من الابحاث اللغوية كمقالتيه في المجاز والنبر في اللفظ العربي وغيرهما مما ظهر في البيان والطبيب لو جمعت لزاد مجموعها على مئتي صفحة. وفي الضياء مقالات فلكية في القمر وحركاته والزهرة والمريخ والشمس والمشتري وقياس الاجرام السماوية وما وراء نبتون وتكون العالم الشمسي وسعف الشمس وغيرها مما يدخل في مئة صفحة أو مئتين . ومن مؤلفاته التي ظهرت كتاب « نجعة

الرائد » في المترادف والمتوارد من الفاظ اللغة العربية وتراكيبها في مجلدين .

وكان رحمه الله قد شرع من سنوات عديدة في وضع معجم للغة العربية يشتمل على المأنوس من كلام العرب الاولين وعلى مـا طرأ من موضوعات المولدين والمحدثين مقتصراً على الفصيح دون المولد والمحدث في الاصطلاح وسماه «الفرائد الحسان من قلائد اللسان» وقد شغلته العوائق عن اتمامه وكنا نحسب مواده مجموعة كلهـا أو بعضها فاذا هي تعاليق على حواشي الكتب وبعض المذكرات في اوراق متفرقة لا يستطيع جمعها او تأليفها سواه فذهب الامل بظهور ذلك الكتاب المفيد .

اما ما صححه من الكتب فأهمها ترجمة التوراة اليسوعية التي تقدم ذكرها وفيها خدمة كبرى في ضبط لغة المسيحيين لاكتساب الملكة الصحيحة بمطالعتها من صغرهم . وممـا صححه وهذب عبارته تاريخ بابل واشور تأليف جميل افندي مدور ونفح الازهار في منتخبات الاشعار ودليل الهائم في صناعة الناثر والناظم للمرحوم شاكر البتلوني. وعقود الدرر في شرح شواهد المختصر للمعلم شاهين عطية ورسالة الغفران . غير ما صححه أو اختصره أو شرحه من كتب المرحوم والده كمختصر نار القري ومختصر الجمانـة لمطالع السعد ومطالع الجوهر الفرد والعرف الطيب في شرح ديوان ابي الطيب وغيرها .

ومن آثار علمه انه انتقى الفاظاً اصطلاحية لمـا حدث من المعاني العلمية بنقل العلوم الحديثة الى اللغة العربية بما عرف به من سلامة الذوق في اختيار الالفاظ وهاك امثلة من ذلك مرتبة على احرف الهجاء مع اصولها الفرنساوية :

الاربة	Cravate
الاستعهاد	Assurance
الامرب	Plombagine
الانبوبيات	Bacilles
البائنة	Dot
البيئة	Milieu
التألق	Phosphorescence
التليد	Acclimatation
الجناح	Balcon
الحاكي	Phonograph
الحساء	Soupe
الحسر	Myopie
الحوذي	Cocher
الدراجة	Bicyclete
الدريئة	Écran
الذريرات	Microcoque
الراجبيات	Bactèries
الرثية	Rhumatisme
الرعاد	Torpille
السفع	Tache (du soleil)
الشاري	Poratonnerie
الشبنزي	Chimpanzé
الشحنة	Police
الشعار	Armoiries
الشعرية	Brosse
الضلع	Fuseau
الطارئة	Colonie
الطبرخي	Gutta - percha
الطلاء	Vernis
الكفاف	Cadre
اللهـــاة	Valve
اللولب	Vis
المأساة	Tragédie
المتمعجات	Vibrions
المجلة	Révue
المحبب	Granit
المصلد	Imperméable
المقصف	Buffet
المصقلة	Guillotine
المنضحة	Douche
النابض	Ressort

ومن هذا القبيل وضعه « النوام » لمرض النوم الذي حدث في افريقيا مؤخراً و « المداد » القلم الحبر المشهور وغير ذلك مما يصعب حصره .

خليل خوري

مؤسس الصحافة العربية في سوريا

تمهيد في النهضة العلمية الحديثة ونصارى الشام :

نريد بالنهضة العلمية الحديثة الانتقال الذي اصاب آداب اللغة العربيـة في القرن الماضي على أثر اختلاطنا بأهل التمدن الحديث واقتباسنا علومهم المبنية

على المشاهدة والاختبار واقتفائنا آثارهم في انشاء المطابع والجرائد وغيرها من عوامل هذا التمدن . وكان العلم قبل هذه النهضة لا يزال على النمط القديم الذي بني على انقاض التمدن اليوناني والفارسي منذ نيف وألف سنة . فكان معولهم في الطب على ابن سينا والزهراوي وفي الحيوان على الجاحظ والدميري وفي الكيمياء على جابر والرازي وفي النبات على ابن البيطار وقس على ذلك سائر العلوم الطبيعية والرياضية . على انهم قلما كانوا يشتغلون بهذه العلوم وانما كان معوّلهم في الاجيال الوسطى على العلوم اللسانية كالصرف والنحو والشعر وبعض العلوم الادبية . وكان ذلك قاصراً تقريباً على المسلمين – ولا سيما من حيث الشعر واللغة جرياً على سنة الاستمرار . ولما جاءنا التمدن الحديث وقد حمله الينا نصارى الغرب كان نصارى الشام اسبق الى اقتباسه من المسلمين .

وإذا اعملنا الفكرة في تاريخ هذه النهضة في الشام على الخصوص رأيناها مرت في نموها على ثلاثة اطوار : الاول يبدأ بدخول ابراهيم باشا الشام سنة ١٨٣٢ م وينتهي بحادثة سنة ١٨٦٠ م لان ابراهيم حمل معه غرض ابيه من التقريب بين الطوائف المختلفة ليجتمع العرب تحت لوائه وينصروه في تأييد دولته . والتفت الى نصارى الشام على الخصوص لقيام بعض رجالهم في نصرته . وكانت مصر قد سبقت سائر المشرق الى انشاء المدارس على النمط الحديث ولا سيما الطب . وكان مع ابراهيم جماعة من الاطباء المتخرجين في مدرسة الطب المصرية . واراد مثل ذلك للسوريين فاجاز لهم ارسال عدد من ابنائهم الى مدرسة الطب المصرية يتعلمون فيها على نفقة حكومتها – جعل ذلك قاعدة متبعة لم تبطل إلا من عهد قريب .

لم تطل اقامة ابراهيم في الشام فخرج منها سنة ١٨٤٠ م وخلف في نفوس اهلها احتراماً للعائلة الخديوية ورغبة في وادي النيل وشوقاً الى علومه فأمه

كثيرون تلقوا فيه الطب وغيره وعادوا الى بـــلادهم ينشرون ثمار رقيهم بين آهليهم وذويهم . فحدثت في نفوس القوم نهضة رافقها قدوم بعض جاليـــة الافرنج من المبشرين وترغيب الناس في تعليم ابنائها مجانـاً فنبغ من نصارى الشام غير واحد من الادبـــاء والشعراء كاليازجي الكبير وكرامة ومراش وحسون ودلال . وبعضهم اشتغل بالعلوم العصرية كالدكتور مشاقـة بالشام وآخرون بالتاريخ كطنوس الشدياق ونبـغ في هذا الطور ايضاً مارون النقاش واضع علم التمثيل في اللغة العربية .

ويبدأ الطور الثاني بالحوادث المشومة التي أصابت بلاد الشام سنة ١٨٦٠ م فاهتزت جوانبها وانتقل المصابون من أهلهـا الى بيروت وداخلت فرنسا في شؤونها ووجدت سائر الأمم وسيلة لانفاذ المبشرين فابتنوا المدارس الكبرى والفوا الجمعيات وطبعوا الكتب في العلوم الحديثة وغيرها فنشأت طائفة من الاطباء والعلماء والكتاب أنشأوا الصحف والفوا الكتب أونقلوها أولخصوها. وأصبحت بيروت مبعث العلوم العصرية ومنشأ رجال الصحافة وكتاب الأدب والسياسة . وفي هذا الطور نبغ مؤسسو هذه النهضـة وفيهم أشهر كتاب الشام وشعرائها في القرن الماضي كالبستاني واليازجي والشدياق وأديب ونقاش وشميل وتقلا ونوفل ومشاقة وخوري وغيرهم وأكثرهم من المسيحيين اللبنانيين. ووافق ذلك قيام اسماعيل على عرش الخديوية المصرية وقـد رغب الناس في النزوح الى مصر ونشط أهل الأدب فنزح اليها جماعة منهم أنشأوا فيها الصحف ومثلوا الروايات والفوا الكتب ونظموا الشعر . وينقضي هذا الطور بالانقلاب السياسي الذي أصاب مصر على اثر الحوادث العرابية .

والطور الثالث يبـــدأ بالاحتلال الانكليزي بمصر لتكاثر الوفود من أدباء السوريين في أثنائه الى وادي النيل للعمل بالأدب أو التجارة أوخدمة الحكومة

أو الزراعة أوغيرها وكان لهم شأن كبير في الحركة العلمية والمالية والصحافية. وكانت الهجرة في أول الامر قاصرة على المسيحيين ثم تطرقت الى المسلمين فهاجر منهم جماعة من الكتاب والعلماء لأسباب لا محل لها هنا . فكأن الشام في الطور الثالث من نهضتها قد تقهقرت الى الوراء أو انها وقفت حيث كانت. ويمتاز هذا الطور في بيروت بنبوغ طائفة من أدباء المسلمين اشتغلوا بالصحافة والعلوم الحديثة فضلاً عن الأدب والشعر .

فالنهضة العلمية في الشام مرت على ثلاثة أطوار يبدأ كل منهـــا بفتح أو ثورة ولا نزال في الطور الثالث .

خليل الخوري :

ولد سنة ١٨٣٦ م في الشويفات من أعمـــال لبنان ثم انتقلت عائلته الى بيروت مهجر اللبنانيين ولا سيما بعد دخولها في حوزة الدولة المصرية على عهد ابراهيم . ولم يكن فيها مدارس كبرى فتلقى مبادىء العلم في بعض المدارس الطائفية للروم الارثوذكس على ما تأذن به أحوال ذلك العصر . وكان فيـه ذكاء ونشاط ونفسه تبغي العلى فطلب الرقي من طريق القلم ولا سبيل اليـــه يومئذٍ الا بخدمـة الحكومة وهي عسيرة على غير المسلمين إلا لمن تفقه بالعلم واتقن اللغة التركية. فأخذ يتعلمها وتعلم اللغة الفرنساوية على أساتذة مخصوصين حتى اتقنها تكلماً وكتابة . فتاقت نفسه للاشتغال بالقلم فأقدم على الصحافة — وهو أول من فعل ذلك في الشام . فأنشأ جريدة « حديقة الاخبار » سنة ١٨٥٧ م قبل انقضاء الطور الأول من هذه النهضة وهو في الحادية والعشرين من عمره . وما زالت تصدر وحدها في بيروت حتى صدر الجنـان للبستاني سنة ١٨٧٠ م وظلت الحديقة تصدر الى سنة ١٩٠٦م فأوقفها مراعاة لصحته .



خليل خوري
١٨٣٦ – ١٩٠٧ م

وافضت مصر الى سعيد باشا سنة ١٨٥٤ م وشخص الى الشام سنة١٨٥٩م وأقام في بيروت ثلاثة أيام فاحتفل به وجهاؤها وكان إذا مشى في الطرقات نثر الذهب علىالناس فأحبوه ورغبوا في بلده. ولا يقدم على ذلك غير الأديب الهمام فشخص صاحب الترجمـــة الى مصر وكان ينظم الشعر من صباه فنظم قصيدتين رفعها الى سعيد باشا وحظي بمقابلته فأعجبه أدبه وذكاؤه فعهد اليه ان يؤلف كتاباً في تاريخ مصر.فعاد الى سوريا والحرب الاهلية ناشبة أظفارها وقد جرت المذابح في دمشق وحاصبيا ودير القمر وغيرها والف الباب العالي لجنة دولية مندوبها العثماني فؤاد باشا الشهير فاحتاج الى رجل يحسن التفـاهم بينه وبين الناس فوقع اختيـــاره على صاحب الترجمة فتعين في معيته وكان رفيقه في مهمته . ولما رجع فؤاد ظل خليل بمعية قبولي باشا الى الفراغ من تلك المهمة .

وكان في أثناء ذلك يشتغل بتأليف تاريخ مصر ففرغ منه سنة ١٨٦٤ م وقدصارت الخديوية الى اسماعيل باشا فحمل الكتاب اليه فأجازه بألفي جنيه. ولم نقف على ذلك الكتاب ولا سمعنا به قبل البحث عن ترجمة هذا الفقيد. وعاد خليل الى سوريا وقد أصبح موضع اعجاب رجال الدولة فجعلت الحكومة جريدته رسمية لنشر أوامرها وأخبارها. ولما أنشئت مطبعة سورية وجريدتها عهدت اليه بادارتها وأوعزت اليه حكومة لبنان على عهد فرنكو باشا أن يصدر جريدته باللغتين العربية والفرنساوية وبذلت في مقابل ذلك ثلاثة آلاف غرش كل شهر. وعهدت اليه الحكومة العثمانية بتفتيش المدارس غير المسلمة في سوريا وعينته مديراً للمطبوعات فيها وهي توالي عليه الانعام بالرتب والنياشين. ثم عينته سنة ١٨٨٠م مديراً للأمور الأجنبية في ولاية سوريا وظل في هذ المنصب حتى أحيل على المعاش قبيل وفاته.

وكان له شقيق أديب اسمه سليم فيه نشاط أخيه وذكاؤه فاشترك مع سميه المرحوم سليم شحاده في تأليف معجم مطول في التاريخ الجغرافية لو تم لكان أحسن ذخيرة لآداب اللغة العربية سماه آثار الأدهار. فتوفي سليم الخوري سنة ١٨٧٥م ولم يصدر من الكتاب إلا بضعة أجزاء فتوقف العمل. وكانت تلك الوفاة صدمة قوية على صاحب الترجمة وخسارة كبيرة على اللغة العربية.

صفاته وأعماله :

كان رحمه الله طويل القامة حيوي المزاج قوي البنية أبيض اللون أشهل العينين أسود الشعر بشوشاً مع هيبة ووقار. وكان دمث الاخلاق حسن المحاضرة رقيق الجانب ميالاً الى البساطة بعيداً عن الأبهة والبهرجة رحب الصدر متوقد الذهن سريع الخاطر رقيق الاحساس، وتظهر رقة شعوره على

الخصوص في شعره الغزلي . وكان وجيهاً حسن الوفادة بيتـــه منزل الولاة والوزراء يرتاحون فيه من عناء الأسفار . وله صداقة مع رجال الدولة وكلمته نافذة عندهم ونال الاوسمة والنياشين من معظم دول اوربا فضـلاً عن رتب الدولة العلية ونياشينها .

وجمع الى الوجاهة والسياسة الأدب والشعر فرافق هذه النهضة من اولها وكان له شأن في أكثر عواملها . فقد رأيت أنه مؤسس الصحافة السورية ، وقد أنشأ مطبعة نشر فيهـــا عدة كتب . وهو من مؤسسي الشعر العصري وكان شاعراً مطبوعاً يميل بشعره الى السهولة والرشاقة وقـد نظم الشعر في صباه وشبابه وكهولته وشيخوخته وله عدة دواوين مطبوعة أكثرها في الغزل والمديح والتهنئة والرثاء . وأكثر مدحه للسلاطين ورجال الدولة ولذلك سموه شاعر الدولة وكان لطريقته بالشعر العصري وقع حسن لدى المستشرق رينو الفرنساوي فنقل مثالاً منهـــا الى اللغة الفرنساوية نشره في المجلة الآسيوية الفرنساوية وفي الديبا وغيرها. وذكره لامارتين الفرنساوي الشهير في مؤلفاته وأثنى عليه وأظهر اعجابه به وكانت بينهما صداقة ومراسلة . على انه كان صديقاً لكثيرين من أدباء معاصريه من شعراء الترك والفرس والعرب . وأشهر دواوينه « زهر الربى » و« العصر الجديد » و « السمير الأمين»و «الشاديات» « والفتحات » وكلها مطبوعة وتحتوي على ما نظمه الى سنة ١٨٨٤م، أمـــا منظوماته بعد ذلك فهي مجموعة في ديوان كبير لم يطبع ويمتـاز عن سائر الشعراء ، إنه لم يستجد بشعره قط ولولا ضيق المقام لأتينا بأمثلة من منظومه وأحسنه في النسيب.

وله فضلاً عن الشعر كتب ومقالات في مواضيـع شتى اكثرها منشور في جريدته ومنها رواية « النعمان » و « حنظلة » المشهورة وهي التي نظمها بعد

ذلك المرحوم الشيخ خليل اليازجي وسماها « المروءة والوفاء » وترجمها الى الفرنساوية ميشيل بك سرسق . وله رواية اجتماعية اخلاقية نشرها في الحديقة اسمها « وي اذن لست بافرنجي » وترجم عن التركية كتاب تكملة العبر لصبحي باشا وهو تتمة تاريخ ابن خلدون وطبعه. وتولى ادارة ترجمة الدستور التي قام بها المرحوم نوفل نوفل وطبع مجلديه الاول والثاني ونشر عدة كتب مفيدة . وله خطب كثيرة بعضها غير مطبوع وكان منشطاً للمشروعات الادبية الخيرية من الجمعيات او المدارس أو الصحف أو غيرها .

ولصاحب الترجمة حادثة غريبة في زواجه يندر اتفاقها .. وذلك انه أحب في شبابه نحو سنة ١٨٦٠م سيدة فاضلة من آل بسترس اسمها كاتبة ابنة موسى بسترس وكانت من العلم والادب على جانب عظيم وقد حال أهلها دون اقترانها وزفت كاتبة الى وجيه من آل نوفل ثم توفيت وله منها ابنتان فتزوج خليل احداهما « ظافر » سنة ١٨٨٧م ولم تعش معه إلا سنة رحمهما الله.

رزق الله حسون الحلبي

نشأت أسرة حسون الارمنية في بلاد العجم وقيل في ديار بكر وقد أشار المترجم الى هذا في قوله من قصيدة :

ديار كرج وارمن وطني   قبل انتقال أبي الى أخرى

فجاء جدها الاعلى وسكن حلب وولد أولاداً ذهب أحدهم إلى مدينة ازمير فبقي اسم أولاده أولاً بني حسون ثم عرفوا ببني حلب أوغلي (أي

أولاد حلب) وهم فيها بهذا الاسم الاخير الى عهدنا . وذهب أحدهم الى الاستانة قبل تغيير اسمهم (حسون) وبقيت سلالته فيها باسم بني حسون الى عهدنا ومنهم نشأ البطريرك حسونيان (وزيادة الياء والالف والنون من اصطلاحات اللغة الارمنية) وكان من رجال الفضل والعلم ولا تزال بقية اسرته في الاستانة الى يومنا . وذهب احد اولاد حسون الجد الأعلى المذكور إلى القطر المصري . أما ولده الآخر فبقي في حلب ومن اسرته ولد المترجم نحو سنة ١٨٢٥ م فتعلم فيها مبادىء القراءة واتقن الخط على الشيخ سعيد سعيد الاسود الحلبي الشهير بجودة خطه وما ترعرع حتى انتقل إلى دير بزمار وهو دير لرهبنة الارمن الكاثوليك الانطونية وفيه مقر الرئيس العام وموقعه في ساحل كسروان من اعمال لبنان فدرس العلوم اللاهوتية واللغات الفرنسية والتركية والأرمنية والعربية والعلوم الرياضية وكان نابعة في جودة حفظه وذكائه حتى انه نظم الشعر وهو تلميذ . وذلك انه لما استقدم المطران باسيليوس عيواظ الى دير بزمار ليُسام فيها اسقفاً على الارمن في حلب وتمت سيامته في ٤ فبراير سنة ١٨٣٨م انشده رزق الله قصيدة من نظمه وهو في الثالثة عشرة من عمره .

ولما اتمّ دروسه في بزمار عاد الى مسقط رأسه حلب وكان يمارس التجارة لان والده كان غنياً وكثيراً ما كان يختلف الى دار قنصلية النمسا في حلب حيث كان والده ترجماناً فيها فيتمرن على اعمال الترجمة في القنصلية .

ثم نزعت نفسه إلى طلب العلى فذهب إلى اوربا وطاف في لندن وباريس وجاء مصر واستنسخ كتباً كثيرة لانه كان ولوعاً بالمطالعة كثير الميل إلى صناعة الخط التي عرف بيتهم بها كما أشار إلى ذلك بقوله منقصيدة :

لا خاملاً لا دنيّاً منشإي حلب فسل وهاك بفضلي يشهد القلمُ

ثم عاد الى الاستانة وتقرب من رجالها ونال منزلة عندهم واتخذه الحاج ابو بكر آغا القباقيبي من كبار اغنيائها وتجارها وأعيانها مدبراً لشؤونه ومؤتمناً على أمواله وبواسطته استخدم في الحكومة وقد اتصل بالمرحوم يوسف جلبي الحجار وتزوج السيدة متيلدة ابنته سنة ١٨٤٨ م وأرخ ذلك بطرس كرامة بقوله من أبيات :

فلا زلتما طول الزمان بصحبةٍ   وعيش رغيدٍ برده ُ الامن ُ والرفد ُ
زفاف سعيد والهناء ُ مؤرخ ٌ   موافٍ لرزق الله بالخير ما تلد ُ

وقد كانت بينه وبين ادباء عصره في سوريا ومصر والاستانة مراسلات ومساجلات ولا سيما وطنية الشاعر نصرالله الطرابلسي المشهور واحمد فارس الشدياق وبطرس كرامة وغيرهم ممن جاء بعدهم مثل فرنسيس مراش وشقيقه عبدالله وجبرائيل الدلال وشقيقه نصرالله من مواطنيه والقس لويس الصابونجي وديمتري شحاده الدمشقي والمطران اغابيوس صليبا الارثوذكسي وخليل الخوري وغيرهم .

لقد عرف رؤساء الاساقفة بعهده ومدحهم من ذلك أبيات موجودة بخطه في دار بطريركية الروم الكاثوليك بدمشق مدح بها الطيب الذكر البطريرك مكسيموس مظلوم الحلبي الشهير سنة ١٨٤٢ م (١٢٥٢ هـ) مطلعها :

صرّفت كربة من ناجاك مبتهلاً   ولم تُرد صرف من ينحوك ذا بددِ

وقال من قصيدة مدح بها الطيب الذكر البطريرك بولس مسعد الماروني الشهير :

امام ٌ على سرّ الإله أمين ُ   أضاءت بنورٍ من سناه ُ دجون

بدا علماً في أوج لبنان للهدى ولبنان للدين القـويم عرين
سميُّ الاناء المصطفى نعتهُ الصفا على نسج اسلاف طوتهُ قرون
هو البطريرك الندب بولس ذو الحجى وكعبة فضل للزمـان جبين

وختمها بقوله :

ودونكم نظم ابن حسُّون فائقاً بمعنى والفاظٍ لهنَّ رنينُ

ومن ذلك ما بعث به الى صديقه بطرس كرامة شاعر الامير بشير الشهير من قصيدة ذكرت في ديوانه صفحة ٣٨٥ منها :

خدين المعالي وابن بجدتها الفرد بقيتَ بقاءَ الدهر يخدمك السعدُ
وزادك ربُّ العرش اسنى كرامةٍ قرين بهـا الاقبال والفخر والمجـدُ
ولا زلت في امنٍ وموفور نعمةٍ ويمن ايادٍ كسبها الشكر والحمدُ
وبعدُ فقـد طال البعاد ومهجتي يكاد من الاشواق يضرمها الوجـد
فابغي للاطمئنـان منكم ألوكة إذا لم يكن منكم قدومٌ هو القصدُ

فأجابهُ بطرس كرامة بأبيات تجدها في ديوانهِ ومنها قولهُ :

فلا تحسبوا بعدي بعاداً وانما ودادي لكم قرباً وبعداً هو الودُّ
واني لأرجـو كل يوم لقاكم ولكن دهري شأنهُ المنع والصدُّ
فلازلت رزق الله خدن كرامةٍ ويصحبك التوفيق والعزُّ والسعدُ

ولما نشبت حرب القرم بين روسيا والدولة العلية وتداخلت فيها الدول المتعاهدة منحازة الى دولتنـا سنة ١٨٥٤ م انشأ المترجم جريدة « مرآة الاحوال » في دار السعادة فكانت أول جريدة عربية فيها. وكان يصف فيها

حرب القرم ومواقعها ويكتب الفصول السياسية الدالة على حنكته ويتطرق الى وصف أحوال بلادنا ولا سيما بعلبك ولبنان وحاصبيا وما كان يجري فيها إذ ذاك من الفتن الاهلية فذاعت جريدته شهرة وزادت نجاحاً بعد ذلك الى ان عطلها .

ولما نشبت حوادث سنة ١٨٦٠م في سوريا وسفكت الدماء وتفاقم الخطب وجــــاء فؤاد باشا لاصلاح ذات البين كان صاحب الترجمة من رجاله اتخذه لتعريب المناشير والاوامر التي يصدرها للشعب . وكان قــد نال لديه حظوة أيام كان وزيراً للخارجية في أثناءحرب القرم ومدحه في جريدته المرآة وأثنى على بسالته حينما كان قيماً على الجند بقيادة عمر باشا النمساوي في حرب القرم.

واتصل وهو في دمشق بالامير عبد القادر الجزائري الشهير وله فيه مدائح كثيرة نشر بعضها في كتابه النفثات الذي قدمه له وتبــادل المودة مع أدباء بيروت ودمشق ولبنان .

وعثر وهو في دمشق على كثير من الكتب المخطوطة القديمة وأحرزهـا ومن جملتها انجيل عربي وجده في قرية عين التينـــة قرب معلولا في جبل القلمون نسخ سنة ٧٠٤٥ لآدم و ٩٤٧ هـ (١٥٤٠ م) فأهداها الى المرحوم متري شحادة الدمشقي لما كان في القسطنطينية سنة ١٨٦٣م وهــو الان في مكتبة البطريركية الارثوذكسية في دمشق عدد ١٠٠٦ وخطه كنسيّ جميل. وقد تفقد مكاتب دمشق القديمة ووقف على نوادر مخطوطاتهـا ونســخ بعض تعاليق مفيدة عنها كان يفيد بها المستشرقين بعد ذهابه الى اوروبا .

ولما عاد فؤاد باشا الى الاستانة نائلاً منصب الصدارة العظمى سنة ١٢٧٨هـ (١٨٦١ م) نال المترجم حظوة لديه فكان من خاصته . ولم يلبث فؤاد باشا

ان صار عضواً في مجلس الاحكام العدلية في السنة الثانية من صدارته وذهب الى معرض مدينة لندن معتمداً عثمانياً سنة ١٢٧٩ هـ(١٨٦٢م) فأخذالمترجم معه . ولما عاد الى الآستانة أعاده معه فرّقاه الى نظارة جمارك الدخان فكثر حساده ومناوئوه واشتد الامر بينه وبينهم فوشي به أنه رمي بالغلول في مال الجمارك هو وبعض المستخدمين فسجن معهم ثم فرّ الى روسيا وهناك أطلق لسانه بالانتقاد على الحكومة والف رسالة بعنوان « قول من رزق الله حسون يبرىء نفسه من الغلول » وذكر البعض أنه أنشأ جريدة في فرنسا لهذه الغاية وذلك غير ثبت الا ّ إذا كان قد أعاد نشر جريدة مرآة الاحوال . ثم توسط في أمره فقبلت الحكومة ان ترسل اليه أسرته أي زوجته وأولاده فلم يقبل الا بجميع مطاليبه منها فأوغر صدر السلطان عبد العزيز عليه . فطلب من الحكومة ان تمنعه عن التنديد بالدولة فلم يصخ لها سمعاً بل غادرها وحل لندن وأصدر فيها جريدته مرآة الاحوال وخصها بالشكوى من اعمال بعض موظفي الحكومة لعهده . وقد رأيت منها العدد السادس عشر بتاريخ ١٨ كانون الثاني سنة١٨٧٧م مكتوباً بخطه الجميل مطبوعاً على الحجر وفيه مقالات سياسية بليغة وكان يكتب فيها كثير من أدباء عصره ومواطنيه ولا سيما المرحومان جبرائيل الدلاّل وعبدالله المراش شقيق الشاعر الشهير فرنسيس مراش . وكان قد اصدر مجلة عربية عنوانها « رجوم وغساق الى فارس الشدياق » نشر منها عددين في لندن الاول في ٤ أيار سنة ١٨٦٨م في ١٤ صفحة صغيرة والثاني ٥ أيار سنة ١٨٦٨م . وذلك رداً على المرحوم احمد فارس الشدياق صاحب الجوائب على اثر ما حدث بينهما من الخصام الشديد وكانا يتناظران مناظرات موجعة شديدة اللهجة . وكان يبيع من مرآة الاحوال في سنتها الأولى في لندن ٤٥٠ نسخة .

ثم عطل مرآة الاحوال ونشر مجلة عربية طبعت في لندن سنة ١٨٧٩م كانت تصدر كل خمسة عشر يوماً مرة عنوانها « حل المسألتين الشرقية والمصرية » وهي أول مجلة عربية شعرية لانها كانت قصائد تبحث في هذه المواضيع فاجتمع منها مجلد بقطع ربع في أكثر من ثلاث مائة صفحة .

ثم انقطع بعد ذلك الى النسخ والاشتغال بتصحيح حروف الطباعة العربية في أوربا ومساعدة كثير من المستشرقين حتى بلغ ما استنسخه من نفائس الكتب اكثر من عشرين اهمها ديوان الاخطل وديوان ذي الرمة ونقائض جرير والفرزدق وصبح الأعشى في صناعة الانشا للقلقشندي والمتمم لابن درستويه والاناجيل المقدسة ترجمة ابي الغيث الدبسي الحلبي وديوان حاتم الطائي وهذا طبعه كما سيجيء ولا تزال بعض مخطوطاته فى مكاتب روسيا وفرنسا وانكلترا حيث كان يتردد بين هذه الممالك وجاء حلب قبل وفاته بسبع سنوات متنكراً فتفقد مكاتبها واستنسخ منها بعض الآثار النادرة ثم عاد الى انكلترا التي اتخذ معظم سكناه فيها ولا سيا قرية وندسورث حيث تفرغ لوضع كتبه وطبعها .

وعلى الجملة فان رزق الله حسون كان سياسياً حراً يرغب في اصلاح الدولة العثمانية ويذهب مذهب كبار احرارها كمدحت باشا واعوانه ولما ذهب مدحت باشا الى لندن قابله فيها وسرَّ به ولا صحة لما شاع من انه سعى في قتله .

أما منزلته الأدبية فان نثره من النمط العالي المتين وسجعه كثير ينحو فيه نحو الاقدمين . وشعره يدلُّ كثير منه على طبيعته ولكنه كان قليل التدقيق في الاوزان ومراعاة الاصول الصرفية والنحوية فيشبع الحروف التي لم يرد مسوّغ لاشباعها ويسكن ويحرّك ويختار القوافي الصعبة وهذا التكلف ظاهر

في كتابه «أشعر الشعر». ومع هذا فان بين قصائده فرائد بليغة المعنى فصيحة اللفظ متينة القوافي تعد من الطبقة العليا في الشعر. وقد خرج في بعض القصائد عن الطرق المألوفة فلم يتقيد بقافية كما ترى في كتابه « اشعر الشعر » وكثيراً ما يميل الى الألفاظ المهجورة. وبقي بين المحابر والاقلام نحو سنة ١٨٨٠م غريباً عن اسرته التي بقيت في الاستانة وولده البير الوحيد حيٌ الى اليوم فيها ولما شعر بدنو أجله نظم احتضاره (على اصح الروايات التي محصتها) بهذين البيتين:

قد قضى الله ان اموت غريباً ... في بلادٍ أساق كرهاً اليها
وبقلبي مخدرات معانٍ ... نزلت آيـــة الحجاب عليها

وقد اتقن فوق اللغات التي تلقنها في بزمار وبرع بها اللغة الانكليزية وألمّ بالروسية . واهم ما وصلت اليه يد البحث من مؤلفاته ومطبوعاته هو :

١ – النفثات: وهو قسمان أولهما في تعريب قصص كريلوف شاعر الصقالبة التي وضعها على طريقة بيدبا الهندي في كليلة ودمنـــة ولافونتين الفرنسي في خرافاته ولقمان في حكاياته وما شاكل . عربهـا نظماً في ٤١ قصة تقع في ٦٩ صفحة بقطع ربـع والحق بها نخبة من منظوماته من تواريخ وأوصاف ومدائح وشكوى وبينها قطعة عرّض فيها بالشيخ احمد فارس الشدياق حتى ان الشدياق لما انتهت اليه قال فيها عبارته الشهيرة « كان حسون لصاً وله سرقات فاصبح صلاً وله النفثات» وجميع هذا الكتاب يقع في ٨٤ صفحة وقدمـــه للمرحوم الأمير عبد القادر الجزائري نزيل دمشق وطبعه في لندن سنـــة ١٨٦٧ .

٢ – اشعر الشعر: وهو نظم سفر ايوب الصديق في ٧٤ صفحة بقطع ربـع فرغ منه في ٢٩ نيسان سنة ١٨٦٩ م وهو في وندسورث (انكلترا) . ثم نشيد موسى النبي . ثم سفر الجامعة ونشيد الانشاد لسليمان الحكيم ومراثي

ارميا النبي وهذه بدأ بنظمها في ٢٨ نيسان سنة ١٨٦٩م واتمها في ٣ ايار . والكتاب يقع جميعه في ١٣٦ صفحة وهو مطبوع في المطبعة الاميركية ببيروت سنة ١٨٧٠م ووضع في اوله مقدمة قال فيها أن ايوب وهوميروس وشكسبير اشعر الخلق . واشار الى نظمه سفر ايوب في ايام اعتقاله وانه نظم الفصل الثامن عشر منه على اسلوب الشعر القديم بلا قافية . وقد كتب بعض الفصل نثراً بليغاً وربما ابقى بين ما نظمه في بعضها فقرات نثرية . في اشعر الشعر من الركاكة والجوازات الشعرية ما يدل على اضطراب بال المؤلف حين نظمه وسرعة اعداد بعض الاسفار الأخرى فلم تمسه يـــد النقد ولا جال فيه خاطر التهذيب .

٣ — السيرة السيدية : وهو عبارة عن مزج الاناجيل الاربعـــة المعروفة بالبشائر . طبع بمطبعة الاميركان في بيروت في ١٩٠ صفحة .

٤ — رسالة مختصرة في الطباعة العربية والاقتصاد فيها مادياً ووقتاً وقد وجدت منها نسخة بخطه الجميل في مكتبة اسقفية الارثوذكس بحلب فاستنسختها سأنشرها قريباً لفوائدها .

٥ — ديوان حاتم الطائي المشهور بكرمه استنسخه عن نسخة قديمـة وطبعه في لندن سنة ١٨٧٢م في ٣٣ صفحة .

٦ — كتاب المشمرات : طبع في سانباولو من اعمال البرازيل سعت بطبعه إدارة جريدة المناظر منذ بضع سنوات .

٧ — حسر اللثام : وهو كتاب جدلي تمّ تأليفه سنة ١٨٥٩م ولا اظنه طبع. ولقد ذكر المترجم كثيرون من المستشرقين وآخرهم ثناء عليه المسيو كليان هوار الفرنسي في كتابه تاريخ آداب اللغة العربية وقد اقتصر على ذكر كتابه النفثات وجريدته مرآة الاحوال في لندن ولم يذكر نشأتها في الاستانة .

(المقتطف)　　　　　　عيسى اسكندر المعلوف

سائر رجال العلم والأدب

محمد علي باشا الحكيم

رئيس المدرسة الطبية المصرية وكبير جراحيها

هو السيد محمد علي بن السيد علي الفقيه البقلي بن السيد محمد الفقيه البقلي ولد في زاوية البقلي التابعة لمديرية المنوفية سنة ١٢٢٨ هـ ونشأ فيها حتى ترعرع فأدخله اهله مكتباً في تلك البلدة فتعلم مبادىء الكتابة وقرأ القرآن. فلما بلغ التاسعة من سنه جاء به احمدافندي البقلي الى القاهرة وادخله مدرسة ابي زعبل التي كان قد بناها المغفور له محمد علي باشا الكبير في قرية ابي زعبل وفيها مكتب ديواني فمكث فيه ثلاث سنين اتم فيها قراءة القرآن وتلقى بعض مبادي العلوم اللغوية فنقله الى المدرسة التجهيزية فمكث فيها ايضاً ثلاث سنين فأظهر من الذكاء والاجتهاد ما حبب به اساتذته لأنه كان ممتازاً عن سائر ابناء صفه راغباً في العلم فنقلوه الى مدرسة الطب وكانت تحت ادارة المرحوم كلوت بك محيي العلوم الطبية في الديار المصرية. ففاق أقرانه وظهرت فيه مخائل النجابة وحدة الذهن حتى اذا صدر امر محمد علي باشا بارسال نخبة من تلامذة تلك المدرسة الى باريس للتبحر في العلوم الطبية كان صاحب الترجمة في جملة المنتخبين وعددهم اثنا عشر شاباً وقد أتموا دراسة الفنون الطبية وفيهم من نال رتبة اليوزباشيه.



محمد علي باشا الحكيم
١٢٢٨ – ١٢٩٣ هـ.

وكان راتب السيد محمد علي عند سفرته هذه مئة وخمسين غرشاً فأوصى بخمسين منها لوالدته وأبقى لنفسه مئة . فدخل مدرسة باريس الطبية وبذل غاية جنهده في تحصيل علومها فنال حظاًوافراً من سائر علوم الطب والجراحة وشهد له أساتذته بالامتياز على سائر رفاقه مع انه كان أصغرهم سناً وما زالوا في تلك المدرسة حتى أتموا دروسهم وقدموا امتحاناتهم الشفاهيـــة ولم يبق عليهم إلا الامتحان الخطي وهو عبـارة عن تأليف رسالة في الطب يقترحها عليهم الاساتذة فوردت عليهم الاوامر بالعود الى مصر فعادوا فإذا بذلك الامر قد صدر لهم سهواً بغير علم العزيز فأمر بعودتهم الى باريس لإتمـــام الامتحان ونيل الشهادة الطبية فعادوا اليها فامتحنوهم خطياً فألف المترجم رسالة طبية في الرمد الصديدي المصري وقعت وقعاًحسناً لدى اساتذته فمنحوه

الشهادة وعاد الى مصر سنة ١٢٥٣ هـ وكانت شهرته قد سبقته اليها فتمين حال وصوله باش جراح واستاذاً للعمليات الجراحية الكبرى والصغرى والتشريح الجراحي وأنعم عليــه محمد علي باشا إذ ذاك برتبة صاغقول آغاسي ولم تمض مدة حتى نال رتبة بكباشي .

فلما كانت ولاية المغفور له عباس باشا الاول حصلت بينه وبين بعض أطباء المستشفى الاوربي منافسة فأمر بنقله الى ثمن قوصون من أثمان القاهرة ليتولى التطبيب فيه على نفقة الحكومة وكان قد ذاع صيته بين الناس فتحول المرضى من مستشفى قصر العيني الى ثمن قوصون وزاد اشتهاره بالفنون الطبية وخصوصاً الجراحة وما زال يطبب في ذلك الثمن خمس سنين متوالية فأنعم عليــه برتبة قائمقــام وتعين رئيساً لأطباء الآلايات السعيدية . ولكنه لم يمكث في ذلك المنصب إلا قليــلاً فاعتزل المناصب ولزم منزله سنة ثم تعين رئيساً لجراحي قصر العيني واستاذاً للجراحة ووكيلاً للمستشفى والمدرسة الطبية فقــام بمهام أعماله حق القيام فأنعم عليه برتبة اميرالاي . وكان ذلك في عهد المغفور له سعيد باشا فقربه منه وجعله حكيمه الخاص وأدخله في معيته مع بقــائه في مناصبه المشار إليها ثم أحسن إليه برتبة المتمايز فلما سافر سعيد باشا الى أوربا سار صاحب الترجمة في معيته .

ولما توفي سعيد باشا وتولى المغفور له اسماعيل باشا الخديوي الأسبق تعين المترجم رئيساً للمستشفى والمدرسة الطبية . وفي سنة ١٢٩٠ هـ نال الرتبــة الاولى من الصنف الثاني ، وفي آخر سنة ١٢٩٢هـ لزم بيته وانقطع عن الاعمال ولم يعلم سبب ذلك . فلما كانت الحرب بين مصر والحبشة سار رحمه الله في الحملة المصرية التي سافرت الى الحبشة برفقــة المرحوم البرنس حسن باشا عم الجناب الخديوي فخدم الجنود المصرية هناك خدماً يذكرها له العارفون ولكن

أجله عاجله في الحبشة فتوفي هناك سنة ١٢٩٣ هـ (سنة ١٨٧٧ م) ولم يعلم أحد مكان ضريحه . على أن لهم في ذلك أقوالاً مختلفة نذكر منها رواية كتب بها إلينا حضرة مصطفى افندي صبري قومندان حملة طوكر في ذيل كتاب اقترح فيه نشر ترجمة صاحب الترجمة وهاك نصها قال :

« ومما يهمني ذكره ليطلع عليه أبناء وطني أنه بلغني من بعض الأحباش ان الفقيد تغمده الله برحمته ورضوانه قد أقيم له قبر بالحبشة ببلدة تسمى جراع ما بين عدوى وأسمرة إلا انها أقرب الى هذه من تلك وقد شيدوا فوق القبر قبة عظيمة يزوره فيها الأحباش على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم ويقيمون له الدعوات وليس ذلك إلا تعظيماً له وتخليداً لذكره مع علمهم بأنه كان في مدة حياته سفاكاً لدمائهم راغباً في سلب أملاكهم وإن يكن في ذلك مأموراً لا آمراً . وهي خدمة يستحق عليها أهل الحبشة الشكر والثناء لقيامهم بواجب قصر عنه أبناء جنسه وخصوصاً الذين ارتشفوا من بحر علومه » .

وكان رحمه الله حائزاً للنيشان المجيدي من الرتبة الثالثة ناله مكافأة لما بذله من الجهد واظهره من الشهامة في حوادث الهواء الأصفر سنة ١٨٦٥ م وله في الطب مؤلفات حسنة منها كتاب في العمليات الجراحية الكبرى وضعه في اللغة العربية في مجلدين وسماه « غاية الفلاح في أعمال الجرّاح » وكتاب في الجراحة ايضاً في ثلاثة أجزاء وباشر تأليف قانون في الطب وقانون في الالفاظ الشرعية والمصطلحات السياسية ولم يمهله الاجل لاتمامها .

وكان محباً لوطنه راغباً في ترقية شأنه عاملاً على بث العلوم والمعارف بين ابنائه غيوراً على الفقراء طويل الاناة في معالجتهم لا يلتمس على ذلك اجراً . ومما يذكره له العارفون ان معظم اساتذة الطب ومن تولى رئاسة المدرسة

الطبية بعده هم من تلامذته وقد سمعنا الثناء عليه من جماعة كبيرة من الاطباء المصريين وغيرهم وامتدحوا مهارته بنوع خاص في الفنون الجراحية . وقد أعقب أولاداً نجباء عرفنا منهم الدكتور احمد باشا حمدي .

ماريت باشا

مؤسس المتحف المصري

الآثار المصرية :

ما برحت مصر منذ أجيال متطاولة مطمحاً لانظار الرواد والمستطلعين من سائر الأمم والشعوب على اختلاف الزمان والمكان ينظرون في آثارها ويعجبون لما خلفه الفراعنة من الهياكل والاهرام والمدافن والأصنام مما يستوقف الطرف ويبهر العقل ولم يكد يقوم مؤرخ عمومي قبل المسيح أو بعده إلا ذكر آثار المصريين واعجب بضخامتها وبعد عهدها . وأشهر هؤلاء المؤرخين هيرودوتس واسترابون وغيرهما من مؤرخي اليونان والرومان. أما العرب فقد ذكرها كثيرون منهم كالمسعودي وابن الاثير وابن خلدون وعبد اللطيف البغدادي ولكن هذا الاخير جاء الديار المصرية بنفسه في القرن السادس للهجرة فتفقد تلك الآثار وافاض في وصفها واكثر من الاعجاب بضخامتها ودقة صنعها مما تراه مفصلاً في كتابه « الافادة والاعتبار » ناهيك بمن كان يتقاطر اليها من جالية الافرنج في القرون الاخيرة وخصوصاً بعد أن وطئها نابوليون بونابرت .

ويري الناظر في ما كتبه هؤلاء انها كانت في اقدم الازمنة اكثر عدداً واكبر مساحة مما هي عليه الآن وان الدول التي توالت على مصر بعد الفراعنة كانت تستخدم كثيراً من احجارها في ما بنته من القصور والكنائس والجوامع حتى كثيراً ما تعمدوا هدمها لغير نفع يرجونه من انقاضها كما فعل الملك العزيز بن السلطان صلاح الدين فامر بهدم الاهرام العظمى بدأ بالصغير منها فاخرج اليه النقابين والحجارين قضوا ثمانية اشهر يعملون بكرة واصيلاً فلم يهدموا الا جزءاً صغيراً فكفوُا عن العمل .

ومن هذا القبيل ما فعله بهاء الدين قراقوش وزير السلطان صلاح الدين فانه نقل كثيراً من انقاض الاهرام وغيرها فبنى بها سوراً يحيط بالفسطاط والقاهرة .

وبالجملة فقد كانت تلك الآثار عرضة للهدم والنقب اجيالاً متوالية . فضلاً عما كان يأتيه عامة المصريين وغيرهم من التنقيب عن الكنوز والمطالب فيفتحون القبور يستخرجون منها الذهب والفضة والآنية من النحاس وغيره وكثيراً ما كانوا يبيعون قطع المومياء والمحنطات الاخرى بيعاً بخساً . . وقد ذكر البغدادي ما يؤيد ذلك بقوله « واما ما يوجد في اجوافهم وادمغتهم مما يسمونه مومياء فكثير جداً يجلبه اهل الريف الى المدينة ويباع بالشيء النذر ولقد اشتريت ثلاثة ارؤس مملوءة منه بنصف درهم مصري واراني بائع جواليق مملوءاً من ذلك وكان فيه الصدر والبطن وحشوه الخ » .

وناهيك بما كان يتعمده بعضهم من السرقة والنهب واكثر ما سرق منها في هذا القرن على اثر انتباه الافرنج لحفظ الآثار فكانت فرنسا او انكلترا او غيرهما تبعث بالنقابين على نفقاتها يستخرجون ما في جوف الهيا كل من التماثيل

او المومياء او المصاغ او غيره فيحملونه الى متاحفهم او معارضهم . واول من نبه الاذهان الى ذلك اللجنة العلمية التي رافقت حملة بونابرت ولم يكن يهم الافرنج قبل ذلك من الآثار الا ما يتعلق منها بصناعة البناء كالاهرام وابي الهول ونحوها لجهلهم الكتابة الهيروغليفية وقد كانوا يظنونها رسوماً لا معنى لها حتى اتيح لشامبليون حـل رموزها فعرف النـاس قدر تلك الآثار فتسابقت دول اوروبا الى احرازها لا يدخرون وسعاً في ذلك ولو استطاعوا حمل الاهرام والهيا كل لنقلوها. واذا زرت متحف لندرا او باريس او غيرهما الآن رأيت فيها الآثار المصرية شيئاً كثيراً وفيه ما لو بيع لجاء بالملايين من الجنيهات . وما زالت الحال على ما تقـدم حتى تولى المغفور له محمد علي باشا فانتبه في اواخر حكمه الى مـا يترتب على ذلك من الخسائر الفادحة فاصدر امراً بمنع الافرنج من حمل هذه الآثار الى بلادهم على انهم كانوا يحملونها خلسة فقيض لهـا الله المرحوم مارييت باشا فجمع ما بقي من شتاتها في بناء سماه المتحف المصري كما سيجيء .

مارييت باشا :

هو فرانسوا اوغست فردينان مارييت ولد في بولون سيرمير من اعمـال فرنسا في ١١ فبراير سنة ١٨٢١ م وكان ابوه رئيساً في بعض دوائر الحكومة فكان يجب ان ينشأ مارييت مرشحاً لمثل هذه الخدمة ولكنـه نشأ ميالاً الى الاسفار محبّاً للاكتشاف منذ نعومة أظفاره فاتفق له قبل ان يدرك الحلم انه دخل دهليزاً تحت الارض في بولون لا يعرف آخره فحدثته نفسه ان يتتبعه الى آخره فما زال سائراً حتى خرج من طرفه الآخر .

وكانت عائلته في ضيق من دنياها فأسرع في العمل لمساعدتها فتعين سنـة



ماريت باشا

١٨٢١ - ١٨٨٠ م

١٨٣٩م معلماً للرسم واللغة الفرنساوية في مدرسة استرافورد بانكلترا وهو لم يتم دروسه بعد فنمت فيه موهبة الرسم العملي ولكن ميله الى العلم تغلب عليه فعاد الى بولون لنيل رتبة البكلورية ونظراً لضيق ذات يده اضطر لمعاطاة مهنة التعليم لتحصيل ما يقوم بنفقات التعلم . ولكنه ملّ هذه المهنة ولم تعد نفسه تطيق الاعراب والنحو وطمحت انظاره نحو العلى فأحب صناعة الكتابة فتولى تحرير جريدة فرنساوية اسمها الشارح البولوني (Annotateur Boulonnais) فاشتهر بحسن الاسلوب في الإنشاء .

وكان الرحالة المسيو دينون رفيق حملة بونابرت الى مصر قد اهدى الى متحف بولون سنة ١٨٤٧ م تابوتاً مصرياً فيه مومياء فاتفق لماربيت أنه رأى ما على التابوت من الصور الهيروغليفية فتاقت نفسه الى حل رموزها فاستمان بكتابين لشامبليون احدهما في نحو اللغة الهيروغليفية والآخر معجم لحل الفاظها فوفق الى فهم بعض تلك الرموز فشعر بلذة حببت اليه لغة الهيروغليف فما برح من ذلك الحين يتردد الى المتحف يقضي أوقاته بين الآثار المصرية حتى تمكن من تلك اللغة فلم يعد يقنعه غير الشخوص الى مصر . فعرض على نظارة المعارف الفرنساوية ان تعينه في مهمة يسير بها الى وادي النيل للبحث في آثارها فأبت . فالتمس ان تأذن له بالمسير على ان لا يكلفها إلا نفقة السفر فلم ترضَ . فاستأذنها في الذهاب الى باريس برخصة فأذنت له فسافر وانقطع الى متحف اللوفر يقرأ ما فيه من الآثار المصرية . ثم كانت ثورة سنة ١٨٤٨ م فتضعضعت الاحوال وانقطع راتبه فتوسط له بعض اصدقائه بمنصب صغير في متحف اللوفر تمكن بواسطته من التبحر في اللغة الهيروغليفية والف كتاباً يتعلق بالكتب القبطية .

واتفق سنة ١٨٥٠م ان الانكليز انفذوا الى مصر وفداً لغوياً يبحث في مكاتب الديور المصرية عن الكتابات القبطية القديمة فعثروا في دير بوادي النطرون على أوراق كثيرة أرسلوها الى لندرا . فاقتدى الفرنساويون بهم وكانوا انما يرجون بابحاثهم هذه الوقوف على حقائق جديدة تتعلق بتاريخ اليونان . وكان ماربيت قد اشتهر بينهم بمعرفة هذه اللغة فعينوه في هذه المهمة براتب مقداره ثمانية آلاف فرنك فسافر في ٤ سبتمبر سنة ١٨٥٠ م حتى جاء القاهرة فرأى أنه لا يستطيع الذهاب الى ذلك الدير أو غيره إلا بوصية من البطريرك وكان البطريرك قد غضب من تصرف الوفد الانكليزي لانهم حملوا

ما حملوه من الكتب القبطية جبراً . وبعد السعي والالتماس رضي ان يكتب لماريبيت كتاب توصية باسم رئيس دير الانبامقـار . على ان ماريبيت لم يكن يرجو الحصول على ذلك الكتاب قبل مضي ١٥ يوماً . فلكي لا يضيع الفرصة عمد الى تعهد مشاهد القاهرة فسار الى القلعة . وكان ذهابه اليها سبباً لتغيير عظيم في مستقبل حياته لانه اشرف من سورها على ضواحي العاصمـة فرأى أهرام الجيزة وأهرام سقارة فتاقت نفسه الى زيارتها وقد نسي ما جـاء من اجله فركب الى سقارة وتوغل في صحرائها يتوقع العثور على آثار مهمة لقربها من انقاض منف العظمى فوقف يتفرس في تلك الرمال القاحلة فرأى فيهـا حجراً ناتئاً يشبه رأس الانسان فتأمله فاذا هو رأس أبي هول . وكان قد شاهد أمثال هذا التمثال قبلاً فلم يهمه ذلك الاكتشاف لغرابتـه ولكنه توسم منه خيراً لما سبق الى ذهنه مما قرأه في استرابون عن آثار منف . وكان استرابون قد زارها في القرن الاول للميلاد فكتب عنها ما ترجمته « ورأينـا هناك هيكل سرابيوم (Serapium) فإذا هو قائم في بقعة مغمورة برمال تقذفها الرياح عن اكمات هناك ورأينا تماثيل ابي الهول عند زيارتنا هذه مغطاة بالرمال الا بعضها لا تزال رؤوسها ظاهرة وبعضاً آخر رأينا نصف أبدانهـا مكشوفة فتمثل لنا المشقة الذي كان المصريون القدماء يقاسونهـا في طريقهم الى هذا الهيكل من شدة العواصف » .

وكان من عادة المصريين القدماء ان يجعلوا أمام هياكلهم صفين من هـذه التماثيل يسير الناس بينها الى الهيكل . فتحقق ماريبيت ان رأس التمثال الذي رآه سيهديه الى ذلك الهيكل فبحث في غربيه فعثر على تمثال آخر فما زال يتتبع بحثه حتى اكتشف ١٣٤ تمثالاً . ولما وصل الى المئة والخامس والثلاثون آنس بالقرب منه منحدراً فكشف ما فيه من التماثيل حتى انتهى الى التمثال المئة

والحادي والاربعين فوصل الى قنطرة عليها اشباه بعض آلهة اليونان وفلاسفتهم فواصل النقب من جهة اليمين فانتهى الى دهليز استطرق منه الى أروقة تحت الأرض عثر في أوائلها على تماثيل أسود وعجول وغيرها فرقص قلبه طرباً وتحقق انه عثر بضالته. والهيكل المشار اليه لا يزال مقصداً للرواد والمستطلعين الى اليوم ويعرف بمدافن سقاره. وكان محمد علي باشا كما قدمنا قد منع الافرنج وغيرهم من النقب عن الآثار فلما توفي اغفل ذلك المنع وعاد الباقون الى أعمالهم.

فلما اكتشف ماريبت هذا الهيكل العظيم اتصل خبره بمدير الجيزة فابلغه الى عباس باشا الاول والي مصر اذ ذاك فبعث الى ماريبت أن يكف عن العمل ويتخلى عما اكتشفه من التحف فاجاب أن الجواب على ذلك من متعلقات قنصل فرنسا فاغضى عباس باشا عن المطالبة ولكن العملة الذين كان يستخدمهم ماريبت في الحفر تقاعدوا عن العمل بايعاز المدير فتوقف الحفر شهراً.

وبلغ خبر هذا الاكتشاف مسامع حكومة فرنسا فنسيت الكتب القبطية والبحث عنها وبذلت لماريبت ٣٠،٠٠٠ فرنك اخرى تنفق في سبيل نقل هذه التحف الى باريس سراً. فبلغ الخبر مسامع الحكومة المصرية فارسلت مندوباً يستطلع تلك المكتشفات ويلقي الحجز عليها. والمظنون أن انكلترا هي التي حرضت الحكومة على ذلك غيرة وحسداً وبلغ عدد المكتشفات ٥١٣ قطعة بين تماثيل ومومياء وغيرها. فابى ماريبت تسليمها الا بأمر من حكومته فكتب اسطفان بك بالنيابة عن عباس باشا كتاباً الى ماريبت يقول له فيه « ان الحكومة المصرية لم تسكت عما اجراه من النقب الا لاتفاقها مع قنصل فرنسا بان تبقى التحف المكتشفة ملكاً لها » فبقي ماريبت على اصراره ودارت المداولة بهذا الشأن بين الحكومتين المصرية والفرنساوية حتى انتهت على الشروط الآتية (١) أن تتخلى الحكومة المصرية عما اكتشف من الآثار

الى ذلك الحين لجمهورية فرنسا (٢) أن يتوقف النقب موقتاً (٣) أن يباح للحكومة الفرنساوية العود اليه على أن يكون مـــا تكتشفه بعد ذلك ملكاً لمصر .

وبناء على ذلك عاد مارييت الى العمل فاكتشف من التماثيل والتحف ما يعجز القلم عن تعداده فضلاً عن وصفه فقد كان هذا المدفن العجيب مملوءاً بالآثار الثمينة وفيها الذهب والحجارة الكريمة مما يطول شرحه وكثيراً ما كان مارييت يبيع من تلك المثمنات بما يساعده على نفقات الحفر .

ولما فرغ من كشف هيكل السرابيوم تذكر كلاماً قرأه في كتاب بلينيوس بشأن ابي الهول الاكبر قرب اهرام الجيزة مآله أن في جوف هذا التمثال قبراً للملك هرمكيس وكان مارييت مرتاباً مما قرأه لاعتقاده أن ابا الهول حجر منحوت لا جوف له فلاح له أن يكون ذلك القبر في جواره فسار الى ابي الهول واخذ ينقب ويبحث حوله فعثر على آثار كثيرة في جملتها هيكل يعرف بالكنيسة وهو اقدم الهياكل المصرية .

وفي سنة ١٨١٤م عـــاد مارييت الى فرنسا بسبعة آلاف قطعة من الاثار المصرية على اختلاف الاشكال والاقدار . مع أن العدد الذي وهبته الحكومة المصرية لفرنسا بموجب ذلك الاتفاق لا يزيد على ١١٣ ولكن سرقة آثار المشرق حلال في شرع اهل المغرب . ولا تزل هذه التحف في متحف اللوفر بباريس الى هذه الغاية .

وفي تلك السنة توفي المغفور له عباس باشا الاول وخلفه عمه سعيد باشا وكان بينه وبين الموسيو دلسبس الشهير صداقة قديمـة سهلت له الوصول الى

مشروع قنال السويس . فلما تمّ حفر هذا القنال كثر مرور الافرنج بوادي النيل فكانوا يتوغلون احياناً في انحاء القطر واكثرهم من الانكليز فيحملون ما تصل اليه ايديهم من الاثار فسعى دلسبس في وسيلة تحفظ تلك الآثار في مصر ولا نظنه فعل ذلك لمجرد رغبته في مصلحة مصر ولكنه اراد الكيد بالانكليز . وشاع في اثناء ذلك عزم برنس نابوليون على زيارة مصر فتداول سعيد باشا ودلسبس في استقدام رجل عالم بالآثار يصلح لمرافقة البرنس في تجواله فوقع الاختيار على ماربيت فجاء مصر وقد اطلق له التصرف في آثارها كما يشاء فجدّ في العمل لا يخاف رقيباً ولا يخشى حرجاً .

فكان يقضي معظم ايامه في الصحاري لا سمير له الا الرمال ولا انيس الا الاحجار فاكتشف آثاراً كثيرة في سقارة وما جاورها ثم انتقل الى الصعيد فارتاد الكرنك وأبو وأبيدوس ودندره . ونزل الى مصر السفلى فنقب عن آثار الرعاة في صان وغيرها . فأنعم عليه سعيد باشا في اواخر سنة١٨٥٧م بالرتبة الثانية .

ولم يكتف ماربيت باكتشاف تلك الاثار فاخذ يسعى في حفظها لمصر بعد ان كان في المرة الماضية يجاهد في حملها الى باريس ولكنه من الجهة الاخرى سعى في تقوية نفوذ الفرنساويين في مصر فخاطب دلسبس بذلك فحببا الى سعيد باشا السفر الى فرنسا على سبيل الزيارة فسار اليها في خريف سنة ١٨٦٢م ولما عاد من سفرته هذه رقي ماربيت الى رتبة المتمايز وزاد راتبه .

المتحف المصري :

وفي سنة ١٨٦٣م توفي سعيد باشا وخلفه اسماعيل فثبت ماربيت في منصبه وامره ببناء متحف مصري في ساحة الازبكية يكون وسطاً يسهل تردد

الناس اليه فيدخر فيه الاثار اليونانية والعربية الاسلامية فضلاً عن المصرية . فسر ماريت بذلك ولكنه لم يكد يشرع فيه حتى ورد على اسماعيل باشا من الاستانة أن ساكن الجنان السلطان عبد العزيز عازم على زيارة وادي النيل قريباً فاشتغل عن بناء المتحف باعداد معدات الاستقبال وامر أن تجعل الاثار المصرية في بناء يليق بها ليشاهدها السلطان ريثما يتيسر بناء المتحف في فرصة اخرى . فوضعوها في بناء رحب على ضفة النيل في بولاق . وفي تلك السنة زار الديار المصرية البرنس نابوليون فرافقه ماريت الى جزيرة اصوان ولما عاد برنس نابوليون عاد ماريت الى متحفه وعمل على ترتيبه وعول على الاقامة في مصر فاستقدم اهله واولاده . وفي سنة ١٨٦٧م انشأت فرنسا معرضاً عاماً للاثار القديمة جعلت فيه نصيباً لمصر فنالت قصب السبق بتدبير ماريت وانعمت فرنسا عليه برتبة كومندور .

وفي سنة ١٨٩٦م احتفل الخديوي اسماعيل بفتح قنال السويس احتفالاً دعا اليه ملوك اوربا أو من ينوب عنهم وكان في جملة ما اعده لهم من دواعي الاحتفـــاء متحف الاثار فاهتم ماريت بذلك كثيراً وكتب كتاباً يساعد المشاهدين على فهم الاثار فسر الخديوي منه فانعم على ابنتيه بمئة الف فرنك تقتسمانها بينهما واهدته الحكومة الفرنساوية ٣٠،٠٠٠ فرنك مكافأة على مؤلفاته وكان قد ألف بعضاً منها فازداد نشاطاً فألف كتباً أخرى وكان يتردد كل عام تقريباً الى فرنسا لتبديل الهواء أو طبع الكتب وفي سنة ١٨٧٩م أُقيل اسماعيل باشا وخلفه توفيق باشا فانعم على ماريت برتبة لواء مع لقب باشا وما زال عاملاً مجتهداً حتى وافاه الله في اواخر عـــام ١٨٨٠م ودفن في متحف بولاق .

وظل المتحف المصري في بولاق حتى نقلته الحكومة المصرية الى سراي

الجيزة مذ بضع عشرة سنة ثم اهتمت بارجاعه الى القاهرة تسهيلاً للوصول اليه فقررت سنة ١٨٩٣م بناء متحف جديد بجوار قصر النيل وشرعت في بنائـه سنة ١٨٩٧م وتم البناء سنة ١٩٠٢م واحتفلوا بافتتاحه رسمياً في ١٥ نوفمبر منها .

مؤلفاتـه :

ألف ماريبت باشا مؤلفات كثيرة بالفرنساوية يزيد عددهم على ٦٣ بين صغير وكبير بعضها طبع على حـــدة وبعضها نشر في الجرائد العلمية في اوربا اهمها :

(١) سرابيوم منف (٢) جــدول سقارة (٣) ملخص تاريخ مصر من اقدام أزمانها الى فتوح الاسلام (٤) زيارة متحف بولاق (٥) ابيدوس وهو كتاب في ٣ مجلدات (٦) وصف هيكل دندره الكبير طبع في ٥ مجلدات أو ٦ (٧) اطلس متحف بولاق (٨) مصر العليـــا (٩) ملاحظات (١٠) وصف هيكل الكرنك وتاريخه (١١) الدير البحري (١٢) سياحة في مصر العليا وغير ذلك شيء كثير .

السيد صالح مجدي بك

هو من نوابــغ أواسط القرن الماضي الذين ارتقوا بذكائهم ونشاطهم الى مناصب الحكومة ونبغوا في النظم والانشاء والترجمة وكان ذلك صعباً نادراً قبل النهضة الاخيرة .



السيد صالح مجدي بك

١٢٤٢ هـ - ١٢٩٨ هـ

ولد السيد صالح في أبي رجوان من مديريـة الجيزة سنة ١٢٤٢ للهجرة وتلقى مبادىء العلم في مدرسة حلوان الأميرية . ثم انتقل الى مدرسة الألسن وناظرها يومئذ المرحوم رفاعة بك الطهطاوي الشهير فآنس فيه اساتذته ذكاء ونباهة فالحقوه بقلم الترجمة . ورقي لرتبة الملازم وهو لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره ثم انتقل الى مدرسة المهندسخانة الخديوية يتولى تدريس اللغتين العربية والفرنساوية فيها . وكانت كتب التدريس في العلوم الرياضيـة يومئذ لا يزال معظمها في اللغة الفرنساوية فعهدوا الى صاحب الترجمـة نقلها الى اللسان العربي فنقل منها كتباً جمة لا تزال ينتفع بها الى اليوم منها كتاب في الطبوغرافية والجيولوجية وكتاب في الميكانيكيات النظرية وآخر في الميكانيكيات العلمية وآخر في حساب الآلات وكتب في الطبيعة والهندسة الوصفية وكلها مطبوعة

فضلاً عن كتاب في حفر الآبار ورسالة في الارصاد الفلكية تأليف أرجو الشهير لم تطبع والف كتباً أخرى .

وفي سنة ١٢٧١ م أحيل الى آلاي المهندسين والكبورجية وقد ترقى الى رتبة يوزباشي وتولى رئاسة الترجمة وتصحيح ما يعرب من الفنون العسكرية وجعل يرتقي في مناصب الحكومة بجده واستحقاقه حتى صار سنة ١٢٧٧ ﻫ ناظراً لقلم الترجمة بقلعة الجبل وهو مع ذلك يلاحظ طبع الكتب العسكرية. ولما تولى المغفور له اسماعيل باشا أعجبه ذكاؤه ونشاطه فرقاه الى الرتبة الثالثة وعينه في قلم الترجمة بالمعية السنية . ثم انتقل الى ديوان المعاونة فالداخلية ثم الى ديوان المدارس وتعين سنة ١٢٨٦ﻫ مأمور إدارة المدارس . وفي سنة ١٢٦٨ﻫ انعم عليه بالرتبة الثانية وفي سنة ١٢٩٠ﻫ الغيت إدارة المدارس فاعتزل الاعمال . وتشكلت المحاكم المختلطة بمصر سنة ١٢٩٢ﻫ فتعين قاضياً بمحكمة القاهرة وما زال في هذا المنصب حتى توفاه الله في ١٦ ذي الحجة سنة ١٢٩٨ﻫ (١٨٨١م) .

وكان شاعراً مطبوعاً جمعت أشعاره في ديوان كبير طبع في المطبعة الاميرية سنة ١٣١٢ﻫ مصدراً بترجمة له مطولة اخذنا عنها معظم ما ذكرناه عنه . وكان ميالاً الى الانشاء فلم تخل جريدة من جرائد تلك الأيام من مقالات بقلمه أو قصائد من نظمه كالوقائع المصرية وروضة المدارس والجوائب .

ومما نقله الى اللسان العربي من المؤلفات الرياضية غير التي تقدم ذكرها كتاب في الحساب وآخر في الجبر وآخر تطبيق الجبر على الأعمال الهندسية وآخر في المثلثات وغيرها . وكانت هذه الكتب لا تزال الى عهد قريب معتمد المدارس الاميرية في تدريس هذه الفنون . وقد عرَّب وهو في

آلاي المهندسين كثيراً من كتب الفنون العسكرية منها كتاب الترع والانهر وكتاب ميادين الحصون والقلاع ورمي القنابر باليد والمقلاع وكتاب استكشافات عمومية وكتاب استحكامات خفيفة وكلها مطبوعة . وكتاب تذكار ضباط المهندسين وكتاب استحكامات قوية . ومن معرباته كتاب تذكير المرسل بتحرير المفصل والمجمل.واشترك في ترجمة قوانين فرنسا (كودنابوليون) وترجم كتباً أخرى ونشر رسائل شتى في مواضيع مخلفة واشترك في تحرير جريدة روضة المدارس التي انشأهاالمرحوم علي باشا مبارك واتحد مع علي باشا المذكور في تأليف تاريخ عام مطول للديار المصريةفألفا منه ما يتعلق بالفراعنة والاكاسرة والبطالسة والرومانيين حتى انتهيا الى فتوح الاسلام وتجاوزاه الى سنة ١٦٠ بعد الفتح فبلغ ما كتباه منه نحو ٤٠٠ كراس وتوفي صاحب الترجمة والكتاب بين أوراق المرحوم علي باشا مبارك لا ندري ما آل اليه الأمر بعد وفاة علي باشا .

ويقال بالاجمال ان صالح مجدي بك كان من رجال العلم الذين خدموا آداب اللغة العربية بترجمة الكتب الرياضية والعسكرية فضلاً عن قريحته الشعرية فان صفحات ديوانه المطبوع ٤٣٠ صفحة كبيرة تدل على طول باعه في النظم . واطلعنا مؤخراً على كتاب فيه مقالات أدبية من انشاء صاحب الترجمة كانت تنشر في جريدة روضة المدارس قبل يومئذٍ ان فيها تعريضاً ببعض رجال ذلك العهد فمنع نشرها . فعني بجمعها نجله محمد مجدي بك القاضي بمحكمة الاستئناف بمصر وطبعها في المطبعة الاميرية .

سليم بسترس

ان عائلة بسترس من أشهر عائلات سوريا غنىً ووجاهة وقد نبغ منهم جماعة اشتهروا بالذكاء والاقدام والمهارة في الشؤون التجارية نذكر اليوم ترجمة احدهم المرحوم سليم بسترس بن موسى بسترس من نوابغ أواسط القرن الماضي. ومما دعانا الى نشر ترجمة هذا الرجل بنوع خاص انه كان على غناه ووجاهته ميالاً الى العلم راغباً في اكتسابه ونشره . وذلك نادر في بلادنا فهو يجدر أن يكون مثالاً لاهل اليسار وفيهم من يحسب العلم مهنة الفقراء واذا قيل لهم تعلموا قالوا وما ينفعنا العلم ونحن لا نحتاج الى كسب — كأن العلم والغنى لا يتفقان . وهي اوهام تقادم عهدها وآن لنا ان ننزعها وما من عاقل الا وهو يعلم ان العلم زينة الغنى ودعامة التمدن وأكليل الملوك بل هو نور العالم ودليل الاصلاح .

فنرجو ان تكون ترجمة سليم بسترس قدوة لهم حسنة واليك هي :

هو سليم بسترس بن موسى بسترس ولد في بيروت في ٢٩ من شهر آب (أوغسطس) سنة ١٨٣٩م وكان الولد الذكر الوحيد لوالده موسى بسترس . وكان موسى عين قومه ورئيس أسرته ومؤسس اتحادها . وكان ولده كثير الحسنات رحب الصدر ممتازاً بمحامد الصفات توفي مأسوفاً عليه سنة ١٨٥٠م فتربى ولده سليم في حجر والدته فقامت بتهذيب اخلاقه ولم يلبث ان حصل المعارف والآداب العربية وأحرز بعض اللغات الأجنبية وكان له شعر رقيق . وكانت أحوال أوروبا في فتوته مجهولة لدى السواد الاعظم في سورية فسافر اليها سنة ١٨٥٥م وجاب بعض ممالكها والف في رحلته كتاباً مفيداً سماه



سليم بسترس
١٨٣٩ م – ١٨٨٣ م

الرحلة السليمية حرض فيه أبناء وطنه على طلب أسباب تقدم أوروبا وضمنه كثيراً من النصائح والحكم ومما قاله في تقدم الأمم . « انه يكون بالاتحاد والتعاضد والاجتهاد وبتغيير عناصر التعصب واتباع السنن العمومية إذ هي مفتاح الترقي وان افراد الرجال هم الذين يبثون الآراء الصحيحة بين الناس بكتاباتهم وكلامهم وقدوتهم » . وقد عرّب عدة روايات قصد بها استصلاح العادات وبث الآراء الصحيحة والاحتفاظ بالآداب جعلها أقاصيص يصبو الناس الى مطالعتها .

وسنة ١٨٦٠م استوطن الاسكندرية قصد الاتجار . وسافر سنة ١٨٦٦م ثانية الى أوروبا وانشأ بيتاً تجارياً في ليفربول ثم جاء بيروت سنة ١٨٦٩م لزيارة أهله وخلانه ولما عاد الى انكلترا انتقل بيته التجاري الى لندن .

وسنة ١٨٧٢م قــدم بيروت زائراً في أول أيلول (سبتمبر) سنة ١٨٧٤م زفت اليه في مدينة لندن ادمـا ابنة ابن عمه حبيب جرجس بسترس فرزق منها ولدين البكر اسكندر موسى عرابه القيصر اسكندر الثـاني امبراطور روسيا الأسبق . والثاني فلديمير عرابـه القيصر اسكندر الثالث والد القيصر الحالي . وهي حظوة يستدل بها على ما كان له من المكانة في البلاط الروسي .

وكان يهب جمعيات الاحسان الخيرية في سورية وانـكلترا وغيرها من ممالك أوروبا . وكان عضواً في جملة جمعيات منها جمعية الملجـأ ببطرسبرج وجمعية القديس يوحنا الاورشليمي في لندن فقلدته وسامها المخصوص ومنحته لقرينته بعد وفاته وقد أحرز شهرة حسنة في سورية وبلاد الانـكليز .

كان صادقاً كريماً معروفاً بالفضل والنبل وسعة المعارف فنــال الوسام المجيدي العالي الشأن من العواطف الشاهانية ومنحه امبراطور روسيا وسام سنت آن (القديسة حنـة) الثالث ووسام الصليب الاحمر ووسام سان ستانسلاس الثاني وكانت وفاته بعلة القلب في مصيفه في فلكستن قربُ لندن في ٣ شباط (فبراير) سنة ١٨٨٣م وقــد نقلت جثته الى بيروت فدفن فيها سنة ١٨٨٥م .

وقد عني بعضهم في جمع مراثيــه وأقوال الجرائد فيه وصور الرسائل العديدة التي كانت ترد عليه من وزراء الروس وحجاب الامبراطور الروسي وطبعها في كتاب يسمى صدى الحسرات طبع في بيروت في مطبعـة القديس جاورجيوس سنة ١٨٨٥م فلتراجع فيه وله ديوان شعر اسمه انيس الجليس .

محمود باشا الفلكى

العالم الرياضي الفلكي المصري

ولد رحمه الله في بلدة اسمها الحصة في مديرية الغربية سنة ١٢٢٠ هـ . ولم يكد يترعرع حتى توفي والده فاحتضنه اخوه وكانت النجابة تتجلى في وجهه منذ صباه فأدخله اخوه في مدرسة الاسكندرية سنة ١٢٤٠ هـ. فأقبل على الدرس والمطالعة واكب على اكتساب العلم بهمة ونشاط فلم تمض عليه بضع سنوات حتى نال رتبة بلوك امين فانتقل من هذه المدرسة الى غيرها من المدارس الاميرية المصرية وكان حيثما حلّ اشتهر بالنباهة والذكاء وخصوصاً في الفنون الرياضية فلما أتم دروسه عينته الحكومة استاذاً للعلوم الرياضية والفلكية في مدرسة المهندسخانة وكانت اذ ذاك برئاسة لامبير بك فترقى فيها الى رتبة صاغقول اغاسي انعم بها عليه المغفور له محمد علي باشا الكبير سنة ١٢٦٢ هـ. ولا يخفى ما كان للرتب من المنزلة اذ ذاك فكانت الحكومة لا تنعم على أحد برتبة ما لم يأت عملاً عظيماً يمتاز به عن اقرانه أو يقوم بخدمة ذات بال. فحصول صاحب الترجمة على هذه الرتبة دليل على علو همته ورفع منزلته. على انها كانت داعياً الى تنشيطه فاكب على التبحر في العلوم فاختارته الحكومة المصرية سنة ١٨٥١ م وبعثت به الى أوربا لاتمام علومه الرياضية والفلكية فثابر على ذلك تسع سنوات متوالية لازم في اثنائها مرصدباريس وكان لا يترك فرصة لا يستفيد بها شيئاً حتى آن الامتحان فقدمه وحاز به قصب السبق فنال الشهادات وعاد ظافراً منصوراً في عهد المغفور له سعيد باشا فانعم عليه برتبة



محمود باشا الفلكي

١١٢٠ هـ – ١٣٠٣ هـ

اميرآلاي وكلفه رسم خريطة للديار المصرية فأخذ في مباشرة هذا العمل وهو أول من باشره من المصريين فرسم خريطة الوجه البحري رسماً مدققاً يدل على طول باعه ومهارته في التخطيط والهندسة وهي خريطة مشهورة باسمه يرجعون اليها عند التدقيق ولعلها اول مؤلف وضعه ثم اردفه بمؤلفات أخرى بين رسائل وكتب بعضها في العربية وبعضها في الفرنساوية وهاك اسماءها ومواضيعها .

١ – الخريطة المتقدم ذكرها وقد أشرنا الى ما نالته من المنزلة الرفيعة .

٢ – رسالة في التقاويم الاسرائيلية الاسلامية نشرها سنة ١٨٥٥ م. بعد أن قدمها لمجمع العلوم في البلجيك وخلاصة موضوعها تعيين زمن ابتداء تاريخ اليهود وهو عندهم في ٧ تشرين اول سنة ٣٧٦١ قبل الميلاد . ويريدون به اليوم الذي تمت الخليقة فيه . والنظر في حدود يومهم وهو يبتدىء عندهم في الساعة السادسة افرنكية مساء ويقسم الى ٢٤ ساعة وتقسم الساعة الى ١٠٨٠ قسماً يقسم كل منها الى ٧٢ جزءاً . وبحث في اسبوعهم وشهرهم وسنتهم والايام التي تبتدىء بها شهورهم وسنوهم مع تعيين اعيادهم ومقارنة تاريخهم بتاريخ الميلاد المسيحي .

٣ – رسالة في الحالة الحاضرة للمواد المغناطيسية الارضية بباريس وضواحيها تلاها سنة ١٨٥٦ م على المجمع العلمي الفرنساوي وقد اعدّ موادها أثناء تجاوله في أوربا .

٤ – كتاب في التقاويم العربية قبل الاسلام نشره سنة ١٨٥٨ م وهو من اجلّ كتبه بحث فيه عن يوم ولادة صاحب الشريعة الاسلامية فوصل الى نتيجة مآلها انه ولد في ٩ ربيع الاول الموافق ٢٠ ابريل سنة ٥٧١ للميلاد .

ودقق النظر في حال التقويم قبل الاسلام فحكم بانهم كانوا يعملون بالحساب القمري الصرف . وبحث فيه ايضاً عن عمر النبي عند وفاته فبلغ ستين سنة شمسية و٢٨ يوماً أو ٦٣ سنة قمرية و٣ ايام . وارتأى أن العرب في جاهليتهم لم يكونوا يعرفون الساعات التي ينقسم اليها اليوم وهو رأي كوسين دي برسفال المؤرخ الفرنساوي وشوسن .

٥ – رسالة في الكسوف الكلي الذي ظهر بدنقلا في ١٨ يوليو سنة ١٨٦٠م

وشاهده هو بنفسه هناك وكانت تلك الرسالة داعياً الى اشتهاره بين علماء الفلك .

٦ – رسالة في الاسكندرية القديمة وصف بها تلك المدينة في اقدم ازمانها مستشهداً بما اكتشفه هو من شوارعها ومراسحها وابنيتها وأرفق الكتاب بخارطة أوضح بها ذلك .

٧ – رسالة في الايضاح عن اعمار الأهرام بحث فيها بحثاً دقيقاً فتبين له الفرض الاصلي من بنائها مطابقتها للشعرى . ومن رأيه أن الاهرام انما بنيت لفرض فلكي قال مختار باشا المصري « وعلى ذكر هذه الرسالة يجدر بي ايراد عبارة هي في حد ذاتها صادرة عن افكار شخصية فقد كنت موجوداً مع المرحوم عند شروعه في أخذ مقاييس الاهرام وموقعها من التناسب الفلكي واعلم علم اليقين بانه وصل للاطلاع على الغرض من تشييدها إذ وجد تحكيمها في رسم يقابل بالضبط كوكب الشعرى عند طلوعه فكأن الآمر ببنائها اراد أن يجعلها مزولة يعرف بها يوم شم نسيم العلماء ولاجل تعريض جثث المدفونين فيها لموافاة صعود الكوكب المذكور فيسبغ عليه من آياته رحمة وغفراناً إذ ليس بخاف أن كوكب الشعري كان عند الأقدمين وخصوصاً المصريين من اجل المعبودات حتى عبر عنه بعضهم باله الآلهة »

٨ – رسالة في التنبوء عن ارتفاع النيل قبل ارتفاعه .

٩ – بحث في ضرورة انشاء مرصد لمراقبة الحوادث الجوية في مصر .

١٠ – رسالة في مقياس مصر ومكيالها وميزانها ومقابلة ذلك بالاقيسة الفرنساوية .

١١ – رسالة في مشابهة (كان) الناقصة بالفعل الفرنساوي (Avoir).

١٢ – رسالة في توحيد موازين العملة في القطر المصري باشر كتابتها والموت حال بينه وبين اتمامها .

وتقلد محمود باشا الفلكي رحمه الله مناصب ذات شأن لا يتقلدها إلا نخبة اهل الفضل . منها أنه ناب عن الحكومة المصرية في المجمع الجغرافي بباريس سنة ١٨٧٥م وفي البندقية سنة ١٨٨١ م وتقلب في مناصب الحكومة حتى بلغ مسند الوزارة فعهدت اليه نظـــارة الاشغال العمومية . ولكن الحوادث العرابية التي داهمت هذا القطر سنة ١٨٨٢ لم تمكنه من ادارة شؤونها طويلاً . ثم عهدت اليه نظارة المعارف العمومية فلمّ شعثها ونظمها ورتب كثيراً من اقسامها فزهت المعارف على عهده واضاءت البلاد بها . وتولى رئاسة الجمعية الجغرافية الخديوية مدة . وخلاصة القول انه كان هماماً حازماً محبّاً لوطنه قضى سني حياته عاملاً في خدمته مجاهداً في سبيل نشر المعارف بين ابنائه حتى توفاه الله فجأة سنة ١٣٠٣ هـ وهو محاط بالكتب والاوراق آسفاً على مؤلفات كان في عزمه اتمامها فحال المنون بينه وبينها . فشقت وفاته على اهل الوطن المصري فابنه العلماء ورثاه الكتّاب والشعراء بما دلّ على تقديرهم فضله حق قدره .

نوفل نعمة الله نوفل الطرابلسي

تاريخ حياته :

هو أحد رجال النهضة العربية الاخيرة ولد في طرابلس الشام سنة ١٨١٢م وكان والده نعمة الله نوفل من اصحاب المناصب الذين يشار إليهم بالبنان .



نوفل نعمة الله نوفل الطرابلسي
١٨١٢ م - ١٨٨٧ م

على ان آل نوفل بوجه الاجمال قوم معروفون بالوجاهة والاخلاص للدولة العلية وقد تولوا خدمتها في أثناء ثلاثة قرون وتقلبوا في مناصب متنوعة ولا يزالون .

فعني والده بتثقيفه جرياً على مثال أعضاء أسرته فأدخله بعض المدارس الابتدائية في مدينة طرابلس فاكتسب مبادىء القراءة والكتابة في اللغة العربية وتناول بعض الشيء من والده وخصوصاً الانشاء والخط فبرع فيها . وفي سنة ١٨٢٠م قضت الأحوال بسفر والده إلى الديار المصرية على عهد المغفور له محمد علي باشا وكانت له عليه دالة لما تولاه من الانشاء في ديوانه . وكان

العلم الى ذلك العهد قاصراً في سوريا ومصر على العلوم العربية والتركية ويندر من يتعلم الفرنساوية أو الايطالية وكان محمد علي باشا قد أنشأ المدارس لتعليم تينك اللغتين فدخل نوفل بعضها فنبغ فيها حتى عني ولاة الامر بتعيينه معاوناً لابيه في قلم التحريرات بالديوان الخاص .

وفي سنة ١٨٢٨م عاد إلى سوريا مأموراً لمحاسبة لواء طرابلس وقضاء اللاذقية ظل في هذا المنصب سبع سنين تزوج في أثنائها بالمرحومة انجلينا كريمة المرحوم حنا غريب. وهو في أوائل أفراحه نكبه الزمان بمصيبة نغصت عيشه وذلك ان المغفور له ابراهيم باشا دخل سوريا كما هو معلوم سنة ١٨٣٠م فقضى فيها عشر سنوات بين مدافع ومهاجم لم تخل البلاد في أثنائها من ثورة في بلد أو جبل . وكان ابراهيم باشا قائداً مشهوراً لا حاجة بنا الى تعداد مناقبه . ولكنه كان صارماً سريع الانتقام – ذلك ما أوقع هيبته في قلوب السوريين فباتوا يخافون اسمه ولا تزال ايام ابراهيم باشا مثلاً يضربونه بالعدل والصرامة . فنقل اليه بعض الناس وشاية بنعمة الله نوفل والد المترجم فأمر باعدامه . ثم عاد ابراهيم الى طرابلس وقد تقدم اليه بعضهم ان يتفحص ما بلغه عن المقتول فبحث فتحقق براءة الرجل وان الامر كان وشاية فاستقدم صاحب الترجمة وكان معتزلاً في منزله حزيناً فقدم فأكرمه ودفع اليه مالاً كثيراً وخلع عليه خلعاً سنية وارسل بعض رجال معيته ليعزي والدته ويعدها بالانتقام من الواشين جبراً لقلبها الكسير وقد فعل .

وفي سنة ١٨٥٠م تعين المترجم باشكاتباً لخزينة طرابلس وفي السنة التالية نقل الى بيروت للكتابة في مجلس ادارة ولاية صيدا . وفي أثناء ذلك انفذت الدولة العلية أمين افندي أحد كبار مأموريها لمساحة جبل لبنان وعينت

المترجم سكرتيراً له . وفي سنة ١٨٥٢م تولى باشكاتبية كمرك بيروت وطال مكثه في هذا المنصب لما اظهره فيه من النشاط واللياقة . وفي سنة ١٨٦٣م توجه الى طرابلس بمعية قبولي باشا . ثم عاد معه إلى بيروت فرأى في السنة التالية ان صحته لا تساعده على تولي المناصب الشاقة فاستقال من الخدمة وعاد الى مسقط رأسه لترويح النفس فعينوه هناك ترجماناً لقنصلية المانيا ثم لقنصلية أميركا معاً وانقطع عن سائر الأشغال ووجه التفاته الى عقاره وأمواله وشغل ساعات الفراغ في المطالعة والتأليف والبحث والتنقيب فقضى في ذلك نيفاً وعشرين سنة حتى توفاه الله سنة ١٨٨٧م عن ثروة تركها لأرملته فأسف عليه كل من طالع كتاباته .

علمه وفضله ومؤلفاته :

كان صاحب الترجمة من محبي المطالعة واكثر ما يقرأه في اللغتين العربية والتركية فجمع مكتبة نفيسة فيها مئات من المجلدات في العلم والأدب والتاريخ والفكاهة بين مطبوع ومخطوط. فلما دنا أجله وقفها للمدرسة الكلية الاميركية في بيروت خدمة لتلامذتها ولا تزال تذكاراً له على مر الايام . ولم يكن يقتصر في المطالعة على تمضية ساعات الفراغ ولكنه كان يجني ثمار ما يطالعه فيكتب المقالات والرسائل والكتب في مواضيع معظمها جديد لم يسبقه أحد الى مثله في العربية . فمن مقالاته ورسائله ما نشر في مجلة الجنان ومنها ما نشر في لسان الحال وغيرهما . أما الكتب المطبوعة على حدة فبعضها ترجمة عن التركية والبعض الآخر الفه تأليفاً . فالكتب المترجمة منها كتاب قوانين المجالس البلدية التي قررها مجلس المبعوثان . وكتاب في أصل ومعتقدات الأمة الشركسية وكتاب دستور الدولة العلية وهو جزآن كافأته الدولة على ترجمته بثلاثمائة ليرة عثمانية. وكتاب حقوق الامم وغيرها. وكلها كما ترى في مواضيع

جدية تحتاج الى علم وتضلع في اللغتين العربية والتركية .

أما مؤلفاته فانها أوضح دلالة على علمه وفضله لانها مما لم ينسج على منواله في العربية وقد يعجب الذي يطلع عليها لصدورها عن مؤلف لا يعرف شيئاً من اللغات الافرنجية كما صرح هو في مقدمة بعضها .

ومن مؤلفاته :

١ – زبدة الصحائف في أصول المعارف :

طبع في بيروت سنة ١٨٧٣م وفيه أبحاث في تاريخ العلوم عند الأمم المتمدنة قديماً وحديثاً . فقد صدره بتاريخ الفلسفة عند الكلدان والفينيقيين والفرس والهند والصينيين والمصريين واليونان مع تفصيل فرق الفلاسفة عندهم وتسلسل آرائهم الى ان وصلت الفلسفة الى العرب ومن جاء بعدهم . ويلي ذلك فصول في أصول العلوم وتواريخها كالمنطق واللغة ويتفرع عن ذلك الكلام في تواريخ اللغات فعلوم اللغة والصرف والبيان والشعر ثم أصول العلوم الرياضية والفلك فالطبيعيات فالطب وفروعه فالتاريخ فالجغرافية وسائر العلوم الحديثة كالجيولوجيا والكيميا والمعادن والنبات وغيرها وكلامه في كل ذلك تاريخي فلسفي تلذ مطالعته .

٢ – زبدة الصحائف في سياحة المعارف :

واسمه يدل على موضوعه فهو يبحث في كيفية تنقل العلم والفلسفة في الارض من أقدم الازمان الى الان عند كل مملكة وكل دولة ويعد هذا الكتاب تتمة للكتاب السابق مع انه أكبر منه .

٣ – **سوسنة سليمان في أصول العقائد والاديان :**

وفيه فصول ضافية في أصول اديان الناس من الوثنية والمجوسية الى الاديان الالهية وتفصيل ذلك خصوصاً في الديانات الثلاث المشهورة مع ما حدث من الفرق النصرانية والاسلامية والاسرائيلية على أسلوب سهل لذيذ .

٤ – **صناجة الطرب في تقدمات العرب :**

وهو كتاب عظيم الفائدة يدل على سعة اطلاع مؤلفه المرحوم في تاريخ العرب وآدابهم وأخلاقهم وعاداتهم فقد صدره بمقدمات جغرافية عن جزيرة العرب ثم بسط الكلام في أقسام العرب وتقاطيعهم وسحنهم وأوصافهم ثم في أديانهم ومعابدهم ومناسكهم ومساكنهم وملابسهم ومآكلهم ومخاطباتهم . ويلي ذلك الكلام في أخلاقهم وشجعانهم وفصحائهم وخيولهم وإبلهم ثم جيوش العرب وأسلحتهم وحروبهم ودولهم . وأبحاث في وضع آداب اللغة العربية وأصول العلوم عند العرب علماً علماً وكيف نشأت عندهم أو وصلت اليهم . وفي ذيل الكتاب فذلكة تاريخية عن دول العرب من خلفاء الراشدين الى أواخر بني العباس .

٥ – الرد على الغضنفري قد طبع مؤخراً. وله مؤلفات أخرى لم تطبع.

الدكتور ميخائيل مشاقة

هو من أفراد القرن التاسع عشر ونابغة من نوابغه ذكاء وفطنة وهمة ، ولد في قرية رشميا من أعمال جبل لبنان ، من عائلة ذات نسب جليل يتصل



الدكتور ميخائيل مشاقة
١٨٠٠ - ١٨٨٨ م

بيوسف بتراكي الذي هو جد جد صاحب الترجمة وأصله من كورفو ببلاد اليونان ولقب بمشاقة لاحترافه تجارة مشاقة الحرير . وكان والده جرجس في بلاط الأمير بشير الشهابي الكبير أمير جبل لبنان إذ ذاك ومن المقربين منه ، فنقل بيته الى دير القمر مركز الامارة ليكون قريباً من مكان عمله .

وكان مخائيل نبيهاً ذكياً متوقد الذهن فتمكن من القراءة في مدة وجيزة وكان له ميل طبيعي الى الرياضيات فتلقن الحساب البسيط عن أبيه ثم تعلم مسك الدفاتر .

وكان على صغر سنه يجالس كبار القوم ويستفيد من أحاديثهم ، فسمع من يهود دير القمر أنهم يعرفون أوان الخسوف والكسوف قبل حدوثها فمال الى استطلاع كيفية ذلك فلم يستطع فازداد قلقه . وكان يعتقد مثل اعتقاد اكثر أهل تلك الايام من ان علم الفلك ينبىء صاحبه بالغيب .

وفي سنة ١٧١٤ م قدم بطرس النحوي خال صاحب الترجمة من دمياط

الى دير القمر وكان بارعـــاً في علم الفلك وسائر العلوم الرياضية والطبيعية . فانتهز مخائيل تلك الفرصة وطلب الى خاله ان يدرسه علم الفلك فسرَّ بطلبه وأخذ يدرسه باجتهاد فاكتسب منه جانباً كبيراً بمدة قصيرة فأحبه خاله محبة شديدة وأعجب بذكائه وفطنه . وفي سنة ١٨١٧ م ذهب مخائيل الى دمياط وتعين كاتباً في محل عمه هناك . وكان كبير النفس لا يقنع بأقل من الاستقلال فما لبث زمناً حتى تعاطى التجارة بنفسه واكتسب ثروة صغيرة .

واتفق أنه طالع سنة ١٨١٨م كتاب سياحة الفيلسوف فولني وآراءه فوقع في حالة التردد من أمر الدين وصار ذلك شاغلاً لأفكاره .

ومن غريب أخلاقه وحميدها أنه لم يكن يرى شيئاً أو يسمع به إلا أحب استطلاع كنهه وكانت له ثقة تامة بقواه العقلية ولذلك كان يعتقد انـه يقدر أن يتعلم كل ما يريده .

ويحكى أنه حضر عرساً في مدينة دمياط كانت تصدح فيـــه الموسيقى فسأله أحد الحاضرين عن لحن هـل يعرفه فأظهر البعض الآخر استخفافاً به لأنه لا يعرف الالحان فثارت في رأسه الحمية وعزم من تلك الساعة أن يدرس فن الموسيقى ففعل وتمكن منه حتى ألف فيه رسالة بديعة بعـــد ان اتقن الضرب على سائر آلاته .

وفي سنة ١٨٢٠ م ظهر في دميــاط وباء الطاعون فرجع مخائيل الى دير القمر وهو لا يفتر عن المطالعة وكان يطالع الجبر والمقابلة بنفسه .

وبعد ذلك انتدبه الامير بشير الكبير ليكون مدبراً عند امراء حاصبيا فأكرموا مثواه ووهبوه بقاعاً واسعة في جهات الحولة ونهر اللدان وقريـة في

قضاء القنيطرة وهذا يدلنا على مقدار ما كان من اعجابهم به وبأعماله. ولكنه أصيب بمرض سنة ١٨٢٨ م فاضطر لأن يعود الى دير القمر للمعالجة فتعالج خمسة اشهر كان في أثنائها يلاحظ العلاج الذي كان يتناوله ويود لو أنه يعرف صناعة الطب جرياً على طبيعته كما قدمنا . فحالما نقه من مرضه عكف على مطالعة ما وصلت إليه يداه من الكتب الطبية حتى فهم اكثرها ولكنه عجز عن ادراك كثير من مصطلحاتها . وكان المتقدم ذكره قد عاد الى دير القمر فافهمه اياها واستعان ايضاً بطبيب آخر ايطالي كان هناك .

وفي سنة ١٨٣١ م جاء ابراهيم باشا بن محمدعلي باشا الكبير بجنوده لافتتاح عكا وكان بينه وبين الامير بشير تحالف فجاء الامير لمعاضدته في ذلك الحصار وقدم ميخائيل مشاقة برفقة الامير . ومن ثم انضم الى الجنود المصرية ورافقها الى دمشق وحمص يطبب جرحاها والمصابين بالكوليرا (الهواء الاصفر) ثم رجع الى دير القمر وقد لحقه بسبب حروب ابراهيم باشا خسائر جسيمة مالية حتى اضطر للتطبيب بالاجرة وكان قبل ذلك يطبب مجاناً . ونزح الى دمشق وأقام فيها واغتنم وجود الدكتور كلوت بك الشهير هناك مع الحملة المصرية فطالع ما نقصه من الطب عليه فتمكن من تلك المهنة حتى ولته الحكومة رئاسة اطباء دمشق .

ولم يكن يقنع بعلم دون آخر فلما تمكن من الطب طلبت نفسه شيئاً آخر فدرس المنطق وتوسع فيه وعندما خرجت الجنود المصرية من سوريا تعين مترجماً للسير وود الذي ارسل قنصلاً لدولة انكلترا في دمشق .

وفي سنة ١٨٤٦م قدم الديار المصرية وواظب على ممارسة العمليات الجراحية في مدرسة قصر العيني حتى نال الدبلوما الطبية مع لقب دكتور . ثم عاد الى

دمشق وتحركت افكاره في أثناء ذلك حركة دينية فجعل يتردد بين الديانة المسيحية وما ذهب اليه فولتير حتى وقع على كتاب البينة الجلية فاخذ يراجع فيه وفي غيره لعله يهتدي الى ما يريح ضميره من التردد . ثم اخذ يطالع كتباً جدلية بين طائفتي الكاثوليك والبروتستانت وجرى بينه وبين البطريرك مكسيموس مظلوم اذ ذاك مجادلات طويلة انتهت بانحيازه الى طائفة البروتستانت وصار من أكبر المدافعين عنها وعن تعاليمها تكلماً وكتابة .

وفي سنة ١٨٥٩ م تعين فيس قنصل الولايات المتحدة الاميركية في دمشق وفي السنة التالية كانت الثورة المشهورة بل المذبحة المعلومة في دمشق وغيرها من سوريا فاصاب الدكتور مشاقة جراحاً كثيرة ولولا مساعدة الامير عبد القادر الجزائري ما نجا من القتل ، ولكنه تمكن بمساعدته من الالتجاء الى مكان طبب فيه جراحه حتى شفي .

وبقي هذا الرجل عاملاً في الطب والسياسة والديانة والفقه والحساب وسائر انواع العلوم حتى كانت سنة ١٨٧٠م فاصيب بفالج بجانبه الأيمن فانقطع عن اشغال القنصلية فاحيلت لولده نصيف بك .

أما هو فلم ينفك عن العمل في بيته ولم يكن يخلو منزله من الزائرين على اختلاف الاجناس والطبقات لمشاهدته وتحقق ما سمعوه عنه. وقداتيح لنا الحظ بزيارته سنة ١٨٨٣م في منزله بدمشق فاذا به رجل ذو هيبة ووقار يجلله الشيب يلبس العمامة والجبه طويل القامة كبير الجثة لطيف الحديث واسع الاطلاع كثير الترحيب بزائريه كسائر أهل دمشق . وقد اطلعنا على كثير مما كتبه ولم يطبعه من المؤلفات وفي جملة ذلك رسالة في الالحان الموسيقية العربية ومطول في الحساب والمعين على حساب الايام والأشهر والسنين مذيل بجداول لمدة مئة سنة تحتوي على مطابقة ايام الشهور العربية والرومية والقبطية

والعبرانيـــة والهجرية ومواقـع كسوف الشمس والقمر لطول دمشق وعرضها وغيرها .

أما الكتب التي طبعت من مؤلفاته فأكثرها ديني جدلي وفي جملتها كتاب سماه البرهان على ضعف الانسان جواباً لصديق له كان تابعاً لتعالـيم فولتير . وقد طبعت مجلة المشرق رسالته في الصناعة الموسيقية . ومن مؤلفاته «الجواب على اقتراح الاحباب » وفيه ترجمة اسرته وحوادث ايامه قـد طبع مؤخراً باسم « مشهد العيان » .

وكانت وفاته في السادس من شهر يوليو (تموز) سنة ١٨٨٨م في دمشق الشام وله من العمل تسع وثمانون سنة قضاها في العمـل والاجتهاد وخدمة بني الانسان .

الشيخ عبد الهادي نجا الابياري

هو من أكبر علماء مصر في القرن التاسع عشر ومن أعظم كتابهم ومؤلفيهم وكان له شأن كبير في النهضة العلمية الاخيرة في القطر المصري .

ولد في ابيار من اعمال الغربية بمصر السفلى سنة ١٢٣٦ هـ (١٨٢١ م) ولم يكد يتلقى مبادىء القراءة حتى مال بكليته الى الدرس والمطالعة فأحب والده ذلك الميل فيه فأخذ يلقنه العلم بنفسه فعلمه الادب وسائر علوم اللغة العربية فادرك منها في بضع سنين شيئاً كثيراً ثم جاور في الازهر مدة طويلة وقرأ على خيرة علمائه كالشيخ البيجوري والشيخ الدمنهوري وغيرهما . ولم

يطل الامد حتى ذاع ذكره بين الناس على اختلاف طبقاتهم . وتحدث القوم بعلمه وفضله فاستدعاه اسماعيل باشا الخديوي الاسبق واثنى عليه وعهد اليه بتعليم انجاله خاصة ومن جملتهم توفيق باشا الخديوي السابق . وكان وهو في ذلك المنصب يتصدر للتدريس والاقراء في بيته وفي الجامع الازهر واخذ عنه كثيرون من الذين اشتهروا بعدئذ بالعلم والفضل كالشيخ حسن الطويل والشيخ محمد البسيوني وغيرهما من أكابر علماء الازهر .

ولما تولى المرحوم توفيق باشا أريكة الخديوية المصرية قربه اليه وأحله محلاً رفيعاً وجعله امام المعية ومفتيها فبقي على تلك الرتبة حتى توفي سنة ١٣٠٦ هـ (١٨٨٨ م) .

وكان رحمه الله طائر الشهرة قصده أهل عصره وكاتبه كثيرون من فضلائه . وله رسائل مدونة مع أكابر العلماء والشعراء كالشيخ احمد فارس والشيخ ناصيف اليازجي والشيخ ابراهيم الاحدب وغيرهم وله مؤلفات كثيرة ربما زادت على أربعين مؤلفاً لم يطبع منها إلا بعضها وأشهر ما طبع منها :

١ — **سعود المطالع** : وهو كتاب جمع فيه واحداً واربعين فناً في شرح لفز باسم اسماعيل على نسق غريب. وجعله تحفة للخديوي اسماعيل باشا وطبع في بولاق سنة ١٢٨٣ هـ في مجلدين عدد صفحاتها نحو سبعمائة صفحة .

٢ — **نفح الاكام في مثلثات الكلام** : طبعت في مصر سنة ١٢٧٦هـ وهو تفسير الالفاظ التي تحتمل ثلاثة معانٍ باختلاف حركاتها .

٣ — **الوسائل الادبية في الرسائل الاحدبية** : هي مكاتبات في مواضيع لغوية أدبية جرت بينه وبين المرحوم الشيخ ابراهيم الاحدب في بيروت .

٤ – الكواكب الدرية في نظم الضوابط العلمية .
٥ – نيل الاماني في توضيح مقدمة القسطلاني .
٦ – الباب المفتوح لمعرفة احوال الروح . تصوف .
ومن مؤلفاته المهمة التي لم تطبع :
١ – كتاب ترويح النفوس على حواشي القاموس .
٢ – القصر المبني على حواشي المغني .
٣ – صحيح المعاني في شرح منظومة البلياني .
٤ – الفواكه في الادب .
٥ – الدورق في اللغة .
٦ – النجم الثاقب في المحاكمة بين البرجيس والجوائب : وسبب وضعه انه كان بين صاحب الجوائب المطبوعة في الاستانـة والبرجيس المطبوع في باريس مناظرة في المسائل اللغوية افضت إلى المشاحنة والتنافر ودام الامر بينهما طويلاً فكتب الشيخ عبد الهادي كتابه المشار اليه للفصل بينهما .

شفيق بك منصور

هو من نوابغ الناشئة المصرية في القرن الماضي ولد في القاهرة سنة ١٨٥٦م وابوه منصور باشا يكن فربي في مهـد العز والفخار وعني والده في تعليمه فأقام مدة في مدرسة النيل ثم في مدرسة العباسية ثم أتقن العربية والفرنساوية والتركية على أساتذة مخصوصين .

وسافر سنة ١٨٦٩م الى باريس مع صاحب الدولة البرنس حسين باشا كامل عم الجناب العالي فلم يقم فيها إلا قليلاً لانتشاب الحرب بين الالمان والفرنساويين



شفيق بك منصور
١٨٥٦ — ١٨٩٠ م

سنة ١٨٧٠م فعاد الى مصر ثم رجع منها الى سويسرا سنة ١٨٧١م واستقر هناك ست سنوات يشتغل في العلوم الرياضية وكان شديد الميل اليها ودرس العلوم الطبيعية فنال منها حظاً وافراً . واشتهر بين اقرانه بحل المسائل الرياضية العويصة ثم بما كان ينشره من هذا القبيل في مجلة المقتطف . ثم ذهب الى باريس فأقام فيها اربع سنوات قرأ في اثنائها علم القوانين وحاز قصب السبق وامتاز على اكثر معاصريه بما اختص به من قوة العارضة وطلاقة اللسان ودقة النظر وسداد الرأي .

فعاد الى مصر ومحبوها يتمنون لها مئات من امثاله ويودون أن يكون قدوة لشبانها. فلما تشكلت لجنة تحقيق جنايات حريق الاسكندرية سنة ١٨٨٣م على اثر الحوادث العرابية انتدبته الحكومة المصرية وكيلاً للنائب العمومي

فاظهر من الاقتدار في المسائل القانونية وطهارة الذمة وقوة الحجة ما بهر كبار المحامين ودهاة رجال الثورة في أثناء دفاعه وشروحه ومطالبته ولم تمض برهة حتى تشكلت المحاكم الاهلية فتمين قاضياً في محكمة الاستئناف ثم صار وكيلاً للنائب العمومي ورئيساً لنيابة محكمة الاستئناف .

وفي سنة ١٨٨٧م استقال من هذا المنصب بعد أن خدم خدماً ثمينة في تنظيم المحاكم وتحسين ادارتها فتعين سنة ١٨٨٨م مستشاراً في محكمة الاستئناف الاهلية . وهو يعمل في منصبه ويطالع ويؤلف ويباحث ويحقق اصابته علة في عينيه حالت بينه وبين مطامعه فشخص في ربيع عام ١٨٩٠م الى اوربا لمعالجتها على أن يعرج في اثناء عودته بالاستانة ويقترن بكريمة البرنس عبد الحليم باشا فأصابه وهو في اوربا داء حار فيه شاركو وبوشار وغيرهما من نخبة اطباء تلك القارة حتى قطعوا الامل من شفائه فاشاروا بعودته الى مصر . فعاد فخفت وطأة المرض بدون علاج حتى نال الشفاء لكنه ما لبث أن انتكس داؤه وعز شفاؤه حتى توفاه الله في ١٥ نوفمبر سنة ١٨٩٠م وهو في الرابعة والثلاثين من عمره فبكاه الناس لعلمه وذكائه ولما كانوا يرجونه من اعماله وخدمه للعلم والإدارة .

على انه ترك آثاراً لا يزل اهل القطر ينتفعون بها الى اليوم فضلاً عن انتفاعهم بما كان ينشره من نفثات اقلامه في المقتطف وغيره وما كان يبثه بين ظهراني قومه من روح النشاط والسعي في طلب العلم. ومن مؤلفاته كتاب التفاضل والتكامل بسط فيه قواعد هذا الفن بسطاً يقربه من افهام الطلبة. وله كتب في مبادىء الحساب والجبر والهندسة والقوسموغرافيا اقترحت الحكومة المصرية عليه تأليفها لتدريسها في مدارسها فكانت عمدة هذه الدروس في كل مدارس مصر . ونقل كتاب رياض المختار وكتاب اصلاح التقويم من التركية الى

العربية وكلاهما لصاحب الدولة مختار باشا الفــازي . واشتغل في تطبيق الموسيقى العربية على العلامات الافرنجية والف في ذلك رسالة مسهبة لم تنشر وله رسالة في الفرنساوية طبق فيها الجبر على بعض المسائل الفقهية واشتغل في شرح القانون المدني وغير ذلك .

الشيخ يوسف الاسير

هو الشيخ يوسف بن السيد عبد القادر الحسيني الاسير ولد في مدينة صيدا من اعمال سوريا سنة ١٢٣٠ هـ وربي في حجر والده وتلقى مبادىء العــلوم فختم القرآن وهو في السابعة من عمره وكان ابوه تاجراً فلم يمل هو الى التجارة بل عكف على العلم فدرس شيئاً على الشيخ احمد الشرمبالي . وكان ميالاً منذ نعومة اظفاره الى العـلم فلما بلغ السابعة عشرة شخص الى دمشق ومكث في مدرستها المرادية نحو سنة فأخذ شيئاً من العلم عن علمائها . ثم بلغه خبر وفاة والده فعـــاد الى صيدا ودبر أحوال اخوته ومهد لهم سبيل المعيشة ونظراً لتعلقه بالعلم لم تطب له الاقامة في صيدا فشخص الى الديار المصرية واقــام في الجامع الازهر سبع سنين يتبحر في العلوم وفيه اذ ذاك جمــاعة من فطاحل العلماء كالشيخ حسن القويسني والشيخ محمد الدمنهوري والشيخ محمد الطندتاوي والشيخ محمد الشبيني وغيرهم فنبغ في جميع العلوم العقلية والنقلية كاللغة والفقه والحديث والتفسير وصار اماماً يرجع بهــا اليه حتى اعجب به أساتيذه فكتب اليــه الشيخ محمد الطندتاوي (وكان اذ ذاك في بطرسبورج) قصيدة يمدحه فيها ويثني على علمه وفضله . وكان في اثناء اقامتــه بمصر يجالس اكابر علمائهــا وكثيراً ما كان يحضر الامتحانات العمومية التي كانت تجري بحضور



الشيخ يوسف الاسير
١٢٣٠هـ - ١٣٠٧هـ

عزيز مصر اذ ذاك في المـدارس العمومية فيقترح اكثر المسائل على التلاميذ باشارة مشائخه .

ثم اعتراه مرض الكبد فعاد الى صيدا ولكنه لم يرتح الى الاقامة فيها اذ لم يجد فيها مجالاً لنشر فضله فسافر الى طرابلس الشام فلاقى من علمائها ووجهائها حسن الوفادة والرعاية فقضى بينهم ثلاث سنوات لم يخل مقامه يوماً من جماعة منهم واخذ عنه العلم كثير من افاضلهم . واخيراً اختار الاقامة في بيروت لجودة هوائها فهرعت اليه الطلبة وكثر مريدوه وتولى في اثناء ذلك رئاسة كتابة محكمة بيروت الشرعية في ايام قاضيها مصطفى عاشر افندي . ثم تولى الفتوى في مدينة عكا ثم تعين مدعياً عمومياً في جبل لبنان على عهد متصرفه داود باشا . ثم انتقل الى الاستانة العلية وتولى رئاسة التصحيح في دائرة نظارة المعارف وتعين في الوقت نفسه استاذاً للغة العربية في دار المعلمين الكبرى ونال في اثناء اقامته بالاستانة مقاماً رفيعاً بين رجال الاستانة

وعرضوا عليه منصباً من المناصب الرفيعة براتب جزيل على وعد الترقي فابى رغبة في مواصلة خطته العلمية . ثم ثقلت عليه وطأة البرد في الاستانة وهمّ بالرجوع الى بيروت فأسف وزير المعارف اذ ذاك على خسارته وماطله في قبول استعفائه على امل استبقائه لما آنس من سعة علمه وعاين من رواج الكتب التي صححها . ولكنه اصر على النزوح الى ربوع الشام فعاد اليها واقام في بيروت وأخذ يبث العلم بين طلبتها واكب على التأليف والتصنيف وكان اشتغاله غالباً في الفقه واللغة فألف كتاباً في الفقه سماه رائض الفرائض وشرح كتاب أطواق الذهب تأليف الزمخشري ونظم كثيراً من القصائد الرنانة طبع منها جانب كبير في ديوان يعرف باسمه .

وكان على جانب عظيم من الرقة والدعة ولين الجانب وحسن المعاشرة يحب العلم والعلماء ويأخذ بناصرهم وكان شافعي المذهب سالكاً مسلك الاقدمين في حب العلم والرغبة في نشره ابتغاء الفائدة العامة . وكان لحسن عقيدته راغباً عن الدنيا زاهداً فيها ثابتاً في اتباع فروض الدين لا يستنكف من حمل حاجيات بيته الضرورية بنفسه، وكان كثير الشغف بتلاوة القرآن الكريم أو سماعه كل يوم .

وكان ربع القامة معتدل الجسم أسمر اللون أسود الشعر كث اللحية صادق الوعد قوي الذاكرة اذا سئل أجاب في أي موضوع كان مع تقريب الموضوع من ذهن السامع ببسيط العبارة.

توفي سنة ١٣٠٧ هـ وله من العمر سبع وسبعون سنة ودفن في مقبرة الباشورة ببيروت وترك خمسة ذكور وبنتين ولم يترك لهم شيئاً سوى الذكر الحسن ، وقد أسف أهل بيروت وسائر أهل الشام على فقده لأن جماعة كبيرة منهم أخذوا العلم عنه وما برح مرجعاً للفائدة علماً وعملاً حتى توفاه الله.

الشيخ ابراهيم الاحدب

هو من علماء بيروت في القرن الماضي ولد في طرابلس الشام سنة ١٢٤٢ للهجرة ، تلقى مبادىء العلم فيها وقرأ القرآن على الشيخ عرابي والشيخ عبد الغني الرفاعي . فتعلم التفسير والحديث والأصول والكلام واللغة والفرائض والنحو وسائر علوم اللغة . وفي سنة ١٢٦٤ ﻫ عكف على التدريس فنبغ من تلامذته جماعة من الأفاضل في طرابلس . وكان ذا قريحة شعرية مع سرعة الخاطر حتى بلغ ما نظمه نحو ثمانين ألف بيت وندر من بلغ هذا القدر من النظم.

وزار الاستانة على عهد السلطان عبد العزيز ثم جاء القطر المصري واجتمع بأجل علمائه فرحبوا به وفي جملتهم الشيخ عبد الهادي نجا الابياري وفي « الوسائل الأدبية في الرسائل الأحدبية » خلاصة ما دار بينهم من المراسلة الادبية .

واشتهر صاحب الترجمة ببراعته في الفقه الحنفي وكانت محاكم جبل لبنان تعتمد على فتاويه وتحكم بمقتضاها، وكاتب العلماء والادباء في انحاء العالم العربي وامتدح الامراء والوزراء وخصوصاً المرحوم الامير عبد القادر الجزائري الشهير في دمشق . ومدح المرحوم محمد صادق باشا باي تونس فأجازه . وفي سنة ١٢٦٨ ﻫ استدعاه سعيدبك جنبلاط حاكم مقاطعة الشوف حينئذ واتخذه مستشاراً في الاحكام الشرعية والامور العقلية . وفي سنة ١٢٧٦ ﻫ استقدم الى بيروت وعين نائباً في المحكمة الشرعية . وعند اجراء تنسيقات النواب جعل رئيساً لكتاب المحكمة المذكورة وظل في هذا المنصب ما ينيف على ثلاثين سنة تولى في أثنائها تحرير ثمرات الفنون وله فيها مقامات ورسائل أدبية

وفصول حكمية . ولما تشكلت ولاية بيروت انتخب عضواً في مجلس المعارف مع اشتغاله في التدريس والتأليف ونقل الكتب حتى قيل انـــه نقل ألف كتاب بخطه .

ومن آثـــاره :

١ – « ديوان شعر » نظمه في صباه ورتبه على ثمانية فصول .

٢ – ديوان « النفح المسكي في الشعر البيروتي »نظمه سنة ١٢٨٣هفيبيروت.

٣ – ديوان آخر نظمه بعده .

٤ – مقامات تبلغ ثمانين مقامة أملاها على لسان ابي عمر الدمشقي وأسند رواياتها الى ابي المحاسن حسان الطرابلسي على نحو مقامات الحريري .

٥ – فرائد الاطواق في أجياد محاسن الأخلاق . تحتوي على مائة مقالة نثراً ونظماً على مثال مقامات الزمخشري .

٦ – فرائد اللآل في مجمع الامثال : نظم فيه الامثال التي جمعها الميداني في نحو ستة آلاف بيت . وقد شرح هذا الكتاب في مجلدين وجعله خدمة لجلالة السلطان . وعني ولداه بطبع هذا الكتاب بعد موته فجـــاء كتاباً ضخماً صفحاته تسعمائة صفحة كبيرة مطبوعة طبعاً جميلاً تلونت بـــه الامثال باللون الاحمر لتظهر وحدها دون سائر النظم والشروح .

٧ – تفصيل اللؤلؤ والمرجان في فصول الحكم والبيان فيه ٢٥٠ فصلاً في الحكم والآداب .

٨ – نشوة الصهباء في صناعة الانشاء .

٩ – منظومة اللآل في الحكم والأمثال .

١٠ - كتاب إبداع الابداء لفتح أبواب البناء في التصريف .

١١ - كشف الارب في سر الادب وهما مطبوعان في بيروت .

١٢ - مهذب التهذيب في علم المنطق نظماً .

١٣ - ذيل ثمرات الأوراق طبع بهامش المستطرف وغيره .

١٤ - كشف المعاني والبيان عن رسائل بديع الزمان الف هذا الشرح في أواخر أيامه وطبع بنفقة الآباء اليسوعيين . وله كتب أخرى ورسائل ومنظومات كثيرة . وما زال عاملاً في التأليف والتدريس حتى توفاه الله في بيروت سنة ١٣٠٨ هـ .

وكان رحمه الله طويل القامة معتدل الجسم أبيض اللون جميل الصورة . وكان حسن المجالسة لين الجانب بشوش الوجه واسع الاطلاع في الفقه واللغة وقد وعى كثيراً من أشعار المتقدمين وأقوالهم وآدابهم ونوادرهم .

احمد جودت باشا

الوزير العالم التركي

هو الوزير أحمد جودت باشا بن الحاج اسماعيل آغا بن الحاج علي افندي ابن احمد آغا بن اسماعيل أفندي مفتي مدينة لوفجة المشهور ابن أحمد آغا أحد ضباط الحملة العثمانية التي ظهرت على بطرس الكبير امبراطور الروس في الحرب المعروفة بحرب بروث .

ولد في مدينة لوفجة التابعة لولاية الطونة سنة ١٢٣٨ هـ وكان والده من



احمد جودت باشا

١٢٣٨ - ١٣١٢ هـ

أعيان لوفجة وعضواً من أعضاء مجلسها فربي أحمـد في حجر والديه وتهذب على يديهما وتلقى مبادىء العلوم البسيطة في وطنه وقد ظهرت عليه مخائـل النجابة منذ نعومة اظفاره فلما شبّ قدم الاستانة العلية سنة ١٢٥٥ هـ. في أواخر ايام المغفور له السلطان محمود الثاني المصلح الشهير . فأقام فيهـا يلتقى العلوم والآداب على احسن علمائها فاتقن الفقه واصوله والحديث والتفسير وعلم الكلام والمنطق والفلسفة على انواعها والرياضيات بفروعها والجرافية والتاريخ واللسان الفارسي واتقن اللسان التركي والعربي حتى نظم الشعر فيها جميعاً. وفي سنة ١٢٦٠هـ عكف على درس القضاء فنال قصب السبق على اقرانه فاحرز في السنة التالية رتبة يناها السابقون في هذا المضار يقال لها (رتبة رؤوس تدريس)

واخذ في التأليف فذاع صيته فعينته الحكومة السنية عضواً في مجلس المعارف العمومية سنة ١٢٦٦هـ . وفي تلك السنة انعم عليه بالنيشان المرصع من الرتبة الثانية . وفي السنة التالية عين عضواً في المجمع العلمي العثماني (الاكاديمية) وفي سنة ١٢٧١ هـ تقلد كتابة وقائع البلاد وفي السنة التالية عين قاضياً لغلطة أحد اقسام الأستانة الثلاثة .

وكان كلما تقلد منصباً قام بمهامه حق القيام فانهالت عليه الرتب والمناصب والنياشين فنال سنة ١٢٧٣هـ . باية ولاية مكة المكرمة والنيشان المجيدي من الرتبة الثالثة وتعين عضواً في مجلس التنظيمات ورئيساً للقومسيون المنعقد اذ ذاك لترتيب القوانين والنظامات المتعلقة بالأراضي وكان في جملة اعضاء هذا القومسيون وقتئذ محمد رشدي افندي شورانى الذي صار بعدئذ والياً على سوريا ثم ناظراً للمالية ثم صدراً أعظم .

وفي سنة ١٢٧٥ هـ. سار الصدر الأعظم محمد باشا القبرسي الى الروم ايلي للتفتيش فسار صاحب الترجمة بمعيته . وفي سنة ١٢٧٧ هـ. وجهت اليه باية استانبول والنيشان المجيدي من الرتبة الثانية وفي السنة التالية عين عضواً في مجلس الاحكام العدلية على أثر الغاء مجلس التنظيمات واحالته الى مجلس الاحكام العدلية .

واتفق اذ ذاك وقوع اختلال في جهات اشقودره افضى الى تشويش الأذهان فانتدب صاحب الترجمة ان يسير اليها بمهمة خصوصية لاصلاح احوالها عسكرياً وملكياً فسار اليها وأصلح شؤونها ورتب احكامها بمدة يسيرة وعاد.

وفي آخر سنة ١٢٧٩ هـ. عين مفتشاً في البوسنة والهرسك وقبل سفره وجهت اليه باية قاضي عسكر الاناطول واحسن اليه بالنيشان المجيدي من

الرتبة الأولى وكانت ولاية البوسنه والهرسك الى ذلك الحين خلواً من التنظيمات العسكرية بنوع استثنائي فادخل اليها التنظيمات ورتب أحكامها فنال رضى الباب العالي بنوع خاص فانعم عليه بالنيشان العثماني من الرتبة الثانية ولم يحز هذا النيشان احد من العلماء قبله واهدى اليه بندقية من الطراز الذي فرقه في الجند بالبوسنه والهرسك وقد نقش عليها ما معناه « تذكرة افتخار من السر عسكرية الى حضرة جودت افندي من أجل الهمة التي بذلها في تدريب شجعان بوسنه على الخدمة العسكرية » .

وفي سنة ١٢٨١ هـ. ارسل في الفرقة الاصلاحية التي سارت لاصلاح ما اختل من شؤون جبال القوزاق وكانت تلك الفرقة تحت قيادة درويش باشا مشير المعسكر الهمايوني الرابع فاصلحا الاحوال وضبطا أمور تلك الجبال فلما عادا سنة ١٢٨٢ هـ . انعمت الحضرة الشاهانية على صاحب الترجمة بعلبة مرصعة اشارة الى نيله رضائها لما بذله من الهمة والاقدام في اصلاح شؤون القوزاق . ثم عين عضواً في المجلس العالي وبعد قليل وجهت اليه رتبة الوزارة السامية ثم ضمت ايالات حلب واطنه والوية القوزاق ومرعش واورفه الى ولاية واحدة قصبتها مدينة حلب عهدت حكومتها اليه فقدمها واستلم زمام الاحكام بهمة ونشاط نحو سنتين حتى اذا كان انقسام مجلس الاحكام العدلية العالي سنة ١٢٨٤ هـ. الى قسمين وتشكلت منه هيئتان عرفتا بمجلس شورى الدولة وديوان الأحكام العدلية ولي هو رئاسة ديوان الاحكام العدلية ثم تحولت هذه الرئاسة الى نظارة الديوان ثم الى نظارة العدلية وتشكلت تحت رئاسته لجنة علمية لتأليف كتاب في الفتاوي على مذهب ابي حنيفة فألفه وهو المعروف بمجلة الاحكام العدلية وعليه المعول في سائر المحاكم الشرعية النظامية .

وفي سنة ١٢٨٨هـ. عين عضواً في مجلس شورى الدولة وفي السنة التالية عهدت

اليه ولاية مرعش ولم يلبث بهـــا الا قليلا ثم استقدم لتولي نظارة الاوقاف الهمايونية وفي سنة ١٢٩٠هعين ناظراً للمعارف العمومية وفي السنة التالية انحرفت صحة كامل باشا رئيس مجلس شورى الدولة فعين هو نائباً عنه واحيلت إليــه أيضاً ولاية يانيه وفي سنة ١٢٩٢ ﻫ أعيدت اليه نظارة المعارف العموميــة . وفي اواخر هذه السنة عهدت إليه نظارة العدلية ثم اقتضت الاحوال ان يتولى تفتيش الروم ايلي مع بقائه على العدلية وفي تلك السنــة سمي والياً على سوريا وقبل أن يأتيها اعيد الى نظارة المعارف العمومية وبعد اشهر رجعت إليه نظارة العدلية .

وفي سنة ١٢٩٤ ﻫ تقلد نظارة الداخلية وعهد إليه أن يرتب جنــداً من سكان الأستانة باسم الموكب الهمايوني . وفي أواخر تلك السنة نقل من نظارة الداخلية الى نظارة الاوقاف الهمايونية وفي سنة ١٢٩٥ﻫ تعين والياً على سوريا ولكنه لم يقم فيها طويلاً بسبب اختلال ظهر في قوزان اقتضى مســيره الى اصلاحه وفيما هو عائدٌ منها فصل عن سوريا وتعين ناظراً للتجارة والزراعـة في دار السعادة .

وفي سنة ١٢٩٦ﻫ استعفى خير الدين باشا من مسند الصدارة فقام هو بمهامها مؤقتاً ثم عهدت إليه نظارة العدلية . وفي سنة ١٣٠٠ﻫتغير الوكلاء جميعـــاً فاعتزل الاعمال واكب على المطالعة والتأليف وفي سنة ١٣٠٣ﻫ تعـين مأموراً لقمسيرية الروم ايلي الشرقي ولكنه تأخر عن السفر بسببتكدير جو السياسة إذ ذاك فعاد الى نظارة العدلية . وفي السنة التالية انعم عليه جلالة السلطان بنيشان الامتياز وفي أواخر سنة ١٣٠٥ﻫ انفصل عن نظارة العدلية وبقي من اعضاء مجلس الوكلاء الى ان توفاه الله في ٢ ذي الحجة سنة ١٣١٢ ﻫ وصدرت الارادة الشاهانية ان تنفق حاجيات التجهيز والدفن من الجيب الهمايوني وقد

دفن في تربة السلطان محمد الفاتح وله من العمر ٧٤ سنة قضاها في خدمة الدولة والامة علماً وعملاً .

وكان عالماً فاضلاً اشتهر في كثير من العلوم الاسلامية والتاريخ وكان يعرف اللغات التركية والفارسية والعربية معرفة جيدة تكلما وكتابة مع المام بالفرنساوية والبلغارية. وكان سهل الخلق كريم الخصال وديعاً متواضعاً واسع العلم عالي الهمة مخلصاً للدولة .

مؤلفاتـــه :

أما مؤلفاته فعديدة في التركية والعربية بين مطبوع وغير مطبوع اشهرها واكبرها تاريخ آل عثمان المعروف بتاريخ جودت طبع بالتركية في تسعة مجلدات وهو جليل في بابه بل هو المرجع الوحيد لتاريخ الدولة العلية . وقد عني في نقله من اللسان التركي الى العربي عبد القادر افندي الدنا رئيس محكمة تجارة بيروت فنشر منه الجزء الاول سنة ١٣٠٧هـ مطبوعاً طبعاً متقناً في بيروت.

ومن مؤلفاته رسائل عديدة في العربية وبعض التعليقات طبعت مجموعة واحدة . وله تتمة شرح ديوان صائب المشهور في الدواوين الفارسية . وكان قد شرع في شرحه فهيم افندي وتوفي قبل نجازه . وله ترجمة القسم الثالث من مقدمة ابن خلدون وهي منشورة باسمه والقسمان الاولان ترجمها صائب افندي. وله بيان العنوان والمعلومات النافعة وتقديم الادوار وكلها رسائل مطبوعة بالتركية . وله في علـــم المنطق كتاب اسمه (ميعاد سداد) وفي علم الادب (آداب سداد) ومؤلفات في روايات الانبياء وتواريخ الخلفـــاء مع ترجمة التاريخ المقدس وقد طبعت وشاعت في المدارس للتدريس. وله رسالة في كيفية تربية التوت والدود وقانون نامه الاراضي والنظام المتفرع عنه مع قانون نامه

الجزاء الهمايوني وجميع النظامات وتواريخ القوانين الصادرة من مجلس التنظيمات. وله كتاب في ترتيب وظائف العدلية وابتداء تشكيلها مع تنظيم مجلة الاحكام العدلية تحت رئاسته كما قدمنا. وله تعليمات مخصوصة في نظارة المعارف لتدريس الطلبة على اساليب سهلة جديدة وجميع ذلك باللغة العثمانية على أن بعضها قد ترجم الى اللغة العربية كتاريخ آل عثمان ومجلة الاحكام العدلية وغيرهما .

محمد مختار باشا المصري

ترجمة حاله :

ولد في بولاق مصر سنة ١٨٣٥هـ . وقرأ مبادىء العلم في مدرسة عباس الأول وفي مدارس أخرى وتلقى الفنون العسكرية في مدرسة البوليتكنيك وانتظم في خدمة الجيش المصري وهو في الثانية والعشرين من عمره وما زال يرتقي في مناصب الجهادية حتى نال رتبة لواء سنة ١٨٨٦ م .

وتولى عدة مناصب مهمة في انحاء السودان قبل ظهور المهدي . فلما فتحت الحكومة المصرية اقليم هرر كان صاحب الترجمة اركان حرب الحملة التي سارت لذلك الفتح . ثم تعين رئيس عموم اركان حرب السودان ولما عقد مؤتمر جنوه العلمي انتدب لينوب فيه عن القطر المصري . ويدل ذلك على ثقة الحكومة الخديوية في اهليته .

وبعد خدمات متوالية في نظارة الحربية عينه الجناب الخديوي مأموراً للخاصة الخديوية وما زال في هذا المنصب حتى توفي وقد حاز النيشان العثماني



محمد مختار باشا المصري
١٨٣٥ م. – ١٨٩٧ م.

الثاني والمجيدي الثاني والملوكي الايطالي الثاني ومدالية الامتياز الذهبية . وكان عاملاً نشيطاً ساهراً على مصلحته وواجباته. واصيب في أواخر اعوامه بمرض ما زال يتردد عليه حتى قضى انفاسه الاخيرة في ٢٠ نوفمبر سنة ١٨٩٧ م .

مؤلفاته وآثاره :

لصاحب الترجمة عدة مؤلفات أكثرها رياضية فلكية وهي :

١ – **التوفيقات الالهامية :** وهو تقديم كبير لمقارنـــة السنين الهجرية

بالسنين الافرنجية والقبطية من السنة الأولى للهجرة الى عام ١٥٠٠ بعدهامرتبة في جداول سنوية . وقد جعل الاشهر في كل سنة منها متناسقة على ما يقارن اول كل شهر عربي . وبازاء كل شهر أهم الحوادث التاريخية التي وقعت فيه وخصوصاً الحوادث الاسلامية والمصرية بحيث يصح ان يكون هذا الكتاب تقويماً حسابياً يومياً ومعجماً تاريخياً لالف وخمسمائة سنة هجرية . وقد جعله تقدمة لسمو الخديوي عباس باشا الثاني .

٢ – المجموعة الشافية في علم الجغرافية ومعها اطلس جغرافي .

٣ – جداول تحويل المسطحات المترية الى ما يقابلها من الفدان والقيراط والسهم يبدأ من جزء من مئة من السهم وينتهي الى ألف فدان .

٤ – ترجمة حال المرحوم محمود باشا الفلكي .

٥ – رسالة في سيرة الجنرال ستون الاميركاني وخدماته للحكومة المصرية .

٦ – مختصر في تبيين كيفية حساب القديم واوقات الصلاة .

٧ – رسالة في الكلام على بلاد زيلع وهرر والجالا (بالفرنساوية) .

٨ – رسالة في بلاد الجاديبورسي (بالفرنساوية) .

٩ – رسالة في رأس هافون ووادي تهوم (بالفرنساوية) .

١٠ – رسالة في الكلام على ابتداء الاشهر الهلالية في السنة الاسلامية (بالفرنساوية) .

١١ – رسالة في السودان الشرقي (بالفرنساوية) .

١٢ – رسالة في تحديد اطوال المقاييس والمكاييل والأوزان المصرية

ومقارنتها بالمقاييس الفرنساوية والانكليزية (طبعت بالعربية والفرنساوية) .

١٣ – نبذة تتضمن اقامة البرهان على معرفة قدماء المصريين لحقيقة شكل أرض .

١٤ – مقالة في تخطئة القائلين بامكان استعمال ساعة عامة أو ساعات محددة لجميع اقطار الدنيا . وقد تليت هذه المقالة والتي قبلها على أعضاء المؤتمر العلمي في جينوه .

١٥ – الطريقة العلمية لاستعمال المسطرة المصرية في قياس القواعد الجيوروزية .

١٦ – جدول لرسم خطوط الاطوال والعروض لاية طريقة جغرافية .

وللمترجم اختراع فلكي يهم المسلمين كثيراً وهو « دليل القبلة الاسلامية العام » وضعه بضبط وسعة لم يسبق لهما مثيل وهو آلة دقيقة عرضت على الجناب الخديوي وحازت قبوله .

وبالجملة ان صاحب الترجمة لم يكن يغفل يوماً عن التفكير في تأليف أو اختراع . وأكثر ما وجه انتباهه اليه الرياضات كما رأيت .

الشهاب الآلوسي

العالم العراقي الشهير [1]

هو السيد محمود افندي شهاب الدين ابو الثناء المفسر الشهير بالوسى زاده البغدادي مفتي الحنفية بالعراق ابن صلاح الدين السيد عبدالله افندي رئيس المدرسين في بغداد ومدرس المدرسة العظمى في جامع الأمام الأعظم . ابن السيد محمود افندي الخطيب وينتهي نسبه الى الأمام الحسين . واما امه فصالحة بنت الشيخ حسين افندي العشاري صاحب الديوان المعروف باسمه ومؤلف حاشية شرح الحضرمية في فقه الشافعية .

ولد في جانب الكرخ من بغداد في شعبان سنة ١٢١٧ هـ . وهو من بيت عريق في النسب ضليع في الأدب ينسب الى آلوس وهي جزيرة وسط نهر الفرات على ٥ مراحل من بغداد فرّ اليها اجداده من وجه هولاكو التتري عندما دهم بغداد وفتك باهلها .

ومنذ نحو ثلثمائة سنة رجع ابناؤه الى بغداد ولبثوا فيها حتى الآن . وكان صاحب الترجمة في صغره آية في الذكاء فقرأ العلوم على والده وغيره واستجاز علماء كثيرين كالشيخ علي البغدادي والشيخ علاء الدين الموصلي ومحدث الشام الشيخ عبدالرحمن الكزبري ومفتي بيروت الشيخ عبد اللطيف وشيخ الاسلام ومفتي الديار الرومية احمد عارف بك واقف المكتبة العظمى

---

(١) اعتمدنا في تحقيق هذه الترجمة على سليمان افندي البستاني ناظم الالياذة العربية .

في المدينة المشرفة . وقرأ وهو شاب بعض الدروس في علم الكلام على الولي المشهور بمولانا خالد الكردي النقشبندي حينما ورد بغداد . ولم يبلغ الثالثة عشرة من عمره حتى نبغ في عدة علوم ثم اخذ يشتغل بالتدريس والتأليف فتخرج عليه كثير من الفضلاء وقصده الطلبة من كل صقع وناد واستجازه الجم الغفير من ذوي العلم والادب . وما لبث ان اصبح العلم المفرد وعلامة العراق فتولى المدرسة المرجانية واوقافها وقلد سنة ١٢٤٨ هـ منصب افتاء السادة الاحناف وظل وهو في ذلك المنصب الخطير يشتغل في التأليف وتدريس العلوم وقضاء الحاجات لا يضيع ساعة من وقته ولا يضن بشيء مما انعم به الله عليه من العلم والجاه والمال. وسنة ١٢٦٢ هـ قصد الاستانة العلية في عهد السلطان عبد المجيد وعاد منها سنة ١٢٦٧هـ بالمنح السنية وتفصيل رحلته ذهاباً واياباً مدون في سفرين دعاهما نشوة الشمول ونشوة المدام وله تأليف وتصانيف كثيرة منها :

١ — روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني : وهو أعظمها شأناً وأجلها قدراً في تسعة أسفار كبار جمع فيه خلاصة ما في سائر التفاسير وأزال المشكلات بيراع يدل على ما كان له من غزارة المادة وراسخ العلم وطول الباع في هذا الموضوع وقد قال فيه احد تلامذته :

ان كان محمود جار الله قد جمعت   له المعاني بتفسير وتبيان
فان محمودنا الحبر الشهاب له   روح المعاني وكان الفخر للثاني

وقد طبع في مطبعة بولاق سنة ١٣٠١ هـ على عهدة ولده متولي المدرسة المرجانية الشيخ نعمان افندي خير الدين .

٢ — الأجوبة العراقية وقد طبع في الاستانة .

٣ – الطراز المذهب في شرح القصيدة الممدوح بها الباز الاشهب : طبع في مصر .

٤ – شرح درة الغواص في اوهام الخواص : طبع في دمشق الشام .

٥ – كتاب المقامات الخيالية : طبع في كربلاء .

٦ – كتاب الاجوبة العراقية عن الأسئلة اللاهورية : طبع في بغداد .

٧ – نشوة الشمول ونشوة المدام : طبع في بغداد أيضاً .

٨ – الفيض الوارد في الشيخ خالد : طبع في مصر .

٩ – شرح القصيدة العينية في مدائح امير المؤمنين علي كرم الله وجهه : طبع ايضاً في مصر .

١٠ – نزهة الالباب : وهي الرحلة الكبرى الجامعة لتراجم الرجال والابحاث العلمية التي جرت بينه وبين شيخ الاسلام .

١١ – حاشية شرح القطر لابن هشام : الفها في شبابه .

١٢ – حاشية على شرح ابن عصام في الاستعارة : ألفها في شبابه ايضاً .

١٣ – حاشية على مير ابي الفتح في علم آداب البحث .

١٤ – شرح البرهان في اطاعة السلطان .

١٥ – سفرة الزاد لسفرة الجهاد .

١٦ – حاشية على حاشية عبد الحكيم السيالكوتي : في علم المنطق .

١٧ – رسالة في الامامة رداً على الشيعة .

وله علاوة على ما ذكر رسائل وفتاو وحواش وتعليقات كثيرة انتهبت ايدي الزمان كثيراً منها والباقي غير مطبوع . وتوفي في ٢٥ ذي القعدة

سنة ١٢٧٠ هـ ودفن قرب والده المتوفي بالطاعون سنة ١٢٤٨هعن يمين الذاهب الى الشيخ معروف الكرخي قريباً من باب مسجده في الشونيزية وقبره الآن مشهور يزار .

وكان رحمه الله ربع القامة واسع العينين ضخم الكراديس ريان الجسم غير سمين كث اللحية ابيض اللون مشرباً بحمرة يخيل بوجهه اثر الجدري كريماً مهيباً وقوراً وديعاً محبّاً للفقراء . وكان مجلسه مجمعاً لارباب الفضل والعلم . ومن قرأ رسائل علماء زمانه ووقف على دواوين فحول الشعراء في العراق كعبد الباقي الفاروقي والسيد عبد الغفار الاخرس ورأى انه بيت قصيدهم والامام الذي يرجع اليه علم ما كان له من علو المنزلة والشأن . وقد كتبت الاسفار المطولة في ترجمته منها كتاب « حديقة الورود في مدائح ابي الثناء شهاب الدين السيد محمود » تأليف تلميذه الملا عبد الفتاح افندي المعروف بشواف زاده وهو كتاب كبير في نحو مجلدين وكتاب « اريج الند والعود في ترجمة مولانا العلامة شهاب الدين السيد محمود » لبعض تلاميذه أيضاً . وترجمة للسيد محمد ثابت الدين البغدادي وله فضلاً عن تآليفه الكثيرة شعر لا نعلم انه جمع في ديوان واكثره في الورع والحكم والتصوف فمن ذلك قوله :

أنا مذنب أنا مجرم أنا خاطىء هو غافر هو راحم هو عافي
قابلتهن ثلاثة بثلاثة وستغلبن اوصافه اوصافي

وقد نظم شعراء عصره القصائد الرنانة في وصفه وتعداد مناقبه . وفي جملة المعجبين بين والناظمين في مدحه الشيخ عبد الباقي العمري والشيخ عبدالغفار الاخرس وغيرهما من شعراء العراق .

وقد نال من المغفور له السلطان عبد المجيد علامات شرف في جملتها الوسام المرصع العلي الشأن .

محمود حمزه الحسيني

العالم الدمشقي الشهير [1]

يتصل نسب السيد محمود حمزة الحسيني بعائلة من اقـــدم عائلات دمشق حسينية الانتساب أصلها من حران وهاجرت الى دمشق منـذ قرون وتوالت نقابة الاشراف فيهم عدة أجيال حتى عرفوا ببيت النقيب . وأول من تولاها منهم اسماعيل ابن حسين النتيف سنة ٣٣٠ هـ. ونبـغ منهم جماعـة من العلماء وأهل الفضل ونالوا الرتب العالية لدى ولاة الامر وقد سموا بيت حمزة نسبة الى حمزة الحراني أحد أجدادهم . وقد ذكر المحبي ترجم بعضهم واورد سلسلة انسابهم الى النبي .

أما صاحب الترجمة فهو محمود بن محمد نسيب ولد في دمشق الشام سنة ١٢٣٦ هـ . ونشأ في حجر والده كما ينشأ ربيب العز والمجد . وكانت المدارس في ايامه ضعيفة فتعلم القرآن واتقن الخط في مكتب ابتدائي وهو في الثانية عشرة واشتهر خطه بالجمال من ذلك الحين ثم عكف على اكتساب العلم واكب على المطالعة والتبحر على علماء دمشق فأخذ الفقه والنحو والصرف والاصول والكلام عن الشيخ سعيد الحلبي وتلقى الحديث والمصطلح عن الشيخ عبد الرحمن الكزبري والتفسير والتصرف عن الشيخ حامد العطار . والمعاني والبيان عن الشيخ عمر الامامدي والفرائض والحساب والعروض عن الشيخ حسن الشطي . والحكمة والوضع والآداب عن منلا بكر الكردي واجيز من الجميع . وطالع

---

(١) اعتمدنا في تحقيق هذه الترجمة على نعمان افندي قساطلي صاحب تاريخ دمشق .

اللغة التركية وبرع فيها وصار من اكابر علمائها والمتبحرين فيها يدرك اسرارها ويروي نكاتها ومنظوماتها وآدابها كأحسن فضلائها . ولما اشتهر فضله وجهت اليه النيابات الشرعية سنة ١٢٦٠هـ ولبث الى سنة ١٢٦٨هـ وسافر الى الاستانة والاناضول بعد ان انتظم في سلك الموالي سنة ١٢٦٦ هـ ورجع الى دمشق ثم انتظم في سلك اعضاء مجلسها الكبير الذي الفي سنة ١٢٧٧هـ بعد الحادثة المشهورة وكان في اثناء هذه المدة قد الف تفسيره المهمل والقاموس المهمل الذي ألفه للاستعانة به على التفسير المذكور . وقدم تفسيره للسلطان عبد المجيد فأنعم عليه بالنيشان المجيدي الرابع وكانت النياشين في ذلك الوقت عزيزة لا ينالها الا اصحاب الاعمال العظيمة . وكان يشتغل بالتأليف والتدريس والمطالعة والنظم . وفي سنة ١٢٨٤هـ تولى افتاء دمشق بل افتاء الديار الشامية لان سوريا كانت ولاية واحدة . وظل في وظيفته هذه الى آخر حياته ونال اسمى المراتب العلمية الرسمية واوسمة الدولة العلية مجيدية وعثمانية لحد الرتبة الثانية . واهداه نابليون الثالث امبراطور فرنسا على اثر حادثة دمشق (المشهورة بحادثة سنة ١٨٦٠ م) جفتاً بطقم ذهب في صندوق من عاج اقراراً بجميله لما اتاه من الخير بمساعدته مسيحيي دمشق في تلك الحادثة المشؤومة . وحصل بصنيعه المذكور على رضا الدولة العلية واحترام عظماء اوربا وثقتهم .

وكان مع تبحره بالعلم واشتغاله به وبمنصبه آية في صناعة اليد يشتغل أدق الاشغال اليدوية واتقنها بغاية الضبط والانتظام . وأما في الكتابة فقد كان آية الزمان بها فكان يكتب جميع الخطوط بغاية الضبط والجمال فضلاً عن تفننه بهذه الصنعة . فقد كتب الفاتحة على حبة أرز وبقي ثلث الحبة فارغاً وترى الكتابة بالعدسية واضحة جميلة الخط جداً . وأغرب من ذلك

كتابته على ورقة بمساحة فص الخاتم اسماء شهداء وقعة بدر الكبرى وهم ٣١٧ ولكثرة مشاغله مال الى الرياضة لتجديد قواه فاختار الصيد ومال اليه وغرم به وكان يصرف به أوقات الفراغ فصار صياداً مشهوراً . وقد بلغ بالرماية مبلغاً عظيماً واشتهر بها فيرمي مئة رمية ولا يخطىء في واحدة وقيل أنه ما وجه بندقيته الى شيء وأخطأه إلا ما ندر جداً وبالاجمال انه اتقن كل ما تعاطاه .

وكان مقصوداً في قضاء الحاجات يحبه الناس على اختلاف المراتب والنحل يحترمه رجال الدولة والولاة والأجانب . وكان صادقاً في القول والفعل محباً لوطنه ودولته مستقيماً متضعاً يأبى الفخفخة . ومع كثرة علامات شرفه وتعداد أوسمته لم يظهر مرة بها الا عند الضرورة .

وكان يعتبر الوقت ثميناً لا يضيعه بلا عمل وهذا ما مكنه من القيام بمشاغله الكثيرة وأعماله الخطيرة . ولذلك كان يميل الى الوحدة لا يتداخل فيما لا يعنيه .

وكان ذا مهابة وجلال إذا مر بطريق وقف له الناس وتسابقوا بتأثير حبهم له لتقبيل يديه مع ابائه ذلك عليهم لمخالفته طبعه فلدفع هذا كان يختار السلوك في الطرق التي لا يكثر فيها المارة .

وقد نظم القصائد الفريدة وصنف التصانيف المفيدة وهاك أسماءما صنفه:

١ – تفسير القرآن بالحرف المهمل في مجلدين كبيرين سماه درر الأسرار .

٢ – الكمل الى الكلام المهمل الفه للاستعانة به على التفسير المذكور .

٣ – كتاب الفتاوي نظماً في مجلد .

٤ – الفتاوي المحمودية (أو الحمزاوية) مجلدان ضخمان .

٥ – نظم الجامع الصغير للامام محمد نحو ثلاثـة آلاف بيت من البسيط على قافية واحدة في مجلد أوله :

حمداً جزيلاً لذي الاحسان والكرم ثم الصلاة على الهادي الى الامم

٦ – نظم أصول الفقه نحو ذلك من البحر والقافية المذكورة .

٧ – القواعد الفقهية .

٨ – قواعد الاوقاف .

٩ – تحرير المقالة في الحيلولة والكفالة على مثال لم يسبق اليه .

١٠ – جدول الاحق بالحضانة للولد .

١١ – خلل المحاضر والسجلات .

١٢ – كشف الستور عن المهاياه في الماجور .

١٣ – كشف القناع وهو شرح بديعية والده .

١٤ – غنية الطالب . وهو شرح رسالة الصديق لعلي بن ابي طالب

١٥ – تنبيه الخواص على ان الامضاء في الحدود لا في القصاص .

١٦ – رسالة في الدرهم والمثقال .

١٧ – مصباح الدراية في إصلاح الهداية .

١٨ – التفاوض في التناقض .

١٩ – رفع الغشاوة عن جواز أخذ الاجرة على التلاوة .

٢٠ – السوار اللامع في أصول الجامع .

٢١ ـ التحرير في ضمان الآمر والمأمور والاجير

٢٢ ـ فتوى الخواص في حل ما صيد بالرصاص .

٢٣ ـ فصيح النقول في جواز دعوى المرأة بالمهر بعد الدخول

٢٤ ـ كشف المجانة عن الفسل في الاجانة .

٢٥ ـ الكواكب الزاهرة في الاحاديث المتواترة .

٢٦ ـ شرح صلاة ابن مشيش .

٦٧ ـ العقيدة الإسلامية .

٢٨ ـ كتاب ترجيح البينات المسماة بالطريقة الواضحة .

٢٩ ـ عنوان الأسانيد .

٣٠ ـ الأجوبة الممضاة على أسئلة القضاة .

٣١ ـ مختصر الجرح والتعديل .

٣٢ ـ صحيح الاخبار عن التنقيح ورد المحتار .

٣٣ ـ أعلام الناس .

٣٤ ـ القطوف الدانية في خبث أجر الزانية .

٣٥ ـ البرهان على بقاء دولة آل عثمان إلى آخر الزمان .

وله غير ذلك عدة رسائل منها أرجوزة في علم الفراسة . واعتراه في أواخر عمره ضعف برجليه فلزم بيته ولم يخرج منه إلا قليلاً مع ملازمة وظيفته والعمل بموجبها . وفي اليوم التاسع من محرم سنة ١٣٠٥ ﻫ . وافته المنية عن ٦٩ سنة فكبر خطبه وعظم مصابه وتقفلت دوائر الحكومة

وتوقفت أشغال المدينة في ذلك اليوم واذن له بالمآذن وعم الحزن والأسف عموم الناس .

وكان ربع القامة ممتلىء البدن قوي العضل أسود الشعر طفح الوجه عالي المحيا عريض الحاجبين أفرقهما أسود العينين حاد النظر دقيق الأنف متوسط اللحية وقد وخط الشيب نحو ربعها حنطي اللون أشعر الجسم وكان بالاجمال حسن المنظر عظيم الهيبة .

امين شميل

ترجمته :

هو ابن المرحوم ابراهيم شميل من محتد كريم ولد في كفرشيما من أعمال لبنان في ٢٤ فبراير سنة ١٨٢٨م. وقد اشتهرت هذه القرية بجماعة من النابغين في العلم والادارة كآل اليازجي وآل شميل وآل تقلا وقد وردت تراجم بعضهم في هذا الكتاب .

دخل صاحب الترجمة في السنة الحادية عشرة من عمره مدرسة المرسلين الاميركانيين فتلقى فيها مبادىء النحو والحساب واللغة الانكليزية ثم تتبع درس اللغة العربية والفقه على أساتذة أفاضل نذكر منهم السيد محيي الدين أفندي اليافي .

ولم يكد يبلغ الحادية والعشرين من عمره حتى صار رجلاً يركن إليه في حل المشاكل فتولى الفصل في خلاف عظيم وقع سنة ١٨٤٩م . بين البطريرك مكسيموس مظلوم والمطران أغابيوس فقضى من أجل ذلك سنتين في رومية



امين شميل

١٨٢٨ - ١٨٩٧م.

وزمناً في الاستانة حتى صرف المشكل على ما أراد .

وفي يوليو سنة ١٨٥٤م . قصد انكلترا فتعرف في لوندرا إلى أحد تجار المسلمين المشهورين السيد عبدالله ادلبي قنصل الدولة العثمانية في مانشستر فاتخذه السيد مديراً لأشغاله التجارية . وفي سنة ١٨٥٦م . أرسله إلى بيروت بمهمة تجارية فانجزها وعاد إلى منشستر واستأذن السيد عبدالله ادلبي بفتح محل تجاري على حسابه الخاص في مدينة ليفربول فأذن له بذلك وشرع من ثم يشتغل بالتجارة . وفي سنة ١٨٦٢م . ترك أخاه بشاره في ليفربول يدير حركة محله وجاء سوريا ثم الاسكندرية وفتح فيها محلاً تجارياً مكث فيه نحو

عشرة أشهر ثم أدخل أخاه المرحوم ملحم في المحل وأطلق عليه اسم شميل اخوان وشركاهم . وفي سنة ١٨٦٣م . عاد إلى ليفربول واتسع نطاق تجارته فيها اتساعاً عظيماً حتى كان يستأجر بواخر على حسابه الخاص لنقل بضائعه من سوريا ومصر إلى انكلترا ومن انكلترا إلى هذين القطرين . وفي تلك الأثناء ارتفعت أسعار الاقطان وكلفه بعض عملائه بالاسكندرية ببيع ثلاثين ألف قنطار على التسليم بأسعار تعدل الليبرة فيها ٢٥ بنساً ثم ارتفعت الأسعار إلى ٣٠ بنساً وقصر تجار الاسكندرية في تسديد ما عليهم فخسر رجل الترجمة بسبب ذلك ما بين فرق كونتراتات وخسائر أخرى ثمانين ألف جنيه وفي سنة ١٨٥٩م . جدد محله التجاري بشركة أسهم رأسماها أربعون ألف جنيه . وفي سنة ١٨٧٥م. صفى أشغال محله في ليفربول وترك تلك المدينة وقصد القطر المصري واشتغل في التجارة بالاسكندريه ومديرية الغربية فخسر مع الفلاحين اثني عشر ألف جنيه .

على ان فشله في التجارة بما توالى عليه من الخسارة لم يفل عزمه ولا اقعده عن العمل وهو يكاد يناهز الستين من عمره فعمد الى استخدام مواهبه العقلية الأخرى فعدل عن التجارة إلى التعيش من العلم فاختار مهنة المحاماة مع ما تحتاج إليه هذه المهنة من التعقل والصبر على المراجعة والمقابلة والتبحر والاستنتاج . وأصدر سنة ١٨٨٦م . جريدة حقوقية سماها الحقوق وهي أول جريدة صدرت في هذا الموضوع في اللغة العربية . ولا تزال الحقوق حيّة يصدرها ابراهيم أفندي الجمال المحامي وقد تولى معاونة صاحب الترجمة بضع عشرة سنة وعليه اعتمدنا في كثير من حقائق هذه الترجمة .

ولم يمض زمن على اشتغال المترجم في المحاماة حتى نال ثقة رجال القضاء خصوصاً والناس عموماً بما فطر عليه من الصدق والاجتهاد ولين العريكة

وسلامة الطوية . على ان المصيبة التي أصابته بفقـد ولديه في سنة ١٨٨٦م . وهما ارثر في عمر ١٧ سنة وفردريك في عمر ٢١ سنة وبين الواحد والآخر ١٢ يوماً فقط أسست في قلبه الأحزان المستمرة ثم جاءت وفاة ابنته البكر امينة سنة ١٨٩٦م . فقوضت بنيته المتينـــة حتى انحلت قواه وأتاه القدر المحتوم فلباه .

مؤلفاتـــه :

ترى مما تقدم ان المترجم قضى معظم حياتــه العملية في التجارة ولكنه كان وهو تاجر يشتغـــل في العلم التماساً للذة البحث والكتابة فكان يؤلف الكتب وينظم القصائد وينشىء المقالات فيقضي ساعات الفراغ بما يلذ ويفيد على ان اشتغال رجال التجارة بالعلم في ساعات الفراغ كثيراً ما يكون عوناً لهم على الارتزاق عنـد الضرورة كما اتفق لصاحب الترجمة . فلما انقطع للقضاء انصب بكليته إليه فكتب فيه وفي غيره مؤلفات عديدة منها :

١ – الوافي للمسألة الشرقية في كتـــابين ينقسمان إلى ستة أجزاء كبار تشتمل على تاريخ الإسلام إلى حرب الروس طبع منـــه جزء في نحو ٥٥٠ صفحة كبيرة .

٢ – مقدمات تاريخية علمية . نشرت تباعاً في الحقوق من سنة ١٨٨٦م .

٣ – بستان النزهات في فن المخلوقات . وهو ثلاثة أقسام لم يطبع .

٤ – سهام المنايا : وهي رسالة ردّ فيها على بعض المعـترضين على الوافي حذا فيها حذو ابن زيدون في رسالته المشهورة .

٥ – المبتكر : هو كتاب مبتكر في بابه يشتمل على خمس مقامات تدعى

مقامات الاوهام في الآمال والاحكام وخمس وعشرين قصيدة مؤلفة من الف وستة وخمسين بيتاً شرح فيها درجات حياة الانسان السبع من حين تصوره في الرحم الى موته وتواريه في التراب (طبع غير مرة) .

٦ - الزفاف السياسي . وهي رواية تشخيصية رمزية تمثل حالة الدول في أبان حرب الروس سنة ١٨٧٧م (لم تطبع) .

٧ - مشروع البنك الوطني . رسالة عرض فيها على الحكومة المصرية انشاء بنك وطني اهلي تشتمل على تفاصيل وافية في بابها .

٨ - نظام الحكومة الانكليزية .

٩ - السدرة الجلية في المباحث القضائية .

١٠ - جريدة الحقوق المتقدم ذكرها وهي الآن في سنتها الثامنة عشرة . وكان شاعراً مجيداً نظم كثيراً من القصائد الحكمية والفلسفية .

صفاته الشخصية وأخلاقه :

كان ربع القامة ضخم العضل أبيض اللون اصلع الجبهة حليق الذقن مهيب المنظر مقداماً على الاعمال جلوداً على التعب صبوراً على المصائب كثير العناية في اشغاله شديد المحبة لبنيه وافراد عائلته لين العريكة كريم النفس بادي المروءة حاد الطبع في اواخر عمره سريع الرضا قوي الذاكرة شديد الذكاء عزيز النفس صادقاً حر الضمير واللسان . وبالجملة فقد كان مثال الرجولية وعنوان رجال الاعمال .

وقد رثاه شقيقه الدكتور شبلي بمراثاة فلسفية نذكر منها الابيات الآتية :

ذعر الناس انهم مايتونا   جهل الناس انهم ذاهلونا

حيرة المرء في الوجود حياة كل يوم تريك منها شؤونا
قال قوم اعياننـا باقيات قال قوم بل اننا فانونا
ان آثارنا لأثبت منا تلك آثارنا تدوم قرونا
قسم الناس بين خلق يجازي ثم قوم يعدٌ ذاك مجونا
هل دريتم بما جنيتم فمظلو مون انتم وأنتم الظالمونا

الشيخ محمد العباسي المهدي (١)

هو - ابن الشيخ محمد امين المهدي مفتي الديار المصرية الاسبق المتوفي سنة ١٢٤٧ﻫ نجل المغفور له شيخ الاسلام الشيخ محمد المهدي — ولد صاحب الترجمة سنة ١٢٤٤ ﻫ وتوفي والده وهو ابن ثلاث، واخوه الشيخ محمد عبد اللطيف المهدي ابن خمس . وكان لابيهما شركة مع والي مصر الاسبق المرحوم ابراهيم باشا في مصنوعات القصر من اقمشة وغيرها من تجـارة الاقطار السودانية . وبعد والد المترجم حصرت المعية تركته باعتبار انه مدين. وقد استمر المترجم واخوه في اضطهاد وضيق عيش بسبب ذلك حتى تأهلا لطلب العلم بالازهر الشريف واجتهدا في تحصيله على المرحوم الشيخ ابراهيم السقا والشيخ البلتاني والشيخ خليل الرشيدي . ثم لما ظهر الحق للمغفور له ابراهيم باشا في امر ادانة والد المترجم افرج عن التركة واستدعي المترجم واسدل عليه خلعـة الافتاء في محفل من الاكابر والعلمـاء ونزل بموكب حافل في ذي القعدة سنة ١٢٦٤ ﻫ وكان حين ذاك يحضر مقدمة السعد على الشيخ السقا . ومما استلفت

(١) بقلم نجله الشيخ محمد عبد الخالق الحفني .

انظار الجناب العالي الى اعادة تلك المناصب العالية الى ذلك البيت ان شيخ الاسلام في الاستانة اوصى المرحوم ابراهيم باشا بنجلي المرحوم محمد امين المهدي مفتي مصر الاسبق لما كان يعهده في ابيهما من الامانة وحسن المعاملة والحماية عن الدين .

وحيث كان عمر المترجم اذ ذاك احدى وعشرين سنة قد عين استاذه الشيخ خليل الرشيدي اميناً للفتوى ولحداثة سنه ايضاً لاقى من اهل صناعته ما دعاه الى التحري والتحزر حتى اصبح اجدر ائمة عصره بهذه المكانة الرفيعة علماً وسياسة .

ومن جليل مقترحاته انه اخترع تطبيق الوقائع على النصوص الشرعية كما يشهد بذلك كتابه « الفتاوي المهدية » .

ثم ظهرت فيه الكفاءة التامة لاعظم وظائف الاسلام لما كان له من الادارة ولين العريكة والاقتدار العلمي والحزم والدهاء فأسدلت عليه شياخة الإسلام مع الافتاء في عهد المغفور له اسماعيل باشا في منتصف شهر شوال سنة ١٢٨٧م فدبر نظامها وأعاد لها ما انحلّ من مرتباتها الى ان ظهرت الفتنة العرابية فعزل عن شياخة الإسلام لتوقفه عن التوقيع على طلب عزل الخديوي السابق توفيق باشا بعد ان بذل من الحزم والدهاء والسياسة والشهامة ما حير به الألباب . ولم يتمكن احد من ان يمسه بسوء مع أهل تلك الفتنة من الاستبداد والانتقام من وضيع ورفيع ومن حسن تدبير المترجم ظلّ ناعم البال محبوباً لدى الأكابر والامراء .

ثم بعد ما خمدت نار الثورة وراقت سماء السياسة وانجلت تلك الاباطيل وكانت الدائرة على أهل التضليل اعيدت اليه شياخة الاسلام بالاستحقاق

واستمرّ هكذا مقلداً بكلتا الوظيفتين حتى عزل عنهما لمعارضته الحكومة فيما خالف الشريعة الغراء في عهد المرحوم الخديوي السابق توفيق باشا يومئـــذ وأعيدت شياخة الإسلام للشيخ الامبابي وقلد الافتاء الشيخ البنا .

وكان الشيخ البنا المذكور شديد الثقة باقتدار المترجم في العلم وغيرته على الدين حتى كان إذا سألته الحكومة ان يقضي في أمر مهم اعلنها بانه لا يقول في الأمر شيئاً إلا بعد ان يعرضه على المترجم . فكانت الحكومة تلح عليه في الطلب وتقول له انت المفتي الرسمي لا هو . فكان يجيب وان كنت ذلك إلا انه هو صاحب القول في الدين . واستمر ذلك الى ان عاد الافتاء الى المترجم بعد قليل واستمر معه الى ان اعتراه مرض المنية وقد عين في أثنـــاء تمرضه الشيخ حسونة النواوي وكيلاً عنه ثم أصيلاً بعـد حياته واستمر نحو سنتين وعزل عنه وتقلده المرحوم الشيخ محمد عبده .

وقد كان المترجم صاحب الحق دون غيره في تعيين القضـــاة الشرعيين والمفتيين (بخلاف الآن فان الحقانية هي صاحبة الحق وحدهـا) وكان يعين الاكفـــاء الغيورين ولذا كان يذب عن حقوقهم في كل ما يرى فيه مساساً لكرامتهم فقد اتاه الشيخ حسن العدوي مستفيثاً بـه حينما استصدر شيخ الإسلام الشيخ مصطفى العروسي امر المغفور له اسماعيل باشا بابعاده فتوسط له في العفو .

وقد كان المترجم رحمه الله شديداً في الدين لا يقول غير الصدق ولا يحيد عن الحق لا تثنيـــه المرهفات ولا تورطه المرجفات – كم رأى في سبيله من العقبات فأزالها بسيف هذا الدين وكم اؤتمن على أرقى المناصب فأداها بالامانة وكم هدده الأمراء بالقتل والنفي فلم يجدهم منه شيء ولم يرَ غير تعزيز الإسلام

ملاذاً لتطهير ذمته وشفيعاً له عند ربه يوم لا ينفع مال ولا بنون .

طلب منه المرحوم عباس باشا الأول فتيا بان ما بأيدي عائلة محمد علي باشا الاكبر من أطيان واملاك هو حق لبيت مال مصر إذ هو حاصل لهم من مال المصريين لما ظنه الوالي من احقية بيت المال به فلم يفتـه بل قال « لا يسأل المالك من اين ملك » وقد جوز ذلك وافتاه به بعضهم ولما كان من الرسميات افتاؤه تولى الطلب وهو لا يتحول عما أجاب به الى ان أمر بنفيـه في شهر رمضان الى ابي قير حيث كان بها الوالي يومئذ وكرر عليـه الطلب فأجابه اخيراً « ان الامير يأبى ان أترك الشرع حتى يقال عني غيّر أحكام الله وأهان الشريعة السمحاء ومع ذلك انا قابل النفي والقتل في سبيل تعزيز ديني » فلما رأى الوالي ان ذلك غير مجد وان المترجم مخلص لدينه ولا غرض له غير اعلاء كلمته أعاده الى مصر وأنعم عليه اقراراً بأحقية ما فعل وجزاءً له على مـا أصاب . وبهذا كان بينه وبين الأمراء المودة المكينة بعد عرفانهم بقيمته فقد كان بينه وبين سعيد باشا مودة يضرب بها المثل وخلع عليـــه الخلع الجزيلة ومنحه المنح الجليلة .

وقد كان المترجم عضواً في المجلس العلمي مع شيخه الشيخ السقا والشيخ العروسي والشيخ البقلي وكان اسماعيل نائباً عن الوالي سعيد باشا وقـــد صادفهم أمور معضلة قد توقف هو وحماة الدين الاعضاء المذكورين عن التصديق عليها لجنوحهم عن الأغراض والسير على غير نمط الشريعة الإسلامية .

وقد كانت عضوية هؤلاء الافاضل سبباً عظيماً في معرفة الخديوي الأسبق اسماعيل باشا قدر رجـــال الدين وقدر المترجم حتى ثبت مودة المترجم في فؤاده .

ومما رفع مكانته لدى الأمير المذكور انه أراد إلحاق الأوقاف الأهليـــة بالأوقاف العمومية حينما كان ناظرها وأراد ان يستعيض أربابها مـــا يكلف معاشهم وسأله الفتيا بالجواز حتى عظم الأمر لدى الأمير وتجمهر المخالفون له إلى أن توالت إليه الرسائل وازداد التهديد فأعلن المترجم أنه ليسهل عليــه تجرده مما يملك وما ورث عن أبائه من أن يعلن أنه حكم بما لم ينزل الله وانــه حابى بدينه أو راعه التهديد فراعى جانب المخلوق أو أخذته في الدين لومة. فبعد ذلك دعاه الوالي وعقد مجلساً تحت رئاسته ليقف على حقيقـــة الخلاف فحضر المترجم ودار حديث الشيخ مع مخالفيه الواحد بعد الواحد حتى اجمع الجميع وأقروا بخطإهم فازدادت مكانته رفعة وشكره الوالي لمحافظتـــه على حقوق الشرع الشريف وألغى افتاء غـــيره وصار المترجم مورد استشارة الحكومة في المهمات حتى أوصى المرحوم اسماعيـــل باشا نجله المرحوم توفيق باشا بالمحافظة على المترجم واستشارته في المعضلات لانه رجل الدولة والدين .

ثم ان اسماعيل باشا شرع في بيع شركة الهامي باشا لرغبته في اطيـــانها لدين غير مستغرق فتوقف معه المترجم وأورد إليـــه سبيلاً حلاً حتى ينال قصده بما هو أطهر وأطيب عند الله فأشار باقتران ولي العهد بكريمة المدين . وقد رأى الوالي هذه الطريقة أنسب واحفظ فاتبعها . وهكذا صار المترجم طول عمره في دفـــاع عن الدين خصوصاً في وظيفة الافتاء التي استمرت معه اثنتين وخمسين سنة . وأما الشياخـــة فاستمرت ثماني عشرة سنة ثم أصيب بنقطة وهو يتوضأ لاداء فريضة الجمعة وأحيلت وظيفة الافتاء إلى شيخ الجامع بصفته وكيلاً عنه كما ذكر وقد كان ملازماً لاداء الفريضة جماعـة طول عمره حتى في أيام مرضه الذي لازمه أربع سنين حتى مات في ليلة الاربعـاء ١٥ رجب سنة ١٣١٥هـ لاثنين وسبعين من العمر .

وأشهر مؤلفاته كتاب « الفتاوي المهدية في الوقائع المصرية » وهو كتاب مطول في الافتاء طبع بمصر في سبعة اجزاء وهو مشهور ومتداول .

امين باشا فكري

ولد أمين باشا في القاهرة سنة ١٢٧٢ هـ . (١٨٥٦م) وربي في حجر والده المرحوم عبدالله باشا فكري وستأتي ترجمته بين الشعراء وكان يومئذٍ في جملة مستخدمي الدائرة السنية على عهد المغفور له سعيد باشا . فلما بلغ أشده ادخله والده المدارس الاميرية على عهد المرحوم اسماعيل باشا الخديوي الأسبق ففاق اقرانه ذكاء واجتهاداً . فكان امتيازه هذا داعياً إلى إرساله في جملة الشبان الذين ارسلهم اسماعيل باشا إلى اكس بفرنسا لتلقي علم الحقوق . فعاد من المدرسة حاملاً الشهادة الناطقة بتبرزه في هذا الفن فتعين في المحكمة المختلطة ثم ولاه الخديوي السابق رئاسة النيابة في محكمة طنطا ثم ارتقى إلى رياسة النيابة في مصر سنة ١٨٨٨ م . وقد عرفناه في هذا المنصب نزيهاً نشيطاً قدوة العاملين ومثال اللطف والدعة وهو مع ذلك لا يفتر عن المطالعة والبحث . فألف في أثناء ذلك كتاباً مطولاً في جغرافية مصر والسودان وهو أطول جغرافية في بابها . ثم تعين سنة ١٨٨٩م . قاضياً في محكمة الاستئناف الاهلية فلم تزدد الحكومة الا ثقة به واعتماداً عليه وفي السنة التالية انتدبت المرحوم والده لرئاسة الوفد العلمي المصري في المؤتمر الذي انعقد في عاصمة اسوج اذ ذاك فصحبه نجله صاحب الترجمة في جملة اعضاء الوفد فشاهد اوربا ودرس احوالها فلما عاد كتب رحلة والده



امين باشا فكري

١٨٥٦ - ١٨٩٩ م

هذه وسماها « ارشاد الالبـاء الى محاسن اوربا » طبعت بمصر سنة ١٨٩٢م في كتاب ضخم .

ثم رأت الحكومة المصرية ان تنتدب لخدمة مصالحها الادارية رجالاً من اهل القضاء فكان صاحب الترجمة في جملة من تولى مصالح الادارة . فتولى محافظة الاسكندرية مدة اكتسب بها قلوب اهل الاسكندرية كافة . ثم انتدب لنظارة الدائرة السنية سنة ١٨٩٥ م وما زال عاملاً فيها حتى داهمه المرض فقضى مأسوفاً عليه في ١٧ يناير الماضي عن ٤٤ عاماً على اثر مرض كان يتردد اليه حيناً بعد آخر وعاوده هذا العام فتحسنت حالته وعاد الى مطالعة اوراق اشغاله في منزله والكل فرحون بصحته فبات ليلة ١٧ يناير والامل ملءُ صدورهم فاصبحوا فاذا هو قد فاضت روحه وهم لا يشعرون .

وكانت وفاته بعارض لا علاقة له بالعلة الاصلية .

ومن مآثره فضلاً عن الجغرافية المتقدم ذكرها وكتاب ارشاد الالباء انه عني بنشر مآثر المرحوم والده فجمع منظوماته ورسائله في كتاب سماه « الاثار الفكرية » وطبعه ونشره . وله كثير من الرسائل والمنظومات ولو مدّ في اجله واوتي صحة لجاء بما يخلد ذكره لانه كان اهلاً للعمل بما طبع عليه من الذكاء والنشاط ولكن المنون عاجلته .

الدكتور دري باشا

ترجمة حياته :

ولد في القاهرة سنة ١٢٥٧هـ وقد قام والده المرحوم السيد عبد الرحمن احمد من محلة ابي علي القنطرة (بالغربية) الى مصر بعد ان دخل العسكرية في زمن المغفور له محمد علي باشا الكبير واقام بها سنوات التحق فيها بالدكتور الطائر الصيت كلوت بك لامتيازه اذ ذاك بمعرفة الكتابة والقراءة . ثم عوفي من تلك الخدمة واختار الاقامة في مصر واشتغل فيها بالتجارة في الحبوب وغيرها ورزق بأولاد منهم صاحب الترجمة رباهم كلهم تربية حسنة بتثقيفهم في المدارس واختاروا الطب علماً وعملاً فكان لهم فيه ولأولادهم من بعدهم العمل النافع للبلاد والعباد .

ولما بلغ صاحب الترجمة السابعة من عمره (١٢٦٤هـ) أدخل مدرسة المبتديان المعروفة الآن بمدرسة الناصرية ولم يقم فيها سوى بضعة أشهر . ثم



الدكتور دري باشا

١٢٥٧هـ - ١٣١٨هـ

الفاهــا المرحوم عباس باشا الاول في تلك السنة التي عرفت بسنة (البرار والبراماز) اي سنة ما ينفع وما لا ينفع. فانتقل مع من انتخبوا من التلامذة الى المدرسة التجهيزية وكانت في الأزبكية ومكانها الآن فندق شبرد . وبعد بضعة أشهر انتقل تلامذة هذه المدرسة الى مدرسة ابي زعبل فأقام فيهـا

صاحب الترجمة الى ان أكمل دروسها أو كاد . ثم انتخب تلميذاً في مدرسة المهندسخانة وكانت في بولاق مصر وناظرها المرحوم علي باشا مبارك . على انه كان يميل بطبعه الى الطب فكان يترقب الفرص لنيل مقصده . ولكنه لم يوفق الى ذلك الا سنة ١٢٦٩هـ بعد صبر وعناء. فالحق بتلامذة الفرقة الخامسة منها (سنة أولى) . وفي الامتحان العمومي السنوي نقل الى الفرقة الرابعة وفي مثله من السنة التالية نقل الى الفرقة الثالثة وهو يجد في الطلب لا يعلم ما خبأه القدر له ولسائر التلامذة . فلم تشعر المدرسة إلا وقد جاءها المرحوم علي بك علوي يدعو تلامذتها جميعاً الى الديوان الخديوي بالقلعة بأمر المغفور له سعيد باشا فخرجوا اليها واصطفوا أمام الديوان ينتظرون ما لا يعلمون حتى خرج اليهم المرحوم سعيد باشا بنفسه في أبهة ملكه ومعه المرحوم الدكتور محمد بك شافعي الحكيم ناظر المدرسة الطبية وغيره وفرز التلامذة بنفسه فجعلهم ثلاثة أقسام بحسب أعمارهم. فحديثو السن جداً أمر بطردهم من المدرسة والمتوسطون ان يلحقوا بالشوشخانة السعيدية (أورطة عسكرية) والمتقدمون الحقهم بالمدرسة العسكرية الحربية في بلدة طره . وكان صاحب الترجمة من المتوسطين في السن فالحق بالعسكرية . فصرفت لهم الملابس العسكرية والجربنديات وأقفلت مدرسة الطب وخلت المدارس المصرية من علوم الطب والاطباء .

ولكن صاحب الترجمة لم يجيء في خاطره مع ذلك ان يترك ما تعلمه من العلوم بل بقي يتذكره ويتعهده بالتفكر فيه طمعاً في ان يعود الحاكم الى صوابه فيعيد المدرسة الطبية فيعود هو اليها ويكمل علومها . وغلب اليأس على رفاقه وهويعزيهم وينشطهم حتى صدرت الاوامر بالعفو عنهم وجعلهم ترجية (ممرضين) في الجيش .

وبقي صاحب الترجمة تمرجياً ينتقل من أورطة الى أورطة ومن آلاي الى آلاي حتى نال رتبة الجاويش ثم جاءت الهيضـــة سنة ١٢٧٢هـ فاشتغل في معالجة المرضى وتلطيف حالهم زمناً طويلاً مع العناية بالمرض والرفق بالمريض. وابتدأ من ذلك العهد في تأسيس آرائه في هذا المرض وتدوين مشاهداته فيه ونشر اكثر ذلك في رسالته المعروفة بالاسعافات الصحية في الامراض الوبائية الطارئة على مصر في سنة ١٣٠٠هـ وهي مشهورة طبعت على نفقتـــه في المطبعة الاميرية .

وفي سنة ١٢٧٣ هـ عاد الى مصر مؤسس مدارسها الطبية الشهير كلوت بك والتمس من ولي أمرها المرحوم سعيد باشا إعادة المدرسة الطبية الى ما كانت عليه فأجابه الى ذلك وصدر أمره العالي بجمع تلامذتها من الآلاليات وإرجاعهم الى المدرسة فعادوا اليها وامتحنوا فعاد صاحب الترجمة الى الفرقة الثالثـة . وما زال في المدرسة حتى أتم الطب وخرج منها طبيباً ماهراً وعالماً مدرساً في فنونها وتعين فيها بوظيفة مساعد ومعيد لعلم الجراحة بمرتب قدره ثلاثـة جنيهات في كل شهر .

وفي عام ١٢٧٨ هـ توجه عباس باشا الى أوروبا وصحبه في رحلته اليهـــا المرحوم محمد علي باشا الحكيم فشاهد تقدم فن الجراحة في باريس فحرك ذلك غيرة سعيد باشا لارسال فريق من النابغين في المدرسة الطبية المصرية الى باريس ليتقنوا هذا الفن ويعودوا الى مصر في زمن قريب التماساً لقلة النفقات ولامكان الانتفاع بهم قريباً من جهة أخرى . فبعث بهذه الارسالية في عـام ١٢٧٩ هـ وفيها صاحب الترجمة وكان أصغرهم سناً ورتبة . وبعد أقل من عـــام توفي المرحوم سعيد باشا وخلفه المرحوم اسماعيل باشا فعرض عليه شافعي بك الحكيم ناظر مدرسة الطب استرجاع تلك الارسالية لان مصر في حاجة الى الاطباء

فصدر أمر اسماعيل بارجاعهم فعادوا جميعاً ما عدا صاحب الترجمة لصغر سنه .

وبعد رجوع رفاقه اشتغل هو باتمام معارفه العلمية والعملية على اشهر الجراحين في ذلك الوقت الدكتور نيلاتون والدكتور نيليو ولازم عيادة الاول الجراحية مدة سنتين كاملتين فأظهر من العناية والمهارة بحيث لم يتمالك هذا الاستاذ عن الاعجاب به وتبشيره بمستقبل مجيد وحث رفاقه على الاقتداء به .

وظل صاحب الترجمة مقبلاً على العلم والعمل في باريس الى ان نال شهادة الدكتورية فاراد رئيس الارسالية هناك ان يعيده الى مصر فالتمس بقاءه مدة أخرى لاتمام العمل في بقية المستشفيات فألح عليه الرئيس في الرجوع الى مصر . وبلغ ذلك الدكتور نيلاتون فكتب الى هذا يقول « يجب الالتفات لدري المصري والعناية بشأنه لانه قل ان يوجد له نظير في الاقبال على العمل والاستفادة مما يشاهده منه واني في غاية الامتنان واثني عليه أحسن الثناء » فاقتنع رئيس الارسالية بذلك وبعث الى صاحب الترجمة أن يخبره بكل ما يحتاج اليه .

وفي هذه الاثناء وصل الخديو اسماعيل باشا الى فرنسا فلقيه الدكتور نيلاتون واطنب له كثيراً بصاحب الترجمة وأثنى على اعماله واجتهاده وساعده على ذلك جمهور من الحكماء الذين كانوا في حمامات فيشي . فحرك ذلك عاطفة الرعاية في الخديو اسماعيل وامر بان يعطى لصاحب الترجمة عدة كتب وبعض الالات الجراحية ومئة بينتو . فاخذ الكل وضم المال المنعم به عليه الى ما كان معه واشترى به القطع التشريحية التي احضرها معه من البلاد الاوروبية الى الديار المصرية وبقيت أثراً له الى الآن .

وفي عام ١٢٨٦ هـ وصل الى مصر وانعم عليه برتبة الصاغقول أغاسي

وعين حكيمباشي قسم المطارين في الاسكندرية ثم عين حكيماً ثانياً لقسم الجراحة في مستشفى الاسكندرية . وبقي بها الى اواخر عام ١٢٨٨هـ ثم نقل الى مصر وعين معلماً ثانياً لعلم التشريح وجراح باشي اسبتالية النساء بالقصر العيني وظل بها الى عام ١٢٩١هـ ثم عين معلماً اول لفن التشريح وجراح باشي اسبتالية النساء وانعم عليه برتبة البكباشي . وبقي كذلك الى عام ١٢٩٤هـ فانعم عليه برتبـة امير الاي . وما زال في مستشفى القصر العيني بوظيفة جراح باشي واستاذ اول الجراحة والكلينيك الجراحي الى عام ١٢٩٩ هـ وفيها انعم عليه برتبة المتمايز . وفي عام ١٣١٥ أنعم عليه برتبة امير ميران الرفيعة الشأن وفي أثناء هذه المدة قلد عدة نشانات علمية منها نشان الحرب بين الدولة العلية والروسيا فانه كان قـــد ارسل مع الجيش المصري وعين حكيمباشي اسبتالية صوفيا . وكان له من العمل في هذا السفر والاهتمام بالمرضى ما لم يشاركه فيه سواه .

وما زال استاذ اول للجراحة في القصر العيني حتى جعلوا التعليم فيها باللغة الانكليزية فاحيل على المعاش فتفرغ لاعماله الخصوصية ثم دهم بفقـــد صهره وابن اخيه المرحوم حامد بك صدقي فاثرت وفاته تأثيراً شديداً على صحته فتوالت عليه العلل حتى توفـــاه الله في ليلة ٣٠ يوليو سنة ١٩٠٠م (١٣١٨هـ) .

اخلاقه واعماله :

كان رحمه الله محباً لقومه ساهراً على مصلحتهم مستهلكاً في خدمتهم حتى لقد يحيي ليله مفكراً في احوالهم ومصيرهم . وقد حدا به ذلك الى صرف عنايته وماله وراحته في رفع منار بلاده في السبيل الذي يستطيعه . فانفق

معظم ثروته في اختيار الكتب وجمع رسوم مشاهير المصريين وغيرهم وحفرها كلها على النحاس في باريس ولا غرض له من ذلك الا احياء ذكر الفضلاء . ناهيك بما انفقه من العناية في رسم صور الامراض التي لها اجسام واشكال . ولم يقف عند هذا الحد ولكنه كلف نفسه عملاً ليس هو من لوازم مصلحته فاحضر مطبعة كاملة الادوات سماها المطبعة الدرية طبع فيها بعض مؤلفاته ومؤلفات غيره. ولا ريب عندنا انه لم يكن يستثمر من وراء ذلك غير التعب والخسارة ولكنه كان يفعله مدفوعاً بغيرته على العلم والعلماء ورغبته في خدمة وطنه ومواطنيه .

واشتهر الدكتور دري باشا بفن الجراحة وفي منزله مجموعة تشريحية جاء بها من اوروبا وجمع شيئاً آخر هنا . وقد شاهدناها منذ بضع وعشرين سنة وكنا قد جئنا لاتمام درس الطب في مدرسة قصر العيني . وكان هو من جملة أساتذتها وبيدنا كتاب توصية باسمه من صديق له في بيروت . فصحبنا إلى منزله أحد اصدقائنا من تلامذة القصر يومئذ (الدكتور نعمة الله أفندي طحان من أطباء الجيش المصري الآن) فاستقبلنا الدكتور دري أحسن استقبال وأحب من باب المباسطة ان يمتحن معرفتنا في فن التشريح فجاءنا بجمجمة صناعية ظهرت فيها الأعصاب أحسن ظهور وسألنا عن العصب الخامس وفروعه وهو من أصعب مسائل التشريح فاجبناه بما حضرنا وهو يسمع ويبتسم . ثم دعانا إلى حجرة التشريح واطلعنا على ما عنده من التماثيل التشريحية وغيرها . فعلمنا من ذلك اليوم انه ذو ولع شديد في مهنته وقد تحققنا ذلك فيما بعد مما سمعناه عنه وشاهدناه من آثار فضله .

وكان مدققاً كثير الانتباه للفرص التي تعرض له في معاطاة مهنته . فإذا جاءه مريض ذكر في دفتر خاص بالمرضى اسم ذلك المريض ومرضه والعلاج

الذي عالجه به وتاريخ سير العلة بالتفصيل والايضاح . فلما أحيل على المعاش في آخر حياته جمع ذلك كله في مجموعة اهداها إلى قصر العيني . وهي لا تزال محفوظة هناك وقد كتب عليها « مجموعة محمد دري باشا الحكيم » .

واشتهر بين الأطباء بدقة التشخيص وصدق الانذار حتى يكاد يقرب ذلك من الالهام . فإذا شاهد مريضاً وانذره أو بشره كان كما قال . وكان متعلق الذهن بمرضاه فإذا عمل عملية مهمة وعاد إلى بيته لا يهدأ باله على مريضه حتى يفتقده مراراً اما برسول خاص واما ان يذهب هو بنفسه . ولا فرق عنده في ذلك بين الغني والفقير وربما كان أكثر عناية بالفقير مما بالغني . ويذكرون من فضله بنوع خاص مواساته الناس في أزمنة الأوبئة الوافدة ومعالجتهم بما سهل ورخص . ومن أرائه الخصوصية في الجراحة ان العمليات الجراحية تكون عاقبتها سليمه إذا عملت في شهري بؤونه وابيب ويليهما كيهك وطوبه. اما مؤلفاته التي ظهرت في عالم المطبوعات فهي :

١ – رسالة في الهيضة الوبائية وفيها وصف الهيضة وطرق معالجتها بالادوية البسيطة .

٢ – كتاب بلوغ المرام في جراحة الأقسام . هو كتاب في الجراحة مطول مزين بالرسوم والاشكال ظهر منه ثلاثة مجلدات ضخمة طبعت كلها في مطبعته والرابع كان عند وفاته لا يزال تحت الطبع .

٣ – كتاب التحفة الدرية في مآثر العائلة المحمدية العلوية جاء فيه على خلاصة تراجم أعضاء العائلة الخديوية مع رسومهم ورسوم انجالهم .

٤ – كتاب تذكار الطبيب طبع مرتين أخيرتهما سنة ١٣١٣ هـ . يشمل

كل التذاكر الطبية التي كان يصفها مشاهير الاطبـــاء في مستشفى قصر العيني . وهو كتاب ضخم صفحاته ٤٣٦ صفحة ويسهل حمله في الجيب .

٥ – ترجمة حياة المغفور له علي باشا مبارك استخرجه من الخطط التوفيقية وطبعه في مطبعته سنة ١١٣١ هـ . وهناك كتب أخرى لم يطبعها . وقـد ظهرت في مطبعته كتب أخرى لمؤلفين آخرين .

السيد اقليميس يوسف داود

رئيس أساقفة دمشق على السريان

هو يوسف بن داود بن بهنام من عائلة زبوني ولد في العماديـــة من بلاد كردستان على مسافة ثلاث مراحل من الموصل . وأصل عائلته من الموصل فلما بلغ الخامسة من عمره عاد به أبوه اليها فتلقى مبادىء العلوم في بعض المدارس الابتدائية فأظهر من النجابة والذكاء ما جعله في مقدمـة رفقائه التلامذة ثم اتفق بعض ذوي الفضل وفي مقدمتهم الأب يوسف والركا (الذي صار بعـد ذلك بطريركاً أورشليمياً على اللاتين) على ارساله الى المدرسة الأربانية برومية للتبحر في العلوم اللاهوتية ونيل رتبة الكهنوت . فبرح الموصل سنة ١٨٤٥ م وله من العمر ١٦ سنة فمر ببيروت وقضى بمدرسة غزير بضعة أشهر ثم سار الى رومية وهناك أكبّ بكليته على اكتساب العلوم على انواعها وفيها العلوم النحوية والبيانية والبديعية والمنطق والطبيعيات والكيمياء والرياضيـــات والجبر والهندسة والمساحة والجغرافية والفلك والفلسفة العقلية والأدبيـة واللاهوت الادبي والنظري والفقه الكنائسي والتاريخ البيعي والموسيقى وعـلم الكتاب



السيد اقليميس يوسف داود
١٨٢٩ - ١٨٩٠ م

المقدس . وتعلم اللغات اللاتينية والايطالية والعبرانية واليونانية والافرنسية والانكليزية والالمانية واكمل اللغة السريانية والعربية والكلدانية وذاع خبر نجاحه وذكائه وامتيازه على أقرانه فوقع نزاع بين الطائفتين الكلدانية والسريانية من اجله فادعت كل منها انه من أبنائها رغبة في اكتساب خدماته لها . ولما طال النزاع خيروه في الانحياز الى احداهما فاختار الطقس السرياني وفي سنة ١٨٥٥م سيم قسيساً للسريان .

وفي منتصف سنة ١٨٥٥م غادر رومية قاصداً الموصل فوصلها في أواخر تلك السنة واستلم الاعمال الكهنوتية وجعل يعظ ويعلم ووجه انتباهه بنوع خاص الى المدارس لعلمه ان التعليم اساس كل فضيلة . فأسس بالموصل سنة ١٨٥٦ م مدرسة بالاتفاق مع الآباء المرسلين الدومنكيين كان يعلم فيها النحو والصرف بالعربية ومبادىء اللغتين الايطالية والفرنساوية والرياضيات والجغرافيا والتاريخ والموسيقى . ثم انشأ المرسلون الدمنكيون مدرسة عالية

كان هو استاذها الأول فأتت بفوائد يذكرها العارفون . ويقال بالاجمال ان جميع كهنة الموصل وتوابعها كانوا من تلامذته أو تلامذة تلامذته . ونظراً لقلة المؤلفات التدريسية إذ ذاك اضطر الى تأليف الكتب اللازمة للتدريس وقد طبعت بعد ذلك وستذكر بين مؤلفاته . وكان مع كل ذلك لا يغفل لحظة عن رعاية رعيته والقيام بواجباته نحوهم دينياً وأدبياً .

وفي سنة ١٨٦٢م ترقى الى رتبة الخورفسقفس وعهدت اليه النيابة العامة على الابرشية .

وفي سنة ١٨٦٧م أوعز اليه بأمر البابابيوس التاسع ان يكون مستشاراً في اللجنة المعينة لاعداد الامور المتعلقة بقوانين الكنائس الشرقية وتواريخهن . وهي إحدى اللجنات الخمس التي أقامها البابا استعداداً للمجمع الفاتيكاني المسكوني الذي كان في النية إلتآمه وان يستنسخ ما يقع في يده من الكتب الخطية السريانية والعربية فقام بمهمته حق القيام حتى استدعى سنة ١٨٦٩ م الى المجمع الفاتيكاني فسار وحمل معه ما كان قد استنسخه من الكتب النفيسة الى مكتبة مدرسة البروبغندا وكان رحمه الله في جملة اللاهوتين العظام في ذلك المجمع وهو العضو الشرقي الوحيد هناك . وقد سمي ترجماناً فيه فنال على أثر أعماله هذه شهرة عظيمة جداً وكان لا يضيع فرصة لا يؤلف فيها أو يطالع .

وفي سنة ١٨٧٠م عاد الى الموصل وعمل على تصحيح ترجمة التوراة العربية بمقابلتها على الترجمات السريانية واليونانية واللاتينية والعبرانية وعلق الحواشي على بعض الآيات الغامضة وقد طبعت هذه الترجمة في مطبعة المرسلين الدومنكيين بالموصل مرتين . وراجع ايضاً الترجمة السريانية البسيطة وطبعها بالمطبعة المذكورة باحرف كلدانية ولولا هذه الطبعة لفسدت الترجمة البسيطة .

وفي سنة ١٨٧٦م توفي المطران يعقوب حليـاني اسقف دمشق على السريان وبقيت طائفة السريان هنـــاك بلا اسقف سنتين . وفي سنة ١٨٧٨م انتخب صاحب الترجمة اسقفاً لها باجماع الطائفة وتحريض البطريرك ولكنه كان ميالاً الى الابتعاد عن مهام الاسقفية لعلمه بما يترتب على قبولها من التبعة وكثيراً ما عرضت عليه قبل ذلك ولم يقبلها . اما هذه المرة فاعتذر وتردد مدة حتى ملّ المكاتبة وورد عليه كتاب من البطريرك يقول فيه « ان الحضرة البابوية تريد منك ان تذعن لصوت الجمهور وتسلم للارادة الالهية التي تدعوك لتلك الوظيفة السامية وأن تقبل الانتخاب » . فلم ير بداً اذ ذاك من القبول فسار في اوائل سنة١٨٧٩م من الموصل الى دمشق لتولي مهـــام منصبه الجديد وقد غادر الاهل والخلان والرفاق والجمعيـــات والمدارس والاخويات والكنائس والمطابع وأكثرها من غرس يمينه وهو لم يكد يجني ثمار اتعابه . فمرّ بحلب وهنـــاك رقي الى رتبة الاسقفية ولقب اقليميس فصار من ذلك الحين يدعى السيد اقليميس يوسف داود . وسار من حلب الى دمشق ولا تسل على فرح الدمشقيين بنيل تلك الامنية التي لم يكونوا يرجون الحصول عليهـــا لعلمهم بابائه قبلاً عن قبول الاسقفية .

أما هو فأخذ يدير شؤون الطائفة بهمة ونشاط فأنشأ الاخويات ومجلساً طائفيـــاً للنظر في امور الابرشية وشيد بعض الكنائس ورمم البعض الآخر وأنشأ كثيراً من المدارس الصغيرة للقرى ووجه التفاته الى جمع الكتب فجمع مكتبة يعز وجود مثلها لما حوته من الكتب الخطية المتعلقة بالمشرق التي يندر وجودها . وأخذ في التأليف والتصنيف وأصلح الكتب الطقسية فعانى في اصلاحها مشقات جسيمة .

ومما لا تنساه الطائفة السريانية سعيه في انشاء مجمع السريان اللبنـــاني فانه

هو الذي هيأ مواده . والمجمع المذكور انعقد في الشرفة بلبنان سنة ١٨٨٨م ونظر في أحوال الطائفة السريانية وضبط امورها الطقسية وقوانينها الشرعية وكانت الطائفة قد حاولت عقد هذا المجمع غير مرة ولم تنجح إلا على يده .

وفي أوائل سنة ١٨٨٩م اصيب رحمه الله بداء القلب فقاسى فيه اهوالاً جسيمة وفي ١٤ اغسطس (آب) سنة ١٨٩٠م توفي الى رحمة الله وله من العمر ٦١ سنة وبضعة أشهر .

مؤلفاته :

لصاحب الترجمة مؤلفات كثيرة بين مطبوع وغير مطبوع في لغات مختلفة وهاك اسماء مؤلفاته التي طبعت مع اسم اللغة التي ألفها فيها :

١ – كتاب التمرنة في الاصول النحوية مع مقدمتين في اصول الكتابة والقراءة (مجلدين) — عربية

٢– التمرين في التمرنة (مجلدين) — «

٣– غراماطيق افرنسي مع الشرح العربي — افرنسية وعربية

٤– اللمعة الشهية في نحو اللغة السريانية مع الشرح العربي بطريقة جديدة أي بالمقابلة مع اللغة العربية واللغة العبرانية خاصة — سريانية عربية

٥– نحو اللغة السريانية مع الشرح اللاتيني — لاتينية

٦– نبذتان في العروض والشعر (الحقهما بكتاب التمرنة) — عربية

٧– مدخل الطلاب في علم الحساب (مختصر) — «

٨– تروّض الطلاب في علم الحساب (مطول) — «

٩ – علم الجغرافيا عربية

١٠ – التواريخ البيعية عربية

١١ – مختصر التواريخ البيعية عربية

١٢ – تاريخ مجمع السريان اللبناني المعقود سنة ١٨٨٨م في الشرفة افرنسية

١٣ – بيـــان رئاسة بطرس زعيم الرسل وخلفائه الاحبار الرومانيين من تقليد البيعة السريانية (طبع رومية) لاتينية

١٤ – مقالة في تعليم البيعة السريانية في انبثاق روح القدس سريانية

١٥ – خطبة تاريخية في رئاسة بطرس الرسول مع تأييدها بنصوص من اباء الكنيسة السريانية عربية

١٦ – القصارى في حل ثلاث مسائل تاريخية تتعلق ببلاد الشام وما يجاورها «

١٧ – بيان طقس البيعة الانطاكية السريانية ونافورتها افرنسية

١٨ – المقابلة بين نافورة القديس يعقوب المستعملة عند السريان ونافورة القديس يوحنا فم الذهب المستعملة عند اليونان (يتخللها شرح طويل عن الطقوس اللاتينية والكلدانية والارمنية والمارونية والحبشية والقبطية) افرنسية

١٩ – مقالات شتى طقسية وتهذيبية الفها وطبعها في رومية لاتينية ايطالية

٢٠ – بيان لغة اهل دمشق العربية في ايامنا افرنسية

٢١ – بيان اللغة التي تكلم بها يسوع المسيح على الارض «

٢٢ – بحث عن لغة اهل سوريا وفلسطين حين ظهور اللغة العربية فيهما وبيان انها كانت اللغة السريانية افرنسية

٢٣ – مواد مجمع السريان اللبناني المعقود في الشرفة عربية لاتينية

٢٤ – طقوس جديدة سريانية لاعيادمستحدثة في البيعةالكاثوليكية سريانية

٢٥ – كلندار عام للبيعة السريانية على مدار السنة عربية

٢٦ – كلندار عام لجميع الطقوس غربية وشرقية (الحقه بكتاب تحفة الزهور) »

٢٧ – نبذة من القوانين البيعية لكهنة ابرشية الموصل »

٢٨ – المقدمة والنتيجة في الخطبة والزيجة »

٢٩ – الكنارة الصهيونية عربية وسريانية

٣٠ – خدمة القداس الاشحيمي عربية وسريانية

٣١ – فهرست القراآت من العهدين القديم والجديد التي تقال على مدار السنة بحسب الطقس السرياني عربية

٣٢ – تروّض في آلام المسيح لكل يوم جمعة من الصوم الكبير »

٣٣ – الرسالتان الأولى والثانية »

٣٤ – انشاء الرسائل »

٣٥ – التعليم المسيحي »

٣٦ – التصاريف العربية »

٣٧ – تصاريف الافعال الكلدانية كلدانية

٣٨ – كراسة الاشتقاقات عربية

٣٩ – تعليم القراءة السريانية »

وهذه أسماء مؤلفاته التي لم تطبع

٤٠ – جامع الحجج الراهنة عربية

٤١ – تاريخ السريان   عربية

٤٢ – علم الهندسة   »

٤٣ – علم الجبر   »

٤٤ – أغلاط ترجمة العهد الجديد العربية التي انشأها البروتستنت في بيرت »

٤٥ – رياضة درب الصليب (وهي مؤثرة للغاية)   »

٤٦ – مجموع خطبه أو مواعظه الدينية   »

٤٧ – مقالات في حقيقة سر الأوخارستيا   عربية وافرنسية

٤٨ – قداس حبري سرياني على أصول الموسيقى الاوربية » سريانية

٤٩ – تصانيف موسيقية شتى   »   »

٥٠ – مجموع المناشير او الرسائل الراعوية التي أنفذها من حين أسقفيته »

٥١ – التوطئة الى الاحتجاج والتبرئة (فوائد تاريخية مهمة)   »

وله فضلاً عن ذلك خدمات جزيلة خدم بها العلم كتنقيح بعض الكتب او ترجمتها او ضبطها ومنها ما قد طبع كالكتاب المقدس وكتاب الصلوات السريانية وغيرهما وبعضها لم يطبع . وقد بلغ عدد الكتب التي ترجمها أو نقحها أو ضبطها ٣١ كتاباً بعضها يزيد على عدة مجلدات فيكون عدد كتبه بين تأليف وتصنيف وترجمة وضبط ٨٢ كتاباً في لغات مختلفة اكثرها في مواضيع وعرة المسالك .

صفاته :

كان رحمه الله ربع القامة بشوش الوجه سريع الخاطر رقيق الجانب واسع العلم في سائر العلوم التاريخية واللغوية والدينية وكان يعرف من اللغات

١٥ لغة ولكنه كان مغرماً بنوع خاص باللغات الشرقية وتحليلها بما يسمى علم الفيلولوجيا او الفلسفةاللغوية وكان عمدة هذا العلم ومورد قصاده . فلما طبعنا كتابنا « الالفاظ العربية والفلسفة اللغوية » سنة ١٨٨٦م ارسلنا اليه نسخة منه على سبيل الهدية فكتب الينا كتاباً يدل على حسن ظنه بنا ورغبته في تنشيطنا وهاك نص الكتاب بعد الديباجة ننشره اقراراً بفضله ودليلاً على رقته ودعته قال :

« اما بعد فأقول اني قرأت كتابك النفيس الذي عنوانه الالفاظ العربية الخ في النسخة الذي تفضلت باهدائها اليّ فوجدته مؤلفاً كاملاً في فنه وافياً بكل الشروط على أتم وجه ودالاً على طول باع مؤلفه في هذا الفن الجديد من العلوم اللغوية الذي لم ينتبه اليه قبل اليوم اهل وطننا . فلله درك كم تبحرت في هذا العباب الصافي وكم استخرجت منه من الدر الثمين . فحقك أن أهنئك واشكرك باسمي وباسم الجمهور كله ولا سيما اهل وطننا اذ انك على ما اعهد اول من فتح لهم هذا الباب الجليل والسلام .

المحب الشاكر

عن دمشق الشام في ٤ شباط سنة ١٨٨٨ م اقليميس يوسف داد

مطران دمشق على السريان »

وقد دارت بيننا وبينه بعد ذلك مكاتبات بشؤون مختلفة مرجعها الى مبحث اللغات وفلسفتها لا محل لها هنا وكم تمنينا ان نلقاه وجهاً لوجه وقد عزمنا على ذلك وقصدنا زيارة دمشق سنة ١٨٩٠ م لهذه الغاية فأنبئنا بوفاته ونحن في منتصف الطريق في بلدة زحلة فعدنا ولم نُنل وطراً .

اما في التاريخ فكانت له باع طولى ولا سيما في تاريخ الدول القديمـــة

كالفارسية والاشورية والبابلية والمصرية والفونية واليونانية والرومانية . وكان ورعاً تقياً سليم القلب مخلصاً غيوراً متواضعاً محافظاً على الفروض الدينية كارهاً لنعيم الدنيا راغباً عنها .

مارون النقاش

مؤسس فن التمثيل في اللغة العربية

ولد رحمه الله في صيدا سنة ١٨١٧م وتربى في بيروت وكان من حداثته ميالاً الى العلم فاتقن الآداب اللسانية وغيرها كالصرف والنحو والعروض والبيان والمنطق واخذ في نظم الشعر وهو في الثامنة عشرة وتعلم الحسابات التجاريـة على الاصول الافرنجية وعلمها لكثيرين فكان امام هذا الفن في بيروت . وتعلم ايضاً القوانين التجارية وكان التجار يرجعون الى رأيه فيها . واتقن اللغـة التركية والايطالية والفرنساوية . وكان له ولع بالموسيقى . وارتقى في مبدأ عمره الى رئاسة كتاب جمرك بيروت ثم انقطع للتجارة الى آخر حياته .

وكان فيه ميل الى السفر مع صعوبته في ذلك الحين فساح في سوريا كلها . ثم جاء الاسكندرية ومصر سنة ١٨٤٦م في اواخر ايام محمد علي وشخص منها الى ايطاليا وهي يومئذ لا تزال اكثر ممالك اوربا علاقة بالشرق . وحضر فيها تمثيل الروايات على المراسح فادهشه ما في ذلك من اللـــذة والفائدة بتمثيل العبرة حتى يراها الناس رأي العين . وخطر له ان ينقل هذا الفن الى العربية لفائدة ابناء وطنه واخذ في العمل حال رجوعه الى بيروت . فضم اليه جماعة من أصدقائه الشبان النجباء الادباء وأخذ يعلمهم التمثيل

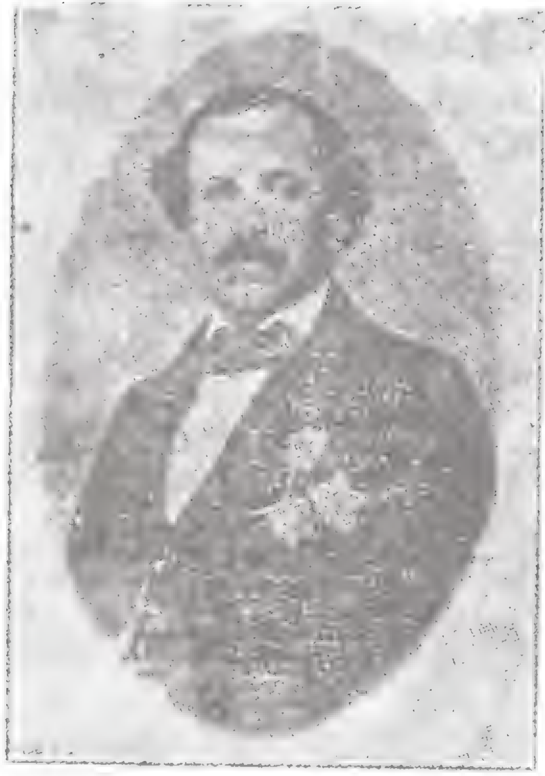
والف لهم رواية « البخيل » وهي أول روايـــة تمثيلية الفت في اللغة العربية . فعلمهم أدوارها حتى اتقنوها ومثلوهـا في بيته سنة ١٨٤٨م في ليلة حضرها قناصل المدينة وأعيانها فأعجبوا بما شاهدوه من دقة التمثيل واتقـان التأليف مع حداثة هذا الفن. فشاع خبر ذلك حتى تناقلته الصحف الافرنجية. فزاد نشاطاً واقداماً فألف رواية « ابي حسن المغفل » أو « هارون الرشيد» مثلها في بيته ايضاً في أواخر سنة ١٨٥٠ م ودعا اليهـــا والي سوريا وبعض الوزراء ورجال الدولة وكانوا يومئذ في بيروت فاعجبوا به واثنوا على نشاطه. فلما تحقق نجاح عمله انشأ مرسحاً خاصاً بالتمثيـــل بجانب منزله خارج باب السراي بفرمان سلطاني – وقد تحول بعد موته الى كنيسة عملاً بوصيته . وفي هذا المرسح شخص رواية الحسود السليط وهي كثيرة الفكاهـــة والعبرة . وكان مع ذلك يتعاطى أشغاله التجارية وانما يشتغل بالتمثيل حباً في الفن وكذلك سائر اصدقائه الممثلين . وكانوا في بادىء الرأي يتزلفون الى الناس ويتملقونهم ليحضروا تمثيلهم ثم صار الناس يتقاطرون اليهم وقـد نبغ منهم بعد ذلك جماعة من كبار الوجهاء وأهل الأدب . ولو مـدّ الله بأجل النقاش لكان لفن التمثيل شأن آخر ولكنه توفي سنة ١٨٥٥ م في طرطوس وكان قد ذهب اليها لبعض أشغاله التجارية وهو لم يتجاوز الثامنة والثلاثين من عمره .

فخلف النقاش في أهل بلاده حب التمثيل ورغب بعض أدباء بيروت في هذه الصناعة فجعلوا يمثلون الروايات في المراسح الخصوصية أو المدارس الكبرى أو المراسح العمومية وأشهرها مرسح سوريا ولا يزال باقياً الى اليـوم . ومن قدماء المشتغلين بالتمثيل في سوريا بعد النقاش سعد الله البستاني مثل روايـة انتظم في سلكها جماعة من نوابغ الشبان يومئذ ومنهم الآن غير واحـد من العلماء وأهل الوجاهة .

ناصيف المعلوف

هو ناصيف بن الياس منعم المعلوف ولد في قرية زبوغـه في ٢٠ آذار (مارس) سنة ١٨٢٣ م ومال منذ نعومة أظفاره الى العلوم وشغف بها لانه كان وهو صغير يرافق والده الى دار الامير بشير الشهابي الكبير وكان مجلسه حافلاً بالشعراء والعلماء كالشيخ ناصيف اليازجي وبطرس كرامة والشيخ رشيد الدحداح وغيرهم . فكان الامير وأولاده يقولون لوالده « علم ناصيف فنظمه في سلك كتبة هذا الديوان » وهو يسمع مقالهم فيزداد رغبـة . فتلقى مبادىء العلوم على أحد الكهنة في دير القديس سمعان العمودي واتصل بالطيب الذكر المطران اغابيوس الرياشي فكان يكتب له لحسن خطـه وانشائه فأتم بعض علومـه على الخوري اغابيوس البنا في بيروت واتصل ببعض علماء عصره ودرس مبادىء اللغتين الفرنسية والايطالية على بعض المرسلين ومال الى توسيع معارفه وحدثته نفسه بالسفر ولا سيما بعد ان انقطع حبل آماله لخروج الامير بشير الكبير من سورية .

وفي تلك الاثنـاء قدم التاجر المشهور يوحنا العرقتنجي من مدينة ازمير لترويج تجارته في بيروت اذ كانت قد بدأت حياتها التجارية . فكان يختلف الى الدار الأسقفية لزيارة السيد اغابيوس صديق نسيبه الطيب الذكر المطران باسيليوس العرقتنجي مطران حلب فصادقه ناصيف وعرف منـه ترقي ازمير العلمي فرغبه في السفر معه ، ولما كان اليوم التاسع عشر من ايار (مايو) سنة ١٨٤٣ م أبحرا من بيروت الى أزمير وكانت المدينة الثانية في عمرانهـا بين مدن الممالك المحروسة وعدد سكانها نحو مائة ألف نفس وأكثر أبنيتها خشبية. ولما وصلاها اتخذ يوحنا ناصيف مدرساً لأولاده العربية والفرنسية واعتمد عليه



ناصيف المعلوف
١٨٢٣ – ١٨٦٥ م

بادارة شؤونه التجارية لمهارته في فن الحساب فاغتنم ناصيف الفرصة لاستزادة علومه فدخل مدرسة اخوة التعليم المسيحي سنة ١٨٤٤ م ومارس الفرنسية والتركية . وسنة ١٨٤٥ م انتظم في سلك اساتذة اللغات الشرقية في مدرسة البروباغندة التي كانت بادارة الآباء العازاريين . وكانت له رغبة شديدة بتحصيل اللغات فأتقن التركية والانكليزية واليونانية الحديثة فوق ما كان يعرفه منها وأكبّ على التأليف في بعضها فنال منزلة لدى العلماء ورؤساء تلك المدرسة فأثنوا عليه كثيراً لا سيا الأب أوجان بوره رئيسها الشهير فانه أثنى مراراً على براعته وحسن أسلوبه في التدريس وبقي ناصيف زهاء عشر سنوات يلقن العلوم ويضع بعض التآليف وقد زار بأثنائها الاستانة العلية وباريس ولندن وغيرها من عواصم اوربا ومدنها .

وفي صيف سنة ١٨٤٨ م اغتنم فرصة العطلة المدرسية ورافق بعض السياح الاوربيين القادمين الى سورية لتفقد آثارها وجاء مسقط رأسه زبوغة في شهر

تموز فشاهد اسرته ثم ذهب الى زحلة لملاقاتهم يوم الثلاثاء في ٢٧ منه وفيها بلغهم أن الهواء الاصفر تفشى في حلب قادماً من مصر ويوم الخميس في ٢٩ منه كانت الاسر الكثيرة من دمشق تتقاطر الى زحلة هرباً من الوباء. فذهب ناصيف مع رفقائه الى بعلبك وعادوا بسرعة الى بيروت وبرحوها قاصدين ازمير فما وصلوها حتى بلغهم أن الوباء تفشى في بيروت في منتصف آب . ومنذ ذاك الحين اختبر ناصيف بنفسه حاجة السياح الى معرفة اللغات الشرقية فشرع في وضع بعض المؤلفات باللغات التي أتقنها واشتهر بتضلعه بالشرقية منها.

ولما ذاعت معارفه في أنحاء الممالك المحروسة واتصلت بأوربا استقدمه إليه اللورد ركلن (L. Raglan) قائد الجيوش المتحدة في حرب الدولة العلية وروسية فلبى طلبه مستأذناً الدولة العلية ورافقه في أسفاره في اول آب (اوغسطس) سنة ١٨٥٥ م وبقي الى ٣٠ ايلول (سبتمبر) من السنة التالية بمهنة ترجمان فشهد الوقائع الكبيرة وكان يدرّس الضباط اللغة التركية وأظهر اخلاصه لدولتنا العثمانية العلية .

وفي سنة ١٨٥٦ م ذهب الى مدينة لندن فنال لدى كبار علمائها مقاماً رفيعاً ونظمته جمعية الاثينيوم العلمية في سلك اعضائها فشكر لهم حفاوتهم هذه برسالة مؤرخة في آب سنة ١٨٥٧ م لا تزال نسخة منها في مكتبتنا . وبقي في عاصمة الانكليز الى شهر تشرين الاول (اكتوبر) من تلك السنة فبرحها الى مدينة بخارست حاضرة بلاد رومانيا وانضم الى السر هنري بلوير معتمد انكلترة وظل في خدمته ثم رافقه الى الاستانة العلية في حزيران (يونيو) سنة ١٨٥٨م وكان ترجماناً له يدرسه اللغة التركية فأهدى اليه معجمه التركي الفرنسي . وفي العام التالي بينما كان يتأهب للسفر الى بر الاناضول قنصلاً للدولة الانكليزية فيها فرغ منصب الترجمان الأول لقنصلية انكلترا في أزمير ففضله

على منصبه الاول لاسباب صحية وناله برخصة الدولة العلية وباشر القيام به في شهر أيار (مايو) فخدمه خدمة اكسبته رضى هاتين الدولتين وغيرهما من الدول الشرقية والغربية . وكان مع انهماكه بهذا المنصب مكباً على التأليف وتصحيح المطبوع من مؤلفاته بجلد غريب حتى كثيراً ما كان ينسخها بخط يده مرتين أو ثلاثاً. وفي أول تشرين الاول سنة ١٨٦٣م نشر بعض علماء عصره سيرته باللغة الفرنسية في جريدة رائد الشرق. (Courrier D'orient) ثم طبعت على حدة في ١٩ صفحة .

وبقي مثابراً على العمل والتأليف الى ان تفشى الهواء الاصفر في مصر وسوريا واتصل بأزمير فأشار عليه الأطباء أن يبرحها الى اوربا ترويحاً للنفس فشخص الى بعض عواصمها حتى انقطع دابر الوباء فعاد الى ازمير مريضاً واصطاف في قرية كوتجه من ضواحيها فتوفي في ١٤ أيار (مايو سنة ١٨٦٥ م غريباً عزيباً فنقل إلى ازمير ودفن في كنيسة الآباء اللعازاريين بضريح خاص وقد أرّخت وفاته بقولي الذي كتب تحت رسمه الفوتوغرافي :

فقيد بني المعلوف ناصيف منعمٌ ولكن لاهليهِ وللعلم تكدير
ونفس اديب العصر كالشمس ارّخت فمطلعها لبنان والغرب ازميرُ

وكان ربعة القوام إلى الطول رقيق الجسم أبيض اللون يضرب لونه إلى السمرة خفيف الشعر لطيف المنظر حلو الحديث . وقد نال لدى معاصريه شهرة ذائعة . أما إخلاصه لدولتنا العلية أيدها الله فأشهر من أن يذكر إذ كافأته بالوسام المجيدي الخامس ببراءة سلطانية في أواسط ذي القعدة سنة ١٢٧٢ هـ (١٨٥٥م) . وتنازل ساكن الجنان السلطان عبد المجيد خان فقبل هدية تآليفه وانتظم في سلك اعضاء جمعية العلوم والآداب التركية (انجمن

دانش) التي أنشئت في الاستانـــة سنة ١٨٥١م . وفي الجمعيتين الآسيويتين الفرنسية والبريطانية . واتقن من اللغات العربية والتركية والفارسية والفرنسية والانـكليزية والايطالية واليونانية وألف في جميعها . وأهـداه المغفورله ناصر الدين شاه العجم وسام الأسد والشمس (شير خورشيد) من الطبقة الرابعـة ببراءة مؤرخـة في ربيع الآخر سنة ١٢٧٦ هـ (١٨٥٩م) . وفتحت جرائد الممالك المحروسة العربية والتركية والأرمنية أبوابها لمقالاته وتقريظ مؤلفاتـه والثناء عليه . وتكرر اسمه في الجرائد الاوربية ومجـلاتها ولا سيما في باريس ولندن وبخارست ومالطة ولقبته بالعـالم المتضلع باللغات الشرقية وبالمستشرق الشهير الذائع الشهرة ليس في الممالك المحروسة فقط بـــل في عواصم أوربا أيضاً . وقال غرسان دي ناسي من مشاهير علماء فرنسا « ان تآليف ناصيف المعلوف تنطق بسعة معارفه واجتهاده » . ولما أعاد الطبـــاع ميزونوف في باريس طبع معجمه الفرنسي التركي الذي طبع أولاً في ازمير سنة ١٨٤٩م . تولى مراجعة مسوداته العلامة اوبيشيني فصدره بمقدمة بين فيها فضل الكتاب وأفاض في وصف صاحبه وتوسع في اظهار مزاياه ومؤلفاتـــه ولا سيما سهولة طريقته ووضوح عبارته وتضلعه باللغات الشرقية . واعظم هـذه الشهادات ما قاله المسيو بيانـكي وكان أول من عني من المستشرقين في وضع معجم فرنسي تركي طبعه سنة ١٨٣١م . فأحرز رواجاً مذكوراً في اوربا وبقي نسيجوحده فيها إلى ان نشأ ناصيف فوضع معجمه واحتذى طريقـــة بيانكي وتوسع في ذكر المصطلحات اللغوية للفنون والآداب والعلوم فنـال رضى العلماء ولا سيما بعد ما جدد وأعاد النظر فيه — قال بيانـكي في كتـاب أرسله من باريس الى المترجم سنة ١٨٥٤م . أثنى فيه على تأليفه وخصوصاً على كتابه الفوائـــد الشرقية . « فـــأنت أول شرقي يشتغل بهذه الأعمال لان مؤلفاتك الكثيرة

النافعة قد ساعدت على تقدم الدروس العربية والتركيـة والفارسية الخ.. »
وكتب اليه مثل ذلك العلامة الفرنسي رينو (J. Reinaud) وغيره من كبار العلماء ومما هو جدير بالذكر ما كتبه بعضهم في مقدمـة اغراماطيقه التركي الفرنسي المطبوع في باريس سنة ١٨٦٢م . نقتطف من قوله ما تعريبه : « ان الكتب الكثيرة التي مثلها الموسيو معلوف بالطبع قوبلت جميعها بحفـاوة وأنالته شهرة واسعة فبينما كان يشتغل بتدريس التركية في مدرسة البروباغندة الفرنسية في أزمير وبرئاسة كتابة (باش كاتب) قومندان الفرسان العثمانيين وباعباء الترجمان الأول لقنصلية انكلترة في ازمير ما انقطع قط عن سعيه في نشر تآليفه التي سهلت درس اللغات الشرقية على الاوربيين ولا سيما التركيـة منها . كيف لا وانه في مطاوي اثنتي عشرة سنة فقط ألف ومثل بالطبـع اكثر من خمسة وعشرين مصنفاً كانت مرشداً للسياح في الشرق ومرجعاً لعلماء الاشتقاق » الى ان قال : « ان المؤلفين لم يعثروا حتى الآن على اسلوب أسهل وأكمل من الاسلوب الذي ابتكره المسيو معلوف فانه بعد ان يشرح القواعد بايضاح يمرن الطلاب بمحاورات وأمثلة من مألوف الرسالات وذلك بلا نكير من اسد الطرق وأقوم المناهج للتوصل إلى اتقان التكلم بكل لغة الخ..» اه .
اما تآليفه التي طبعت فهي وفقاً لبرنامج مكتبة ميزونوف في باريس سنة ١٩٠٠م. وغيرها مع ما وجد منها في المتحف البريطـاني ومكتبة الآباء اليسوعيين الشرقية ومكتبة المدرسة الكلية السورية في بيروت كما يأتي :

١ — مفتاح اللغة التركية طبع في أزمير سنة ١٨٤٦ م .
٢ — محاورات فرنسية وعربية وانكليزية في أزمير سنة ١٨٤٦ م
٣ — محاورات فرنسية وتركية . أزمير سنة ١٨٤٧ م .
٤ — تمارين تركية . الاستانة سنة ١٨٤٧م .

٥ – محاورات تركية وعربية باللغة العامية . الآستانة سنة ١٨٤٧م .

٦ – فكاهات شرقية بالتركية لنصر الدين خوجـــه . أزمير ١٨٤٧ م والآستانة ١٨٥٩م .

٧ – مجموع جديد لجمل ومحاورات بالفرنسية والتركية . أزمير١٨٤٩م .

٨ – مبادىء القراءة بالعربية والتركية والفارسية . أزمير ١٨٤٩ م .

٩ – معجم بالفرنسية والتركية طبع أولاً في ازمير سنة ١٨٤٩م وثانية في باريس سنة ١٨٥٦ م وثالثة في باريس في مجلدين بعد تنقيحه وإضافة اكثر من ستة آلاف كلمة جديدة اليه من علمية وفنية وصناعية وتجارية وسياسية وحقوقية سنة ١٨٦٣ م . وقد قدمه للسر بلوير كما مرّ .

١٠ – محاورات ومنتخبات تاريخية وقصصية مختصرة بالتركية والفرنسية. أزمير ١٨٥٠م .

١١ – الوادي الطيب بالتركية والعربية . أزمير ١٨٥١ م .

١٢ – مختصر الجغرافية القديمة والحديثة . أزمير ١٨٥١م .

١٣ – كتاب المراسلات التركية (انشائي جديد) . الآستانة ١٨٥٢ م .

١٤ – مختصر التاريخ العثماني بالفرنسية . أزمير سنة ١٨٥٢ م .

١٥ – دليل المحادثات بالتركية والعربية والفارسية . أزمير ١٨٥٣م .

١٦ – محاورات بالتركية والفرنسية وبالفرنسية والتركية.أزمير ١٨٥٤م.

١٧ – فوائد شرقية في اللغات التركية والعربية والفارسية.أزمير ١٨٥٤م.

١٨ – الهجاء العثماني طبع أولاًفي أزمير ١٨٥٤م وثانية في باريس١٨٦٣م.

١٩ – المخاطبات المملوفية بالتركية والعربية . الآستانة ١٨٥٦م .

٢٠ – دليل المحادثات باللغات الخمس الايطالية واليونانية والتركية والفرنسية والانكليزية طبع مرتين في باريس سنة ١٨٥٧ و ١٨٨٠م.

٢١ – دليل المحادثات باللغات الاربع الفرنسية واليونانية الحديثة والانكليزية والتركية طبع ثلاثاً في باريس سنة ١٨٥٩ و ١٨٦٣ و ١٨٨٠م .

٢٢ – دليل المحادثات باللغات الاربع الايطالية والتركية والفرنسية والانكليزية . باريس سنة ١٨٥٩ م .

٢٣ – دليل المحادثات باللغتين الانكليزية والتركية طبع مرتين في باريس ١٨٥٩ و ١٨٨٠م .

٢٤ – دليل المحادثات باللغات الثلاث الانكليزية والفرنسية والتركية طبع في باريس مرتين سنة ١٨٦٠ و ١٨٨٠م .

٢٥ – غرامطيق اللغة التركية بالعربية طبع في باريس سنة ١٨٦٢ م ثم ١٨٨٩ م بعد ان نظر فيه المسيو كليمان هوارت (C. Huart) ترجمان السفارة الروسية الثاني في الآستانة العلية قبلاً ومدرس في مدرسة اللغات الشرقية حالاً وهو مصنف كتاب تاريخ آداب اللغة العربية بالفرنسية .

٢٦ – معجم تركي وفرنسي بمجلد واحد . باريس سنة ١٨٦٣و ١٨٦٧م .

٢٧ – دليل المحادثات باللغات الثلاث الفرنسية والانكليزية والعربية طبع في باريس سنة ١٨٦٢م ثم سنة ١٨٨٠ فيها – هذا وهناك مؤلفات له لم نعثر على اسمائها وزمن طبعها أخصها نقل حكايات باركن (Berquin)من الفرنسية الى التركية وما رواه صاحب راشد سورية في الصفحة ٨٠ ولعله الجغرافية التي وصفت بعدد ١٢ فضلاً عما بقي مخطوطاً .

وهاك بعض القابه المطبوعة تحت اسمه في الغراماطيق التركي المطبوع في

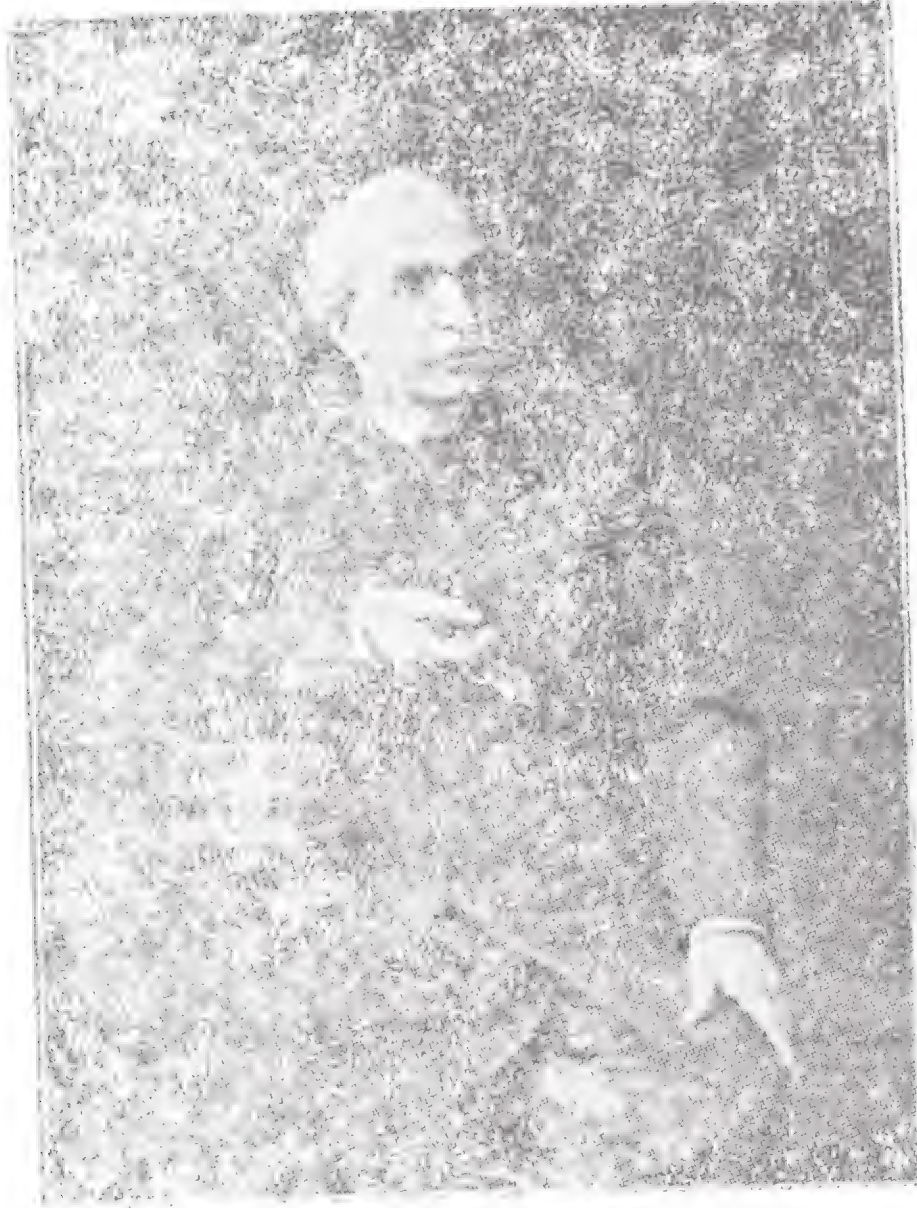
باريس سنة ١٨٦٢ م وفي بعض مؤلفاتـــه الاخرى كالمعجم الفرنسي التركي المطبوع في باريس سنة١٨٥٦م وهي : « أستاذ اللغات الشرقية وعضو الجمعية الاسيوية في باريس وواضـــع التآليف الكثيرة بالتركية والعربية والفارسية والفرنسية وغيرها المؤذنة بنشرها جمعية العلوم والآداب الملكية في الآستانة العلية . وكاتم أسرار وترجمان قومندان الفرسان الانـكليزيين العثمانيين وممتحن الضباط الانـكليزيين باللغات الشرقية ومدرسهم اللغة التركية . والترجمان الأول لقنصلية بريطانية في أزمير وعضو الجمعية الأسيوية الملكية لبريطانيـة العظمى وايرلاندة . وناقـــل الوسام المجيدي العثماني ووسام الاسد والشمس الايراني الخ » « عن دواني القطوف »

في تاريخ بني المعلوف

سليم دي نوفل

نعي الينا من مدينة بطرسبورج عاصمة الروس رجلٌ من خيرة رجـــال سوريا الذين احرجتهم أحوالها فالتمسوا العمل في بلاد الغربة فنالوا ما شاءوا من الثروة والجاه والمقام الرفيـع في ممالك أوربا واميركا . والسوري مقدام لا يبالي بالاسفار في طلب العلى – ورث ذلك من أسلافه الفينيقيين . على اننا لا نظنه كان عرضة للمهاجرة وتجشم الاخطار في عصر من العصور السالفة مثل تعرضه لذلك في هذا العصر بالنظر الى سهولة الاسفار واتساع أبواب الرزق .

وفي جملة الذين قضوا حياتهم في ديار الغربة ونالوا جزاء اجتهادهم وفضلهم المرحوم سليم دي نوفل مستشار الدولة الروسية وترجمان امبراطوريتها واستاذ اللغتين العربية والفرنساوية والفقه الاسلامي في قسم اللغات الشرقية بنظـارة



سليم دي نوفل
١٨٢٨ - ١٩٠٢م

الخارجية الروسية — وهاك خلاصة ترجمة حاله مما نقله الينا أحد أصدقائه القدماء قال :

ولد رحمه الله نحو سنة ١٨٢٨م في طرابلس الشام من عائلة عريقة في الفضل والوجاهة والعلم ومنها المرحوم نوفل نعمة الله نوفل صاحب المؤلفات الشهيرة في آداب العرب وعلومهم (راجع ترجمته في هذا الكتاب) تلقى مبادىء القراءة في بعض المدارس الابتدائية وهي قليلة في ذلك العهد ثم كان أكثر ما اكتسبه من العلم بعد ذلك بجده واجتهاده فظهرت مخايل النجابة عليه من نعومة اظفاره . فلما شبّ نال ثمرة اتعابه فتعين وكيلاً لشركة البواخر

الروسية في طرابلس الشام ثم تاقت نفسه الى السياحة فخرج الى اوربا فطاف ممالكها وخصوصاً مملكة الانكليز ورجع الى طرابلس .

واتفق نحو سنة ١٨٧٠م ان دولة الروس طلبت من قنصلها في بيروت ان يبعث اليها برجل يحسن اللغة العربية ليعلمها للشبان الروسيين الذين يتهيأون للخدمة السياسية في الشرق . فوقع الاختيار على صاحب الترجمة فشخص الى بطرسبورج ومعه عائلته وأقام مدة في التدريس نال في أثناءها ثقة أهل البلاط وكبار رجال الحكومة الروسية فجعلوا يرقونه ويزيدون راتبه ويخلعون عليه حتى صار من مستشاري الدولة فضلاً عن منصبه في تعليم اللغتين العربية والفرنسوية . وانتدبه جلالة القيصر غير مرة لينوب عنه في مهمات سياسية بباريس ورومية . وبعضها للمخابرة بشأن الكاثوليك في بولونيا نظراً لما كان له من سعة الاطلاع في تاريخ الأديان والآداب الشرقية . وانتدب غير مرة للحضور في المؤتمرات الشرقية التي كانت تعقد في أوروبا للبحث في اللغات الشرقية وآدابها .

وكان يعرف اللغات العربية والفرنساوية والانكليزية والايطالية والروسية والتركية واليونانية وبعض اللغات الشرقية القديمة. وكانت له مهارة خصوصية بالانشاء الفرنساوي وكانت حكومة الروس تراعي جانبه وتكرمهُ فاعطته قصراً في أحسن احياء بطرسبورج للاقامة فيهِ مع امرأتهِ وأولاده . وله عدة مؤلفات في الفرنساوية منها كتاب الزواج والطلاق وكتاب سيرة النبي طبعا بنفقة نظارة المعارف الروسية .

محمد بيرم

هو من علماء تونس ووجهائها ومن اكثر المسلمين تفانياً في نصرة الاسلام . ولد في تونس ١٢٥٦ هـ — ١٨٤٠ م ويتصل نسبه ببيرم أحد قواد الجند العثماني الذي جاء تونس بقيادة سنان باشا سنة ٩٨١ هـ تفقه في جامع الزيتونة ونشأ حرّ الضمير يكره الاستبداد فسرّه إنشاء مجلس الشورى في الحكومة التونسية على عهد الصادق باشا وكان من أكبر نصرائه وتولى رئاسة المجلس الوزير خير الدين باشا .

وتعين بيرم سنة ١٢٨٧ هـ مدرساً في الجامع المذكور وبعـد سنتين توفي والده عن ثروة طائلة وظهرت في اثناء ذلك فتنة عمومية في الايالة التونسية على اثر انحلال مجلس الشورى فشقّ ذلك عليه وتمكنت علائقه مع خيرالدين باشا من ذلك الحين لاتفاقهما في النقمة على الحكومة .

وفي سنة ١٢٩٠ هـ عاد خيرالدين باشا الى الوزارة الكبرى في تونس فجاهر بيرم بنصرته وصرح بآرائه السياسية على صفحات الجرائد وهو أول من تجاسر على ذلك هناك . وأعجب الوزير بنشاطه وتعقله فعهد اليـه إدارة الاوقاف سنة ١٢٩١ هـ فأحسن إدارتها ونظمها وأصيب في السنة التالية بانحراف حمله على السفر الى أوروبا للاستشفاء ولقي في باريس المارشال مكماهون فأكرمه وحضر المعرض العام وشاهد كثيراً من ثمار قرائح اهل هذا التمدن فلما عاد الى تونس أخذ في تنظيم مستشفاها على نحو ما رآه في مستشفيات أوربا .

ووقع في أثنـاء ذلك بين قنصل فرنسا الكونت دوسانسي والحكومة التونسية نزاع على قطعة أرض كانت الحكومة منحته اياهـا لتربية الخيل على

شروط اخل بها فارادت استرجاعها فأبى وبينما هي تنازعه وتجادله عليها ذهب الوزير وهو يومئذ مصطفى بن اسماعيل الى تلك الأرض ودخلها عنوة في زمرة من أعوانه. فاغتنم القنصل هذاالتعدي لتمكين سيادة دولته في تونس فرفع أمره اليها وطلب عزل الوزير فخاف هذا وأسرع الى الترضية فعينوا لجنة تحكيم كان بيرم أحد أعضائها فأخذ جانب الدفاع عن الحكومة بكل قواه وكان نحيف البنية مضاباً بمرض في الاعصاب الموصلة بين المعدة والقلب مع ضعف شديد في الدم يستخدم المورفين لتسكين آلامه فأثر ذلك في صحته واضطر ان يشخص الى باريس للاستشفاء وأما اللجنة فصدر حكمها لمصلحة القنصل .

ونهض التونسيون على اثر ذلك يطلبون الجنوح من الحكم الاستبدادي الى الشوري وسعوا في ذلك سعياً حثيثاً لم يأت بنتيجة لأن امير البلاد يومئذ لم يعضد مطالبهم. ويقال ان ذلك كان بتحريض فرنسا لانها تعتقد ان الحكومة الدستورية تخالف مصلحتها هناك . وأما بيرم فقد كان في مقدمة الراغبين في الشورى وعاتبه الأمير على تعضيده الاهالي في مطالبهم فأجابه بجرية لم يعهد مثلها وبين له خطأه .

وتوجه تلك السنة الىباريس كالعادة واغتنم وجوده هناك فرفع الى غمبتّا تقريراً مسهباً يشكو فيه سوء تصرف القنصل ووقوفه في سبيل كل مشروع نافع للبلاد . وبلغ خبر ذلك الى القنصل فزاد غضباً ونقمة واتفق في أثناء طلب التونسيين الشورى ان الدول كانت مشغولة بخلع اسماعيل باشا خديوي مصر وكان الصدر الاعظم في الآستانة يومئذ خير الدين باشا ونظراً لما يعلمونه من علائق بيرم بخير الدين استنتج الفرنساويون ان مطالب التونسيين لم يكن الفرض منها الا فتح السبيل لمداخلة الباب العالي واتهموا صاحب الترجمة أنه

الواسطة بذلك . ولما بلغه الخبر استعفى من منصبه في تونس وعزم على البقاء بعيداً عنها لكنه عاد اليها بعد الحاح أصدقائه . وكان قد فهم وهو في باريس رغبة فرنسا في ضم تونس الى املاكها ضماً كلياً وأنها اغرت الوزير مصطفى فمالأها طمعاً بالترقي فذهبت آمال صاحب الترجمة بانقـــاذ بلاده فعزم على الخروج منها فلم تأذن الحكومة بسفره فاحتال بطلب الرخصة للحج فأذن له فخرج سنة ١٢٩٦ هـ وجاء مصر وسافر منهـــا الى الحرمين ثم يمم سوريا فالقسطنطينية فأحسنت الدولة وفادته. ولكن الوزير التونسي كتب الى الباب العالي بإرجاع الشيخ بيرم لأنه لم يقدم حساباً عن إدارة الأوقاف التي كانت في عهدته فنصره خير الدين ولم يسلمه . ولما تم لفرنسا ضم تونس الى أملاكها سنة ١٢٩٨ هـ عزلت الوزير مصطفى وعاملته معاملة الخائن .

واشتغل الشيخ محمد بيرم في أثناء اقامته في الاستانة بالكتابــة والتحرير وراعى صحته فتحسنت كثيراً وقــلّ استعماله للمورفين وكانت وجهته النظر في ما آل اليه حال البلاد الاسلامية من طمع الأجانب ووصف الادوية لملافاة ذلك ولم يجد الكلام نفعاً .

ولما تحقق رسوخ قـــدم فرنسا بتونس يئس من العودة إليها فأراد أن يكون قريباً من اهله فانتقل الى مصر بعد الحوادث العرابيــة سنة ١٨٨٤م . وقد باع أملاكه في تونس ونقل عائلتــه منها وانشأ في مصر جريدة سياسية اسمها « الاعلام » تصدر ثلاث مرات في الاسبوع ثم صارت اسبوعية وكانت خطتها محاسنة الانجليز والاستفادة منهم فانتقد بعضهم عليه هذه الخطة لانهـا تخالف ما كان عليه في تونس وانه انما هجرها فراراً من الحكم الاجنبي فكيف يكلف المصريين عكس ذلك ؟ ولكن الذين يرون رأيه كانوا يعتذرون بأنه

انما حث على محاسنة الانكليز والاستفادة منهم لأن معاكستهم وأمر البلاد في أيديهم لا يجدي نفعاً وان مجافاة الفرنساويين أوجدت اسباباً ساعدتهم على ضم تونس الى بلادهم . وقد ألجأه الى انتهاج هذا المسلك أيضاً ما قاساه من ظلم الحكم الاستبدادي في تونس وما آنسه من العوامل المحركة في مصر باغراء بعض الأجانب الذين يغرون صدور الناس على حكامهم مما يعود بالضرر .

واضطر بعد اقامته سنتين بمصر ان يعود الى اوربا فتمم سياحاته فيها وعاد الى مصر فعينته الحكومة سنة ١٨٨٩م قاضياً في محكمة مصر الابتدائية وكثيراً ما كلفته الوزارة كتابة ملاحظاته على القضاء الشرعي لانه كان واسع الاطلاع فيه وما زال عاملاً مجتهداً رغم ما يعتوره من المرض حتى توفي سنة ١٣٠٧هـ (١٨٨٩م) .

وقد خلف آثاراً كتابية اكبرها كتاب صفوة الاعتبار بمستودع الامصار طبع بمصر في خمسة اجزاء وهو عبارة عن رحلة عامة في اوربا ومصر والشام والحجاز وغيرها وذكر فيها كثيراً من الحقائق التاريخية والاجتماعية عن بلاد العرب وتونس والجزائر لا تجدها في كتاب آخر وأكثرها شاهده بنفسه أو كان داخلاً فيه ولا سيما تاريخ تونس والجزائر .

وله ما خلا ذلك رسالة « تحفة الخواص في حل صيد بندق الرصاص » ومختصر في فن العروض . ورسالة في « التحقيق في شأن الرقيق » بحث فيها عن كيفية معاملة الرق عند المسيحية وان منع الحكومات الاسلامية لتجارة الرقيق شرعي وكتاب « تجريد الاسنان للرد على الخطيب رينان » رد فيه على ما كتبه رينان في الاسلام والعلم . ورسالة في جواز ابتياع اوراق الديون التي تصدرها الممالك الاسلامية حتى تبقى اموال المسلمين في بلادهم ولا يحجبهم

عنها اشتباه الربا وهو لا ينطبق في هذه الحالة عليها . وألف كتاباً مسهباً في شأن التعليم بمصر ذهب فيه الى وجوب انتشاره باللغة العربية لسهولة تناوله وتعميمه بين طبقات الناس .

وله كتابات اخرى لم نقف على أسمائها ويؤخذ من مجملها ان صاحب الترجمة كان من محبي الاصلاح وتقريب المسلمين الى عوامل التمدن الحديث وإزالة ما قد يعترضهم من اشباه الموانع الدينية على نحو ما كان يفعله الشيخ محمد عبده رحمهما الله .

نقولا توما

ولد في صور وقد نفذت ثروة والده ونشأ وهو يسمع ما كان لهم من سعة الرزق وكان فيه نشاط وهمة وذكاء فانصرفت افكاره الى انهاض عائلته والأخذ بيد والده الشيخ . وقبل ان يدرك السادسة من عمره أخذ في تلقي العلم ببعض المدارس الصغرى ثم في مدرسة الآباء اليسوعيين فظهر ذكاؤه ونبغ بين أقرانه وسبق كثيرين منهم وكان من حداثته ميالاً الى إلقاء الخطب والأساتذة يلاحظون ذلك فيه ويبشرون والده ان ابنه سينبغ خطيباً .

وكأنه رأى من والده عجزاً عن القيام باجرة تعليمه (ريال مجيدي في الشهر) فعرض على الأباء اليسوعيين ان يعلم بعض صفوف المبتدئين في مقابل اجرة تعليمه فاجابوه . واتفق انه سمع بعض رفاقه من آل ابيلا يتباحثون في بعض المسائل النحوية فرغب في النحو والتوسع فيه فوق ما تدرسه تلك المدرسة فبث أمره الى والده فأخذ يبحث عن المعلم وأجرة التعليم فوجد ان



نقولا توما

١٨٥٣ — ١٩٠٥ م

المعلم هو عم أولئك التلامذة الخواجه ميخائيل أبيلا فمضى اليه وقص رغبة ابنه عليه فتبرع الخواجه أبيلا بتعليمه مجاناً وصاحب الترجمة يومئذ في الثانية عشرة وقد كبر عليه ان يتعلم بدون أجرة أو ما يقوم مقامها فجعل يخدم معلمه في جميع مصالحه جهد طاقته . وكان قوي الحافظة فتعلم النحو وبرع فيه ومال الى الشعر فدرس العروض . ولم تمض عليه سنة في هذه الدروس حتى عزل والده من وظيفته بالكمرك وزادت ماليته ضيقاً فتنغص الغلام فاستشار والده في الذهاب الى بيروت ليعمل عملاً يعينه فيه على المعاش فأبى الا ان يتم دروسه فادخله مدرسة المعلم بطرس البستاني في بيروت . واتفق ان اختهُ كانت مقيمة مع زوجها هناك ورأت في اخيها ذكاءً ورغبة في العلم

فرتبت له معلماً يعلمه الفرنساوية في بيتها وحاطته احسن حياطة وهو راغب في العمل فعلم بعد نصف سنة ان جريدة التقدم تحتـــاج الى محرر أو مترجم فتقدم اليها فاستخدموه فيها براتب زهيد فكان ذلك اول اشتغاله بالصحافة وهو لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره .

واخذت مواهبه تظهر من ذلك الحين وعمد الى استحثاث رفاقه على تأسيس جمعية وطنية لم يتم له انشاؤها . وكان خاطره مع ذلك قلقاً على حال عائلته بعد ان اقيل والده من وظيفته فاغتنم قدوم والي سوريا لتمضية فصل الشتاء في بيروت ونظم قصيدة رفعها اليه فأمر له بجائزة على جاري العادة فرفضها فاستغرب الوالي ذلك منه واستقدمه وسأله عن سبب الرفض فقـــال « اني رفعت اليك مديحي التمس منك ان تستخدمني في بعض دوائر الحكومـــة للقيام بأود عائلتي » وقص عليه حديث والده فاعجب الوالي بنباهته فوظفه في قلم الاملاك والنفوس في قائمقامية صور والتقى هنـــاك بزوج عمة له اسمه نقولا الزهار كان عالماً بالفقه فاحس بميل الى هـذا العلم فدرسه عليه ثم أخذ يتبحر به لنفسه حتى كثيراً ما كانوا يستقضونه في بعض الشؤون . وكان من حداثته ميالاً الى الاعراب في كلامه فاذا تكلم تكلم فصيحاً معرباً وتعود ذلك حتى صار ملكة فيه الى آخر أيامه .

قضى تلك الحداثة الضيقة ونفسه تطلب المزيد ومطامعه لا ترضى غير العلى والأحوال تقعده وتمنعه فاتفق استقالة الوالي الذي استخدمه ورأى مقاومة من رئيسه فذهب الى بيروت وقدم استعفاءه فأعفوه فطلبه المطران اغابيوس الرياشي أن يتولى التدريس في مدرسة عين القش بلبنـــان فأجاب ووجد في تلك المدرسة مكتبة حافلة بالكتب المنطقية والفلسفية والتاريخية فاستفاد من

مطالعتها كثيرا . ولكنه عاد الى مطامعه ورأى نفسه اكبر من أن تسعها تلك الحالة فاستعفى ونزح للاسكندرية في آخر سنة ١٨٧٤م وأخذ يبحث عن عمل يرتزق به فوفق الى وظيفة مترجم بمصلحة الملح وظل ملازماً التدريس في أوقات الفراغ فرأى في تلك المصلحة فساداً فانتقده فعزلوه فأتى القاهرة ونظم قصيدة رفعها الى رياض باشا ارفقها بكتاب ذكر فيه انه يستطيع عرض نظام مفيد لمصلحة الملح والوزير حر بقبوله أو رفضه . فاستحسن الوزير عزة نفسه وأجاب طلبه فرفع عدة تقارير كان لها وقع حسن عند الحكومة وعملت بمقتضاها فأصدرت أمرها باحتكار الملح سنة ١٨٧٩م واعتمدت على صاحب الترجمة في كثير من مهامها وارتقى في هذه المصلحة الى وظيفة مفتش في المديريات ولكن نفسه ما زالت تطلب المزيد فاستقال سنة ١٨٨٥م .

وكانت الصحافة العربية يومئذ لا تزال طفلة ولها مع ذلك تأثير في دوائر الحكومة والنفس الكبيرة ترى في صناعة القلم باباً لسد مطامعها في سبيل الشهرة فضلاً عن لذة الكتابة فأخذ صاحب الترجمة يشتغل في تحرير جريدة مرآة الشرق . ثم سافر الى باريس للسياحة فلقي هناك المرحومين السيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده ورحل منها الى لندن وعرف في رحلته هذه عدداً من رجال الفضل واطلع على حقيقة التمدن ورأى الدنيا كما هي فعاد الى مصر وقد عدل عن الصحافة الى المحاماة فلقي مشقة كبرى فاز في آخرها ونفسه لا تزال تميل الى القلم فاستخدمه في سبيل المحاماة فأنشأ مجلة الاحكام المصرية وكان لها شأن حسن في عالم الصحافة على ان سعة أعماله في المحاماة أدّت الى ايقافها من عامها الثاني . وظل مثابراً على تلك المهنة ونبغ فيها حتى عدّ من أكبر رجالها وامتاز عن معظم زملائه بفصاحة العبارة واعرابها فقد شهدناه في بعض مجالس القضاء يعرب الكلام ويلقيه فصيحاً بليغاً

لا يتوقف ولا يتلجلج مع جرأة واستقلال فكر فلا تأخذه في الحق لومة لائم ولا يبالي أن يقول للمخطىء أخطأت ولو كان قاضياً أو أميراً فاضطغنت عليه صدور البعض حتى اذا سنحت لهم فرصة حاسبوه فيها على عمل لا يعدُّ في عرف المحامين ذنباً وإن كان القانون لا يسوغه ورافق ذلك قرائن اخرى آلت الى اخراجه من سلك المحامين وهو في ابان الحاجة الى الراحة وكان الاطباء قد أشاروا عليه بها منذ اعوام وهو لا يستطيع إيقاف تيار أعماله بعد ان اتسعت اشغاله وحام اصحاب القضايا حوله . فلما حكم عليه بالراحة كان ذلك لازماً لصحته بعد أن أنهكها الجهاد في طلب العلى . وكأن الراحة أتت بعد فوات الفرصة فذهب للاستشفاء في بعض مدن اوربا فقضى هناك في مدينة افيان في ٢٥ اوغسطس سنة ١٩٠٥م وحملت جثته الى مصر .

حسن باشا محمود

هو من أهل الدور الثاني للنهضة الطبية الأخيرة باعتبار تفاوتهم في أسلوب التأليف واختلافهم في المصادر التي تلقوا العلم عنها. نبغ من بين العامة وارتقى بجده واجتهاده حتى صار في أرقى طبقات الخاصة علماً ووجاهة . ونبوغ العامة الى طبقة الخاصة يكثر على الخصوص في أثناء الانتقال من عصر الى آخر أو من دولة الى اخرى . إذ تصبح السعادة فوضى يتنازع الناس في اغتنامها فينالون منها على مقادير قواهم وحظوظهم .

ولد حسن باشا محمود في قرية صغيرة على طريق الاهرام يقال لها الطالبية وتلقى مبادىء العلم في المدرسة الحربية حتى اذا آن زمن الارسالية العلمية لعام سنة ١٨٦٢ م بعد وفاة المسيو جومار ارسلوها الى المانيا وكان صاحب



حسن باشا محمود

١٨٤٧ - ١٩٠٦ م

الترجمة في جملة اعضائها للتفقه في الطب فأقاموا حيناً في مونيخ يتعلمون بالالمانية ثم أتموا دروسهم في فرنسا لأسباب أوجبت ذلك الانتقال . فعاد صاحب الترجمة الى مصر سنة ١٨٧٠م وبيده الدبلومة الطبية فعينته الحكومة المصرية استاذاً للتشريح في مدرسة القصر العيني ثم تولى تدريس علوم اخرى وراتبه يزداد والانعام تتوالى عليه وكان راغباً في الشهرة فانتظم عضواً في جمعيتين قبل رجوعه من باريس فلما صار استاذاً في مدرسة قصر العيني انتدبته الاكاديمية البرازيلية لعضويتها وعين عضواً في عدة مؤتمرات طبية وتقلب في مناصب كثيرة بدوائر الامراء وفي المعية السنية وفي مصلحة الصحة والمدرسة

الطبية . ومـا زال يرتقي في ذلك حتى تولى ادارة مجلس الصحة ثم رئاسة مدرسة الطب وكان كثير التفكير في العمل والسعي في التقدم . ومن مساعيه أنه أنشأ مجمعاً طبيّاً بمصر لم يطل عمره كثيراً .

وكان مع ذلك كثير الاشتغـال في الكتابة والتأليف ، وله مقالات طبية وعلمية تناقلتها الجرائد والمجلات وتباحثت بهـا الأندية والجمعيات . أما مؤلفاته فأكثرها منقول أو ملخص عن الالمانية ولكنه كان كثيراً مـا يبث آراءَه واختباراته فيها . أولها كتاب ألفه في الفرنساوية قبل رجوعه من باريس موضوعه « داء الفقاع » أتى فيـه على تاريخ هذا الداء من أول عهد الطب الى الآن وذكر رأيه في كثير من أبوابه وكان له وقع حسن عند أطباء الإفرنج .

وأكثر مـا ألفه من الكتب بعد ذلك منشور بمصر في العربية ككتاب الفرائد الطبية في الأمراض الجلدية ذكر فيه كثيراً من الامراض الجلدية الشائعة في القطر المصري وكتاب الخلاصة الطبية في الامراض الباطنيـة . وكتاب البواسير ومعالجتها وتحفة السامع والقاري في داء الطاعون البقري الساري . وألف رسائل في حمى الدنج وحمامـات حلوان والكوليرا والنزلة الوافدة ومقالات كثيرة نشر أهمها في المقتطف منها مقالة ضافية في النباتات المصرية ومقالات في الزراعة بوادي النيل والحشيش والدمل المصري والتراخوما والسل غير ما نشر من قلمه في المجلات الطبية بمصر وغيرها .

وبالجملة فقد كان رحمه الله عاملاً نشيطاً مجتهداً مع رقة طباعـه وسهولة أخلاقه ورغبته في خدمة وطنه بما يبلغ إليه امكانه .

جميل المدور

هو جميل بن نخلة المدوّر ولد في بيروت ببيت مجدٍ وأدب وخدم آداب هذا اللسان خدمة حسنة يذكرها له التاريخ ما بقيت اللغة العربية نعني كتابه « حضارة الإسلام في دار السلام » فانه من الآثار الباقية وقد مثل بهِ ما بلغت إليه الدولة العباسية من أسباب الثروة والترف والعز والسؤدد برسائل على لسان رحالة فارسي قدم بغداد في أوائل تلك الدولة فلقي المهدي والرشيد وغيرهما ووصف حال تلك الدولة سياسيّاً واجتماعيّاً وأدبياً وتجارياً على أسلوب بليغ تلذ مطالعته وأشار في الحاشية إلى المآخذ التي نقل عنها . من ذلك قوله على لسان ذلك الرحالة يصف دار الخلافة وداخلية بيت الرشيد :

« لقد مضى بي في بغداد بعد العودة من خراسان نحو من ست سنين ما زلت منقطعاً فيها إلى البرامكة وحافظاً لمقامي في الدولة تحت ظلهم وعنايتهم وكنت أتردّد في خدمتهم إلى دور الخلافة فأقف على أحوال الرشيد في داخليته وأهل بيته فرأيته أعزّه الله صالح السيرة شديد الاعراق في الدين محافظاً على أوقات الصلوة[1] وشهود الصبح لأول وقتها يصلي في كل يوم وليلة مئة ركعةٍ لا يتركها إلا لعلةٍ تطرأ عليه واذكر انه لما حصل في العام لزنةٌ وغلاءسعر للناس واشتد الكرب عليهم اشتداداً عظيماً أمرهم بكسر الملاهي وكثرة الدعاء والتوبة[2] فذلك دليلٌ فيه على حسن العبادة أو مظهرٌ يروم

---

(١) الفخري ٢٣٠ .

(٢) المستظرف ١ * ٨٢ .

منه تأييد الدولة بإيهام الأيمة والعلماء ان الإسلام مغتبط بمناحيه .

« ولئن كنت رأيت له في تدبير المملكة ذلك التصرف الجميل فاني ما وجدته له في تدبير أهل بيته ومواليه وانما يرجع الرأي في ذلك إلى زوجه أمّ جعفر وهي أنفذ نساء العباسيين كلمةً في الدولة إذ كانت خير بنات بني هاشم وقد ربيت على مهاد الدعة والدلال كما يشير اسمها إليه فإنها سميت بزبيدة لغضاضة بدنها[١] وكان جدُّها أبو جعفر يرقصها تهللاً بها[٢] وينظر إلى غضاضتها وملاحتها فسماها بزبيدة لذلك . فلما بنى بها الرشيد ووجدها طرفةَ حديث ومصدر رأيٍ جميل لم يرَ بدّاً من الانقياد اليها في قضاء جميع ما ترومه من الحوائج[٣] حتى إذا مكنها من بيوت المال انفقت من سعةٍ ما ينيف عن ثلاثين ألف الف دينار . فبنت مسجداً مباركاً على ضفة دجلة بمقربة من دور الخلافة يسمى بمسجد زبيدة[٤] ومسجداً سامي الحسن في قطيعتها المعروفة بقطيعة أم جعفر[٥] بين باب خراسان وشارع دار الرقيق[٦] وحفرت العين المعروفة بعين المشاش بالحجاز ومهدت الطرق لمائها في كل خفضٍ ورفعٍ وسهلٍ ووعرٍ[٧] حتى اخرجتها من مسافة اثني عشر ميلاً إلى مكة[٨] فبلغ جملة ما أنفقت عليها ألف ألف دينار وسبعماية ألف دينار[٩] وهذا من

---

(١) اغاني ٩ — ١٠٢ .
(٢) الشريشي ٢ — ٢٤٥ .
(٣) اتليديّ .
(٤) ألف ليلة وليلة ١ — ٨٣ .
(٥) ياقوت ٤ — ١٤١ .
(٦) ابن خلكان ١ — ١٨٩ . والمستطرف ١ — ٢٨٩ .
(٧) المسعودي ٢ — ٤٠٢ .
(٨) ابن جبير ١٧٣ .
(٩) الشريشي ٢ — ٢٤٥ .

الاعمال التي لم تباشرها امرأة في الإسلام إلا الخيزران أم الرشيد فانها عمرت كثيراً من المساجد[1] أيضاً وبنت دار ابن يوسف بمكة التي ولد فيها النبي ﷺ مسجداً جزيل البركة[2] وتوفرت عندها الأموال حتى بلغ الذي خلفته مع ما توسعت فيه من النفقة مئة ألف ألف درهم[3] فإن لم يكن لزبيدة من الأموال الخاصة ما يبلغ هذا القدر الجسيم فان لها بالسياسة رأياً يسمو بها إلى التداخل في أمور الدولة كأفطن ما يكون من الرجال .

« وقد صير الرشيد الأمر في داخلية بيته بعد زبيدة الى مسرور خادمة العبد[4] وهو حاجبه وسيد مواليه[5] وله في قصور الخلافة دواوين يقيم فيها حوزته من خدم وحرس وغلمان والكاتب له هو زياد بن ابي الخطاب[6] يقيم بمقربة من مجلس يوسف ابن القاسم صاحب ديوان الانشاء والذي قام[7] بين يدي الرشيد حين أخذت له البيعة على المسلمين . وفي ذلك دليل على مكان كتابه من الشرف وعلو المرتبة ولا غروَ فان له من نفاذ الكلمة في الدولة ما ليس للأمراء والحكام مثله اذ كان سيد دور الخلافة والحارس لها لا يدخلها شيء ولا يخرج منها شيء إلا بعلمه واذنه . وكثيراً ما كنت أرى الملوك يتزلفون بالهدايا اليه ليخاطب الرشيد في حاجاتهم اذ ليس في أهل بيته من

---

(١) ابن جبير ٢٧٦ .

(٢) المسعودي ١ — ٣٠٦ .

(٣) المسعودي ٢ — ٢٠٧ .

(٤) الف ليلة وليلة .

(٥) ابن خلدون ٣ — ٢٢٣ .

(٦) اغاني ٤ — ٩٩ .

(٧) المحاضرة ٢ — ١٣٢ .

يتجرّأ عليـــه سواه[١] حتى كان إذا ركب لا يجسر أحد على سؤاله الى اين يذهب غيره[٢] .

« والى مسرور هذا الخصي الامر فيما هو خاص بالسراري والقيان وانهن لكثيرات في دار الرشيد يبلغن زهاء الفي[٣] جارية يرفلن في أحسن زي من كل نوع من أنواع الثياب والجوهر ... غير ان المقدم عليهن ثلاث اهداهنّ اليه الفضل ابن الربيع سحر وضياء وخنث ذات الخال لهن صورة تستنطق الأفواه بالتسبيح وعيون لا ترتد إلا باقتناص النفس وهن اللواتي يهواهنّ ويقول فيهنّ الشعر[٤] ومن ذلك قوله :

أخذت سحرٌ ولا ذنبٌ لها ثلثي قلبي وتربها الثلث

ان سحراً وضياءً وخنث هن سحرٌ وضياءٌ وخنثْ

« وكنت اذا حضرت مجلسهُ وهن يغنين لهمن وراء الستارة ومعهن غانية منقطعة الى حمدونة بنته يقال لهـا دقاق لم يطق الستر ان يحجبهن عن نظره فيخرجهن اليه ويقول والله لا صبر لي على الحجاب وانما هو ضعف يميل بي مع هوى النفس .

« اما حريم الخلافة فانه دوائر كبيرة لا اتصال لهافي بعض ولكل هاشمية من بنات الخلفاء دائرة منفردة عما سواها من الدوائر وأعظمها دائرة أم جعفر ودائرة أولاد المهدي ودائرة أولاد الهادي ودائرة أولاد الرشيد من غيرزبيدة

---

(١) الاتليدي.
(٢) أغاني ٩ — ٩١ .
(٣) اغاني ٩ — ٨٨ .
(٤) اغاني ٥ — ٦٧ و ١٥ — ٨١ .

زوجه . ولهن جميعاً من الخدم والغلمان والخصيان ما ينتهي اليه أسراف الملوك في السعة ويتجلى به جمال السلطان بالزينة والاشراق . وحسبي من انغماسهن في النعيم وتقلبهن على مهاد الدعة والرخاء انهن يجلسن على فرش الحرير ويتخذن المخدات حشوها من الورد النثير ... وكنت أرى الجواري من خدم الحاشية يلبسن الوشي المنسوج بالذهب ويتخذن العصائب مكللة بالجوهر وهـــذه هي الزينة التي عمت نساء القصر اقتداءً بعلية اخت الرشيد إذ كانت أول من اتخذ العصائب لعيب في جبينها فسترته بها فكان ذلك احسن ما ابتدعته النساء ثم اتخذها بعدها سحاءُ جارية اسحق النـــديم وفريدة ومنة من مغنيات البرامكة حتى انطلق استعمالها في جميع النساء وصرن يكتبن عليهـا الكلام الذي يروق لأهل الهوى .. » .

وكل الكتاب هذا النسق البديع . وللمؤلف كتاب في تاريخ بابل واشور صححه الشيخ ابراهيم اليازجي.وحب الفقيد للعلم والأدب موروث من المرحوم والده نخله المدور وللوالد فضل كبير على آداب اللغـة العربية بطبع كتاب « مجمع البحرين » لليازجي الكبير طبعه على نفقته يوم كانت بضاعـة الأدب كاسدة فبذل المال في نشر ذلك الكتاب رغبة في نشر العلم فنظم الشيخ ناصيف اليازجي يومئذ في الثناء عليه قصيدة قال في جملتها :

اذا عدّت رجال العصر يوماً فإنك واحد بمقـــام الف

المطران يوسف الدبس

١ – ترجمة حاله :

اصل عائلته من غزير بلبنان وانتقل جده في اواخر القرن الثامن عشر الى



المطران يوسف الدبس

١٨٧٢ - ١٩٠٧م

كيفا ثم استقر ابوه في كفر زينا من زاوية طرابلس فولد له صاحب الترجمة سنة ١٨٣٣م فتلقى مبادىء العلم في مدرسة القرية فلما بلغ الرابعة عشرة ادخل مدرسة عين ورقة وهي ارقى مدارس الطائفة المارونية في ذلك العهد فتلقى فيها اللغات العربية والسريانية واللاتينية والايطالية والمنطق واللاهوت الادبي في مدة اقصر مما تقدره لها المدرسة واضطر مع ذلك ان يغادر المدرسة سنة ١٨٥٠ م ولم يمكث فيها الا ثلاث سنوات فأتم ما ينقصه من العلم بالدرس على نفسه لانه كان عالي الهمة ثابتاً صبوراً . ومدارس لبنان في ذلك العهد كانت تعدُّ تلامذتها على الغالب اما للتعليم او للكهانة الا من رحل منهم في طلب الرزق . ولم يكن صاحب الترجمة انتظم بالكهانة فعمد الى التدريس فافتتح

سنة ١٨٥١ م مدرسة بطرابس يعلم بها العربية ويغتنم الفراغ للمطالعة والدرس وعرف بين اقرانه بالنشاط وتوقد الذهن فاستقدمه مطران ابرشية طرابلس سنة ١٨٥٣ م وكلفه ترجمة كتاب اللدع ودحضها ففعل .

واتفق في السنة التالية وفاة البطريرك يوسف الخازن وقيام البطريرك بولس مسعد وكانت للدبس صحبة مع احد مطارنته فاستقدمه البطريرك واقامه معلماً في مدرسة ماري يوحنا مارون ثم آنس منه نفعاً للطائفة اذ انتظم في خدمتها فجعله سنـــة ١٨٥٤ م شماساً واخذ يرتقي في رتب الكهنوت فلم يمضِ عليه ثماني عشرة سنة حتى صار مطراناً على بيروت وهو المنصب الذي توفي فيه . وانما ارتقى اليه على أثر ما بدا من غيرته على الطائفة وسعيه في خدمتها بالدفاع عنهـــا بلسانه وقلمه بما خطبه او ترجمه او الفه . وازداد بعد توليه المنصب اجتهاداً في هذا السبيل فارتقت الطائفة على عهده واجتمعت كلمتها بمـــا كان يبثه فيهـــا من روح الغيرة وما كانوا يرونه من سهره على مصلحتهم ودفاعه عن حياضهم .

وممـــا زاده رفعة في أعينهم حتى استهلكوا في خدمته انه كان لا يطعن طاعن في المارونية إلا انبرى للدفاع عنهـــا بتأليف الردود وأشهر حرب من هذا القبيل انتشب بينه وبين المطران يوسف داود . فقد احتدم الجدال بين الرجلين نحو سنة ١٨٧١م وكلاهما عالم قوي الحجة فأجادوا في الأخذ والرد بما يلائم روح ذلك العصر من المناظرات الطائفية التي يعافهـــا أهل هذا الجيل . وأشهر ما ظهر من آثار صاحب الترجمة في سبيل الدفاع كتاب روح الردود وقد ترجم الى اللاتينية والفرنساوية وطبع غيرة مرة .

وقد زاد الطائفة تمسكاً بهِ وتفانياًفي تعظيمهِ سعي بعض حساده في تحقيره

بوشاية رفعوهاالى رومية فلما ظهرت براءَته عاد مكرماً مبجلاً واحتفل رعاياه باستقباله احتفالاً احتشدت فيــه الجموع من لبنان وبيروت فقيلت الخطب ونظمت القصائد وتواردت عليه رسائل التهنئة بما لم يسبق مثله لمثله — وذلك طبيعيٌ في سير الرجال العظام فان ما يلاقونه من المشاق أو يقام في طريقهم من العقبات يضاعف شهرتهم لانه يحمل مريديهم على المناداة بفضلهم واذاعــة آثارهم وينشطهم على العمــل . ما من عظيم لولا العقبات التي اقامها اعداؤه في سبيله لظل خامل الذكر أو اقتصر في جهاده على بعض ما يستطيعه من الاعمال . فالرجل العاقل اذا كان على ثقة من نفسه وجب عليه ان يسرَّ بما يقيمه اعداؤه أو حساده من العقبات في طريقه لان بالضغط والمقاومة تظهر القوى الكامنة ويوافق ذلك قول الشاعر :

عداي لهم فضل عليَّ ومنةٌ فلا ابعد الرحمن عني الاعاديا

هم عرفوني زلــتي فاجتنبتها وهم نافسوني فاكتسبت المعاليا

وفي سنة ١٨٩٧م انقضت السنة الخامسة والعشرين من مطرانيته فاحتفلت الطائفة بيوبيله . وكان قدوة حسنة لابناء ملته فتسابقوا الى الاعمال المبرورة بانشاء الجمعيات الخيرية والاخذ بيده في مشروعاته وما زال عاملاً حتى توفاه الله . وقد رحل الى اوربا خمس رحلات زار بهــا رومية ومرَّ بالاستانة ونال كثيراً من اوسمة الدولة العلية وفرنسا وغيرها .

٣ — مآثره :

مكث صاحب الترجمة في مطرانية بيروت ٣٥ سنة اتى في اثنائها اعمالاً تخلد ذكره بعضها كتبٌ والبعض الآخر ابنية كالمدارس والكنائس والاديرة

غير ما خلفه من الاثر الحسن في نفوس رعيته من الاقتداء باجتهاده وفضله. أما الكتب فبعضها من تأليفه أو ترجمته قبل المطرانية وبعدها والبعض الآخر نقحه وهذبه ومجموع ذلك ٣٥ كتاباً اليك أشهرها :

مؤلفاته :

١ – تحفة الجليل في تفسير الاناجيل .

٢ – معجم للفقه لم يطبع .

٣ – مغني المتعلم عن المعلم بالنحو (مدرسي)

٤ – مربي الصغار ومرقي الكبار («)

٥ – سفر الاخبار في سفَر الاحبار (رحلة)

٦ – روح الردود على المطران يوسف داوود .

٧ – خطبة في الفلسفة واللاهوت ثلاثة أجزاء .

٨ – تاريخ سوريا مطوّل ومزين بالرسوم في تسعة مجلدات .

ترجماته :

١ – كتاب البدع ودحضها .

٢ – « الرسوم الفلسفية لم يطبع .

٣ – « اللاهوت الاعتقادي ٤ مجلدات .

٤ – « الحق القانوني لم يطبع .

ما نقحه وطبعه :

١ – كتاب تفسير رؤيا يوحنا للقس يوسف الباني .

٢ – القداس .

٣ – الرسائل وكتب الجنازات والافراميات والحسابات والشحيم الكبير .

٤ – الكاتيكزمو الروماني وذخيرة الالباب وغيرها .

مشروعاته :

١ – مدرسة الحكمة وهي من أكبر مدارس بيروت تمّ بناؤها سنة ١٨٧٨م وقد مضى عليها نحو ثلاثين سنة وهي تعلم العلوم واللغات فتخرج منها جماعة كبيرة من شبان هذه النهضة وانشأ من تلامذتها وكهنتها جمعية علمية لها حفلات واعمال .

٢ – الكنيسة الكاتدرائية الكبرى في بيروت فرغ من بنائها سنة ١٨٩٤م وقد انفق عليها نحو ٢٠٠٠٠ ليرة وبنى كنائس أخرى ومدارس ونحوها فبلغ مجموع ما انفق عليها كلها وعلى مدرسة الحكمة ٧٠٠٠٠ ليرة ولم يكلف الابرشية من هذه النفقات قرشاً واحداً وانما كان يجمعه بسعيه وحسن اسلوبه.

سليم مخائيل شحادة

ولد في بيروت يوم الثلاثاء في ١٤ دسمبر سنة ١٨٤٨ م في بيت عرف بالفضل والعلم فدرس في المدرسة الارثوذكسية الكبرى المعروفة بالثلاثة أقمار (التي أسست أولاً في سوق الغرب نحو سنة ١٨٥٢ م) على أشهر أساتذة عهده ولا سيما إلياس حبالين فأتقن عليه الفرنسية والعربية على بعض الأساتذة ثم درس الانكليزية والعلوم على بعض المرسلين وتعمق في التاريخ والجغرافية

وانقطع الى مكتبته الغنية بالمؤلفات المطبوعة والمخطوطة (مجلة المشرق ١٠ : ٩٦١) وتبحر في المعارف وتبسط في التاريخ تبسطاً كافياً وكان يتمرن بمساعدة والده مخائيل شحاده في القنصلية الروسية التي دخلها في سنة ١٨٦٦م وعرف بأصالة رأيه وحصافة عقله ومقدرته في اللغتين العربية والفرنسية. وله مع والده اليد الطولى في تأسيس الجمعية الخيرية الارثوذكسية في مدينة بيروت فترأسها نحو سبع عشرة سنة وتولى ادارة شؤون مدارسها نحو ١٠ سنوات فنجحت وازدهرت . وفي أثناء ذلك تجددت الجمعية السورية العلمية سنة ١٨٦٨ م بعهد المغفور لهما راشد ناشد باشا والي سورية وكامل باشا متصرف لواء بيروت فانتظم المترجم في سلك أعضائها العاملين . ونحو سنة ١٨٨٠ م تجدّد انتظامها ثالثة باسم المجمع العلمي الشرقي وكان من أهم أعضائها من نذكرهم بحسب الحروف الهجائية . ابراهيم الحوراني ابراهيم اليازجي اسبر شقير الدكتور اسكندر بك البارودي بطرس البستاني جرجس همام جرجي زيدان جرجي يني سليم البستاني سليم شحاده سليم نوفل الدكتور فارس نمر الدكتور كرنيليوس فان ديك مراد بك البارودي نعمة يافث الدكتور يعقوب صرُّوف الدكتور يوحنا ورتبات وغيرهم . فألقى المترجم مثل كثير من زملائه الأعضاء خطباً شائقة منها رسالات سنيكا الفيلسوف الروماني الى لوسيليوس نشرت في المجموعتين الثامنة والتاسعة لأعمالها . ولما نشرت جريدة حديقة الأخبار لصديقه المرحوم خليل الخوري باللغتين الفرنسية والعربية سنة ١٨٧٠م حسب طلب المغفور له فرنكو باشا ثاني متصرفي لبنان كان المترجم ينشئ القسم الفرنسي مع زميله المرحوم سليم شقيق صاحب الحديقة . وله فيها مقالات تشهد بطول باعه في السياسة والانشاء وعلى منضدة مكتب تلك الجريدة اتفق السليمان على وضع « آثار الأدهار » في التاريخ والجغرافية وساعدهما في بعض

أبوابه المرحوم أديب اسحق الكاتب الشهير . فطبعا الجزء الأول من القسم الجغرافي في أوائل سنة ١٨٧٥م بالمطبعة السورية في ١٩٢ صفحة ثم على اثر ذلك هصرت المنية زميل المترجم بالهواء الأصفر فبقي هو مثابراً وحده على العمل وطبع الجزء الثاني في ١٥ نوفمبر سنة ١٨٧٥ م والثالث في ١٢ مارس سنة ١٨٧٦ م ثم الجزئين الرابع والخامس . وجميعها الآن في مجلد واحد لم تتجاوز حرف البـاء وصفحاتها ٩٨٠ صفحة بقطع كبير في عمودين بحرف من الجنس الثاني ونهاية مباحثه بعض تاريخ بلجيكا . ومن فوائده انه ذكر فيه جميع قرى ومدن سورية وأوربا واميركا الخ القديمة والحديثة وما تقلب عليها وتاريخ نشأتها ومميزاتها . ومن انصاف المترجم انه أبقى جميع الأجزاء باسمه واسم زميله الذي عاجلته المنية على اثر انجاز الجزء الأول . أما القسم التاريخي فطبع الجزء الاول منه سنة ١٨٧٧ م في ٣٨٤ صفحة وحفظ فيه اسم زميله بعد أن مضى على وفاته سنتان وفاءً بحقوق الاخاء . ورفع الكتاب بقسميه خدمة للأعتاب السلطانية . وصدر القسم التاريخي بمقدمة في فلسفة العمران صدرها بالبحث عن الانسان وشؤونه ، ثم استرسل الى علم التاريخ وأحواله ومنشأه ونتائجه وتقسيمه في ١٤ صفحة بقطع الكتاب وحرفه وجاء بما لم يجيء به إلا كبار علماء العمران .

وعلى الجملة فإن آثار الأدهار هو اول دائرة للمعارف التاريخية والجغرافية في اللغة العربية مرتبة على الحروف الهجائية وافية المباحث المفيدة وعلى أنقاضه قامت دائرة المعارف العربية التي أسسها المرحومان بطرس البستاني وولده سليم . ولقد ذكر الآثار كثيرون من المستشرقين .

ولما أنشأ الصحافي الشهير خليل افندي سركيس اللبناني مجلة (المشكاة) انشأ المترجم فيها مقالات هامة في تاريخ الأندلس وتراجم أهله ونوادرهم

ونشر في المقتطف مقالة ضافية في الجغرافية وجغرافيي الإسلام . وأنشأ سنة ١٨٨٥م مجلة ديوان الفكاهة الروائية القصصية بشركة صديقه المرحوم سليم بولس طراد .

وكان رفيع المنزلة بين أصدقائه وجيهاً في قومه تولى الترجمة في القنصلية الروسية أعواماً عديدة فأنعم عليه القيصر بوسام القديسة حنة الثالث سنة ١٩٠٢م . فقضى حياته يخدم السياسة والعلم واشتغل في أواخر أيامه بوضع تاريخ مطول للكنيسة لم يتمه . وتوالت عليه المحن في أواخر عمره بوفاة معظم اخوته ووالديه فأثر به الحزن فأصيب بعلة قلبية ذهبت بحياته في ١٥ اكتوبر سنة ١٩٠٧م . في سوق الغرب فحمل إلى بيروت ودفن فيها .

« لقد لخصنا هذه الترجمة من دواني القطوف بتصرف » .

الدكتور يوحنا ورتبات

استاذ التشريح والفسيولوجيا في المدرسة الكلية السورية

١ – فضل الارسالية الاميركية في سورية :

لكل الارساليات الدينية فضل على سوريا ولكن للارسالية الاميركية ما عدا مدارسها العالية التي تخرّج فيها الألوف من الشبان والشابات في العلم والطب والصيدلة والتجارة ومشروعاتها الخيرية التي أعالت الألوف من المعوزين وذوي الأسقام فضلاً يربو في نظر الباحث الاجتماعي على كل ما تقدم نعني تربية الأخلاق . ان فضل المرسلين الاميركان في هذا السبيل لا يمكن تقديره



الدكتور يوحنا ورتبات
١٨٢٧ - ١٩٠٨ م

حق قدره . انهم بلا خلاف من أكبر دعائم هذه النهضة العلمية . ولعلنا لا نغالي إذا قلنا ان هذه التربية كانت في جملة الأسباب التي مهدت السبيل لاعلان الدستور لانها ترقي نفوس الشبان وتعودهم استقلال الفكر والاعتماد على النفس والصراحة في القول والمجاهرة بالرأي فيخرج الطالب من مدرستهم رجلاً يثق بنفسه فيبث هذه الروح بين أهله وينشأ مقداماً لا يبالي بالأسفار في استدرار الرزق أو طلب العلى . ناهيك بما استفاده السوريون من جوارهم بالقدوة ولا سيما في أوائل هذا العصر لمسيس الحاجة إلى الاصلاح . ولتفرد بعض المرسلين يومئذ بمناقب تجذب القلوب وتستهوي العقول فيحلو للنفس تقليدها والاقتداء باصحابها – إذا جمعت هذه الحسنات وغيرها مما لا محل له

هنا هان عليك تصور فضل الارسالية الاميركية . وإنما عمدنا الى ذكر هذا الفصل الآن لنتطرق منه إلى سبب ظهور صاحب الترجمة استاذنا المرحوم الدكتور ورتبات لان ظهوره من جملة افضال تلك الرسالة كما سترى .

٢ - أصله أرمني :

كان للرسالة الاميركية عمل في بر الاناضول قبل عملها في سوريا وكان الانكليز قد سبقوها الى هناك وفيهم القسيس والقنصل والتاجر والكاتب فأخذوا بناصرها واصبح مرجع الاميركان في شؤونهم إلى سفير انكلترا في الاستانة . ولكن الآباء اليسوعيين كانوا أسبق الجميع إلى التعليم والتبشير هناك . ولهم شأن خاص في أرمينيا فقد دخلوها ونشروا الكثلكة فيها من أواسط القرن الخامس عشر فظهرت طائفة الأرمن الكاثوليك وعرف الباقون باسم الأرمن الأرثوذكس وكانوا أقل علماً واضعف عزيمة لتفوق الكاثوليك بالعلم والنظام واجتماع الكلمة مع ارتباطهم برومية . فاضطر الارثوذكس اخيراً الى استنجاد بطرس الأكبر قيصر الروس فحماهم - ولا تزال كنيستهم تحت حماية روسيا مثل سائر الكنائس الارثوذكسية في الشرق الاسلامي .

وللكنيسة الأرمنية ثلاث طبقات من الاكليروس وهي الأساقفة والكهنة والشمامسة . والاساقفة ثلاث درجات (١) رئيس الأساقفة (٢) الأسقف (٣) نائب الاسقف ويسمونه في اصطلاحهم « ورتباد » وهو في الأصل يقابل لقب « دكتور في اللاهوت » ففي أواخر القرن الثامن عشر أو أوائل التاسع عشر حدث في أرمينيا حادث بعث على مهاجرة جماعة من كبار الاكليروس الأرمني نزحوا من أرمينيا الى بر الاناضول وصل الينا اسماء ثلاثة منهم وهم أسقفان احدهما قرابيب ديونيسيوس والثاني يعقوب ابكاريوس والثالث كان

برتبة ورتباد التي تقدم ذكرها ثم قيل بالتحريف « ورتبــات » ولم نقف على اسمه .

لا نعلم سبب تلك المهاجرة وقد يكون السبب اختلافـــاً في المذهب أو الرأي ويقال ان الكنيسة الأرمنية ادعت عليهم انهم تصرفوا بأموال دير أو كنيسة هناك . فلم يجدوا من ينصفهم فانضموا الى الكنيسة الانجيليـة ولجأوا الى سفير انـكلترا في الاستانة اللورد ستراتفورد فلما تفحص قضيتهم اعتقـــد براءتهم فأخذ يناصرهم وتوسط في إطلاق سراحهم وأشار عليهم بالذهاب الى سوريا وأرفقهم بكتب توصية الى قنصل الانـكلـيز في بيروت واسمه بطرس ابوت وهو حمو استاذنا الدكتور فنديك وجدُّ صديقنا المستر ادوار فنديـك لأمه وعليه معولنا في تحقيق أصل عائلة صاحب الترجمة ونشأته الأولى .

شخص هؤلاء الى سوريا والمرسلون الاميركان لاول عهدهم فيها فرحبوا بهم فأقاموا فيها وتزوجوا . فأقام يعقوب ابكاريوس في بـيروت وعرف يعقوب آغا واشترى منزلاً قرب القشلاق عرف باسمه . ثم اشتراه الأرمن وجعلوه ديراً لهم ولا يزال الى الآن وعائلة ابكاريوس مشهورة .

واما ديونيسيوس فتزوج وأولد وعرفت عائلته في بيروت باسم قرابيت . واما ورتبات فتزوّج وأولد يوحنا صاحب الترجمة وكركور ويعقوب . ومات أبواهم وهم اطفال فعنيت بتربيتهم مسز هواتين المرسلة الاميركانية أحسن تربية وعلمتهم . فلم يصبُ الى الدين منهم إلا يوحنا . وأما أخواه فأحدهما يعقوب نزح في شبابه الى اميركا واختفى خبره وكركور تعلم الطب في بلاد الانـكليز وتعاطاه في الكرنتينات فأقام رئيساً لكرنتينة كربلاء عدة سنين ثم نقل الى جدة ومات فيها .

٢ – سيرة حياته :

أما يوحنـا ورتبات فقد ولد سنة ١٨٢٧م وتلقى مبادىء العلم في مدارس المرسلين الاميركان في بيروت وكانوا لا يزالون حديثي العهـد في التعلـيم يعلمون كل شيء في اللغة الانكليزية فساعد ذلك على اتقانه هذا اللسان تفهماً وتلفظاً . وقرأ آداب اللغة العربية على الشيخ ناصيف اليازجي وتفقه بالمنطق والعروض على الشيخ عقل من علماء حلب . وقرأ على المرسلين أيضـاً بعض اللغات القديمة كالعبرانية واللاتينية واليونانية في أثناء درسه علم اللاهوت . وكانت التقوى قد ظهرت فيه منذ نعومة أظفاره فتفقه بالدين على ان يتعاطى التبشير . ورأى ان عمله يكون أكثر نفعاً إذا تعلم الطب فتلقى معظمه على المرحوم الدكتور فنديك . ولم يكن يشترط بالطبيب لمعاطاة الطب ان يكون في يده شهادة . فأرسله المرسلون مبشراً الى حاصبيا . فأقام في هذا المنصب مدة طويلة تزوّج في أثنائها بسالومي ابنة قرابيت المتقدم ذكره . واشتغل وهو في حاصبيا بالعلوم الدينية ودرس الأديان الشائعة في سوريا وخصوصاً الدرزية .وقد وفق الى الاجادة في ذلك بمطالعة كتب وقعت لأحد الفرنساويين على أثر حادثة سنة ١٨٦٠م وهو ينهب بعض الخلوات . فوصلت هذه الكتب الى ورتبات واستفاد منها كثيراً في هذا الموضوع .

وادت الحادثة المشار اليها الى تشتت شمل الناس فنزل جماعات من أهل لبنان وحاصبيا وسائر سوريا الى بيروت وفي جملتهم يوحنـا ورتبات وترك مهنة التبشير أو التعليم . فأشار عليه استاذنا الدكتور فنديك ان يتمم دروسه الطبية في بلاد الانكليز فيسهل عليه الارتزاق من الطب فسافر الى ايدنبرج واتم الطب في مدرستها . وعاد الى سوريا وبيده الدبلوما الطبية فاستخدمته

جمعية التبشير .C. M. S طبيباً ومبشراً في حلب مكث فيها بضع سنين وعاد الى بيروت . وكانت المدرسة الكلية في أول نشأتها وتعليمها في اللغة العربية فهي تحتاج الى اساتذة من الأطباء يعرفون الانكليزية والعربية جيداً فوجدوا في صاحب الترجمة الرجل المطلوب وانما ينقصه الاختصاص بفن يتقنه لأجل التعليم . فاقترحوا عليه ان يتخصص للتشريح والفسيولوجيا وأشار عليه الدكتور فنديك ان يتقنها في أميركا ويتحصل على الدبلوما الاميركية ليسهل على اللجنة تعيينه في عمدة المدرسة فذهب الى نيويورك وتفقه بالتشريح والفيسيولوجيا وعاد الى سوريا فعينته عمدة المدرسة الكلية استاذاً للتشريح والفيسيولوجيا فيها .

قضى في هذا المنصب نيفاً وعشرين سنة وهو موضوع احترام التلامذة فتخرج تحت يده مئات من الشبان وكلهم يحبونه ويجلون قدره . وقد كنا في جملة الذين قرأوا عليه التشريح والفيسيولوجيا الى سنة ١٨٨٣م درسناهما في كتابيه اللذين الفهما في هذين العلمين باللغة العربية وهما مشهوران وعبارتها سهلة ممتنعة . وقد عانى المشاق الجسيمة في تأليفها وان كان أكثرهما منقولاً عن الانكليزية وانما المشقة في إيجاد الأوضاع العربية الملائمة للمصطلحات الافرنجية في ذينك اللغتين . وكان يعتقد ان عبارة كتاب الفيسيولوجيا احسن من عبارة كتاب التشريح واكثر التلامذة يرون عكس ذلك فكنا إذا أردنا مداعبته قلنا له « ان عبارة كتاب التشريح أحسن » فيظهر استغرابه .

وما زال استاذاً لهذين الفنين حتى جرى في المدرسة الكلية الخلاف المشهور بين العمدة وطلبة الطب سنة ١٨٨٣ م واستقال الدكتور فنديك من منصبه وكان يعلم الباثولوجيا فعهدوا بتعليمها الى الدكتور ورتبات فعلمها أربع

سنوات . اي حتى خرج الطلبة الذين كانوا بدأوا الطب باللغة العربية ثم جعلوا يعلمون الطب في اللغة الانكليزية فلم تبق حاجة الى استاذ يعرف العربية .

وقد أولد ثلاثة أبناء هم هنري وأمين ووليم توفي هذا الأخير في شبابه وابنتين هما لومي وأدلا ولما توفي في بيروت لم يكن في منزله من أهله الا ابنته أدلا لان ولديه كانا بعيدين . فتولى نعيه جماعة من الناس من نخبه وجهاء بيروت وأكثرهم من تلامذته وأصدقائه فنعوه الى الناس فاحتفل أهل المدينة بتشييع جنازته احتفالاً يليق بمنزلته .

وكان له مقام رفيع بين العلماء والوجهاء وأحرز من علامات الشرف وسام الاستحقاق الذهبي وساعة من أصحاب المستشفى البروسياني في بيروت بعد تطبيبه فيه ١٥ سنة والمجيدي الرابع من الدولة العثمانية مكافأة على خدمته في الكوليرا التي تفشت سنة ١٨٧٥م ثم العثماني الرابع جزاء عمله في نشر العلم .

٤ – مناقبه ومؤلفاته :

كان ربع القامة مع ميل الى القصر ممتلىء الجسم . عرفناه في كهولته وقد وخطه الشيب وزاد هيبة ووقاراً . وكان ذكي الفؤاد حسن النظر لكنه كان ضعيف الذاكرة الى ما يفوق التصديق ولا سيما في أسماء الاشخاص . فقد يلتقي بأحد تلامذته الذين تلقوا العلم عليه وعاشروه سنتين في الصفوف على الأقل وسنتين اخريين في المستشفى ولا يذكر اسمه وانما يذكر صورته فيقول له « انك من تلامذتي ولكنني لا اذكر اسمك » فاذا تسمى تذكر كل ما يعرفه عنه . ومن أمثلة ذلك اننا بعد ان تركنا المدرسة الكلية في اثناء حادثتها المشار اليها أخذنا في درس اللغة العبرانية فعلمنا ان عند الدكتور

ورتبات كتاباً مطولاً في نحو هذا اللسان فاستعرناه منه للمطالعة ثم دوهمنا بالسفر الى بلاد الانكليز وبقي الكتاب معنا سهواً . وفي السنة التالية عدنا الى مصر وأعدناه اليه مع بعض الاصدقاء لكنه لم يسلمه اليه بيده فلم يكن يعلم أنه جاءه. واتفق اننا جئنا الى بيروت بعد سبع سنوات فالتقينا بالاستاذ في منزل أحد الاصدقاء فلم يخاطبنا لانه نسينا على عادته . لكنه لم يكد يسمع اسمنا حتى التفت الينا وقال : « ماذا جرى بالكتاب العبراني » ؟ فأخبرناه الواقع .

وكان طيب السريرة مخلص الطوية يميل الى البساطة في كل شيء حتى في اعتقاده وآرائه وفي عشرته وسيرته . فاذا استوصفه مريض وصف له ابسط العلاجات ولم يكن يعول في الطب إلا على الوسائل الهيجينية كالاستحمام بالماء البارد وتبديل الهواء والاعتماد على التغذية البسيطة ويميل في انذاره الطبي الى التهوين على المريض . وكان قنوعاً في مطالبه لا يهمه جمع المال انما يهمه ان يشفي المريض وأن يكون وسيلة لتخفيف الآلام والمصائب . فاذا كان مريضه فقيراً أحسن اليه بما يستعين به على الغذاء والدواء لا يفرق بين المسيحي وغير المسيحي ولذلك سموه فنديك الثاني لاشتهار صديقه استاذنا الدكتور فنديك بهذه المناقب من قبل .

وله مؤلفات عديدة بعضها كتب موضوعة والبعض الآخر رسائل نشرت في المجلات أو على حدة . وكتبه أكثرها طبي وبعضها غير طبي أما الكتب الطبية فهي :

١ – كتاب اصول التشريح . وهو كتاب كبير فيه مئات من الرسوم كان عليه معوله في اقراء هذا العلم بالمدرسة الكلية .

٢ – كتاب الفيسيولوجيا : وهو مزين بالرسوم وقد تقدم ذكره .

٣ – حفظ الصحة : سماه كفاية العوام في حفظ الصحة وتدبير الاسقام وهو مجموع فوائد عامة لحفظ الصحة وتدبير المرض عند غياب الطبيب .

٤ – كتاب التشريح الصغير في مبادىء هـذا العلم وهو جزيل الفائدة ومعه أطلس كبير فيه صور الاعضاء لافادة غير تلامذة الطب .

٥ – رسائل عديدة اكثرها صدر بالانكليزية وكل رسالة في مرض خاص كالجذام والطاعون والكوليرا والحمى التيفوئيدية والتريخينيا وغيرها .

أما مؤلفاته في غير الطب فمنها :

١ – كتاب في اديان سوريا نشر في اللغة الانكليزية واسمه Researches into the religions of Syria وهو يبحث في الأديان الشائعة في سوريا بحثاً تاريخياً واعتقادياً ويشتمل بحثه بضعة عشر ديناً أو مذهباً .

٢ – قاموس انكليزي عربي : هو منسوب الى ابنـه ولكن له فضل كبيراً في تأليفه .

٣ – قاموس انكليزي وعربي وانكليزي له وللدكتور بورتر .

٤ – كتاب حكمة العرب في اللغة الانكليزية .

٥ – رسائل عديدة في الوصايا والتربية وغيرها نشرت في المقتطف وغيره يضيق المقام عن تعدادها .

وله رسائل في اللغة الانكليزية وترجمات كثيرة في مواضيع مختلفة. وكان وسيلة في نشر بعض الآثار الشرقية الدينية منها الكتب والأوراق التي استخرج منها كتابه في أديان سوريا فانه دفعها الى جان هندرسن اوف بارك الكويكري في لندن فطبعها .

الدكتور جورج بوست

استاذ الجراحة في المدرسة الكلية الاميركية في بيروت

ترجمة حاله :

ولد في نيويورك سنة ١٨٣٨م وكان أبوه الدكتور الفريد بوست من مشاهير الجراحين وعضواً في اللجنة المركزية التي أنشأت المدرسة الكلية الاميركية باموالها ومساعيها . انتظم الدكتور الفريد في سلك هذه اللجنة في نيويورك سنة ١٨٧٣ – ١٨٨٦م واشترك في عملها بمال وقفه لتنشيط القسم الطبي من هذه المدرسة بما ينتج من ريعه . فكان ينفق من هذا الريع حسب الحاجة في سبيل المدرسة الطبية وما زاد منه يحفظ . وبلغ ما اجتمع من ذلك الريع ولم ينفق نحو ٧٠٠٠٠ ريال أميركاني (١٤٠٠٠ جنيه) وهي مرصودة لعمل الخير في سبيل الطب وعهد بانفاقها بهذا السبيل الى ابنه صاحب الترجمة ولعلها تصير الآن الى حفيده .

تلقى الدكتور جورج بوست العلم في كلية نيويورك وتعلم الطب في جامعتها وكان ابوه من أساتذتها فنال شهادتها سنة ١٨٦٠ م ثم تعلم اللاهوت فصار من المبشرين الاطباء وقضى مدة في خدمة الامة الاميركية أثناء الحرب الاهلية . وفي سنة ١٨٦٣م قدم الى سوريا للتبشير والتطبيب فقطن طرابلس واخذ في اتقان اللغة العربية ليسهل عليه مخالطة الناس وتبشيرهم أو معالجتهم فنال منها حظاً وافراً . وكان يستعين على حفظ المفردات العربية بقوائم من الفاظها يعلقها على جدران غرفته بحيث يراها كيفما اتجه. وما زالت لهجته عند التكلم



الدكتور جورج بوست

١٨٣٨ — ١٠٩١ م

كثيرة الشبه بلهجة الطرابلسيين الى آخر أيامه .

وكان المبشرون الاميركان في سوريا لا يزالون مضطهدين يخافون على حياتهم من القتل لأن رؤساء النصرانية هناك كانوا يسيئون الظن بهم ويعدونهم غرماء ينافسونهم على السيادة . فكثيراً ما أصاب المتقدمين من مبشري الاميركان اذى أو لحق بهم أهانة في سبيل التبشير . ومن هذا القبيل ان الدكتور بوست خرج يوماً الى دوما للوعظ فحضر الوعظ رجال من بسكنتا صاحوا به وهموا بقتله فضربه أحدهم بالعصـــا على كتفه وأطلق آخر الرصاص عليه فأخطأه فأسرع بعض الاصدقاء وحملوه الى البيت وقد تعطلت كتفه .

وبعد بضع سنوات عـاد الى نيويورك سنة ١٨٦٧ م وكان المرحومان

الدكتور فنديك والدكتور ورتبات قد باشرا تأسيس المدرسة الطبية وأخذا في العمل فعينت اللجنة المركز الدكتور بوست استاذاً للنبات والمواد الطبية والجراحة فيها .

فعاد الى سوريا وأخذ في العمل مع رفيقيه المذكورين وقدجعلواتعليم الطب في اللغة العربية ولم يكن فيها كتب تلائم التدريس فأخذوا يشغلون ساعات الفراغ بالتأليف ويلقنون التلامذة ما يؤلفونه فينسخونه في دفاترهم ويدرسونه في منازلهم . ولذلك كان تلامذة مدرسة الطب في السنين الأولى من انشاء هذه المدرسة ينسخون الكتب بأيديهم لا يجدون في ذلك مشقة لأن أساتذتهم كانوا قدوة لهم بالنشاط والهمة والمواظبة . وما زال الدكتور بوست يعلم في هذه المدرسة ويطبب في المستشفى البروسياني ويعالج في المنازل ويخطب على المنابر ويؤلف الكتب الى سنة ١٩٠٨م فالتمس اقالته فأقيل وعينوا ابنه الدكتور الفريد مكانه ففاجأه المرض ولم يجد حيلة في دفعه فمات مأسوفاً عليه .

اعماله وآثاره :

قضى ٤١ سنة وهو يعلم الجراحة وغيرها في المدرسة ويعالج المرضى في المستشفى بالجراحة — وهو الفرع الذي خصص نفسه له واشتهر به بين الخاصة والعامة حتى أصبح لفظ « بوست » في عرف البعض مرادفاً للفظ « جراح » لانه أول من اشتهر بينهم بهذا الفن في أثناء هذه النهضة . ولم يكن عمله قاصراً على التعليم والتطبيب والتأليف فقد كان يشتغل بعلوم اخرى يساق اليها شغفاً بالعلم ورغبة في العمل كاشتغاله بالنبات وكان مولعاً به وله فيه وفي علم الحيوان آراء واكتشافات مهمة وخصوصاً في النبات . فانه اكتشف كثيراً من انواعه في سياحاته بسوريا وفلسطين ومصر وسينا والأناضول وقد سمي بعضها باسمه « بوست » وألف على أثر ذلك كتابه في نبات فلسطين وسوريا

وأصبح ثقة بجغرافية فلسطين الطبيعية .

وقد جمع بتوالي الأعوام معرضاً نباتياً بالمدرسة الكلية يعد من المعارض الثمينة وكان رحمه الله يقضي اكثر ساعات الفراغ فيه وقد أعانه في جمعه تلامذته في النبات لانه كان يفرض على كل منهم أن يجمع أمثلة من النبات ويجففها ويقدمها له فيختار هو ما يستحسنه منها ويضيفه الى معرضه وكنا في جملة من فعل ذلك . فهو بهذا الفن وحده يستحق لقب العالم العامل ويعد من كبار علماء النبات . وقد عرف فضله علماء اوربا وأميركا فأدخلوه في جمعياتهم الطبية والعلمية .

فهو عضو في جمعية لينيوس في لندن وفي نادي النباتيين وعضو في اكاديمية الطب في نيويورك . ونال النيشان العثماني من الدولة العثمانية ونيشان ال دوكان السكسوني والنسر الأحمر من حكومة المانيا ولقب فارس من جمعية فرسان اورشليم الالمانية جزاء خدمته في المستشفى البروسياني في بيروت .

وكان له في المدرسة فضلاً عن معرض النبات معارض للمواد الطبية والمستحضرات الجراحية وفيها آثار ما اجراه من العمليات الجراحية كالحصى المثانية والأورام والعظام .

وكان مع ذلك يجد فراغاً يشتغل فيه بهندسة أبنية المدرسة فقد رسم بعضها بيده وكثيراً ما كان يتعهد بناءها وينتقده وخصوصاً قاعة العلم فانه تتبع بناءها بنفسه ولم يكن يضيع فرصة لا يفيد بها تلامذته حيثما التقى بهم من شرح عملية في المستشفى أو تفسير حادثة على الطريق أو في المنزل . وكان رابط الجأش وهو يعمل العمليات فكثيراً ما سمعناه يتحدث في السياسة أو الأدب أو الاجتماع ويداه غائصتان في الدم لا يظهر عليه الارتباك مهما يكن

من خطر العملية التي يشتغل بها فضلاً عن خفة يده في العمل .

وكان يرحل الى أميركا سعياً في جمع الأموال للمدرسة وخصوصاً للقسم الطبي ومن ثمار سعيه فيهذا السبيل انشاء قاعة الغلم التي جعلوها داراً للمعارض العلمية وقد سميت باسمه G. E. post Science Hall ومن آثاره الادبية فيخدمة هذه المدرسة أنه أنشأ لتلامذة الطب جمعية سماها الجمعية الكلية يتباحث فيها التلامذة في المواضيع المفيدة.وقد تولى رئاستها مدة طويلة ووضع لها نظامات كانت مثالاً لكثير من الجمعيات التي نشأت في سوريا بعد ذلك . أما آثاره القلمية فأهمها في الطب وفروعه وبعضها في سبيل الكتاب المقدس وهي :

١ — مبادىء التشريح والهيجين والفسيولوجيا .

٢ — علم الحيوان في جزئين : الأول في نظام الحلقات في سلسلة ذوات الفقرات والثاني في الطيور .

٣ — مبادىء علم النبات ويتضمن شرح بنيته ووظائفه ووصف الفصائل الطبيعية .

٤ — نبات سوريا وفلسطين الذى الفه بعد رحلته التي تقدم ذكرها وهو من اهم مؤلفاته وقد خدم فيه علم النبات خدماً جزيلة .

٥ — كتاب الاقرباذين أو المواد الطبية .

٦ — المصباح الوضاح في صناعة الجراح وهو مطول في الجراحة العلمية .

٧ — مجلة الطبيب أنشأها وحررها هو بنفسه بضع سنين . ثم حررها المرحومان الشيخ ابراهيم اليازجي والدكتور زلزل والدكتور خليل سعادة سنة واحدة ثم تولى رئاسة تحريرها الدكتور اسكندر بك البارودي ولا تزال تصدر في بيروت إلى الآن .

٨ – فهرس الكتاب المقدس وهو فهرس ابجدي مطول لكل الألفاظ الواردة في التوراة والانجيل والزبور .

٩ – قاموس الكتاب المقدس في مجلدين كبيرين .

غير ما كان يتلوه من الخطب أو ينشئه من المقالات مما نشر في المجلات العلمية وغيرها .

أخلاقه ومناقبه :

قد رأيت مما تقدم انه كان مثالاً في النشاط والهمة والثبات والمواظبة على العمل مع المحافظة على الوقت وكان يعد التقصير في ذلك رذيلة . ويغضبه الاخلال في الوقت لاي سبب من الأسباب . ذكروا من أمثلة ذلك انه كان في سفر بعيد فلما رجع ذهب اصدقاؤه لملاقاته ولم يذهب معهم ولده لاشتغاله بدرس كان عليه في تلك الساعة فسألوه عن سبب تخلفه فقال « لان والدي لا يرضى أن أترك درسي في هذا السبيل » .

وكان مدققاً في سائر معاملاته لا يقصر في ما عليه للآخرين ولا يحتمل تقصير الآخرين في حقه . وهذا هو السبب في ما أشيع عنه من التدقيق في اقتضاء حقه من مرضاه . فلم يكن يتجاوز عن شيء من اجرة العيادة أو العملية . وربما نقص المبلغ المطلوب غرشاً أو بعض الغرش فلا يتحول ما لم يقبضه ولو كان المريض فقيراً معوزاً ويعدون ذلك بخلاً منه . وظهر هذا البخل مجسماً بالمقابلة مع اريحية زميله الدكتور فنديك وسخائه فقد كان رحمه الله كثير التساهل مع مرضاه يعين بعضهم بثمن الدواء والطعام فضلاً عن اجرة العيادة . فظهر تدقيق صاحب الترجمة بخلاً قبيحاً وتحدث الناس به . والحقيقة انه إنما كان يفعل ذلك جرياً على طبيعته في دقة المعاملة كما تقدم

بدليل ما علمناه عن ثقة انه كان إذا دعي لاعانة في مشروع خيري تبرع باضعاف ما يتبرع به سواه والتمس ان لا يذكر اسمه في قائمة المتبرعين .

وكان عصبي المزاج حاد الطبع يتسرع الى سوء الظن – ربما بعثه على ذلك بالاكثر صمم كان في إحدى أذنيه فإذا رأى اثنين يتخاطبان سبق إلى ذهنه انهما يتكلمان عنه فيحكم بالظن وقد يعاتب على الشبهة . وكثيراً ما جرّ ذلك الى التنافر بينه وبين تلامذته حتى آل الى التقاضي لدى عمدة المدرسة . وتجسم الخلاف مرة أخرى اشتكاه طلبة الطب كافة الى لجنة المبشرين الكبرى في سوريا على أثر الخلاف الذي وقع بين الطلبة وعمدة المدرسة سنة ١٨٨٢ م . وكنا من أولئك الطلبة . فاجتمعت تلك اللجنة من انحاء سوريا للنظر في ذلك الخلاف لكنها لم تحسن السياسة في حكمها فخرج معظم طلبة الطب من المدرسة واستعفى الدكتور فنديك انتصاراً لهم في حديث طويل لا محل له هنا – والكمال لله وحده .

الشعراء

الشيخ أمين الجندي الحمصي

هو أشهر من نظم المقطعات أو الأدوار الفنائية في سوريا ووقعها على الالحان ولد في مدينة حمص في أوائل القرن الثالث عشر للهجرة ونشأ فيها وطلب العلم على علمائها وتردد الى دمشق وقرأ على أئمتها وفي جملتهم الشيخ عمر اليافي الشهير ثم عاد الى موطنه وأقام فيه ومارس الشعر فنبغ به .

وفي سنة ١٢٤٦هـ جاء الى حمص عاملٌ من قبل المغفور له السلطان محمود الثاني فوشى اليه بعض أعوانه ان الشيخ أمين الجندي هجاه وطعن فيه وبلغ ذلك الشيخ ففر الى حماه فبعث العامل في طلبه بعض رجاله فقبضوا عليه وحبسوه في اصطبل الدواب ومنعوا عنه الطعام الا قليلاً من خبز الشعير وبعض الماء . واتفق بعد أيام قليلة ان رجلاً من قبيلة الدنادشة يقال له سليم بن باكير غشي مدينة حمص بمئتي فارس من عشيرته ودخلها عنوة وقتل عاملها واخرج الشيخ من السجن بعد أربعة أيام من سجنه وفرح به الناس وظل موقراً محترماً حتى توفاه الله سنة ١٢٥٦هـ (١٨٤١م) ودفن في حمص .

وقد عني بعضهم في جمع منظوماته في كتاب يعرف بديوانه جمع فيه

كثيراً من القصائد والمقامات والموشحات ننقل بعض الأغاني على سبيل المثال لأن أهل الشام ومصر ظلوا يتغنون بمنظوماته معظم القرن الماضي . ومن ذلك قوله على نغم أبيات :

يابدر حسنٍ تبدّى من ورا الحجب   يفترُ ياقوته عن لؤلؤ رطب
ويا غزالاً زهـــا بالتيه والعجب   اراش عمداً لقتلي أسهم الهدب
سل بنديه . عن عطفية . في برديه ليلاً إذا بانا
من جفنيه . أم لحظيه . أم كفيه . دارت حميانا

دور

يا ذا الرضاب الشهي والمبسم الحالي   سل كل من تشتهي في الحي عن حالي
يا بدر لا انتهي ان لامني الخـــالي   حيرت للمنتهي في نقطـــة الخالي
خف مولاك. في أهلاك . من يهواك. وارفق بمفتونك
من أفتاك . يا فتاك . أو أغراك . في قتل محزونك

وله من عروض حجاز :

هيمتني   تيمتني   عن سواها اشغلتني
أخت شمس ذات انس   لا بكاسٍ أسكرتني
لست أسلوها ولو في   نار هجرانٍ سلتني
كعبة لبيت أسمى   للصفا لمـــا . دعتني
لنظام الحسن أبدت   طرّة فيهـــا سبتني
أم رماح من لجينٍ   تحت رايات غزتني
جدل الشال السليمي   فوق أعطاف شجتني

وله من عروض صبا :

ان انعمت ليـــلايا بالقرب يا بشرايا
دور شمسٌ الى الاقمـــار تهدي سنا الانوار
يا نسمة الاسحـــار ابدي لها شكوايا
دور سلت على العشاق سيفاً من الأحداقِ
لا تنكـــزوا أشواقي فيهـــا ولا بلوايا

وله من قدّ لحنه رصد :

أقبل الساقي علينـــا وهـــو كالبدر التمام
وانثنى عجباً لدينا حاملاً كاس المدام كالفرقد
بالخـــد المورّد والثغر المنضـــد
ولديه ايه ايه ايه قم واطرب واسكر ولديه ايه ايه ايه كم بـــدر اسفر
دور : تحسد الاغصان طولك كلما حيت طلولك
والهوا يثني قوامك والصفا يجلو شموسك يا اغيد
يا ذا القد الاملد واللحـــظ المهنـــد
بجمال خال حال عالٍفي روضِ الزهرِ وبشال سال طال مال يزهو بالجرّ

وقال مخمساً :

افدي التي لو رآها الغصن مال لها شوقاً ولو قتلت صبّاً لحلّ لهـــا
حوريّةٌ لو رآهـــا عابدٌ للها مرّت بحارس بستان فقال لها
سرقتِ رمانتي نهديك من شجري
قالت وقد بهتت من قوله خجلاً فتش قميصيَ حتى تذهب الوجلا

فهم ان يقبض النهدين مـــا مهلا فصاح من وجنتيها الجلنار على
قضيب قامتها لا بل هما ثمري

وقال مشطراً :

يا ناقــل المصباح لا تمرر على ربع بـــه صبح المحاسن اسفرا
واحذر بان تفشى اشعة نوره وجه الحبيب وقد تكحل بالكرى
اخشى خيال الهدب يجرح خده فيبث مسك الخال منه العنبرا
او ان يدبّ لفيه نمل عذراه فيقوم من سنة الكرى متذعرا

المعلم بطرس كرامة

هو بطرس بن ابراهيم كرامة من اعيان حمص ولد فيهـا سنة ١٧٧٤م ونشأ وتأدب فيها ثم حدث اضطراب واضطهاد للطائفـة الكاثوليكية . وكان عمه المطران ارميا كرامة على قلاية دمشق ارتسم عليهـا سنة ١٧٦٢م فقدم السيد ارميا المذكور الى حمص ونزل ضيفاً على اخيه ابراهيم . ووفد في تلك السنة على حمص مطران من السريان الكاثوليك أصله من (صدد) ولم يقبله السريان اليعقوبيون فنزل على المطران ارميا في بيت اخيه ابراهيم واقام القداس هناك بضعة أيام ثم سافر الى الجبل فاغتاظ من ذلك شيخ صدد واغرى مسعود آغا سويدان حاكم حمص يومئذ ان يشكوه الى بطـل باشا عند قدومه الى حمص ويقول له ان ابراهيم كرامة جعل بيته كنيسة ويشكو سائر الكهنة الكاثوليكيين اضطهاداً للكاثوليك على الاجمال . فقبضوا عليهم وسجنوهم واهانوهم وضربوا عليهم مالاً لا يخرجون الا بعد دفعه فجمعوه ودفعوه . فكره ابراهيم الاقامة

في حمص بسبب ذلك فخرج الى عكا مع ابنه بطرس ومنها الى لبنان .

وكان بطرس ذكياً من حداثته يقول الشعر ويحسن اللغة التركية وكان ذلك عزيزاً في تلك الايام . واتفق ان الامير بشير الشهابي الكبير امير لبنان الشهير احتاج الى من يعلم ولديه خليلاً وامينا وبلغه خبر بطرس المذكور فاستقدمه اليه سنة ١٨١٠ م فرأى من كفاءته وتعقله ما حببه اليه فقربه وجعله معتمداً من قبله في المسير الى عكا اذا اقتضت الحاجة مخابرة واليها . وكانت وقتئذ خزينة حكومة لبنان بلا نظام فوضع لها القوانين ورتبها على اسلوب اعجب الامير بشيراً فرفع منزلته وجعله كتخداه اي نائبه فأصبح نافذ الكلمة لا يراجعه الامير في أمر احبه فوقعت في القلوب هيبته وانتشرت شهرته . وما زال يدبر أعمال لبنان بحكمة وسياسة حتى قضت الاحوال بنفي الامير بشير سنة ١٨٤٠ الى الاستانة فرافقه المعلم بطرس وكان له أكبر تعزية في تلك الغربة وتقرب هناك من رجال الدولة فتعين مترجماً في المابين الهمايوني وما زال في ذلك المنصب حتى توفي سنة ١٨٥١م .

وكان رحمه الله شاعراً مجيداً كثير المحفوظ متوقد الذهن فصيح اللسان بليغ القول مهيباً مكرم الجانب . وله مصنفان لم يطبعا . واما منظوماته فهي في ثلاثة دواوين أحدها منظوم في سوريا والثاني في مصر والثالث في الاستانة وقد طبع منها ديوان سنة ١٨٩٨م . وأكثر ما فيه من منظومات سوريا عدد أبياته نحو سبعة آلاف بيت أكثرها في مدح الامير بشير ووصف أعماله ومدح من عاصره من الامراء والعظماء ومكاتبة الشعراء الادباء — من ذلك قوله من قصيدة غزلية :

فتن القلوب وقد تمنطق خصره   من أعين المشاق أي نطاق

أمسى يداعبني بورد خدوده | لما رآه يفيض من آمـــاقي
يفترُّ عن درٍّ فـأبكي مثله | لله در الطـرف من سرّاقِ

وقال يصف رشحاً ألمّ به :

وليلة بتُّ أشكو الرشح من ضرر | حتى فنيت وحال الحال وانسابا
قالوا أترشح يا هــذا فقلت لهم | كلا ولكنّ أنفي صار مــيزابا
كأن عيني عين الماء في هطـل | وصار أنفي دلو المـاء صبابا

وقال من موشح يصف به قناة أجراها الأمير بشير من ينبوع اسمه الفوار ومنهل يعرف بنبع القاع ونهر يسمى الصفا .

دور

جــاء بسم الله مجراه الى | بيت دين المجد منقاداً مطيع
كانفجار الصبح يبدو من على | ذلك السفح إلى الروض البديع
وتباهى جارياً يعــلو على | كل طود شامخ الأنف منيع
ملئت منــه السواقي فطماً | دافعاً كالعارض المنبجسِ
فغدا بالخصب يزهو منمماً | كل ربع مقفـر مندرس

دور

دارَ في دار السنى مثل العريس | يتهـادى في رداء جـوهري
حوله السرو كعشاقٍ تميس | في رداءٍ من حرير اخضرِ
تبتغي لثم محيـاه النفيس | والحيـا يمنعها بالنظـر
خلتهن قائمات خدمـا | حوله منعطفات الارؤس
وعليــه ساهرات هيا | تلتوي اعناقها بالنمسِ

دور

أطلع الزنبق يسقي الياسمين — من ندا أقداحه صرف العقار
فاعتلى المضعف بالحسن المبين — وانثنى البان عليه ثم غار
وشذا النسرين بالعطر الثمين — فتدانى نحوه أنف البهار
نقل النمام ان العنا — عانق النوفر جنح الغلس
والاقاحي قد أعار الخزما — خفية تاج الشقيق الاطلس

دور

غرد الميزاب كالصب الولوع — وتصابى حين صب الدررا
رقصت تلك السواقي والربوع — وتفنت جاريات سحرا
لاعب الطالع من تلك النبوع — نوفرات مسفرات غررا
وسبيل الصفو منه قسما — موكب الحزن بأفراح القسي
طفح الانبوب شوقاً عندما — شاهد البدر لديه يحتسي

وله قصيدة خالية تكرر لفظ الخال في كل قافية وكل منها بمعنى وهي :

امن خدها الوردي افتنك الخالُ — فسح من الاجفان مدمعك الخالُ
واومض برقٌ من محيا جمالها — لعينيك أم من ثغرها أومض الخالُ
رعى الله ذياك القوام وان يكن — تلاعب في أعطافه التيه والخال
ولله هاتيك الجفون فإنها — على الفتك يهواها اخو العشق والخال
مهاة بأمي افتديها ووالدي — وان لام عمي الطيب الاصل والخال
ارتنا كثيباً فوقه خيزرانة — بروحي تلك الخيزرانة والخال
غلائلها والدر اضحى بجيدها — نسيجان ديباج الملاحة والخال

ولما تولى طرفها كل مهجـــة　　على قدها من فرعها عقد الخال
اذا فتكت اهل الجمال فإنمـــا　　لهن على اهل الهوى الملك والخال
وليس الهوى الا المرؤة والوفا　　وليس له الا امرؤ ماجدٌ خال
وكم يدعي بالحب من ليس اهله　　وهيهات اين الحب والاحمق الخال
معذبتي لا تجحدي الحب بيننا　　لما اتهم الواشي فإني الفتى الخال
ولي شيمة طابت ثناء وعفةٌ　　تصاحبني حتى يصاحبني الخال
سلي عن غرامي كل من يعرف الهوى　　تري انني رب الصبابة والخال
ولا تسمعي قول العذول فإنه　　لقد ساء فينا ظنه السوء والخال
سعى بيننا سعي الحسود فليته　　اشلُّ وفي رجليه او ثقهُ خال
وظبية حسن مذ رأيت ابتسامها　　عشقت ولم تخط الفراسة والخال
توسم طرفي في محاسن وجهها　　فلاح له في بدر سيمائها خال
الى مثلها يرنو الحليم صبابة　　ويعشقها سامي النباهة والخال
ايا راكباً يطوي الفلاة ببكرة　　يباع بها النهد المطهم والخال
بعيشك ان جئت الشآم فعج الى　　مهب الصبا الغربي يعن لك الخال
وسلم باشواقي على مربع عفـــا　　كأن رباه بعدنا الاقفر الخال
وان ناشدتك الغيد عني فقل على　　عهود الهوى فهو المحافظ والخال
وان قلن هل سام التصبر بعدنا　　فقل صبره ولى وفرط الجوى خال
لكل جماح ان تمادى شكيمةٌ　　ولكن جماح الدهر ليس له خال

عبد الباقي العمري

شاعر العراق

هو عبد الباقي العمري الفاروقي الموصلي الشاعر الشهير المولود بالموصل سنة ١٢٠٤ هـ (١٧٩٠م) والمتوفي ببغـــداد سنة ١٢٧٨ هـ (١٨٦٢ م) يتصل نسب أبيه سليمان العمري بالخليفة عمر بن الخطاب ولهذا يعرف هو وسائرابناء اسرته بالعمريين والفاروقيين . ولهم وجاهة ومكانة سامية في بلدتهم الموصل وسائر بلاد العراق وبيتهم بيت علم وفضل انتج كثيرين من الشعراء والأدباء . وقد اتصف عبد الباقي منذ صغره بالحذق والذكاء واشتغل بالادب ونظم الشعر وهو بعد فتى وتقلد المناصب السامية ولم يتجاوز العشرين من عمره.وكان اعيان الموصل ينتدبونه لعظام المهام ويوجهونـــه في معضلات الأمور . فاشتهر امره لدى الولاة والحكام . وكان تعيين والي الموصل في تلك الايام منوطـــاً بوالي بغداد قبل ان يقره الباب العالي على ولايته . واتفق انفصال والي الموصل في اثناء ولاية داود باشا على بغداد فانتدب اعيان الموصل عبد الباقي للتوجه الى بغداد والتوسط بتعيين يحيي باشا فسار الى بغداد وكان داود باشا من أهل العلم ومروّجي بضاعة الادب فاكرمـــه وسأله عن سبب قدومه فاجابه بهذين البيتين :

يا مليك البلاد امنيتي حا   شاك مثلي يعود منك كسيرا
أنت هارون وقته ورجائي   ان ارى في حماك يحيى وزيرا

فاستحسن داود باشا ذلك وبادر الى طلب الوزارة ليحيى باشا . وبعد

اعوام انتقض داود باشا على الدولة وكان والي الموصل اذ ذاك قاسم باشا ابن عم صاحب الترجمة فاتته الاوامر من الاستانــة بالمسير في جيش كثيف الى بغداد والقبض على المماليك وداود باشا من جملتهم . فسار قاسم باشــا الى بغداد يصحبه عبد الباقي فاظهر المماليك الطاعــة حتى اتاهم قاسم باشا بنفر قليــل فغدروا بــه ورجع عسكر الموصل ومعه عبد البــاقي فسيرت الدولة علي باشا اللاز من الاستانة الى بغداد لقمع ثورتهــا وقتل داود باشا . فلما بلغ الموصل ورأى صاحب الترجمة أعجب بذكائه واصطحبه معـه الى بغداد . ولما استتب له الأمر وقبض على داود باشا اقرّ عبـد الباقي وقلده أسمى مناصبها وجعله كتخدا الولاية أي معاوناً له . وبقي من ثم في بغـداد الى آخر أيامه وكان نافذ الكلمة مرعي الجانب يعهد اليه الولاة بالمهام الخطيرة وهو على اشتغاله بخدمة حكومته يصرف همه في أثناء العطلة والفراغ للاشتغال بالآداب ومجلسه حافل بالادباء وسراة الاعيان .

وكان رحمه الله شاعراً مجيداً قوي البديهة سريع الخاطر متفنناً في شعره ميالاً الى التصوف كثير المدح لآل البيت محباً لعلماء عصره وأدبائهم باراً بهم وبغيرهم من ذوي الحاجات ومن مؤلفاته :

١ – ديوان أهلة الافكار في معاني الابتكار .

٢ – نزهة الدهر في تراجم فضلاء العصر .

٣ – ديوان طبعه بمصر الشيخ عثمان الموصلي وسماه « الترياق الفاروقي من منشئات الفاروقي » وذيله بترجمة له مسهبة لخصنا منها معظم ما تقدم .

وحسبنا ان نورد مثالاً من شعره مقطوعة نظمها عندما شخص بباخرة من بغداد الى الكوفة يؤم ضريح الامام علي بن أبي طالب .

بنا من بنات الماءِ للكوفة الغرّا سبوح سرت ليلاً فسبحان من أسرى
تمدّ جناحاً من قوادمه الصبا تروم بأكناف الغري لها وكرا
كساها الاسى ثوب الحداد ومن حلى تجملها بالصبر لاعجها أجرى
جرت فجرى كلٌّ الى خير موقفٍ يقول لعينيه قفا نبكِ من ذكرى
وكم غمرة خضنا اليه وانما يخوض عباب البحر من يطلب الدرّا
نؤمُّ ضريحاً ما الضراح وان علا بأرفع منه لا وساكنه قدرا
حوى المرتضى سيف القضا أسد الشرى عليّ الذرى بل زوج فاطمة الزهرا
مقام عليّ شرف الله وجهه مقام عليّ ردّ عين العلى حسرى
أثير مع الأفلاك خالف دوره فمن فوقه الغبرا ومن تحته الخضرا
أحطنا به وهو المحيط حقيقة بنا فتعالى ان نحيط به خبرا
تطوف من الافلاك طائفة به فتسجد في محراب جامعه شكرا
وحزب من العالين يهتف بالثنا عليه بوحي كدت اسمعه جهرا
جدير بأن يأوي الحجيج لبابه ويلمس من أركان كعبته الجدرا
حريٌّ بتقسيم الفيوض وما سوى أبي الحسنين الاحسنين بها أحرا
ترى منه بالدنيا الثراء لمترب وللمذنب الجاني الشفاعة في الأخرى
باهداب أجفان وأحداق أعين وجرّ وجوه عفرتها يد الغبرا
أمطنا القذى عن جفن وجه مذكر أجلّ سيوف الله أشهرها ذكرا
فوالله ما ندري وقد سطع السنا جلونا قراباً أم جلينا له قبرا

وخلف عبد الباقي ثلاثة ابناء سليمان فهيم أفندي وحسين حسني بك ومحمد وجيهي بك أقام الأول في الموصل وأما الاخيران فانهما قدما مصر سنة ١٢٨١هـ وتنقلا أعواماً في أسمى مناصب الحكومة المصرية .

سليمان البستاني

فرنسيس فتح الله مراش

هو فرنسيس بن فتح الله مراش ولد بمدينة حلب في ٢٩ يونيو سنة١٨٣٦م من ارومة طيبة الاصل . ولما بلغ الرابعة من عمره أصيب بداء الحصبة وثقلت وطأتها عليه حتى كادت تودي به ثم منّ الله عليه بالشفاء إلا أنـــه بقي من آثارها في جسمه وبصره ما نغص عليـــه عيشه وأوهن قواه مدى العمر . ولبث في حلب إلى أن يفع، يتلقن القراءة ثم مبادىء العلوم إلى ان كانت سنة ١٨٥٠م . فسار والده الى اوربا واستصحبه معه فتجول فيها مدة تنيف على السنة ثم رأى والده أن يطيل مكثه في فرنسا لضرورة دعت إلى ذلـك فأرجعه إلى حلب وبقي فيها إلى سنة ١٨٥٣م . ولما عـــاد والدهمن أوربا في هذه السنة دعته مقتضيات تجارته الى التمرج على بيروت فعرج عليها واستدعاه من حلب فسار منها الى بيروت وأقام بها معه نحواً من سنة . ثم عـــاد إلى مسقط رأسه وألقى به عصا التسيار مدة مديدة وأقبـــل يشتغل في خلالها بالأدب وهو الفن الذي كان قد ولع به منذ صبوته حتى انه عرف له نظم على طريقة الصبيان نظمه وهو ابن تسع سنين ودونها . ولكنه لم يقصر درسه على الأدب وحده بل أقبل يدرس غيره من العلوم وكان يتخرّج في كل علـم منها على من يلقاه من الاساتذة . ولما رأى آخر الأمر ان علـم الطب لا يبلغ أحدٌ منه ارباً ما لم ينل الاجازة في تعاطيه عملاً وتيقن ان اعظم الاجازات اعتباراً في تلك الايام ما كان صادراً منها من مدرسة باريز رحل في طلب ذلـك الى هذه المدينة حوالي سنة ١٨٦٧م . وأقام بها نحواً من سنتين يتردد على مدرسة الطب فيها اتماماً لدروسه واستعداداً للامتحان ولكن صروف الدهر عاندته وخانته الجدود العواثر من وجوهٍ أخرى فاعتراه من اسقام البـــدن وضعف



فرنسيس فتح الله مراش
١٨٣٦ - ١٨٧٣ م

البصر ما صرفه عن المثـــابرة على الدرس فلم يظفر بمراده من التقدم للفحص لنيل الاجازة بل اضطر ان يقفل راجعاً الى حلب وهو عليل ومكفوف البصر أو يكاد ولم يزل مقيماً بحلب الى ان توفاه الله في اواسط سنة ١٨٧٣م .

اما تصانيفه فالمطبوع منها « غابة الحق » و « مشهد الأحوال » وكلاهما مطبوع في بيروت وله ديوان سماه « مرآة الحسناء » أرسله بحياته الى المرحوم سليم البستاني فطبعه له في مطبعة المعارف في بيروت . اما الكتابان الأولان فقد سلك فيهما مسالك فلسفية وبث فيهما آراءه بأسلوب بديع . صنف معظم الأول منهما في باريز والثاني في حلب وله أيضاً رسائل موجزة في مواضيع شتى ولكنها لم تطبع فلذلك لم تعرَف وله رحلة الى باريس طبعت في بـــيروت وشهادة الطبيعة بوجود الله والشريعة طبعت بمطبعة الاميركان بعد نشرها في النشرة الاسبوعية وله غرائب الصدف وغيرها من الرسائل .

وكان في الجملة مشاركاً في كثيرٍ من العلوم إلا انه كان الى العلوم الفلسفية اميل وكان يؤثرها على العلوم الرياضية وغيرها لما في تلك من سعــة المجال للخواطر ولما في هذه من ضيق المجال وحرج القيود والقوانين على من يريد ان يقتدح زناد نفسه فانه كان لا يطيق احتمال الاسر المعنوي فضلاً عن الحسي . ولذا كان يحـاول التملص من رق العادات الجازمة بحجز حريـة التصرف بل طالما كان ينزع الى الاغضاء عن قيود اللغة وأغلال قوانينها وسلاسل قواعدها أيضاً حتى صار قليل الالتفات الى تحرير أساليبه وتنقيح عباراتـــه على ما تقتضيه أصول الانشاء .

إلا أنه كان يعرف حق المعرفة ان الحرية المطلقة هي كالكبريت الأحمر لا تقوم إلا في الذهن ولا وجود لها في الخارج وهذا ما حداه الى ان يقول :

رقُّ الزمان جوى على كل الورى   واقتادهم بسلاسلٍ وقيــودِ
رسفَ الامير مكبلاً بنضاره   رسفَ الاسير مكبــلاً بحديدِ

وان يقول :

صدّقوني كل الانام سواءٌ   من ملوكٍ الى رعاة البهائم
كلٌّ نفسٍ لها سرورٌ وحزنٌ   لا تني في ولائمٍ أو مآتم
كم اميرٍ في دسته بات يشقى   باله والاسيرُ في القيد ناعم
اصغر الخلق مثل أكبرها جر   ماً لهــذا وذا مزايا تلائم
هذه النمل تستطيع الذي تعجز   عن فعله الاسود الضيـاغم
والخلايا للنحل اعجب صنعاً   من قصور الملوك ذات الدعائم

وكان من انعم النظر في تصانيفه خيل له أنـــه لم يكن في كل الأحوال

راضياً عن الزمان وأهله وانه كان كثير التبرّم بالناس والاشياء كافةً وان كلامه في كثير من المواطن يشفُّ عن الشكوى من الدنيا وأهلها . وهذا لا يستغرب من رجلٍ رماه الدهر بالارزاء حتى أصبح كئيباً كاسف البال وقد حداه ذلك الى ان قال :

توتر أقواس الردى لرمايتي   ومن أعين الحساد تبرى سهامها
يجرُّ عليَّ الدهر جيش خطوبه   فتلقاه نفسٌ يستحيل انهزامها
ومن خبر الدنيا وأدرك سرها   تساوى لديه حربها وسلامها

ومن هذا القبيل ما أورده في « غابة الحق » :

إذا كا وقع السيف ليس يمضني   فعندي سواءٌ غمده وغراره
وان كان جمر الخطب ليس يصيبني   فلا خوف لي مهما يهبُّ شراره
أنا لا أرى في الأرض شيئاً يروقني   لذلك نور العمر عندي ناره
أيطربني هذا الزمان وكله   عراكٌ على الدنيا يثور غباره

هذا ما يلمح من خلال نظمه ونثره إلا أنه كان في معاشرة الناس ومخالطتهم متودداً أنيساً تأبى نفسه ان يصيب الناس أذىً مما ابتلاه الله به من الأشجان وكان إذا عنّ له خاطر أملاه على كاتب أو صديق وتوفاه الله وهو في شرخ الشباب .

ومن نظمه قوله من قصيدة :

انا على ما أنا من الخلق   باقٍ على مذهبي وفي طرقي
مالي عدوٌ سوى الكذوب فلم   يزل عدواً لصاحب الصدق

لا أكذب الله ان لي شيماً تحمي فمي من شوائب الملق
فلا كبيرٌ سطا عليّ ولا يدٌ لها منة على عنقي
ولا تسابقتُ في المفاخر بل سرت الهوينا وفزت بالسبقِ
ولا اشتريت الثناء من أحد بالمال بل بالجهاد والأرق
اسقي غروسي فان أجد ثمراً أقطف وإلا رضيت بالورق

وقال في وصف الجمال :

يا ربة الحسن جمالك لا يدوم إلا كدوام الخيال
فحسن وجه ذاهبٌ كالهبا وحسن طبع راسخ كالجبال
فجملي الطبع وحلي النهى لتقتني الحسن العديم الزوال
هذا هو الحسن البسيط وما للجوهر البسيط قط انحلال

ومن هذا القبيل قوله :

طرقت خباها بغتة يوم تبكير فصبحني وجه كرقمة تصوير
هناك على المرآة كانت مكبة تموه خديها بصبغة حنجور
فأيقنت أني في الهوى كنت والهاً بمسحوق تبييض ومحلول تحمير

السيد عبد الغفار الاخرس

هو من نوابغ شعراء العصر وان كنا لا نكاد نسمع بذكر اسمه في هذه البلاد فهو بعيد الصيت طائر الشهرة في بلاد العراق وما جاورها من بلاد العرب والعجم يتناشد اشعاره الادباء ويتنافسون بها في مجالسهم. وهو السيد عبد الغفار

الملقب بالاخرس للكنة كانت بلسانه ، ابن السيد عبد الواحد بن السيد وهب ولد في الموصل نحو سنة ١٢٢٠هجرية ونزح منها الى بغداد وقضى حياته في العراق منتقلاً من بلدة الى اخرى واكثر اقامته انما كانت في بغداد والبصرة . وقد نمي منذ صباه خبر ذكائه وتوقد ذهنه الى داود باشا والي بغداد فأرسله الى بلاد الهند في طلب اصلاح لسانه وحل لكنته فقال له احد الاطباء انا نعالج لسانك بدواء فاما ان ينطلق واما ان تموت. فقال لا ابيع بعضي بكلي وقفل راجعاً الى بغداد . وسنة ١٢٩٠هـ اتي البصرة قصد الذهاب الى الحج فاقعده مرض ألم به فعاد الى بغداد فلم ينجع فيه دواء فرجع الى البصرة وتوفي بها يوم عرفه من ذلك العام فشيع جنازته افاضل البصرة ودفنوه في مقبرة الامام الحسن البصري خارج قصبة الزبير .

وكان رحمه الله قليل الاعتناء بحفظ شعره واثباته على كثرته فبقي منثوراً في ايدي حفظته الى ان عني بجمعه شاعر عراقي آخر وهو احمد عزت باشا الفاروقي ابن اخي الشاعر عبد الباقي العمري فحصل منه على عشرة آلاف بيت طبعها في الاستانة العلية سنة ١٣٠٤ هـ بديوان سماه « الطراز الانفس في شعر الاخرس »

ومما يدل على اعجابه واعجاب شعراء العراق به قوله من جملة ما قال في مقدمة الديوان المذكور « ورد من مسقط رأسه الموصل الحضراء الى مدينة الزوراء . وجعلها له موطناً . وعريناً ومسكناً . وكانت اكابرها تحترمه وتشتاق لطلعته واماجد العراق ترتاح الى مفاكهته . ورؤيته ورويته . ومدح منها الاكابر الكرام . والفضلاء الاعلام بشعر يقف مهيار عند اقوابه ويعجز ابو تمام عن الوصول الى فسيح رحابه . ويتمنى الرضي لو ارتشف الحميا من اكوابه . وابن الازري لو اتزر برقيق ثيابه . من آدابه . حيث ان منواله

المريض الطويل لم يتيسر لاحد ان يأتي له بنظير او مثيل . وقد مازج برقته الارواح . ممازجة الماء القراح . باقداح الراح » . انتهى

ويؤخذ من مطالعة ديوانه انه كان بعيد التصور متوقد الذهن يتصرف بالمعاني تصرفاً حسناً . على انه سلك مسلك اكثر شعراء المتأخرين من اتخاذ صناعة الشعر ذريعة للمعاش والترنم به في مجالس اللهو والطرب ولذلك ترى تبايناً عظيماً بين متانة قصائده والتفنن باساليبها . فإذا مدح شاعراً أو عالماً أكثر فيها من الاعتناء فجاءت بخلاف مدحه لاكابر القوم الذين لم يتخذ الشعر الا وسيلة للتزلف اليهم فكأنما هو باذل لكل من بضاعته .

ومن رقيق شعره قوله في الغزل :

لا تلم مغرماً رآك فهاما كل صبٍّ تركته مستهاما
لو رآك العذول يوماً بعيني ترك العذل في الهوى والملاما
يا غلاما نهاية الحسن فيه ما رأت مثله العيون غلاماً
اتراني ابل فيك غليلاً ام تراني أنال منك مراما
كلما قلت أنت برءٌ لقلبي بعثت لي منك العيون سقاما
وبوحي من سحر عينيك يوحي لفؤادي صبابة وغراما
عمرك الله هذه كبدي الحرّ ى تشكت الى لماك الاواما
فاسقني من رحيق ريقك صرفاً لا يريني كأس المدام مداما
حام خالٌ على زلال برود هو في فيك فاصطلاها ضراماً
اطمعته في فيك اطماعنا فيـ ـك فما نال بردها والسلاما
فالامان الامان من سحر عينـ ـيك فقد جردت علينا حساما
لست ادري وقد تثنيت تيهاً اقضيباً هززته ام قواماً

وقوله في المدح من قصيدة انفذها للعلامة الالوسي :

لقد اوتيت غايـــة كل فضل بخوضك في العلوم وفي اشتغالك
إذا افتخرت بنو آلٍ بـآل ففخر الدين انت وفخر آلك
وفي مرآك لـلأبصار وحيٌ ينبئنا فديتك عن جـــلالك
فيا فرع النبوة طبت أصلاً ثمار الفضل تجنى من كمالك
ظفرنا من نـداك بما نرجي على ان ما ظفرنا في مثالك
وكم لله من سيف صقيـــل بجوهرة العنــاية في صقالك
وما أنا قائـــل بنداك وبلٌ لان الوبـــل نوع من بلالك
إذا الأيام يومــاً اظمأتنــا وردنا من يمينـــك أو شمالك
وان جاوزت بالبرهان قوماً تحامى من يرومك في نزالـك
وكل منهم وله مجـــالٌ فما جالت جميعــاً في مجالك
وانـــك أكثر العلماء علماً ولست أقلهم إلا بمالـــك
نعم هم في معاليهم رجـالٌ ولكن لم يكونوا من رجالك
وما في الناس من تلقـــاه إلا ويسأل من علومك أو نوالك
فتولي من جميلـــك كل شخص كأن الخلق صارت من عيالك

وقوله في العتاب :

بقيت بقاء الدهر هل انت عالمٌ من العتب ما يملي عليك وما أملي
لقد كنت تجزيني بما أنت أهله على الشعر قبل اليوم بالنائل الجزل
فأرجعُ عن نعماك في ألف درهم أزيـــل بها فقري وأغني بها أهلي
فنقصتني شيئاً فشيئاً جوائزي واوقفت حظي منك في موقف الذل
ولي فيك ملء الخافقين مدائحٌ ولي غررٌ ما قـــالها أحدٌ قبلي

فمن أي وجه أنت أنزلت رتبتي واصبحت بعد الوبل أقنع بالطل
فإن كان من بخلٍ فـلم يرَ قبلها فتيٌ من رسول الله يوصف بالبخل
وان كان من قلٍّ هناك وجدته فما تعـذر القوم الكرام من القل
وان كان من طعن العداة وقدحهم فما قولهم قولي ولا فعلهم فعـلي
أكان لمولانا بذلـك حكمةٌ فقصر عن ادراك حكمته عقـلي
فليس من الانصاف مثلي تضيعه وتجهله ظلماً وحـاشاك من جهل
وبحرك تيارٌ ومـالك وافرٌ وجودك معلومٌ وانت ابو الفضل
وتبلغ منك الناس اقصى مرامها ويحرم من دون الورى شاعرٌ مثلي

وقوله في الحماسة :

واقتحمها إذ نبت بـك يوماً فأرى المجد بابـه الاقتحامُ
ادفع الشرَّ ان علمت بشرٍّ ربما يدفـع السقامَ السقامُ
فمتى تكبر العزائم بـأساً صغرت عندها الأمور العظامُ
وتقلد بالرأي قبـل المواضي ليس يجدي بغير رأي صدام
رب رأي بالخطب يفعل ما لا يفعـل السمهريُّ والصمصامُ
واحذر الغدر من طباع لئيم عنده الغدر بالصديق ذمـامُ
وادخر للوغى مقـالة حرب لا تقوي الأجسام إلا العظامُ

ومن رقيق شعره قوله من موشح طويل :

بحياة الطاس والكاس عليك نزّه المجلس من كل ثقيـل
وتحـكم إنما الأمر اليـك ولك الحكم ومن هذا القبيل
كيف لا والكاس تسقى من يديك ما على المحسن فيها من سبيل

ولك الله حفيظــاً ولنا حيثما كنت وما شئت أفعل
وآجر حــكم الحب فينا وبنا انت مرضيٌ وان لم تعدل
دور حبـــذا مجلسنا من مجلس جامع كل غريب وعجيب
نعم العود وشعر الاخرس ومحب مستهـــام وحبيب
يتعاطون حيـــاة الانفس في بديع اللفظ والمعنى الغريب
بابلي السحر معسول الجنى اين هـذا واشتيار العسل
وإذا مرَّ نسيم بيننـــا قلت هذا ويحكم من غزلي

الحاج عمر الانسي

هو ابن السيد محمـــد ديب بن اعرابي بن ابراهيم بن حسين الشهير لقبهم بالصقعان . ولد في بيروت سنة ١٢٣٧ هـ وتعلم القرآن وأحــكام التجويد على الحافظ الشيخ حسين الجيزي المصري . وتوجه سنة ١٢٥٩هـ مع الركب الشامي وقضى فريضة الحاج وهو في الثانية والعشرين من عمره . ولما عاد أكب على تلقي العلم عن اثنين هما أشهر علماء بيروت في القرن الماضي أحدهما الشيخ محمد الحوت والآخر الشيخ عبد الله خالد . وكان مطبوعاً على الشعر فكان أكثر اشتغاله به على انه تقلب في مناصب عديدة منها أنه تقلد نظارة النفوس في جبل لبنان سنة ١٢٦٤هـ بأمر الأمير أمين ارسلان قائمقام جبل لبنان إذ ذاك . فأقــام في الشويفات نحو أربع سنوات نظم عدة قصائد في مدحه وتعين سنة ١٢٧٤ هـ عضواً في مجلس إدارة بيروت . ثم تنقل في مناصب أخرى فتقلد مديريـــة قضاء حيفا ثم قضاء صيدا ثم عاد الى بلده واشتغل بالتدريس والمطالعة . وفي سنة ١٢٩١هـ وجهت اليه نيابة صور بطلب من المرحوم أسعد باشا والي إيالة

صيدا الملفاة . وعاد سنة ١٢٩٢ هـ مريضاً الى بيروت ولم يتحمل المرض إلا بضعة أشهر فتوفاه الله في رجب سنة ١٢٩٣ هـ وكان عذب المنطق سريع الحفظ محبوباً . وله منظومات بديعة عني نجله الدكتور عبد الرحمن أفندي انسي نزيل بيروت بجمع شتاتها من بين أوراقه وطبعها في ديوان سماه المورد العذب تزيد أبياته على ٦٥٠٠ بيت نقتطف منه أمثلة نستدل بها على شاعرية صاحبه – قال من مطلع قصيدة في مدح النبي :

قلوب الورى في مطمح الفكر قلبُ ... وبرق المنى في غيهب الوهم خلبُ
أمانيك الاحلام والحلم يقظة ... واما لك الاوهام والنفس أكذب
ويا ربَّ نفس بالاماني عللت ... وصاحبها من قابض الماء اخيب
فلا تعدن النفس بالخير طامعاً ... إذا لم يكن للنفس في الخير مذهب
فكن صانع المعروف ما عشت إنه ... سبيل نجاح في الذي أنت تطلب
وذو الود ان يذكر يداً لك عنده ... فإن التناسي منك ثمة أنسب
فإن قلوب الناس كالماء راكداً ... إذا ما تولاه الهوى يتقلب
ويعجب من حال الزمان بنوه في ... تقلبه جهلاً وهم منه أعجب
وإياك والدعوى فيا رب مدّع ... لهصدق كشف الامتحان يكذب
اذا أنت لم تعمل بما أنت قائل ... فانت اسير الجهل او انت تكذب

وقال من قصيدة يمدح بها أخاه الحاج محمد بك ويهنئه بتقلده رئاسة حجاب السلطان وفيها أبيات فخرية :

أأنت ام أنا ام ما نلت من رتب ... أولى بنيل التهاني يا ابن خير أب
انا المهنا بما أوليتَ من منح ... بنيل أضعاف ما قد نلت من أرب
ان كان فخر بني العلياء في نسب ... فنحن مفخر ذاك الفخر والنسب
من المفاخر أبناء الرسول وقد ... جاءت محامدهم في منزل الكتب

كنا وكانت يد الاقدار تمنحنا حظاً بمجدين موروث ومكتسب
يا ذا الذي ظنّ بي مافيه من عوج اني انا الشمس فانظرظل نفسك بي
انا الذي ساد أصلاه ومفتخري أن اليراعة امي والحسام أبي

وقال يصف الشيشة عن لسان حالها :

انا التي اختارني قومي سمير على ان الأديب فصيح النطق مختار
إذا الهوى بفؤادي مرّ اكتمه وللهوى بفؤاد الحر أسرار
قالوا تحملت نيراناً فقلت لهم النار في حب من أهوى ولا العار
شهرت حتى غدت تعشو السراة إلى ناري ولي بمزيد الفضل آثار
فها أنا مثل صخر حيث قيل به كأنه علم في رأسه نار

وقال يهجو خادماً في قهوة اسمه هلال :

تعس الهلال القهوجيُّ لأنه قد قطع الأنفاس في أنفاسه
هذا الهلال هو الهلاك وإنما غلطوا فلم يضعوا العصا في رأسه

وله قصيدة مدح بها الامير امين ارسلان المشار اليه تفنن بها فجعلها من ابحر متعددة وقواف مختلفة اليك امثلة منها :

ياللهوى	من لصب لم ينل أربا	املا	وطرا	عطفاً على	مستهام رق وانتحبا	انتحلا	انحسرا
عاني المها	مستهل الدمع ساكبه	هاطله	هامره	واهي القوى	ماشكابؤساً ولا وصبا	ثقلا	ضررا
بادي الضنا	ذو غرام سامه شجنا			وافي العنا	مشفقاً من برحه وهبا	وجلا	حذرا
يهوى الظبا	وهوى الارام غالبه	قاتله	قاهره	طول المدى	وهو لا يصغي لمن عتبا	عذلا	فشرا
ويح العدا	واللواحي حملته عنا			ازكى لظى	لاعج من وجده التهبا	اشتعلا	استعرا
جمر الاسى	لم يزل دوماً يصاحبه	يواصله	يساهره	وسط الحشا	مصعداً انفاسه لهبا	شعلا	شررا
ماذا خوى	ويح قلبي ظل مرتهنا			مضنى الجوا	تقاوي والهوى غلبا	قتلا	قهرا
يرجو اللقا	والظبا تيهاً تعاقبه	تماطله	تغادره	بعد الغوى	وعيائي داؤه صعبا	عضلا	عسرا
كم من رشا	وغزال هز قدّ قنا			تحت الحلى	ذو جمال زين النقبا	الحللا	الحبرا
اذا رنا	فتن الالباب حاجبه	ناحله	ناظره	يسبي الحجا	وبلبي طالما لعبا	هزلا	سخرا

والقصيدة كلها على هذا النمط فان كل سطر مؤلف من شطرين والشطر مقطوع الى اربعة اجزاء اذا تركبت الاجزاء الاولى تألف منها قصيدة مستقلة او الاجزاء الثانية تألف منها قصيدة اخرى . ومن مجموع الجزئين في الشطرين تتركب قصيدة اخرى . ويتركب من اسطر كل حقل قصيدة على حدة .واما الجزآن الثالث والرابع من كل شطر فهي الفاظ يصح ابدال القوافي بها .

فالسطران الاولان يستخرج منهما هذه الاشكال :

(١) يا للهوى من لصب لم ينل أربا (او أملاً أو وطراً)
عطفاً على مستهام رق وانتحبا (او انتحلا أو انحسرا)
عاني المها مستهل الدمع ساكبه (او هاطله أو هامره)
واهي القوى ما شكا بوساً ولا وصبا (أو ثقلا أو ضررا)

(٢) يا للهوى . عطفاً على . عاني المها . واهي القوى

(٣) يا للهوى . من لصب لم ينل أربا
عاني المها مستهل الدمع ساكبه (أو هاطله أو هامره)
بادي الضنا ذو غرام سامه شجناً
يهوى الظبا وهوى الآرام غالبه (او قاتله او قاهره)

(٤) عطفاً على مستهام رق وانتحبا
واهي القوى ما شكا بوساً ولا وصبا
وافى العنا مشفق من برجه وهبا
طول المدى وهو لا يصغي لمن عتبا

(٥) من لصب لم ينل اربا مستهل الدمع ساكبه

ذو غرام سامه شجناً — وهوى الآرام غالبه
(٦) مستهام رق وانتحبا — ما شكا بؤساً ولا وصبا
مشفقاً من برحه وهبا — وهو لا يصغي لمن عتبا

(٧) من لصب لم ينل اربا — مستهام رق وانتحبا
مستهل الدمع ساكبه — ما شكا بؤساً ولا صبا

هذه سبعة اشكال واذا اعتبرنا ابدال القوافي تكرر ذلك ثلاث مرات الا الشكل الثاني فيكون مجموع الاشكال ١٩ شكلاً وربما امكن استخراج أشكال اخرى .

وقال من مطلع قصيدة يمدح بها الشيخ محمد الخضري الدمياطي :

خذ في هوى الغيد عني أحسن الخبر — وقل رويناه بالاسناد عن عمر
وانقل أحاديث اشجاني مسلسلة — عن صبوتي عن مجاري الدمع عن سهري
واهجر مواضيع عذالي فقد وضعت — في العذل مفتريات حكمهن فري
وانسخ صحاح رواياتي فقد نسخت — احكام شرع الهوى في سالف العصر
وانقل عن الاغيد البسام لي أثراً — اذا نقلت عن العباس من اثر
يا ساحر الطرف كم بالسحر تمرضني — انا السها بالخفا يا كوكب السحر
نحول خصرك يا مولاي انحلني — وطالما قد اطلت الهجر فاختصر
بما بعطفيك من لين ومن هيف — وما بعينيك من غنج ومن حور
وما بصبك من سكر ومن وله — وما بثغرك من خمر ومن سكر
ألا رحمت عليلاً لا علاج له — يا جارح القلب الا مرهم النظر
اشتاق رشف اللمى واللحظ يمنعني — فيظمأ القلب بين الورد والصدر

وقال يصف شاطىء البحر :

يا حسن منظر شاطىء البحر الذي　　يجلو الخواطر منه احسن منظر
هاجت به هوج الرياح فأرسلت　　امواجـــه كطلائع الاسكندر
تطفو على تلك الصخور وتنثني　　منهـــارة كالمدمع المتحـــدر
كسلاسل من فضة بفتائل　　نبطت بهن من الحرير الاخضر

وقال من قصيدة في مدح الامير امين ارسلان يتغزل باسمه :

كيف يقسو وعطفه حرف لين　　لم لا تعتريه نحوي آمالـــه
واذا قيـــل تلك همزة وصل　　قلت من لي بان انال وصاله
وعلى الصدغ واو عطف فهـلا　　عطفت من علـيَّ ابدي دلاله
وعساها ان تجتمع الشمل قرباً　　فهي للجميـع يا منى القلب آله

الشيخ خليل اليازجي

ترجمتـــه :

هو أصغر أولاد المرحوم الطيب الأثر الشيخ ناصيف اليازجي ولد في بيروت في بيت الشعر واللغة والانشاء فرضع آداب اللغة العربية مع اللبن وقد قال الشعر وهو صبي ولم يدخل المدرسة . على أنه لم يدخل المدارس إلا بعد أن أخذ طرفـــاً من الأدب . وقد درس الطبيعيات والرياضيات في مدرسة الاميركان في بيروت وبرع فيهـــا ونظمها في الشعر . وقدم ١٨٨١ م مصر وتعرف فيهـــا بجماعة من أهل العلم فنال حظوة لدى الامراء والوزراء وأنشأ



الشيخ خليل اليازجي
١٨٥٦ - ١٨٨٩ م

مجلة « مرآة الشرق » لم يصدر منها إلا بضعة أجزاء ، ثم ظهرت الثورة العرابية فعاد الى مسقط رأسه فانتدبته المدرسة الكلية الاميركيـة والمدرسة البطريركية لتعليم اللغة العربية للصفوف العالية فيها .

وفي سنة ١٨٨٦ م أصابته علة في الصدر عجز عن مداواتها الاطباء ولما فرغت حيل العقاقير وصفوا له تبديل الهواء في وادي النيل فعاد الى مصر وطبع فيها ديوانه المسمى « نسمات الاوراق » وفيه نخبة منظوماته وهي على ما طبع عليه رحمه الله من القريحة الشعرية .

واشتد عليه الداء في اثناء ذلك فأشير عليه بالعودة الى لبنان فعاد واقام في عبيه اشهراً ثم نزل الى الحدث وما زال فيها حتى توفاه الله في ٢٣ يناير

سنة ١٨٨٩م ونقلت جثته الى بيروت ودفنت فيها بمحفل حافل . وكان رحمه الله شاعراً مطبوعاً سريع الخاطر حاد الذهن متوقد القريحة كثير الرواية متفنناً في اساليب الانشاء قريب البرهان مع لطف المحاضرة وسمو الآداب .

مؤلفاته :

اكثر مآثره المنشورة شعرية اشهرها رواية « المروءة والوفاء » وهي رواية تاريخية تمثيلية شعرية غنائية دلّ فيها على مقدرته في النظم وسعة معرفته بالانغام . اساسها حكاية حنظلة الطائي مع الملك النعمان في عصر الجاهلية فمثل فيها فضائل المروءة والوفاء تمثلاً واضحاً . وصدرها بقصيدة طويلة بين فيها الاحوال التي يجب اتباعها في هذا النوع من الروايات . وقد اتم نظمها سنة ١٨٧٦م فبلغت ابياتها نحو الف بيت جمعت بين المتانة والسهولة وقد مثلت هذه الرواية في بيروت سنة ١٨٧٨م وشهدنا ما كان من اعجاب البيروتيين بها وتصفيقهم المتواصل في اثناء تمثيلها . وقد طبعت في بيروت سنة ١٨٨٤م وفي مصر سنة ١٩٠٢م .

وعني رحمه الله ايضاً في تنقيح كتاب كليلة ودمنة المشهور وفسر الغريب من الفاظه وضبطه بالشكل الكامل ووقف على طبعه فجاء اضبط نسخ هذا الكتاب المعروفة .

ومما طبع من ثمار قريحته ديوان « نسمات الاوراق » المتقدم ذكره وفيه اكثر ما نظمه من تهان ومراث وتواريخ ومدائح وحكم وآداب في ما يزيد على ٢،٦٠٠ بيت سنأتي على امثلة منها .

ومن مؤلفاته التي لم تطبع « كتاب الوسائل الى انشاء الرسائل » وهو مجموع ما ألقاه على تلامذته في المدرسة البطريركية من الرسائل وأصول الإنشاء

وهو يعلم فيها هذا الفن على اسلوب يتدرج فيه الطالب من الكتابة البسيطة الى أعلى طبقة من الانشاء . والكتاب لا يزال خطاً في المدرسة المذكورة .

ومنها « الصحيح بين العامي والفصيح » وهو معجم لم يسبقه أحد الى مثله جمع فيه مرادفات الألفاظ العامية من اللغة الفصحى . وقد رأيناه رحمه الله وهو يعنى في جمع تلك الألفاظ يوم جاء مصر للمرة الثانية وتوسمنا في ذلك التأليف فائدة كبيرة لشدة حاجة الكتاب بنوع خاص اليه . وكان قد مثل بعضه للطبع فاشتدت عليه وطأة الداء فانقطع عن العمل فتوقعنا أن لا لا يحرمنا شقيقه الشيخ ابراهيم صاحب الضياء من اتمامه لكنه لم يفعل ولا نعلم مصير ذلك الكتاب .

أما شعره فأحسن ما يقال في وصفه ان نأتي بأمثلة منه – قال من قصيدة قدم بها روايته المشار اليها إلى شقيقه المشار اليه :

لما وجدتك مثل بحرٍ زاخر ... القيت بين يديك بعض جواهري
هاتيك جوهرةٌ لديَّ وان تكن ... صدفاً لدى دُرّ بلجك فاخر
نزر المقل اجلُّ في عينيه من ... وفرٍ لدى عين الغني القادر
تخذت ليالِيَّ الطوال محابراً ... وسوادها اتخذته حبر محابر
ووهبتها انسان عيني فاغتدت ... دعجاء إذ كحلت بأثمد ناظري
عذراء لكن لا أقول فريدة ... للعقد ان العقد ليس بحاضري
لم ينسج الشعرا على منوالها ... إذ ليس معناها بقلب الشاعر
حاشاك والاطلاق أضيق حيزاً ... من ان يحيط بك احتياط الدائر
شعرية لا نثرَ فيها وهي من ... بعض الوجوه ترى كنثر الناثر

وقال من قصيدة بعث بها الى صديقه المرحوم اديب اسحق بالقاهرة :

تلك العيون منوننا فكأنما قد كلفتها قتلنا الايامُ
ولربما نام الزمان هنيهةً عنا وتلك تصيب وهي نيامُ
وإذا رأت في النوم طيف خياله فتكت به ولو انها احلامُ
طمعت بخضرتها العيون وما درت ان السموم تكنها الادسامُ
ولرب حلو في المرارة مودع كالحبر فيه ثنا الاديب يقامُ
متنبه الافكار يقظان الحجى حتى لأعجب منه كيف ينامُ
فاذا تروّأ كاتباً فجميعه فكر فتوشك تفصح الاقلامُ

وقال يمدح المرحوم شريف باشا وزير مصر من قصيدة :

قد قام في دست الوزارة فاكتسى شرف العلى وبه تشدد أزرهُ
ولكل ما يولي الشريف مشرفٌ كالنهر يكسبه التدفق بحرهُ
وغدا زمام الدهر طوع بنانه اذ بات مكشوفاً لديه سرهُ
وهو الذي ضبط البلاد بكفه لما حوى ما عنه ضاقت صدرهُ
يرنو بفكرته فيوشك ما يرى بالعين منه ان يراه فكرهُ

وقال من قصيدة في رثاء المرحوم المعلم بطرس البستاني :

اجرى اليراع عليك دمع مداده فكسا به القرطاس ثوب حدادهِ
وبه نخط لك الرثآء من الاسى فهو المقيم على عهود ودادهِ
فكم بميدان الطروس هززتهُ حتى جعلت الرمح من حسادهِ
ان كان يبكيك اليراع بدمعه فلقد بكاك حزيننا بفؤادهِ
يا صاحب الفضل الذي لو أننا نبكي به لم نخش وشك نفادهِ

يا قطر دائرة المعارف والحجى   ومحيط فضلٍ فاض في امداده
فاذا المحيط بكاك لم يك دمعه   دون المحيط يزيـــد في ازباده
يبـكي الحساب عليك متخذاً له   دمعاً يسيل عليك من اعداده
خدم البلاد وليس أشرف عنده   من أن يسمى خادماً لبلاده
ومحبة الاوطان كان يمدهـــا   مما يدور عليـــه أمر مماده

وقال من قصيدة يرثي بها المرحوم اديب اسحق :

أخلق بجسمك ان يبيت كليلا   عن جهد نفسك أو يموت عليلا
نهكته نفسك في المطالب والعلى   حتى تمنى للفراق سبيـــلا
يا راحـــلاً ابكي عليه محابراً   ومنابراً ومحـــاجراً وطلولا
ترثيك اقلامٌ يكون صريرها   نوحاً عليك من الاسى وعويلا
وهي التي قد كن بين بنانهـــا   قضباً وكان صريرهن صليلا
ولعل مثلك ليس يوجد عندنا   حتى نرى لك منك عنك بديلا
يروي مآثر عنك يقصر دونهـــا   صوغ القوافي في ثناك طويلا
ويمدُّ ما أحصيته في مـــدة   قصرت ففات العرض منها الطولا
ان كان قلَّ مدى حياتك عندنا   فقليـــل مثلك لا يعـــد قليلا
فلقد ملأت به السماع جرائداً   وقصائداً ورسائـــلاً وفصولا
ما بين شرق في البلاد ومغرب   لم تأل فيـــه تغرباً ورحيلا
مستصحباً لك همـــة نفاذةً   وعزيمـة مثـل الحسام صقيلا
وقريحـــة وقـــادة وبصيرة   نقـــادة تستوضح المجهولا

وقال من قصيدة رثا بها المرحوم سليم البستاني وقد توفي فجأة :

وهو الموت الا ان خطبك اعظم   ورزؤك في الارزاء أشجى واجسم

ومن فلتات الدهر أمرك انـه لا شفق في امثال هذا وارحمُ
لك الله ميتاً كالقتيل ولم يسل له من دم لكن مدامعنا الدمُ
وان نحن طالبنا المنـايا بثأره رمتنا وقالت من يطالب عنكمُ
وان نحن عاتبنا الزمان بفعله قرعنا سماعاً ما له من يترجم
فعدنا وقدخبنا من الدهر مأملاً ننوح على مـا كان منـه ونلطمُ
كذا الدهر الا ان من زاد همه وقصر عـن تفريجـه يتظلمُ
فقدنا بني الاوطان عضواً مكرماً كجسم مضت منه يد فهو أجذمُ
ألا اننا في فقده اليوم أسرةٌ واوطاننا في نوحه اليوم مأتمُ
على مثله يبكى وهيهات مثله فتىً طاب منه القلب واليدوالفمُ

قال يمدح المرحوم الدكتور فنديك أثر مرض شفي منه على يده :

لو استطعت جعلت البرق لي قلما والجوّ طرساً وحبري الغيث حين همى
ورحت املأ آفاق السماء ثناً عليك منتثراً طوراً ومنتظما
يا كنز فضل وعلم لا نفـاد له مع انه لزم الانفاق والكرما
ان النفيس عزيز قد ينال وقد بذلته بيننـا غنماً لمن غنما
كالشمس تعطي ثناها كل ذي بصرٍ وربمـا كان لا يدري له قيما
نبغي مبالغة في الشعر فيك فلا نستطيع ذاك ولا نقضي الذي لزما
والشعر لا بد فيـه من مبالغة إلا بوصفك فهو الغالب الكلما
أنت الطبيب لأجساد العباد ولا عقول والأنفس اللاتي اشتكت سقما
والفيلسوف الذي أحصى العلوم وقد أساهـا منهلاً للمشتكين ظما
تدعى الحكيم وان نعن الطبيب وان لا نعنه فصحيح فيك كلهما
يا مغفـلاً نفسه في جنب منفعة للآخرين جزيت الخير والنعـما
كأنما الناس طرّاً عيلة لـك من شكا فإنك معه تشتـكي ألما

وكتب من القاهرة وهو مريض الى بعض اعزائه في بيروت :

قل صبر الفؤاد والشوق غالب والضنى وحده لذا الشوق غالبْ
غالب السقم مني الشوق حتى بات قلبي ميدان كل محاربْ
غلب السقم بانحيازي اليه وانثنى الشوق انما غير هارب
لم أقل هارباً ومن لي بهذا فهو طي الفؤاد ضربة لازبْ
غير اني قسمت قلبي فكان الـ سقم في جانب وشوقي بجانبْ
كلما حن مني القلب قال الـ عقل مهلاً فأنت لست بصاحبْ
وعسى الله ان يصير بي بل بكثيرين ذلك الظن خائبْ
واذا لم يكن فقد قام عذري انني قد عملت ما هو واجبْ
ويكون هذا البعاد ابتداءً لبعاد هذا له لا يقاربْ
غير اني أرى لليلي فجراً ربما كان صادقاً غير كاذبْ
ليس من عائق لهذا ولا ذا فبكل من الخواطىء صائبْ
كيف يشفى من كل حين يرى المو ت وغربانه عليه نواعبْ
خاف من موته فمات من الخو ف كثير فثق وطاوع وناصبْ

وقال مؤرخاً ميلاد غلام اسمه فضل الله سنة ١٨٧٥ م :

أتى لبني الطوا غلام بوفده نشرنا برود الانس في كل محضرِ
فوافى الهنا يدعو أباه مؤرخاً لقد حل فضل الله عندك فابشرِ

وكتب على احدى صوره :

لما تملكتم على قلبي ولم اطمع له من عندكم بمعادِ
أهديتكم رسمي لكيما تجمعوا ما بين جسمي عندكم وفؤادي

وكتب :

لك مني أثر العين التي ... لك فيها أثرٌ في كل أين
فتقبله ولو كنت امرءاً ... ليس يرضى أثراً من بعد عين

وكتب :

رسم اليك بعثته وأنا ... أهوى لو ان مكانه الجسمُ
ان كان ذلك ليس يمكنني ... يا حبذا لو انني رسمُ

وكتب :

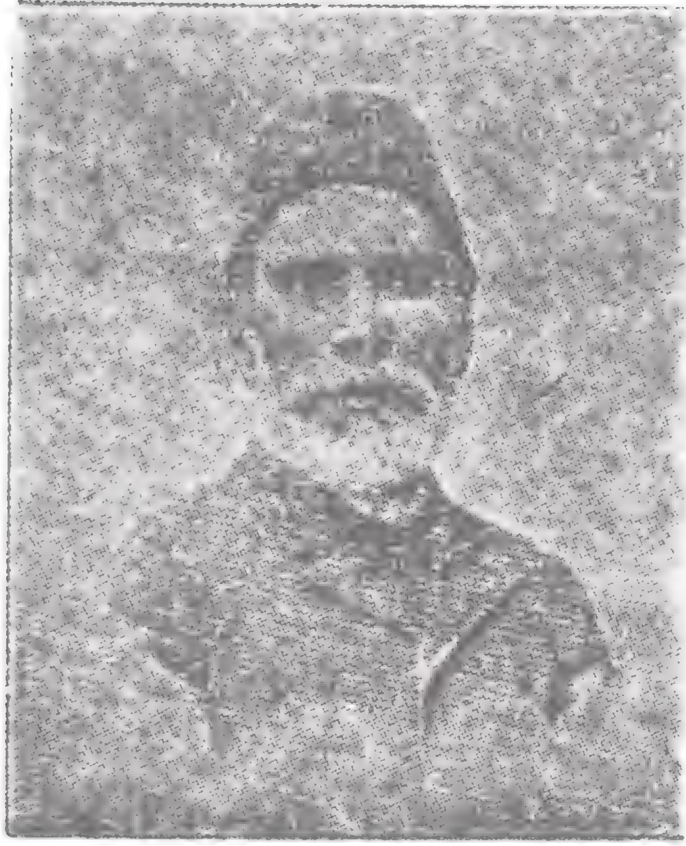
بعثت لكم موهوم شخصي ممثلاً ... وشخصكم في مقلتي ظل بالوهم
لعلي من الوهمين أجني حقيقةً ... فرسماً ترى ذاتي وذاتاً يرى رسمي

وقال في ضارب عود :

وضارب عودٍ قد أزاغ عيوننا ... ببرقين من تلك البنان وذي الكف
تنازعه آذاننا وعيوننا ... فهذي الى كحل وتلك الى شنف

عبد الله باشا فكري

هو عبد الله باشا فكري بن محمد افندي بليغ بن الشيخ عبد الله بن الشيخ محمد وكان الشيخ عبد الله من العلماء المدرسين في جامع الازهر وكان مالكي المذهب أخذ العلم عن الشيخ عبد العليم الفيومي وغيره . وما زال الشيخ عبد الله مقيماً في مصر حتى قدمت الجنود الفرنساوية في أواخر القرن



عبد الله باشا فكري

١٢٥٠   ١٣٠٧ هـ

الثامن عشر وأساءوا معاملة العلماء فرحل الى منية خصيب (المينا) فأقام بها مدة ثم عاد الى القاهرة وعكف على الاشتغال في العلم حتى توفي فنشأ ابنه محمد أفندي بليغ على مثال أبيه جاداً في طلب العلم . وكانت مصر قد ازدهت بالعائلة المحمدية العلوية وانشئت مدارس العلوم الرياضية والمدرسة الحربية فدخلها وخاض عباب علومها حتى تمكن منها فانتظم في خدمة الجيش فترقى الى رتبة صاغقول اغاسي وحضر عدة مواقع حربية أهمها حرب المورة فعقد في المورة على والدة المترجم وعاد بها الى الحجاز فوضعت بمكة المشرفة غلاماً سماه باسم ابيه عبد الله وهو عبد الله باشا فكري صاحب الترجمة .

ومن غريب الاتفاق ان سنة ولادته وافقت مجموع جمل الآية « قال اني عبد الله آتاني الكتاب » وذلك سنة ١٢٥٠ هـ وقد وافق ذلك نبوغه بالعلم والفضل واشتهاره بسائر فنون الكتابة نثراً ونظماً وقد أعجب هو ايضاً

بهذا الاتفاق فلما شبّ وتعلم نقش هذه الآية على خاتم له كان يختم به كتبه .
ثم عاد محمد أفندي بليغ بولده الى القاهرة وما زال في خدمة الحكومة حتى نال منصب باشمهندس الشرقيـــة ثم مفتش هندسة الجيزة والبحيرة وتوفي سنة ١٢٦١ هـ.

أما صاحب الترجمة فكان عند وفاة والده لم يتجاوز الحادية عشرة فنشأ في حجر بعض أقارب أبيه وكان قد بدأ يتعلم القرآن فأتمه وجوّده ثم اشتغل في طلب العلم بالجامع الأزهر وتلقى العلوم المتداولة فيه كاللغة والفقه والحديث والتفسير والعقائد والمنطق على الشيخ ابراهيم السقا والشيخ محمد عليش والشيخ حسن البلتاني وغيرهم وكان مع ذلك يشتغل في تعلم اللغة التركية حتى اتقنها وتعين في القلم التركي في الديوان الكتخدائي (١٢٦٧ هـ) وهو لا يزال مكباً على طلب العلم في الأزهر يغتنم ساعات الفراغ قبل ذهابه الى الديوان وبعد رجوعه منه ثم انتقل من الديوان المذكور الى ديوان المحافظة ثم الى الداخلية بصفة مترجم ثم الحق بالمعية السنية على عهد المغفور له سعيد باشا وبقي فيها الى ولاية الخديوي الأسبق اسماعيل باشا سنة ١٢٧٩ هـ فأبقاه في معيته فسافر معه الى الآستانة عندما أمها لاتمام الرسوم في تقليد الولايـــة واداء الشكر للحضرة السلطانية وما زال في خدمته يرافقه في اكثر رحلاتــه فسافر الى الاستانة مراراً بمهمة الكتابة تارة مع الخديوي الاسبق وطوراً مـــع الحرم الخديوي وبمهات أخرى فنال الرتبة الثانية مع لقب بك سنة ١٢٨٢ هـ.

وفي سنة ١٢٨٤ هـ قلده الخديوي الاسبق ملاحظة الدروس الشرقية وهي العربية والتركية والفارسية بمعية أنجاله وهم المغفور لهامحمد توفيق باشا الخديوي السابق والبرنس حسن باشا والبرنس حسين باشا عم الجنـاب الخديوي وغيرهم من أمراء اللغة الخديوية .

فقام يباشر أمرهم في التعليم والتعلم والتدرج في الفضل والتقدم فكان أحياناً يباشر التعليم بنفسه وأحياناً يقوم بمراقبة غيره من المعلمين وملاحظة إلقاء الدروس وتقويم طريقة التعليم . فلم يزل على ذلك الى أن ترقى الخديوي السابق الى رتبة الوزارة والمشيرية وتوجه الى دار الخلافة العظمى لاداء رسوم الشكر على ذلك لجلالة السلطان الأعظم فصحبه المترجم الى دار السعادة وبقي معه الى أن عاد .

وفي سنة ١٢٨٦هـ نقل الى ديوان المالية فأقام أياماً بغير عمل ثم عهد اليه النظر في أمر الكتب التي كانت في ديوان المحافظة على ذمة الحكومة وإبداء رأيه فيها فلبث مدة يتردد الى ذلك الديوان وينظر في الكتب . ثم رفع تقريراً مفصلاً ضمنه بيانها وما رآه في حالها وذكر فيه ان بقاءها على حالتها لا يحسن ولا يحفظها ولا يمكّن من الانتفاع بها وقال بلزوم جعلها على هيئة ينتفع بها الناس إما بانشاء محل خاص تنقل اليه ويجعل فيه ما فيه الكفاءة لها من الخزائن وتوضع به على الوضع الموافق وإما بإحالتها على المدارس لتودع في المكتبة الجاري انشاؤها بمساعي المرحوم علي باشا مبارك ناظرها إذ ذاك على سعة لا تضيق بهذه الكتب وأمثالها وأوضح أن الوجه الثاني أولى وقد حصل ذلك على ما قرره فاستنقذت تلك الكتب النفيسة من زوايا الخمول والإهمال ورتبت ترتيباً حسناً في المكتبة المذكورة وهي الكتبخانة الخديوية الشهيرة .

وكان المجلس الخصوصي إذ ذاك (وقد خلفه الآن مجلس النظار) مشتغلاً في جمع اللوائح والقوانين وتنقيحها وتعديلها فعهد الى صاحب الترجمة بالمساعدة في ذلك فاستلم القوانين واللوائح التركية وأخذ في العمل الى سنة ١٢٨٧هـ .

وفي سنة ١٢٨٨ هـ تعين وكيلاً لديوان المكاتب الاهلية والرئيس اذ ذاك المرحوم علي باشا مبارك . وفي سنة ١٢٩٤ هـ نال صاحب الترجمة رتبة المتمايز

وبعد سنتين تعين وكيلاً لنظارة المعارف العمومية ونال رتبة ميرميران الرفيعة ثم عهد اليه منصب الكتابة الاولى بمجلس النواب مع المنصب السابق . وفي سنة ١٢٩٩هـ تعين ناظراً للمعارف العمومية وفي رجب من تلك السنة اقيل من منصبه مع سائر زملائه النظار لاحوال اقتضتهـــا الثورة العسكرية اذ ذاك وأمرها مشهور .

ثم كانت الثورة العرابية المشار اليهـــا فلما انقضت وأخذت الحكومة في محاكمة زعمائها والقائمين بها كان صاحب الترجمة من جملة المقبوض عليهم وبعد استجوابه لدى لجنة التحقيق ظهرت براءته فأطلق سراحه ولكنهم قطعوا عنه معاشه فشق ذلك عليه فالتمس المثول بين يدي المغفور له الخديوي السابق ليدرأ عنه ما بقي من آثار الشبهة عليه فلم يؤذن له فعاد يلتمس ذلك من وجهة اخرى فنظم قصيدة شائقة يمدح بها الحضرة الخديوية وقد أبان فيهـــا براءة ساحته نحا بها منحى النابغة في اعتذاره وهاك مقتطفات قال منها :

كتابي توجه وجهة الساحة الكبرى ... وكبر اذا وافيت واجتنب الكبرا
وقف خاضعاً واستوهب الاذن والتمس ... قبولاً وقبل سدة البـــاب لي عشرا
وبلغ لدى البـــاب الخديوي حاجة ... لذي أمل يرجو له البشر والبشرا
لدى بـــاب سمح الراحتين مؤمل ... صفوح عـن الزلات يلتمس العذرا
تنوءُ الجبـــال الراسيـات لحلمه ... اذا طاش ذو جهل لدى غيظه قهرا
يراقب رحمن السمـوات قلبـــه ... فيرحم من في الأرض رفقاً بهم طرا
مليكي ومولاي العزيز وسيدي ... ومن ارتجى آلاء معروفه العمرا
لئن كان أقـوام عليَّ تقوّلوا ... بأمر فقد جاءوا بما زوروا نكرا
حلفت بمـــا بين الحطيم وزمزم ... وبالبـــاب والميزاب والكعبة الغرا
لما كان لي في الشر باع ولا يد ... ولا كنت من يبغي مدى عمره الشرا

ولكن محتوم المقـــادير قد جرى   بما الله في أم الكتاب له أجرى
أتذكر يا مولاي حـــين تقول لي   واني لارجو ان ستنفعني الذكرى
أراك تروم النفع للنـــاس فطرة   لديك ولا ترجو لذي نسمة ضرا
فعفواً أبا العباس لا زلت قادراً   على الأمر ان العفو من قادر أحرى
وحسبي ما قد مرَّ من ضنك اشهرٍ   تجرعت فيهـــا الصبر اطعمه مرا
يعادل منها الشهر في الطول حقبة   ويعدل منهـــا اليوم في طوله شهرا
أيجمـــل في دين المروءة انني   أكابد في ايامك البؤس والعسرا

وكلها درر تشهد بفضله .

ولما عرضت على سموه أجلها وأحلها محلها وسمح له بالمثول بين يديه وأعاد له معاشه دلالة على رضائه عنـــه . فنظم قصيدة يشكره بها نذكر منها الأبيات الآتية :

الا ان شكر الصنع حق لمنعم   فشكراً لآلاء الخديوي المعظم
مليك له في الجود فخرٌ ومفخر   على كل منهلٍّ من السحب مرهم
سأشكره النعماء ما عانقت يدي   يراعي أو استولى على منطقي فمي

وفي سنة ١٣٠٢هـ . توجه الى الحجاز لاداء فريضة الحـــج فلقي من علماء مكة والمدينة وأدبائها ما يليق بمقامه من الاكرام والاعظام وكتب في ذلك كتاباً سماه الرحلة المكية . وفي السنة التاليـــة شخص لزيارة بيت المقدس والخليل ومعه نجله المرحوم امين باشا فكري فلقي من العلماء والعظماء هنـــاك ما يجدر بفضله ثم سارا الى مدينة بيروت الزاهرة لتبديل الهواء وأقاما فيها شهراً كان مقامهما فيها منتـــدى الفضلاء ومشرع الادباء والعلماء ثم ارتحل الى دمشق فلاقى فيها ما لاقاه في بيروت من الاحتفاء وحسن الوفادة ثم عرج الى

بعلبك فزار آثارها وسار منها بطريق لبنان الى بيروت فأقـــام فيها شهرين وعاد الى مصر .

وفي سنة ١٣٠٦هـ . انتدبته الحكومة المصرية لرئاسة الوفد العلمي المصري في المؤتمر الذي انعقد في مدينة استوكهلم عاصمة اسوج ونروج وصحبه في هذه الرحلة أيضاً نجله المتقدم ذكره عضواً في هذا الوفد.وقبل سفره من اسكندرية احسن اليه الجناب الخديوي بالنيشان المجيدي من الدرجة الثانيـة وقد مر في وفادته المذكورة على تريستا من اعمال النمسا وفينسيا (البندقيـــة) وميلانو من اعمال ايطاليا ولوسرن من اعمال سويسره وباريس فأقـــام بها اكثر من عشرين يوماً تفرج فيها بمشاهد المدينة وضواحيها وكان وقت المعرض فشاهـد ما فيه من عجائب الصنائـــع وغرائب الفنون ثم برحها الى لوندره ومنها الى نوتردام ولا هي من اعمال هولاندا وليـــدن من اعمالها ايضاً وزار مكتبتها الشهيرة ورأى مطبعتها المعروفة بالمطبوعات الشرقية ثم توجه منها الى كوبنهاجن عاصمة الدنيمارك ومنها الى استوكهلم محل مأموريتـه فنال من العلماء المجتمعين لهذا المؤتمر باستوكهلم وخرستيانيا مزيد الرعاية واهـــداه اسكار الثاني ملك اسوج ونروج عند اتمام هذه المهمة نيشان (وازه) من الدرجة الأولى ومر في العودة من مأموريته على برلين عاصمة بلاد المانيا وفيانا عاصمة النمسا فلقي بها ما لقيه في العواصم الاخرى من الاحتفاء وقد أخذ بعد عودته الى مصر يجمع المواد ويعد المعدات لتدوين رحلته التي وعد بها عن المهمة وعما رآه في العواصم التي مر بها ولكن منعه من استمرار السير في ذلك السكتة القلبية التي اعترته في شهر رجب سنة ١٣٠٧هـ . فأبقى اتمامها الى ما بعد تمام صحتـــه ولكن عاوده بعد ظهر الخميس في ٧ ذي الحجة وهو عائد من ابعاديتـــه بتلحوين وتزايد عليه حتى وافاه الأجل المحتوم في الساعة الثانية عربيـة من صباح

يوم الأحد عاشر الشهر وهو يوم النحر وشيع محمولاً على هامـــات الوقار والتبجيل تودعه المحاجر والقلوب . ونظراً لما كان له من المقام الرفيع لدى المغفور له الخديوي السابق تعطف رحمه الله بتعزية اهله واولاده برسالة برقية .

وكان رحمه الله شاعراً مطبوعاً وكاتباً فصيحاً وقد نبغ بـــين الكتبة والشعراء ومصر قليلة الوسائل التعليمية وكان يذهب في انشائه مذهب القرون الوسطى من ابناء هذا اللسان مع ميل الى التسجيع

اما رحلته الى المؤتمر فقد عني نجله المتقدم ذكره بنشرها في كتـاب سماه « إرشاد الالبا الى محاسن اوربا » في مجلد ضخم طبع بمصر سنة ١٨٩٢م.وهو جدير بالمطالعة حقيق بالاعتبار لما حواه من أوصاف المدن الاوربية وعـادات أهلها وأخلاقهم وفيه شيءٌ كثير من نظم المؤلف ونـثره مما لم ينشر في سواه وابحاث علمية ولغوية وادبية .

ومن مؤلفاته أيضاً المقامة الفكرية في المملكة الباطنيـة طبعت في مصر غير مرة ورسالة مطولة الى المرحوم سلطان باشا يحثه فيها على نشر العلوم في انحاء الصعيد ونبذة في محاسن آثار المغفور له محمد علي باشا الكبير وله غير ذلك من المقالات والخطب وله في رواية الحديث طرق عديدة واسانيد سديدة فضلاً عن قصائده الرنانة وقد ذكرنا مثالاً منها .

أسعد طراد

بيت طراد عائلة شهيرة في بيروت وفيها جماعة من أرباب الثروة والتجارة ورجـــال الأدب والشعراء . ومن شعرائهم أسعد طراد ولد في بيروت سنة

١٨٣٥م وليس فيها من المدارس يومئذ مـا يستحق الذكر فأرسله والده الى المدرسة الاميركية في عبيه بلبنان فتلقى فيها مبادىء العـلم وبعض العلوم العالية وقرأ العلوم العربية على أشهر الاساتذة . وكان مفطوراً على الشعر منذ حداثته فأكثر من التر داد الى المرحوم الشيخ ناصيف اليازجي ونظم قصائد عديدة في مواضيع تحدّى فيها شعر الشيخ من السهولة والمتانة .

وتقلب رحمه الله في مناصب الحكومة العثمانية وكان موضع ثقة اولي الأمر لنزاهته ونشاطه . وفي سنة ١٨٧٢ م برح سوريا وجاء القطر المصري وأقـام به يتعاطى التجارة في الاسكندرية وزفتى والمنصورة الى أن توفـاه الله سنة ١٨٩١ م .

فعني ابن أخيه الخواجه فضل الله طراد بجمع ما تيسر من قصائده فجمع نحواً من ألف وخمسماية بيت طبعها في كتاب وقف على طبعه ورتبـه نجيب افندي ابراهيم طراد وهذه أمثلة منه :

قال من قصيدة مدح بها الشيخ ناصيف اليازجي :

الى كم فؤادي يطلب العشق والحبّا ولم أرَ إلا الوجد والوعد والعتبـا
عرفت بأن لا يعرف الود والوفـا لديك ولا يدري المحب له ذنبـا
غزالة أنس بات قلبي لهـا حمى عليه عيوني قد غدت تمطر السحبا
تصيد ولكن لا تصاد على المدى وتسبي قلوب العاشقين ولا تسبى
تقول اصطبر فالصبر للقلب واجب ولم تبق لي للصبر يوم النوى قلبـا
أأطمع منهـا بالوصال ولم أكن سمعت بجود في الورى رحمت صبا
وقد خاف نومي أن يبيت بمدمعي غريقـاً فقد عاف التواصل والقربا
وقد جزمت عن ناظري اليوم وجهها وحلت فؤادي ترغب السلب والنهبا

نصبت لهـــا قلبي لترفع جزمها فقد علمتني الرفع والجزم والنصبا
قد انتسبت للعرب من أبدعوا الوفا سأشكو جفاها للذي أورث العربا
الى اليازجي اليـــوم تسعى ركابنا كأهل الظما من بحره نطلب الشربا
لئن دثرت كتب الأولى قد تقدموا من العرب هذا صدره جمع الكتبا
وأصعب شيء عنده منــع فضله وأهون شيء أن يحل لـك الصعبا
على أي شيءٍ نحـــوه جئت سائلاً فقبـل سؤال منك تنظره لبى

وقال من قصيدة أجاب بها الشيخ محمد عاقل بالاسكندرية :

هيهـات يسلم من جفونك عاشق وهي التي بالسحر تفــتن بابلا
أترى لمن أشكو الحبيب ولا أرى لي من قضـاة الحب شخصاً عادلا
يا عاذلي في حبــه مهلاً فما من عاشق قبلي أطـاع العاذلا
اني قتيــل في الغرام على رضى وبمهجتي أخفيت ذاك القــاتلا

وله قصيدة رنانة وصف فيها الاختراعات الجديدة نقتطف منها قوله:

واترك حدوج المالكية انها ملكت حشاك بخدرها مصفودا
ما بالحدائج والهوادج ما ترى في عصرنا في قطر مصر جديدا
وجه لحاظك للبخار وقـل له اني أرى مـــاءً يجرُّ حديدا
وانظر لسلك البرق والتلفون كم قد قربا ما كان منك بعيـــدا
غنت سليمى في الحجاز فأطربت مع بعدهـا اهل العراق نشيدا
ولسوف ان رقصت بمصر فقدنرى في اصبهان لقدهـا تأويدا
ألهِ الفؤاد بذكر ذاك وذا وذا عجبـــاً وهاك الطائر الغريدا
يهدي اليك مع البريد بوصفه فكأنما حمـــل البريد بريدا
يصف البريـد ببره وببحره ويجـــوه متنوعـاً معدودا

ذاك الصديق الصادق الخل الذي لا يعرف التأجيل والتعريدا
ويريك منه بوصفه خلاً يرى حفظ الامانة سنة وعهودا
حمل السفاتج والنضار لاهلها وسرى بحول الله يطوي البيدا
يطوي القفار فكم عليه حلة منها وكم منه بها اخدودا
متفرع في ارض مصر كنيلها يسقي التجارة سقي ذاك صعيدا
ابداً يطوف بها كصاحب كرمة يهدي لكل محطة عنقودا

وقال يرثي الشيخ حسنين شيخ الزاهدين بالمنصورة :

سرى الحسنين اليوم يغتنم الاجرا من المسجد الأقصى فسبحان من أسرى
وعن جانب النيل ارتقى نحو جنة جرت تحتها الأنهار جل الذي أجرى
بكته بنو المنصورة اليوم حسرة فكم عمها لطفاً واكسبها نصراً
أراهم يبكون الدما وكأنني اراني من آماقهم أعصر الخمرا
ينوحون شيخ الزهد والنسك والتقى ومن عمهم بالفضل عمهم برا
وسحت عيون الأفق حتى كأنما منيته قد ابكت الأنجم الزهرا
فريداً وحيداً قد قضي العمر زاهداً ولازم في ايامه الفقر والقفرا
عن الوابل استغنى بظل قناعة في كسرة عما استعز به كسرى

وقال يرثي المرحوم سليم دي بسترس المتوفي في لندن :

خل الحزين اليوم في حسراته ودع العزاء لمن يعي كلماته
واطرح أحاديث السلو اليوم عن دنف يخاف عليك من صعداته
دنف غرام البين لم يترك له من قلبه الا صغار فتاته
نشوان كأس نوائب الدنيا على انواعها حسب اختلاف سقاته

ولكل بلوى انـة في صدره   فتعد مـا تحويـه من اناته

الى ان قال :

لاقى المنيـة باسماً فكأنهـا   وافته تخطر مع لفيف عفاته
وكأنمـا تلك النفيسة نفسه   بيديه كانت عند بذل هباته
عظمت بقلب الشرق حسرة فقده   بذواتـه وقضاتـه وولاتـه
والنيل من أسف تمنى لو جرى   للشرق تعزية لقلب فراتـه

ومن قصيدة رثا بها المرحوم سمعان كرم بالاسكندرية يخاطب الموت :

ويلاه لا يمحي خط القضاء ولو   مهما امحى منك مما خط تبيانا
والف ويلاه كم برّحت في مهجٍ   يا موت فتكاً وكم قرحت اجفانا
وكم ظلمت ولم ترحم نواح اخٍ   على اخيـه وكم يتمت ولدانا
وكم جمعت بدار اللحد من نفر   جمع الفراق وكم فرقت اخوانا
وكم اسرت غداة الروع من ملك   بين الجنود وكم عطلت تيجانا
وكم غلبت بدار الأسر متخذاً   نوائب الدهر اجناداً وسجانا
وكم مشيت على هام المشاة وكم   القيت عن صهوات الخيل فرسانا
ما خفت مجداً ولا جاهاً ولا شرفاً   ولا سموّاً ولا قدراً ولا شانا
ولم تبال بأبطال الرجال ولو   شنوا الإغارة فرساناً وركبانا
ولا قبلت شفيعاً لو عزمت على   فتكٍ ولو كان ريا بنت مروانا
كم شاخ جيلٌ فجيلٌ وانقضى ومضى   وانت فيك الصبا يزداد ريعانا
أفنيت عاداً وشيباناً وجرهمةً   وتغلباً وبني بكرٍ وغسانا
وعشت في كل نفس كنت تسلبها   رغماً ومـا زلت بالأرواح ريانا

حتى متى والى كم لا تموت ودع ليوم موتك كي يبكيك انساناً
هيهات ينظر موت الموت ذو رمقٍ من الورى اكسبته النفس وجدانا
فحينا موتـه حيٌّ بصاحبه ما لم يمت لم يجد للموت هجرانا
وميتنا موته ميتٌ قضى معهُ كأنه وكأن الموت ما كانا
يا ايها الميت لا موتاً يعاد فكن من بعد ذا في سرير الملك سلطانا
مهما تبددت لا تخش الفناءَ فقد صادفت في فسحات الكون خزانا

المعلم ناجي

الشاعر التركي الشهير

ترجمة حاله :

ولد في الاستانة حوالي عام ١٢٦٥ ﻫ وكان والده سراجاً يسمى علي بك توفي وولده هذا لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره فكفلته أمـه وكان له أخ أكبر منه سناً فعنيا بتربيته ولم يكونا في سعة من العيش فتعلم مبادىء القراءة في مكتب ابتدائي وقرأ شيئاً على أخيه المشار اليـه فحفظ القرآن ومبادىء العلوم اللغوية ثم عكف على اكتساب العلم بالمطالعة من تلقاء نفسه فاتقن التركية والعربية والفارسية ثم تعلم اللغة الفرنساوية بعدئذ واكتسب كل ذلك بالجـد والاجتهاد وسهر الليل لان حاله لم تكن تساعده على تكبد نفقـات المدارس والانفاق على المعلمين والكتب ونحوها حتى انه كثيراً ما اضطر الى أعمـال خصوصية يستعين بربحها على نفقات الدرس وأثمان الكتب .



المعلم ناجي

١٢٦٥ - ١٣١٠ هـ

ولما تمكن من العلم على هذه الصورة تعين أستاذاً في مدرسة رشدية وارنه (في الروملي) وتعين أيضاً كاتباً خصوصياً لدولتلو سعيد باشا وكاتباً في احدى المحاكم الجزائية وترقى منها الى أن صار مميز قلم مكتوبي احدى الولايات . ومن الوظائف التي تقلدها أيضاً الكتابة في نظارة الخارجية وكان مجتهداً أديباً فاشتهر بين معارفه بالادب والبراعة وجودة النظم وحسن الانشاء فتقرب من الفاضل التركي الشهير أحمد مدحت أفندي فكان هذا يرتاح الى ناجي ويعجب بذكائه وأدبه فأزوجه ابنته .

فكان ذلك من جملة ما حبب اليه الانقطاع الى العلم فاعتزل الخدمة في دوائر الحكومة وانخرط في سلك المحررين فتولى تحرير القسم الادبي من جريدة « ترجمان حقيقة » ثم جريدة « سعادت » وأنشأ مجلات أدبية شعرية انتقادية سيأتي ذكرها بين مؤلفاته وآخر مهمة تقلدها كتابة تاريخ آل عثمان فقضى فيها بضع سنوات حتى توفاه الله .

وكان مع ذلك كله عاملاً على التأليف والتصنيف ونظم الشعر على أسلوب مختصر مفيد حتى يكاد يستحيل عليك ان تجد في عبارته كلمة يمكن الاستغناء عنها أو وضعها في غير ما وضعت له فعكف أدباء الاتراك على مطالعة مؤلفاته ومنظوماته لما آنسوه فيها من الطلاوة والرقة مع اللذة والفائدة وراجت كتاباته رواجاً حسناً ساعده على التعيش . ثم كان ذلك سبباً في رفع منزلته بين أقاربه وتقربه الى رجال الدولة وأهل المابين وغيرهم من علماء الاستانة ووزرائها .

فلما أذن الله بانقضاء أجل حياته في ٢٥ رمضان سنة ١٣١٠ هـ كان لخبر منعاه وقع اليم في قلوب العثمانيين كافة فبكاه الاصدقاء ورثاه الشعراء وأبّنه الخطباء وترجمته الجرائد وما وصل خبر منعاه الى جلالة السلطان حتى أصدر ارادته بان ينفق على جنازته ودفنه من جيبه الهمايوني الخاص وان يدفن في تربة ساكن الجنان السلطان محمود الثاني مدفن العظماء والعلماء .

واشتهر المعلم ناجي أفندي بحسن البيان ودقة النظر واصابة الرأي وجودة القريحة وحسن الذوق نظماً ونثراً فكانت الالفاظ والمعاني طوع بنانه فيصوغ منها ما شاء على أساليب تلذ المطالعين على اختلاف طبقاتهم . واتخذ في الانشاء والنظم نسقاً جديداً فلم يقلد الافرنج المحدثين ولا بقي على ما كان عليه السلف لكنه اختار ما بين ذلك اسلوباً حسناً خلفت صورته في ذهنه مما حبب الناس في مطالعة ما كتبه ونشره خلافاً لما جرت به عادة كتاب هذا العصر من الاتراك والعرب فهم في الغالب يتوخون تقليد الافرنج في ما يكتبونه وهو طبيعي لا غرابة فيه ولكن التقليد الاصم مفسد للذوق لان لكل لغة أو امة ذوقاً خصوصياً لا تلذ المطالعة إلا فيه فليكن نظرنا في ما يكتبه الافرنج نظر من يطلب التوسع في معرفة أذواق الكتاب على اختلاف

الأعصر واللغات ثم نختار ما يناسب ذوق أبناء لغتنا الذين انما نكتب لهم .

فيظهر ان صاحب الترجمة سار على هذه الخطة فكان لمؤلفاته ومنظوماته وقع حسن عند قراء اللغة التركية وكان في عزمه ان يجعل للانشاء التركي منهاجاً قائماً بنفسه لا يشبه الشرقيين القدماء ولا الغربيين المحدثين بل يوافق مقتضيات اللسان والزمان فبذل في ذلك قصارى جهده ولكن المنية عاجلته قبل اتمامه فمات عن ٤٥ عاماً ولو فسح الله في أجله لكان أكتب كتّاب اللغة التركية بلا استثناء .

وكان عـــالي الهمة نشيطاً حازماً وفياً سليم القلب رقيق الحديث حسن المعاشرة عاملاً لم يكن همه من حياته إلا التأليف والتصنيف .

مؤلفاته :

وهذه اسماء ما طبع ونشر من مؤلفاته وأكثرها مقالات ورسائل وهي :

١ — آتشياره : منظوم .

٢ — اعجاز القرآن : وهو ملخص ترجمة الاسرار العقلية المستنبطة من سورة الفاتحة المندرجة في كتاب مفاتيح الغيب للامام فخر الدين الرازي .

٣ — معماي الهي : ترجمة الاقوال المنقولة عن علماء المسلمين بشأن الأحرف المندرجة بأول سورة القرآن .

٤ — شرارة : منظوم .

٥ — موسى ابن ابي الغازان : منظوم .

٦ — أمثال علي : يشتمل على ترجمة أمثال للامام علي .

٧ – مدرسة خاطره لري (خواطر المدرسة) : نثر .

٨ – صائدة سوز : نثر .

٩ – فروزان : منظوم .

١٠– معلم : انتقاد على أشعار تركية .

١١– يازمش بولندم : مكاتب .

١٢– دمدمه : انتقاد .

١٣– مخابرات : مكاتيب .

١٤– مكتوبلرم «

١٥– نوادر الأكابر : نثر .

١٦– شويله بويله : مجموعة مكاتيب أيضاً .

١٧– هدر : تياتر .

١٨– حكم الرفاعي .

١٩– سانحات العرب .

٢٠– مترجم : اشعار ونثر مترجم عن اللسان الافرنجي وغيره .

٢١ آفاق .

٢٢– محمد مظفر .

٢٣– ترك شاعر لري : شعراء الترك .

٢٤ لغت ناجي : كتاب في اللغة .

٢٥– اصطلاحات أدبية : في الآداب .

٢٦– ترجمة دون ترجمة : ترجمة قصيدة ابن زيدان .

٢٧– نمونه سخن : انموذج الكلام .

٢٨– سنبله : بعض شعره ونثره .

٢٩– مجموعة معلم : مجلة أدبية .

٣٠– امداد المداد : « « .

٣١– ذات النطاقين : منظوم .

٣٢– خلاصة الاخلاص .

٣٣ – عبيدية .

وله آثار اخرى لم تطبع .

الياس صالح

ولد في بيروت وتلقى العلم في المدرسة الكلية السورية الاميركانية فنبغ في اللغة العربية وآدابها وكان منذ حداثته متوقد الذهن ذكياً فطناً ومن غريب قريحته انه جمع بين الشعر والإنشاء ويندر ان يتفق ذلك لواحدٍ .

نال شهادة البكلورية من المدرسة الكلية سنة ١٨٨٨م . وكان قد اشتهر بين البيروتيين بقريحته السيالة في الشعر وسلامة ذوقه في الانشاء فاستقدمته ادارة المقطم فتولى التحرير فيها حتى توفاه الله في ريعان الشباب . ولو فسح في أجله لاتى بمعجزات البيان لانه كان على صغر سنه من نوابغ الشعراء وعمدة الكتاب حتى طار صيته في القطرين . وكان كاتباً أديباً تسيل عباراته سهولة وتمتزج معانيه بالنفوس رقة قلَّ ان يهفو هفوة يؤخذ عليها . متضلعاً بقواعد اللغة لو سألته عن أي شاردة من شواردها لاجابك فوراً وأورد لك مثالاً أو أمثلة . وكان إنشاؤه عربياً فصيحاً خالصاً من صبغة العجمة مع كثرة



الياس صالح
١٨٧٠ - ١٨٩٥ م

اشتغاله ومطالعته باللغات الاجنبية . وكان قابضاً على ناصية الألفاظ عارفاً اشتقاقاتها ومواقعها واظلال معانيها فلا تسأله عن لفظ إلا أورد لك سائر اشتقاقاته ومعانيه وأشار باصبعه الى موضع كل منها في الصفحة من القاموس

وكان شاعراً مطبوعاً يمتاز شعره مع الرقة والفصاحة بالسهولة والطلاوة . لا يخلو له بيت من نكتة تدل على الذكاء والظرف . وقد نظم على صغر سنه واشتغاله عن الشعر قصائد رنانة ومقاطع جرت مجرى الامثال .

وكان مع ذلك سريع الخاطر فطناً لا تكاد تبدأ بحديثك حتى يدرك مرادك منه ولا تخفاه خفية من مكنونات معانيك حتى يخال لك انه ينطق بلسانك ويعبر عن جنانك . وكان حلو الحديث حسن المعاشرة لا يخلو مجلسه

من المطارحة أو المذاكرة أو المباحثة في ما يخلو الخوض فيه من المواضيع الادبية أو العلمية أو السياسية وإذا ناظرته في أمر آنست منـــه آراء قويمه وأفكاراً أكثرها في جانب الاصابة .

وكان أديباً عفيفاً يتحدث بعفته واعتداله سائر اصدقائه وخلانه ما يصح أن يكون قدوة لشبان هذا العصر ويندر أن نرى على مثاله بينهم .

وكان يعرف اللغة الانكليزية معرفة جيدة ترجمة وكتابة ويحسن الفرنسوية وكثيراً ما عرَّب قصائد انكليزية فنظمها في العربية لا يشك قـــارئها انها نظمت في العربية رأساً وترجم جانباً من رواية الاميره المصريــة درج شيء منها في مجلة اللطائف قبل مرضه وفيها ما يدل على تمكنه من الانـكليزية مع اقتداره على نقل معانيها الى عبارة عربية فصيحة لا يشتم منها رائحة التعريب .

وكان كبير النفس عزيزها ممتلىء القلب انفة ونزاهة لا يفتر لحظـــة عن الاهتمام بمستقبله وقد بالغ في ذلك حتى أودى به الى تعب الجسم ونحول البدن فلما جاءه المرض لم يستطع الى دفعه سبيلاً فقضى ونفسه شاخصة الى المعـالي وآماله لا تزال عالقة بنيل الاماني الى آخر نسمة من حياته .

وأما آثاره فان الاجل لم يفسح له إلا قليلاً ومع ذلك فان من منظوماته ما تناقلته الألسنة وأعجب به رجال الأدب وأكثره منشور في جريدة المقطم ومنه ما يتناقله زملاؤه في المدرسة في محفوظهم ولم نوفق الى جمع شيء يستحق النشر في كتاب على حدة فنأتي بأمثلة منها دلالة على منزلته من عالم الشعر .

قال من قصيدة فلسفية في « الحرية » ودع بهـــا المدرسة الكلية عند نيل شهادتها :

خلِّ عنك الوقوف في دار ميَّه ... واعتزل ذكر زينب وأميَّهْ
رحم الله كل من قـال شعراً ... في ربوع الاسلام والجاهليـهْ
انمـا دارنا بمن شرفوها ... عن سليمى وعن سعاد غنيه
بل هي الروض فتح الزهر فيه ... من خلال اللواحظ النرجسيهْ
واقامت فيـه خدود العذارى ... حرب بدرٍ على القلوب الشقيه
لا تلمني يا عاذلي بهواهـا ... فأنـا قيس هذه العامريـه
وعلام الملام والقلب قلبي ... ومعي فيـه حجة شرعيه
فإذا كنت تدعيه فقـدم ... (عرض حال) للأعين التركيه
وخبطنا العشواء لو كنت تدري ... في ليالي تلك الشعور الدجيه
واتخذنـا سلاسل الشعر قيداً ... فنسينا المسكينة الحريـه
وزعمنـا الانسان ذا شهوات ... يمتطيها مهما تكن دنيوية
وهو زعمٌ ان صح فالمرءُ خلق ... من جميـع المناقب الأدبيه
أفلا تستطيـع ان جمتَ قل لي ... كبح تلـك المطالب الجسدية
أنت حرٌّ فتستطيـع ومهـما ... قاومتك الطبيعـة البشريه
ولكون الانسان يسأل عمـا ... يمتطيه من الأمور الدنيـه
شاهدٌ انـه مدى الدهر حرٌّ ... يفعل الأمر عن رضى ورويه
هب أدرت الادارة أنت فأخطت ... أعليهـا في ذاك مسؤوليه
كم تلظيت إذ أسأت صنيعـاً ... وندمت الندامـة الكسعيه
ان في (ليتني فعلتُ) دليـلاً ... من أصح الادلة العقليـه
أنكر الناس ذاك قبلاً ولكن ... أثبتتـه الشرائع المبدنية
أنت حرٌّ يا أيها المرء فاعلم ... ولك العلم فيـه والأسبقيه
أنت حرٌّ فاعلم بهذا وعـلم ... أنت حرٌّ وهذه أوليـه
لست عبداً ان كنت تحت نظام ... لا وليس النظـام ذا أوليه

أنت فوق النظام ان تتبعه ولأنت الذي وضعت الوصيه
يتمنى الإنسان لو كان عبداً ويقيم الأدلة العلميه
ولكم قد رأيت من حيوان يقضم الحبل بغية الحريه
يا بني أمنا ذوي الفضل بل يا معشر الناطقين بالعربيه
لستُ عبداً أنا ولا أنت مولى أيها اللابس الحلى الذهبيه
هكذا الناس أيها الناس طرّاً ما لزيد على عبيد مزيه

وساق الكلام الى وصف الفراق وفراق التلامذة والاساتذة فقال :

لست ممن يقوى عليه فرفقاً بالمعنى يا ساكني الكليه
كيف تلقون في لظى الوجد نفسي وأنا صالحٌ ونفسي بريه
يا بدوراً راموا التباعد عني وأمطوا للفراق أي مطيه
أفلا تجذب البدور بحوراً ها دموعي فأين ذي الجاذبيه
ان درّاً أودعتموه بأذني صهرته حرارتي القلبيه
وستذريه مقلتاي عقيقاً فترون الغرائب الكيميه

وقال يهنىء صاحبي المقتطف برتبة الدكتورية. وكان قد سافر الى بيروت فبدأ بوصف السفينة واستطرد الى المدح قال :

تلك السفينة بسم الله مجراها على دموعي مسراها ومرساها
تجري وفي قلبها النيران موقدةٌ مثلي كأن هوى الأوطان أشجاها
سكرى تميد بمن فيها فتسكرهم وهماً فكيف اذا ذاقوا حمياها
وليس بدعٌ اذا سارت بنا مرحاً فتلك جارية يهتز عطفاها
هيفاء لكنها بالقار قد خضبت كالخود يخضب بالحناء كفاها
سلطانة البحر اذ ترسو يحيط بها من القوارب جند من رعاياها

وان سرت نشرت أعلامها وشدا صوت البخار لها والموج حياها
طورا ترى في قرار اليم غائصة وتارة فوق هام السحب تلقاها
لم أنس ليلة بتنا والرفاق بما نرعى النجوم ولو شئنا مسسناها
وحولنا الماء من كل الجهات ولا شيء سوى الماء يغشانا ويغشاها
تزجي الركاب الى أرض الشآم وفي مصر لنا حاجة هيهات ننساها
أنتم منى النفس لازالت تطيب بكم نفس الصحاب وتلقى نجح مسعاها
سعى اليكم بنا فضل لكم شهدت به البرية أقصاها وأدناها
وشهرة بين أهل الارض طائرة يردد الصحب والاعداء ذكراها
ورغبة في اقتباس العلم غالبة لم نهجر الأهل والاوطان لولاها
يابهجة الشرق حسب الشرق أنكما من بعض أبنائه بين الورى جاها
أحييتما العلم فيه بعد ان درست معالم الدرس والاهمال أفناها
شهادة لم ينلها غير ذي خطر قد نال من درجات الفضل أسماها
لأنتما توأماها دون غيركما وأنتما أنتما في الشرق صنواها
فلتهنآ وهي فلتهنأ ونحن بما حزنا وحازت وحزتم واشكروا الله

وقال يصف جسر قصر النيل بالقاهرة وفيه إشارة الى دورانه في أثناء فتحه :

جسر قصر النيل المبارك جسرٌ قصّرت في الفخام عنه الجسور
ثابت كالزمان هيهات يفنى وهو ايضاً مثل الزمان يدورُ

وله في نظم التواريخ أبيات لم نر مثلها في ما نظمه الشعراء . من ذلك تاريخ نظمه تقريظاً لكتابنا تاريخ مصر الحديث عند صدوره سنة ١٣٠٨ هـ يكاد يكون معجزة من معجزات النظم وهو قوله بعد وصف الكتاب نثراً :

وبالاختصار فقد حوى ووعى ما لم يكن في الكتب منسوخا
فيرى الحكيم له به عظـــة ويرى الجهول كذاك توبيخـــا
ويرى المطالع فيـــه تفكهة ويرى المؤرخ فيه تاريخـــا

وآخر ما نظمه قبل مرضه بيتان كتبهما الى خطيبته على بطاقـة وفيهما اشارة الى ساعة أهداها اليها وهما :

يا من دعاني حبه فأحببته سمعاً لما تدعو اليه وطاعـــه
تفديك روحي ان حبك راسخ فيها قديماً قبل هذه الساعه

وبيتان آخران كتبهما اليها وقد أهداها حلياً مرصعـاً على شكل طائر يجعل في أعلى الصدر وهما :

ليك حبيب القلب مني هدية تزيدك في عيني محاسنها حسنا
أتتك وقـد حنت اليك صبابة ولاعجب للطير أن يعشق الغصنا

ومن النكات الشعرية قوله في نحوية :

ونحوية ساءلتها أعربي لنـــا حبيبي عليه الحب قد جار واعتدى
فقالت حبيبي مبتدأ في كلامهم فقلت لها ضميه ان كان مبتدا

وقوله :

قد رماني بالصد والهجر عمداً ولحاني اذ ملت للسلوان
مـــا رأى نفسه فلا تعذلوه لا ترى العين نفسها بل تراني

وآخر مانظمه بعد مرضه وقد ثقلت عليـــه وطأة الحمى بيتان قالها في

وصفها وكانت تشتد عليه ليلاً :

إذا جنّ الظلام وغاب صحبي وفارقني احبـــائي وناسي
أتت تسعى اليّ وليس ترضى مقاماً غير أحشائي وراسي

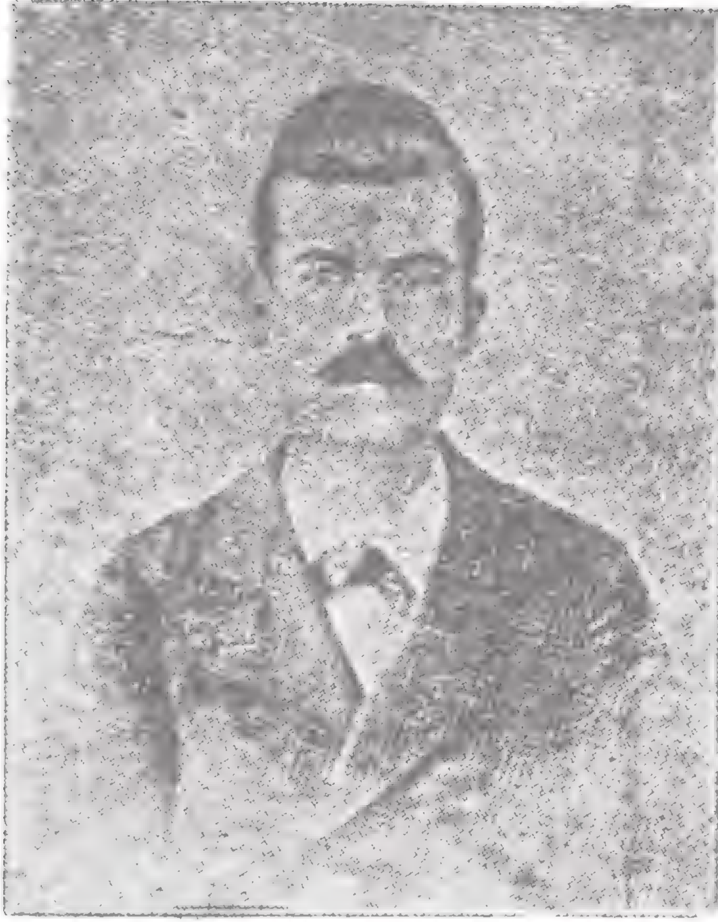
الشيخ نجيب الحداد

ترجمة حاله :

ولد في فبراير من عام ١٨٦٧م ووالده سليمان افندي الحداد ووالدته كريمة المرحوم الشيخ ناصيف اليازجي . فربي في مهد الأدب وقد ورث ملكة الشعر من جديه ورضع لبـــان النظم والنثر من خاليه (المرحومين الشيخ ابراهيم اليازجي وشقيقه الشيخ خليل اليازجي) وتلقى بعض العلم عنهما ولكنه فطر على الأدب مذ نعومة اظفاره فنظم الشعر قبل ان يدرك الحلم . واليك مثال من أبيات نظمها قبل ان يدرك الخامسة عشرة من عمره .

أما ومن زين المعالي بكل صمصامة وحلى
لأعنة الخيل في قتام يريك فيها الغبار كحلا
أحب من عين ذات خدر مقرونة الحاجبين كحلا

وجاء الاسكندرية بعد الحوادث العرابية فتولى التحرير في جريدة الاهرام الى عام ١٨٩٤ م فاعتزلها وأنشأ جريدة لسان العرب مع شقيقه امين افندي الحداد وعبده افندي بدران . وتولى هو رئاسة التحرير فاشتهر اللسان بمتانة عبارته وسهولتها . ثم قضت حال الصحافة بتعطيل الجريدة فجـاء القاهرة



الشيخ نجيب الحداد
١٨٦٧م - ١٨٩٩م

وأنشأها أسبوعية ثم عاد الى الاسكندرية وتولى تحرير مجلة أنيس الجليس وجريدة السلام فكان يحرر الجريدتين وجريدته وهو مع ذلك لا ينقطع عن تأليف الروايات وترجمتها ونظم القصائد الرنانة والمرض ينتابه ويكاد يقعده وهو يجاهد في دفعه حتى قضى نحبه قبل ان يتم الثانية والثلاثين من عمره . وكان رحمه الله ذكي الفؤاد سريع الخاطر متوقد الذهن كما سترى من امثلة نظمه ونثره .

مؤلفاتـــه :

١ - رواية صلاح الدين الايوبي . وهـي في الاصل تأليف السير وولتر سكوت الشاعر الانكليزي الشهير فسبكها المترجم في قالب التشخيص وغير فيها وبدل حتى لقد يصح ان يقال انه ألفها . مثلت في مصر والاسكندرية

مراراً فنالت شهرة واسعة تغنينا عن الاطناب .

٢ – رواية السيد . وهي من مؤلفات كورنيل الكاتب الفرنساوي فنقلها الى اللسان العربي وسماها « غرام وانتقام » وقد مثلت مراراً .

٣ – رواية المهدي . وهي تشخيصية تاريخية مثل فيها بعض حوادث المهدي السوداني .

٤ – رواية حمدان . عربها عن رواية ارنيني لفيكتور هوكو .

٥ – رواية شهداء الغرام . عرّبها عن روميو وجوليت لشكسبير .

٦ – رواية الرجاء بعد اليأس .

٧ – رواية البخيل . معربة .

٨ – رواية غصن البان .

٩ – رواية ثارات العرب .

١٠ – رواية الفرسان الثلاثة الشهيرة لاسكندر دوماس وقد نقلها الى العربية . فضلاً عما كتبه من المقالات الرنانة في لسان العرب وغيره . منها مقالة في المقابلة بين الشعر العربي والشعر الافرنجي نشرت في مجلة البيان بمصر. وتمتاز ترجماته عن كثير من ترجمات أهل هذا العصر بخلوصها من شوائب العجمية وقد اشتهر رحمه الله خصوصاً في تأليف الروايات التمثيلية أو ترجمتها وأكثر ما يمثل على المراسح المصرية اليوم من تأليف الحداد أو ترجمته .

شعره :

وكان شاعراً عصرياً حسن الاسلوب يكفينا في وصف شعره أن نورد

بعضه على سبيل المثال . فقد قال من قصيدة نظمها في وصف سوق الاحسان التي احترقت بالنور الكهربائي في باريس عام ١٨٩٧م ومات فيهـا نحو ٢٠٠ امرأة من المحصنات الباريسيات :

أي رزءٍ أجرى الدموع دماءَ وأذاب القلوب والأحشاء
ليس بدع في خطب باريس ان تشـ ـمل آثار حزنه الدنيـاء
وهي أم الآداب أثكلها الدهر فأبكت بوجدها الابنـاء
قد دهاها مصاب سادوم لكن خصَّ من قومهـا الأبرياء
فهي في الحزن مثل راحيل اذ تبكي بنيهـا ولا تريد عزاء
أصلت الكهرباء فيهـا لهيباً قد كرهنا لاجله الكهرباء
ورماها نور الضيـاء بنار أظلمتها فما تلاقي الضيـاء
في مكان انشي لدفع بلاءٍ عن فقير فكان فيه بلاء
سوق بر تبـاع فيها اللهى بيعاً ويشرى الثوب فيها شراء
زينتهـا بيض الأيادي وأيدي البيض من محسن ومن حسناء
أنفس تبتغي السمـاء فما أمسين إلا وقد بلغن السماء
أدركت ما تروم من جنة الخـ ـلد ولكن كان الطريق صلاء
من رأى قبلها جحيماً يؤدي لنعيم ابنـاءه الشهـداءَ
أو رأى محسناً يجود على النا س فيلقى نار الجحيم جزاء
أترى كان ذاك مطهر من ما توا فيمحو عن النفوس الخطاءَ
أم هو الدهر لا يزال مسيئاً لكريم ومكرمـاً من أساء
يا ربوعاً كانت معاهد احسا ن وحسن فأصبحت قفراء
وديارًا كانت منازل اينا س فأضحت بلاقعـاً وخلاء
وكراماً كانوا منـاهل جود لفقيـر فأصبحـوا فقراء

امراءٌ نادى الندى فأطاعو … ه أميراً لهم ولبوا النداء
وحسان قد جدن برّاً كأن ال … برّ ثوب يزيدهن بهاء
ساحة تنبت المكارم والرأ … فة والمجد والندى والاخاء
فنساء بها تباري رجالاً … ورجال بها تباري النساء
أوجه يشرق السنا من محيا … ها فتزداد بالجميل سناء
رحن يزهين بالبياض فما أص … بحن الا كوالحاً سوداءَ
رحماً لم تدع بها النار الا … رسم جسم وأعظماً جرداء
كن ناساً فصرن ناراً فأص … بحن رماداً بها فصرن هباء
قد كفت لحظة لان تقلب الام … ر وأن تجعل النعيم شقاء
فاستحال الهناء بؤساً وأحزاناً … وأضحى ذاك السرور بكاء
نقمة صبها القضاء على الا … برار ظلماً ومن يرد القضاء
رحم الله من قضى وشفى الجر … حى وعزى الباكين والتعساء

وقال من قصيدة يصف بها بعض منتزهات الاسكندرية ومركباتها ومخدراتها:

من بدور تسير في المركبات … ومن القبعات في هالات
كللتها أزاهر الصنع من نب … ت الايادي لا من أيادي النبات
زهرات ما حاكها ابن سحاب … في ربى الروض بل بنان البنات
ان يكن فاتها الأريج فقد عوّ … ض عنه روائح الغانيات
أو يكن فاتها رياض جنانٍ … فهي فوق الرؤوس في جناتِ
أو عدتها الغصون فهي على مث … ل غصون الربى من القامات
سائراتٌ جوالسٌ فهي لم تع … جل ولكنها على عجلات
مفردات الجمال تنطبق الخي … ل فرادى بها ومزدوجاتِ
وكأن الجياد تشعر بالحس … ن فتجري بهنّ مفتخرات
قد درت انها تجر بدوراً … فتبارت كالأنجم السائرات
مسرعات ترى الدواليب من سر … عتها في مرورها ثابتات

وقلوب العشاق تتبع الغيـد تباري أفراسها الجاريات
صاح هذه هوادج الحضر اليوم فخلّ الهوادج الباديات
ودع النوق والفلاة فـلا نوقاً بأحيائنـا ولا فلوات
ودع العيس والحداء لقـوم ألفوا عيسهم وزجر الحداة
تلك حالٌ مرّت قديماً وذي حال وسبحان مبدل الحالات

وقال من قصيدة غراء وصف بها القمر :

وسار البـدر يسبح في سماء عليها من كواكبها سفين
تمر بـه السحائب مسرعات فيخفى تحتهن ويستبـين
كخود اقبلت في الروض تسعى فتظهر ثم تحجبهـا الغصون
تقابل وجهه فيلوح فيـه لصورة وجهك الرسم المبين
فتحسب منه ان هناك ماء ولا ماء هناك ولا عيون
ولا نبت عليـه ولا حياة ولا نسمٌ ولا غيثٌ هتون
جنازة ميت لا نعش فيها ولا أيـدٍ حملن ولا أنـين
قرين الأرض ليس يغيب عنهـا ولكن لا يواصلها القـرين
يدور به ولكن حـين يدنو يفر فلا يجيب ولا يلـين
كمعشوق يـداعب ذات خـدر فلا يعطي الوصال ولا يبين
فـكم بسمت لمرآه ثغـور وكم سالت لمرآه شؤون
وكم ذكر المحب به حبيباً وكم نسي الخدينَ به خدينُ
وتصفرُّ النجوم إذا تبدى كما يصفرُّ من حسد جبين
يسير فتختفي من جانبيـه نوافر وهو مجتازٌ رزين
كما طلع المليك عليـه تاج فأطرقت الوجوه له تـدين
كأن كواكب الافـلاك درٌّ تبـدى بينها حجرٌ ثمين

فيا شبه الحبيب حويت منه | بهاه وفاتنا منك الفتون
وكم تحيي الظلام وأنت ميتٌ | وكم تعلو النجوم وأنت دون
حويت عجائباً فدعاك قوم | الهاً حبه في الناس دين
تخبرهم باعداد الليالي | ويلزمك السكوت فما تبين
وتصدقهم وفيك النقص طبع | وعهدي كل ذي نقص يمين
لنا في كل شهر منك شك | ولكن ليس يمهله اليقين
ترى فيك البداءة كيف كانت | قديماً والفناء متى يكون

وله من قصيدة في وصف القمار :

لكل نقيصة في الناس عار | وشر معايب المرء القمار
تشاد له المنازل شاهقات | وفي تشييد ساحتها الدمار
نصيب النازلين بها سهادٌ | فإفلاس فيأس فانتحار
قد اختصروا التجارة من قريب | فمدم في الدقيقة أو يسار
وبئس العيش فقرٌ مستديم | يعارضها يسارٌ مستعار
وبئس المال لا تحظى يمين | به حتى تسلمه اليسار
يفرُّ من البنان فليس يبقى | لهم من أثره إلا اصفرار
فبينا تبصر الوجنات ورداً | إذا هي في خسارتهم بهار
تراهم حول بسطتها قعوداً | يدير عيونهم ورق يدار
يلاحظ بعضهم بعضاً بعين | يكاد يضيءُ اسودها الشرار
فتحسب ان بين القوم ثأراً | ولا ثأر هناك ولا نفارُ
كأن عيونهم لما أديرت | فراش حائم والمال نار
فهم لا يبصرون سواه شيئاً | كساري الليل لاح له منار
وهم لا يعطفون على خليل | وليس يشوق انفسهم مزارُ

وهم لا يذكرون قديم عهد ... وليس لهم سوى الأمس اذكارُ
فكم غضبوا على الايام ظلماً ... وكم حنقوا على الدنيا وثاروا
وكم تركوا النساء تبيت تشكو ... وتسعدها الاصيبية الصغارُ
تبيت على الطوى ترجو وتخشى ... يؤرقها السهاد والانتظارُ
فبئست عيشة الزوجات حزنٌ ... وتسهيد وهجر وافتقارُ
وبئست خلة الفتيان همٌ ... واتعابٌ وخسرانٌ وعار

ومن شعره أبيات نظمها اجابة لاقتراح مصلحة السكة الحديدية المصرية وكانت قد اقترحت على الشعراء نظم أبيات تنقش على جدران المحطة بمصر وفرضت جائزة ينالها المجيد فنالها هو وأما الابيات فهي :

يا حسن عصرٍ بعباس العلى ابتسما ... حتى الحديد غدا ثغراً له وفما
طرائق في ضواحي القطر تبلغنا ... أقصى البلاد ولم ننقل بها قدما
مصرٌ كصفحة قرطاس بتربتها ... غدا القطار عليها الخط والقلما
ارض بها كان خصب النيل منتثراً ... حتى أتاها قطار النار فانتظما
لنا غنى عن قطار السحب منسجماً ... ولا غنىً عن قطار النار مضطرما
يجري بها الرزق في جسم البلاد كما ... يجري دم في عروق الجسم منتظما
محطة هي قلبٌ والخطوط بدت ... مثل الشرايين فيها والقطار دما
مع السلامة يا من سار مرتحلاً ... عنا واهلاً وسهلاً بالذي قدما

وكانت مجلة مرآة الحسناء قد فرضت جائزة لمن ينظم أحسن ترجمة لقصيدة انكليزية نظمت في أمور اشترطها خاطبٌ على خطيبته وجوابها عليه فنظمها الحداد ونال الجائزة واليك القصيدة :

طلبتَ أثمنَ شيء في الوجود غلا ... قلب التي لم ينلها كلُّ من سألا

سألتني وأنا أنثى سؤال فتى ... فقف لتسألك الأنثى و كن رجلا
تريدني أن أجيد الطبخ حاذقة ... وأرفأ الثوب حتى ما عليه بلى
أما أنا فطلابي أن تقدم لي ... قلباً كنجم ونفساً كالسماءِ على
فان طلبت لذيذ الاكل مجتهداً ... وان يكون عليك اللبس مكتملا
فأنت تطلب طباخاً على قدرٍ ... وذات خيط صناعاً تصلح الحللا
أما سؤالي فأعلى من سؤالك لي ... ومنيتي فرق ما ترجوه بي أملا
اذ ابتغي ملكاً بيتي ولايته ... وابتغي رجلاً بين الورى مثلا
أنا صغيرة سن في الشباب ولي ... من فوق خديّ ورد يكتسي خجلا
لكن ذا كله فانٍ بجملته ... وعن قريب ترى ورد البها ذبلا
فهل يدوم غرام في فؤادك لي ... بعد الصبا مثل ما قد كان مقتبلا
وهل فؤادك بحرٌ لا قرار له ... تجري به سفن آمالي ولا وجلا
فان كل فتاة زوجت حملت ... في زهر اكليلها النعمى او الاجلا
هناك تعرف اما أن تسير الى ... حيث النعيم واما أن تسير الى
اني أريد مساواة ومعدلة ... وخير بعل بخير الخلق قد كملا
فان ظفرت بهذا منك كنت كما ... ترومني وأتاك القلب ممتثلا
اولا فانّ الذي تبغي خياطته ... وطبخه فأمور نيلها سهلا
تنالها باجور المال تبذلها ... أما الفتاة واخلاص الفتاة فلا

محمود باشا سامي البارودي

اصله :

لم تخل مصر في عصر من عصورها القديمة او الحديثة من طبقة في اهلها من



محمود سامي البارودي

محمود باشا سامي البارودي

١٨٤٠ — ١٩٠٤ م

« المولدين » وهم المولودون فيها من آباء غرباء حتى في عهد الفراعنة والارجح ان الفراعنة انفسهم غرباء الاصل . وتوالى في وادي النيل طبقات شتى من المولدين ممن نزح اليها على اختلاف عصورها وفيهم الفرس واليونان والرومان والعرب والترك والبربر والجركس والارمن والديلم وغيرهم . وكل فئة إذا طال مكثها عدّت نفسها وطنية وعدّت القادمة بعدها غريبة . وآخر فئة توالدت في مصر الجركس والاتراك من بقايا المماليك . والغالب في المولدين من هؤلاء غموض منشأهم لان رباط العائلة كان ضعيفاً فيهم والرجل منهم انما ينتسب الى مالكه أو رئيسه أو يعرف بلقب يلقبونه به. فلم يعد تحقيق تلك الاصول ممكناً فيهم .

والبارودي صاحب الترجمة من مولدي الجركس بمصر ويؤخذ من صحيفة كانت عنده نشرتها مجلة المنار انه ينتسب الى نوروز الاتابكي الملكي الاشرفي ولعله أحد رجال الاشرف قايتباي المحمودي المتوفي سنة ٩٠١ هـ. ونستغرب ثبوت هـذه النسبة للاسباب التي قدمناها من ضياع اسم العائلة عندهم حتى نوروز هذا فانه لا ينتسب الى أبيه وانما يعرف بانتسابه الى الملك الاشرف ومنها اسمه «الملكي الاشرفي». وقد كان في ذلك العصر جماعة يعرفون بهذا الاسم كل منهم ينتسب الى صاحبه مثل نوروز المنصوري نسبة الى الملك المنصور ونوروز التمرعلائي الاشرفي برسباي نسبة الى الملك الاشرف برسباي وقس على ذلك . وقد بلغنا نقلا عمن عرف البارودي وعاشره انه كان شديد الحرص على معرفة نسبه وتتبعه الى اصله فبذل مبلغاً طائلا من المال في سبيل البحث عنه في انحاء القطر ومراجعة النصوص والسؤال من اهل العلم والسن- قالوا انه انفق في ذلك نحو ثلاثة آلاف جنيه .

على اننا لا نرى لصحةهذه النسبة البعيدة أو فسادها دخلاً في تقدير فضل الرجل لان المرء باصغريه وبما يحدث على يديه . ولكن المشهور ان الفقيد هو محمود باشا سامي بن حسن بك حسني وكان ابوه هذا من امراء المدفعية في الجيش المصري وجده عبد الله بك الجركسي من الكشاف في اوائل عهد محمد علي . والكاشف يشبه مأمور المركز اليوم. وانما اضيف اسمهم لفظ البارودي نسبة الى اتياي البارود لانها كانت في التزام احد اجداده في عصر الالتزامات.

نشأته الاولى :

ولد صاحب الترجمة في سراية بباب الخلق سنة ١٨٤٠ م وتلقى مبادىء العلم في المدارس الحربية التي أنشأها محمد علي وخرج من المدرسة سنة ١٨٥٥ م

في اوائل ولاية سعيد باشا . وكان من نعومة أظفاره ميالاً الى الادب والشعر فرغب في آداب اللغة العربية فأحرز منها شيئاً كثيراً وظهرت ثمار قريحته وامتاز شعره بالسهولة والبلاغة من عهد شبابه على قلة النابغين من الشعراء في ذلك الحين. فهو من اقوى أركان النهضة الشعرية الاخيرة بمصر .

وكان مع ذلك كبير المطامع في طلب العلى — وذلك نادر في الشعراء لرقة احساسهم ولف مزاجهم وانصراف قرائحهم الى الخيال — ولم يبال بركوب البحار في طلبها فرحل الى الاستانة يلتمس بها منصباً . وكان يتكلم التركية وهي لغة أهل الطبقة العليا بمصر في ذلك الحين ولا تزال عند بعضهم الى الان . فانتظم في كتابة السر بنظارة الخارجية . وكانت اللغة التركية يومئذ في ابان نهضتها فتبحر في أدبها وشعرها حتى نظم فيها القصائد وتعلم الفارسية لمطالعة آداب الفرس وأشعارهم ونفسه تحنُّ الى مصر حنين كل من يقيم فيها ويتعود ماءها واقليمها . فاتفق ان الخديوي اسماعيل باشا شخص الى الاستانة سنة ١٨٦٣ م على اثر ارتقائه الاريكة الخديوية فدخل صاحب الترجمة في بطانته ورجع معه الى مصر وعاد الى الخدمة العسكرية . فترقى في سنة واحدة الى رتبة بيكباشي وانتدب مع جماعة من الضباط لمشاهدة بعض الحركات العسكرية في فرنسا وسافر منها الى لندرا وعاد الى مصر فرقاه الخديوي سنة ١٨٦٥م الى رتبة قائمقام في آلاي الفرسان ثم الى رتبة أميرالاي .

سيرته السياسيه :

ولو أردنا تفصيل ما تقلب فيه من المناصب لطال بنا الكلام فنقول بالاجمال انه ذهب في جملة الجيش المصري الذي أرسلته مصر لمساعدة الدولة

العلية في اخماد ثورة كريد سنة ١٨٦٨ م ولما رجع الحق بالحرس الخديوي (الياوران) فأحبه اسماعيل وزاده من قربه فجعله كاتب سره الخاص . ثم عاد الى العسكرية بعد سنتين وكان الخديوي ينتدبه في كثير من الأمور الهامة الى الاستانة وغيرها . حتى إذا انتشبت الحرب بين الدولة العلية والروس سنة ١٨٧٧ م أنفذت مصر نجدة من جيشها كان المترجم في جملتها مع فرقته وعند رجوعه رقي الى رتبة لواء . ولم تمنعه رتبة العسكرية من الخدمة في المناصب الادارية فعين سنة ١٨٧٩م مديراً للشرقية. واضطربت مصر يومئذ وهي السنة التي أقيل فيها اسماعيل فسبق إقالته اثارة الخواطر بالمنافسة التي جاشت في نفوس الأمراء على الولاية وبما كان من تداخل الدول الافرنجية بشؤون مصر الادارية فانتدبت الحكومة صاحب الترجمة لرئاسة الضبطية فحفظ الامن وهدأ الخواطر . فلما أقيل اسماعيل وتولى المغفور له توفق باشا الخديوي السابق أعاده الى المناصب الادارية فجعله وزيراً وقلده نظارة الاوقاف فأصلح شؤونها ونظمها — والمرء يتقلب في مناصب شتى ولا بد من شيء يعلق به ذهنه مما ترتاح اليه نفسه او يدفعه اليه ميله ولهذا الميل دخل كبير في شؤون الأمم لان الملك أو الامير إذا كان ميالاً مثلاً للعلم نشط أهله ورفع شأنه وإذا كان من اهل اللهو رغب الناس في الملاهي . ويقال نحو ذلك في سائر المناصب الادارية . وقد تقدم ان المترجم كان مغرماً من صغره بالعلم والأدب فاهتم في أمر الكتب المبعثرة في المساجد وجمعها في مكان واحد فلما أخذ المرحوم علي باشا مبارك في انشاء دار الكتب الخديوية كانت هذه الكتب من جملة ما نقلوه اليها .

فلما تحركت الخواطر وهبت النفوس في الثورة العرابية كان لصاحب الترجمة شأن كبير في ذلك والناس بين متهم ومبرىء . وخلاصة رأينا في

المترجم انه كان من جملة المنشطين للحزب الوطني في مطالبهم سراً لأنه كان ناظراً للاوقاف كما تقدم فكان يحضر مجلس النظار وهواه مع العرابيين وهو يعتقد ان مطالبهم عادلة – ورجال المطامع يغتنمون هذه الفرص لنيل المناصب الكبرى وكثيراً ما كانت أمثال هذه الحركات سبباً في انتقال الملك من دولة إلى دولة إذا وافقت الأحوال وتوفرت الرجال. وفي تاريخ مصر أمثلة كثيرة من هذا النوع . أما المترجم فقد كان طامعاً في منصب الوزارة وما وراءه فكان ينقل الى عرابي ورفاقه من قرارات ذلك المجلس وأبحاثه ما يتعلق بهم ليحذروه أو يتهيأوا للقائه مما يطول شرحه . وقد نجح في ما كان يؤمله فتولى نظارة الجهادية ثم رئاسة النظار . فكان له النفوذ الاعظم في تلك الثورة وأما عرابي فقد تصدر لها وتظاهر بها عن صدق نية وبساطة – وهي بالحقيقة نهضة سياسية عمرانية لو أحسن أصحابها استخدامها أو لو تصرفوا فيها بالحكمة والتؤدة لعادت بالنفع على الحكومة والاهالي . ولكنهم اختلفت اغراضهم وتباينت مطامعهم وغفلوا عن العواقب ولم يكن ليغفل عنها الدرب الحازم ، ولكن قدر فكان .

فلما دخل الانكليز مصر وقبضوا على العرابيين وحاكموهم كان صاحب الترجمة من جملة الذين حكم عليهم بالنفي الى سيلان مع زعيم الثورة وما زال هناك حتى أرجع في جملة الذين أرجعوا منذ بضعة اعوام واختصه الجناب الخديوي بارجاع حقوقه ورتبته . وظل بين اهله وذويه حتى توفاه الله في ١٢ دسمبر سنة ١٩٠٤ م وقد كفّ بصره .

هذه خلاصة سيرته السياسية وأما سيرته الادبية فمجملها انه كان محباً للادب مطبوعاً على الشعر وشعره من الطبقة الاولى بين شعراء العصر بمصر

وكلهم يعترفون له بالتقدم والفضل وله منظومات رنانة سارت بذكرها الركبان ومنها ما جرى مجرى الامثال وفي جملتها قصيدة في السيرة النبوية تدخل في نحو ستمئة بيت على روي البردة مطلعها :

يا رائد البرق يمم دارة العلم   واحدُ الغمام الى حي بذي سلم

وإليك أمثلة مما بلغ الينا من منظوماته ، قال في وصف الليل من قصيدة بعث بها من جزيرة سيلان الى الامير شكيب ارسلان :

وترى الثريا في السماء كأنها   حلقات قرط بالجمان مرصع
بيضاء ناصعة كبيض نعامة   في جوف أدحيٍّ بأرض بلقع
وكأنها أكر توقد نورها   بالكهرباءة في سماوة مصنع
والليل مرهوب الحمية قائم   في مسحه كالراهب المتلفع
متوشح بالنيرات كباسل   من نسل حام باللجين مدرع
حسب النجوم تخلفت عن أمره   فوحى لهن من الهلال باصبع

وقال من قصيدة يعزي بها رصيفنا خليل افندي مطران صاحب الجوائب المصرية عن فقد عمه حبيب باشا :

اعزيك لا اني اظنك عاجزاً   لخطب ولكني عمدت لواجبِ
وكيف أعزي من فرى الدهر خبرة   وأدرك ما في طيه من عجائب
فيا حبي مهلاً فلست بواجد   سوى حاضر يبكي فجيعة غائب
وصبراً فان الصبر اكرم صاحب   لمن بان عن مثواه اكرم صاحب

ونظراً لما فطر عليه من الميل الى الجندية فقد أجاد كثيراً في نظم الفخريات ومنها أبيات يتمثل بها الناس كقوله من قصيدة عارض بها قصيدة أبي فراس :

من النفر الفرّ الذين سيوفهم   لها في حواشي كل داجية فجرُ
اذا استلّ منهم سيدٌ غرب سيفه   تفزعت الافلاك والتفت الدهرُ

وقوله من قصيدة اخرى :

وفيت بما ظنّ الكرام فراسة   بامري ومثلي بالوفـاء جديرُ
وأصبحت محسود الجلال كأنني   على كل نفس في الزمان اميرُ
اذا صلتُ كفّ الدهر من غلوائه   وان قلت غصت بالقلوب صدورُ

ومن هذا القبيل قوله من قصيدة يصف بها الحرب بجزيرة كريد :

والخيـل واقفة على ارسانهـا   لطراد يوم كريهـة ورهان
وضعوا السلاح الى الصباح وأقبلوا   يتكلمون بألسن النيران
حتى اذا ما الصبح أسفر وارتمت   عيناي بين ربى وبين مجـان
فاذا الجبـال أسنة واذا الوها   د أعنة والمـاء أحمر قـان

وله من الشعر الوصفي قصيدة يصف بها عصفوراً على غصن وقد ابدع فيه قال:

ونبأة أطلقت عينيّ من سنةٍ   كانت حبالة طيف زارني سحرا
فقمت أسأل عيني رجع ما سمعت   أذني فقالت لعلي ابلغ الخبرا
ثم اشرأبت فألفت طائراً حذراً   على قضيب يدير السمع والبصرا
مستوفزاً يتنزى فوق أيكته   تنزي القلب طال العهد فاذكرا
لا يستقرُّ له ساق على قـدم   فكلمـا هدأت انفـاسه نفرا
يهفو به الغصن أحياناً ويرفعه   دحو الصوالج في الديمومة الاكرا
ما باله وهو في أمن وعافية   لا يبعث الطرف الا خائفاً حذرا
إذا عـلا بات في خضراء ناعمة   وان هوى ورد الغدران أو نفرا

يا طير نفرّت عني طيف غانيـة		قد كان أهدى لي السراء حين سرى
حوراء كالريم الحاظاً إذا نظرت		وصورة البدر اشراقاً إذا سفرا
زالت خيـالتها عني واعقبها		شوق أحال عليّ الهم والسهرا
فهل الى سنة ان اعوزت صلة		عود ننال به من طيفها الوطرا

وكان إذا عارض المخضرمين أو الجاهليين جاء نظمه مثل نظمهم متانـة وعلوّاً . فمن قصيدة عارض بها دالية النابغة الذبياني قوله في وصف الفرس :

ولقد هبطت الغيث يلمع بوره		في كل وضاح الاسرة أغيدِ
تجري به الآرام بين منـاهل		طـابت مشاربها وظلٍّ ابرد
بضمر أرِنٍ كأن سراته		بعد الجميم سبيكة من عسجد
خلصت له اليمنى وعم ثلاثـة		منه البياض الى وظيف أجرد
فكأنما انتزع الأصيل رداءه		سلباً وخاض من الضحى في مورد
رجـل يردد في اللهات صهيله		دفعاً كزمزمة الحبي المرعـد
متلفتاً عن جانبيـه يهزه		مرح الصبا كالشارب المتغرد
فإذا ثنيت له العنان رأيته		يطوي المعاهـد فدفداً في فدفد
يكفيك منه إذا استحسّ بنبأة		شدّاً كألهوب الإباء الموقـد
صلب السنابـك لا يمرُّ بجلمد		في الشد إلا رضّ فيـه بجلمد
نعم العتاد إذا الشفاه تقلصت		يوم الكريهة في العجاج الاربد

وله من قصيدة نظمها في منفاه يصف به حاله هناك :

محا البين ما ابقت عيون المهى مني		فشبتُ ولم اقض اللبانة من سني
عناءٌ ويأس واشتياق وغربـة		ألا شدّ ما ألقاه في الدهر من غبن

فان أك فارقت الديار فلي بها | فؤادٌ أضلته عيون المهى عني
بعثتُ به يوم النوى إثر لحظة | فاوقعه المقدار في شرك الحسن
فهل من فتى في الدهر يجمع بيننا | فليس كلانا عن أخيه بمستغن
ولما وقفنا للوداع وأسبلت | مدامعنا فوق الترائب كالمزن
أهبت بصبري ان يعود فعزني | وناديت حلمي ان يثوب فلم يغن
وما هي إلا خطرة ثم أقلعت | بناعن شطوط الحي أجنحةالسفن
فكم مهجة منزفرة الوجد في لظى | وكم مقلة من غزرة الدمع في دجن
وما كنت جربتُ النوى قبل هذه | فلما دهتني كدت اقضي من الحزن
لكنني راجعت حلمي وردّني | الى الحزم رأي لا يحوم على افن
ولولا بنيات وشيب عواطل | لما قرعت نفسي على فائت سني

وقال من قصيدة يصف بها حرب الروس :

أدور بعيني لا أرى غير أمة | من الروس بالبلقان يخطئها العدُّ
جواثٍ على هام الجبال لغارة | يطير بها ضوء الصباح إذا يبدو
إذا نحن سرنا صرّح الشر باسمه | وصاح القنا بالموت واستقتل الجند

وختم شعره بأبيات شعرية وهي :

أنا مصدر الكلم الوادي | بين الخواضر والغوادي
أنا فارس أنا شاعر | في كل ملحمة ونادٍ
فإذا ركبت فانني | زيد الفوارس في الجلاد
واذا نطقت فانني | قس بن ساعدة الايادي
هذا وذلك ديدني | في كل معضلة نآدِ

ونظراً لمنزلته الرفيعة في نفوس الشعراء فقد اجتمعوا على ضريحه في الامام الشافعي يوم الأربعين من وفاته ورثوه وابنوه مما لم يسبق له مثيل إلا ما يقال عن توافد الشعراء لرثاء المعري على قبره .

عبده الحمولي

المغني المصري الشهير

ان الأمة شديدة التعلق بموسيقيها وشعرائها وخطبائها ومن جرى مجراهم من رجال الأدب ممن يشاركون الناس في احساسهم . فالشعراءُ يصورون عواطف الامة ويدافعون عن اعراضها . والخطباءُ يحركون حاساتها ويجمعون كلمتها . والموسيقيون ومنهم المغنون يطربونها ويشرحون صدورها . ويشتد شعور الامة بفضل اولئك الرجال ويتعاظم اسفها على ضياعهم بنسبة مبلغها من التقدم في معارك المدنية .

نعم ان الأمة اذا تمدنت عرفت قدر مخترعيها وعلمائها وفلاسفتها وساستها وغيرهم من رجالها العظماء فتنحت لهم التماثيل وتقيم لهــم الانصاب وتؤلف الكتب في الثناء عليهم . ولكنها تفعل ذلك مدفوعة باقرارها بالجميل . وأما الشعراء والموسيقيون والخطباء فانها تشعر بفقدانهم شعور الصديق بموت صديقه أو الوالدة بضياع ولدها . فتبكيهم بلا كلفة ولا صناعــة والفيلسوف استاذ الامة وحكيمها والمخترع ساعدها وخادمها في تسهيل أعمالها — وأما الشاعر فانه يترجم عواطفها ويصور ارادتها . والموسيقي ينفس كربها وينعش روحها والخطيب ينهض همتها ويجمع كلمتها — ففي موت أحدهم تأثير على النفس يثير العواطف ويهيج الشجون وفي حياته حياتها الأدبية — والأمم المتمدنة تكون ادابها كما يشاء شعراؤها وخطباؤها وموسيقوهــا — فلا غرو اذا جن الناس باهل تلك القرائح .



عبده الحمولي

١٨٤٥م – ١٩٠١م

ألا ترى مافعل الفرنساويون بفيكتور هيكو شاعرهم وكاتبهم وقد عشقوه حتى كادوا يعبدونه فحملوه على اكفهم وهو حي وطافوا به الشوارع والأزقة ينادون بفضله وقس على ذلك ما تبديه الامم المتمدنة من أمثال ما تقدم .

على ان اكرام الشعراء طبيعيٌ حتى في عصور البداوة . فقد كان الشعراء في جاهلية العرب حماة الاعراض تتفاخر بهم القبائل وتستحث قرائحهم في الدفاع عنها .

ويسرنا ان نرى ذلك الشعور قد أينع في وادي النيل في أواخر القرن الماضي على أثر ما بلغته مصر من الارتقاء .

فقد أنبأنا صديق نثق بصدق روايته ان جماعة من ادباء المصريين في بعض مدن الصعيد لما بلغهم منعى الشاعر المرحوم الشيخ نجيب الحداد وكانوا من قراء

أشعاره ورواياته لم يكتفوا بالبكاءِ والرثاءِ ساعة الفاجعة ولكنهم تحالفوا على ندبه في كل حين – قال الراوي « واشتد بهم الاسف حتى تواطأوا على ترك الدنيا والاسراف في صحتهم حتى يلحقوا به » ومهما يكن من بعد هذا القول عن الحكمة والتعقل مع ما يتخلله من دلائل الطيش فانه يدل على درجة اشتراك عواطف الامة بشعرائها .

والموسيقى اخت الشعر وتأثيرها اعم من تأثيره لان الشعر لا يؤثر الا على الذين يفهمونه ولا يستطيع ذلك غير الادباء المتعلمين واما الموسيقى فيفهمها ويتأثر منها كل ذي نسمة حية حتى الحيوان الى أدنى طبقاته. فالموسيقي ومن في معناه كالمغني والمنشد يشارك الأمة في احساسها بل هو يتلاعب بعواطفها كما يشاء . ويغلب أن يدعو الى انشراح الصدور وزوال الهموم . ومصر من أكثر بلاد الأرض حاجة الى دواعي الافراح لان اقليمها حار يورث الخمول ويضيق الصدر . وبقاعها متشابهة لا جبال فيها تشرح الصدر بمناظرها ولا بحار واسعة يسرح فيها البصر ولا غير ذلك من المناظر الطبيعية. فلا يجد المرءُ فرجاً من ضيقه إلا بالمجالسة والمحادثة وما يلحق بذلك من المسامرة والمنادمة والغناء وضرب الآلات ونحو ذلك من بواعث الطرب وبالانتخاب الطبيعي انطبع المصري على لطف الحديث وأصبح شديد التأثر من ألحان الغناء – فلا غرو والحالة هذه اذا أسف المصريون على عبده الحمولي وهو بلبل أفراحهم بل هو أعظم مغن عربي في العالم اليوم . وما من بلد في وادي النيل لم يسمع أهله غناء (سي عبده) ناهيك بما بلغ من شهرته في أقطار العالم الشرقي . ذلك ما حدا بنا الى نشر ترجمة حاله وجل اعتمادنا في ذلك على ما كتبه صديقه ابراهيم بك المويلحي محرر مصباح الشرق قال :

ترجمة حاله :

ولد بمدينة طنطا وكان أبوه يمارس تجارة البن وكان للمرحوم أخٌ أكبر منه فوقع شقاق بين أخيه وأبيه ففر به أخوه من وجه أبيه هائماً به في الخلوات وكان كلما تعب المرحوم عبده من السير لصغر سنه حمله أخوه على كتفه . حتى دنا الغروب وهمـــا على آخر رمق من الجوع والعطش وتعب السير لا يجدان أحداً يأنسان به او يلجآن اليه . الى أن سخر الله لهما رجلاً آواهمـــا وسد رمقهما في ليلتهما ثم أقاما عنده أياما . ومن غريب الاتفـــاق أن الرجل كان يشتغل بصناعة الغناء ويضرب الآلة المعروفة بالقانون في طنطا فسمع صوت المرحوم في بعض روحاته وغدواته فأعجبه فعاد به الى طنطا واشتغل معه هناك مدة وجيزة . وقد بقي تأثير تلك الوحشة والانفراد مع التعب والجوع في تلك الليلة التي خرج فيها المرحوم من بيت أبيه مرسوماً في رأسه فكنت تراه الى آخر عمره ينقبض صدره ويتقطب وجهه كلما آن الغروب . وطالما قص هذه القصة على خلصائه ممن كانوا يعجبون لانقلابه الفجـائي من السرور الى الانقباض في ذلك الميعاد .

ثم رأى ذلك الرجل الذي آواه عنده واسمه المعلم شعبان أن يحضر به الى مصر فاشتغل معه في قهوة معروفة في ذلك العهد بقهوة عثمان آغـا في غابة أشجار كانت موضع حديقة الأزبكية ، فاتسع به رزقه وخاف أن يخرج من يده ويستميله غيره من أهل هذه الصناعة فيضيع رزقه فرأى أن يربطه به بعقد زواجه من ابنته فاستذله وأسره وانقلب يعامله أسوأ المعاملة . وكان في مصر رجل طائر الصيت في فن الغناء اسمه « المقدم » أعجب بالمرحوم فسعى جهده ليلحقه به ويشتغل معه في « تخته » حتى وصـــل الى غرضه وجذب المرحوم اليه وفصل بينه وبين زوجته قطعاً لعلاقته بصاحبه وأنقذه مما كان

فيه واستمر معه يغني على الطريقة التي كانت معروفة عند المصريين في ذلك العهد.

تاريخ الغناء بمصر :

وأصل طريقة الغناء بمصر على ما يعلم من تاريخ وضعها أن رجلاً من أهالي حلب اسمه شاكر أفندي وفد الى القطر المصري في المائة الأولى بعد الألف وكان فن الالحان فيه مجهولاً . فنقل اليه جملة تواشيح وقدود وكانت هي البقية الباقية من التلاحين التي ورثها أهالي حلب عن أهل الدولة العربية فتلقاها عنه بعضهم وصارت عندهم ذخيرة نفيسة يضنون بها على الغير . واشتد حرصهم عليها وصار الواقفون عليهـــا يحرمون الناس من تلقينها . وبقيت بينهم على بساطتها الاصلية يتصرفون فيهـــا بدون الشد والتصوير . فكانت قاصرة على أمهات المقامات وبعض الفروع المقاربة لها وكانت بالنسبة للغناء مثل حروف الهجاء بالنسبة للكلام .

وأقام المغنون في مصر على هذه الطريقة البسيطة لا يتصرفون فيهـــا الى عصر عبده الحمولي فتلقاها المرحوم منهم على أصلها وغنى بهـــا مدة ثم دفعته سجيته في الطرب وحسن ذوقه في الغناء أن يتصرف فيهـــا مع المحافظة على الأصل وعدم الخروج عن دائرته فأزال عنها بعض الجفوة . وما زال يرتقي المرحوم في شهرته بحسن الغناء حتى ألحقه المغفور له اسماعيل باشا بمعيته ، فسافر معه الى الاستانة مراراً وسمع هناك آلات الموسيقى التركية . وجلب اسماعيل باشا في عودته الى مصر جماعة من أكابر المغنين فيها فكان المرحوم يحضر معهم دائمـــاً في اشتغالهم بالغناء . فاستمالتـــه ألحـــانهم واخذ ينتقي منها ما يلائم المزاج المصري ويناسب الطريقة العربية ورأى المجـــال واسعاً له في الموسيقى التركية إذ وجد فيهـــا كثيراً من النغمات التي لم يكن

للمصريين علم بها ولم تطرق آذانهم من قبل مثل النهاوند والحجاز كار والعجم وغيرها فنقلها الى الغناء المصري . ثم التفت الى بقية مصطلحات الغنـاء في الطبقات المختلفة من ذلك العصر مثل المنشدين المشهورين باولاد الليالي(الفقهاء) والعوالم (القيان) والمداحين (الضاربين بالدفوف) والتقط منهم ما استنسبه فأضافه مع المختار من الغناء التركي وخلطه بالطريقة القديمة فجعلهـا طريقة جديدة خاصة به . وظهر في مصر وفيها شيوخ المغنين فصار شيخاً عليهم . وقد دعاهم جهلهم بما صنعه الى استنكار طريقته في أول الامر ولكن ما لبث الناس أن ذاقوا حلاوتها وطلاوتها فعم استحسانها وذهب استنكارها وانتصر بحسنها عليهم وله فيها من التلاحين أشياء كثيرة .

مزاياه :

ومن مزاياه في صناعته أنه كان شديد الطرب لا يقل طربه في أثناءتأديته للغناء عن طرب السامع له . وهو أول مغن مصري اهتدى الى حسن الاداء واستصحاب حركة الغناء بالاشارات التي تقوم مقام الحكاية . وكان شديـد الحفظ لما يسمعه مجتهداً دائماً في استخراج محاسن المسموع وطرح معايبـه ذا قدرة على ان يبدل القبيح فيه بالحسن . وكان ذهنه شديد التعلق بالنغم فـلا يكاد ينساه وربما نام وهو على « التخت » في أثناء الغناء ثم يستيقظ فيرجع الى الغناء كما كان فيه من غير مراجعة آلة أو استرشاد باحد ممن معه كأنما كانت الطبقة رسخت في ذهنه فلم تشوش عليها الأصوات التي مرت عليه وهو نومه ولم تؤثر عليه الغيبوبة في شيء . وكان لطيف التنقل يوهم السامع في غنائه بأن مراده ما هو فيه حتى إذا رسخ ذلك في ذهنه انتقل الى مقـام آخر يدهش السامع ثم يتدرج حتى يعود الى ما كان عليه وذلك من أعظم المزايا وأكبر الفضل في هذا الفن .

وجملة القول في باب الغناء أن المرحوم جدد فيه وأبدع وأحياه في مصر بعد أن كان شيئاً خاملاً. ثم تمكن فيه من التوفيق بين المزاجين التركي والمصري فبعد أن كان أهل الطبقة الحاكمة في المصريين من الأصل التركي لا يطربون للغناء المصري ولا يلتفتون اليه أصبحوا بفضل المرحوم وبما وفقه فيه من الانغام التركية مقبولاً عندهم مفضلاً لديهم . وبعد ان كان المصريون لا يطربون من الغناء التركي ولا يروقهم غير طريقتهم طريقة التوجع والأنين أصبحوا يطربون لما يلائمهم من الانغام التركية التي أنعش بها طريقتهم القديمة . فهو الجدير بأن يسمى في مصر معدل المزاجين بين الأمتين . وكما امتزج الجنسان في الأجسام بالانساب فقد مزج بينهما عبده بالغناء في الأرواح . وكفاه فخراً أنه لم يصل أحد من قبله ولن يصل من بعده الى مثل ما وصل اليه من هذا الابتداع والاختراع الذي اهتدى اليه بما ميزه الله به من لطف الذوق وشدة الزكاء وحدة الطرب ومحبة الاتقان والترقي في درجات الكمال .

أخلاقه :

وكان كبير النفس عالي الهمة يحاول الارتفاع عن طبقته ويسعى في الخروج منها مقتصراً على الاشتغال بالفن لذاته لجهل الناس في جيلهم الماضي بعلو قدر هذا الفن وغفلتهم عن جلال منزلته بين الفنون . وقد عمد المرحوم الى ذلك بالفعل في أيام المغفور له اسماعيل باشا فترك مزاولة صناعته بالاجرة بين الناس وخرج من زمرة المغنين الى زمرة التجار غير طامع في الذهب الذي كان يسيل من حياله بممارسة صناعته في تلك الاوقات . فافتتح محلاً لتجارة الأقمشة واشترك فيه مع بعض التجار بمبلغ عشرين الف جنيه فما مضى عليها عشرون شهراً الا وانتهت به سلامة نيته وحسن ثقته ان خرج منها أصفر اليد مديناً للشريك دائناً للناس يمنعه الخجل ويحجبه الحياء عن طلب الوفاء . ولم يمتنع

في أثناء ذلك عن الغناء بين الناس بل امتنع عن طلب الاجر عليه . الى ان عادت به حاجة العيش الى مزاولة صناعته كما كان في أول أمره . ولم يزل يتطلع الى غرضه في الانقطاع عنها كما فعل ودهره يحول دونه فلم يستطع بلوغه الى آخر مدته .

وكان شهماً غيوراً شريف السيرة يغار لنفسه ولاعراض الناس لا يبالي في ذلك بهول المواقف وفداحة الخطوب . أمر المغفور له اسماعيل باشا ذات ليلة باحضار المرحومة ألمزلتغني في بعض قصوره وهو في عزة سلطانه وشدة بطشه لا يعصي له الناس أمراً ولا يخالف هواه الا من ارتضى لنفسه سكنى القبور. ولا يحلم أحد في منامه أن يقف موقف المعارض في رغبته أو الممانع لاشارته . فتوقف المرحوم عبده وكان قد تزوج بها بعد أن منعها عن ممارسة الغناء وأبى أن تخرج من بيته . فعاوده الطلب بالتشديد فاستمر على ابائه إلى ان وصل الأمر الى استعمال القوة . فأرسل مأمور الضابطة بعض أعوانه إلى منزله وأرادوا اخراجها منه بالقوة . فوقف أمامهم وقفة الليث يحمي أشبال العرين . وفضل الموت أو النفي على أن تغني المرحومة لحناً واحداً لأحد وهي في عصمته . ولما لم يفده موقفه أمام القوة بفائدة استمهلهم برهة ريثما يعود اليهم . فدخل البيت وألقى بنفسه الى حائط الجار وخرج منها الى الطريق لاجئاً الى صديقه المرحوم الشيخ علي الليثي فكاشفه بما هو فيه من هول الخطب . وكان هذا الشاعر المرحوم ممن جمع الله له أيضاً كثيراً من المزايا الفاضلة والاخلاق الكريمة وأخصها علو الهمة والسعي لخير الناس . وكان ذا مكانة رفيعة عند المرحوم اسماعيل باشا صديق فقام اليه في الحال وتواقع الشيخ عليه يلتمس حسن الوساطة لدى ذلك الحاكم القاهر ليرجع في أمره . فقام الوزير من ساعته وقصد مولاه وتلطف له ما أمكن في الاعتذار

وما زال به حتى رجع عن طلبه ورضي بعصيان عبده لطاعته وخلص المرحوم من هذه الحادثة معافىً في نفسه مصاباً في جسمه . فقد تولد له من اضطراب اعصابه من شدة ما قاساه في هذه النازلة داء الصداع فلم يفارقه طول حياته. وكانت إذا اعترته نوبة ألقته على الأرض صريعاً يتخبط في أشد الآلام لا يكاد من يراه على تلك الحال يصدق بنجاته فيها . فإذا أفاق لزم الفراش من عظم وقعها مدة طويلة . ولم ينجع في ذلك الداء معالجة الاطباء وسافر المرحوم في سنة ١٨٩٦م الى الاستانة العلية وحظي هناك بالمثول في الحضور الشاهاني مراراً وأعجب أمير المؤمنين بمهارته في فنه وحسن تأديته له فأسنى عطيته وبلغه حسن رضائه وكان الواسطة بينهما للتبليغ في ذلك المجلس السيد أبي الهدى . ومما تلقاه عنه من أوامر أمير المؤمنين أن يلقن ما غناه في حضرته من الاصوات لبعض ضباط الموسيقى الشاهانية فلقن المرحوم منه ما أمكنه ولم يسع الوقت تمام القيام بالامر فوعد أنه سيشتغل عند عودته الى مصر بربط تلك الاصوات برابطة « النوطة » ثم يعرضها على الاعتاب الشاهانية ليسهل أخذها على ضباط الموسيقى .

فلما عاد الى مصر أتمها عشرين صوتاً (دوراً) مربوطة (بالنوطة) . وأرسلها من طريق رسمي الى الاستانة فلم يلق فيها ما يحقق آماله .

وفاته :

وعاد الى مصر مصاباً بداء « البول السكري » فأنهك جسمه وأضعف قواه وغادر حلوان الى سكنى مصر وقد تراكمت عليه هموم الحياة فزادت في ضعف الجسم وظهر ذلك الداء الدفين في الرئة ودخل من داء السل في الدرجة التي لا يرجى منها شفاء . وأشار عليه الأطباء بسكنى الصعيد مدة

الشتاء فأقام في سوهاج شهرين ونصفاً عادت له في أثنائها بعض قوته وتقوى أمله في شفائه ولم يدرك المرحوم ما كنه دائه إلا في اليوم الذي مات في غده. ثم عجل العودة الى مصر ليشتغل بوضع غنائه في اسطوانات « الفونوغرافات » طلباً للعيش ولما حضر باشر ذلك فعلاً ثم جاءه نعيُّ أحد أصدقائه المخلصين بالمنيا فاغتم غمّاً شديداً ولم يسمع لنصيحة أصحابه بل خالفهم لقضاء ما توجبه عليه مروءته وسافر الى تلك المدينة وأقام هناك أياماً مشاركاً لأهل الميت في احزانهم ولما عاد عاد باشتداد المرض عليه حتى ادركته منيته . (انتهى بتصرف) .

هذا هو عبده الحمولي وقد رأيت من ترجمة حاله انه كان على استعداد كبير لفن الموسيقى . ومن أكبر الأدلة على استعداده شدة طربه من الغناء كأنه كان يغني ليطرب نفسه. وشغف المرء بصناعته وتلذذه بممارستها يدلان على انطباعه عليها واقتداره على اتقانها . ولكن الحمولي عاش في بلاد لم يكن لعلم الموسيقى أثر فيها واشتغل باطراب الناس عن طلب العلم من مصادره فلم يبد من مواهبه إلا ما تهيأت له الاحوال .

وعندنا ان الرجل لو درس فن الموسيقى على أهله في اوربا وعدل عن الغناء الى التلحين وألف الالحان لكفانا مؤونة التحسر على ضياع هذه الصناعة بيننا وجعل للموسيقى العربية فناً مستقلاً له روابط وضوابط وكانت الالحان الشائعة على ألسنة المغنين مضبوطة في الكتب على قواعد ثابتة .

ولا لوم عليه فانه قد نشأ بين العامة فلما شب شغله اعجاب أكابر المصريين بما عنده من استزادته . ومصر في غفلة عن هذا الفن . فلما افاقت كان هو قد شغل بصحته وداخليته فأسف المصريون على ما فات وارادوا تدارك ما بقي

فالتمسوا حبس صوته في الفونوغراف فلم يمهلهم اجله فضاع ولم يبق من آثار تفننه الا ما اقتبسه بعض المغنين من مجالس غنائه في اثناء حياته . وبلغنا ان بعض اصدقائه تمكن من اخذ بضعاسطوانات فوتوغرافية من صوتهِ قبلموتهِ .

(تمَّ الجزءُ الثاني)

وبهِ تمَّ الكتاب

فهرس الجزء الثاني

من تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر

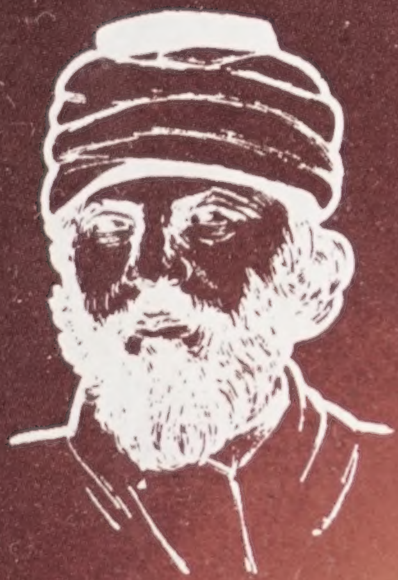
أركان النهضة العلمية

المنشئون وكتاب الجرائد

سائر رجال العلم والأدب

(تمّ الفهرس)

طبع هذا الكتاب على مطابع
دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر
بيروت - لبنان
تليفون ٢٣١٩٣٠ ص. ب ١٣٩٠




جُرجي زيدان

تراجم

مشاهير الشرق

في القرن التاسع عشر

الجزء الثاني




منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان